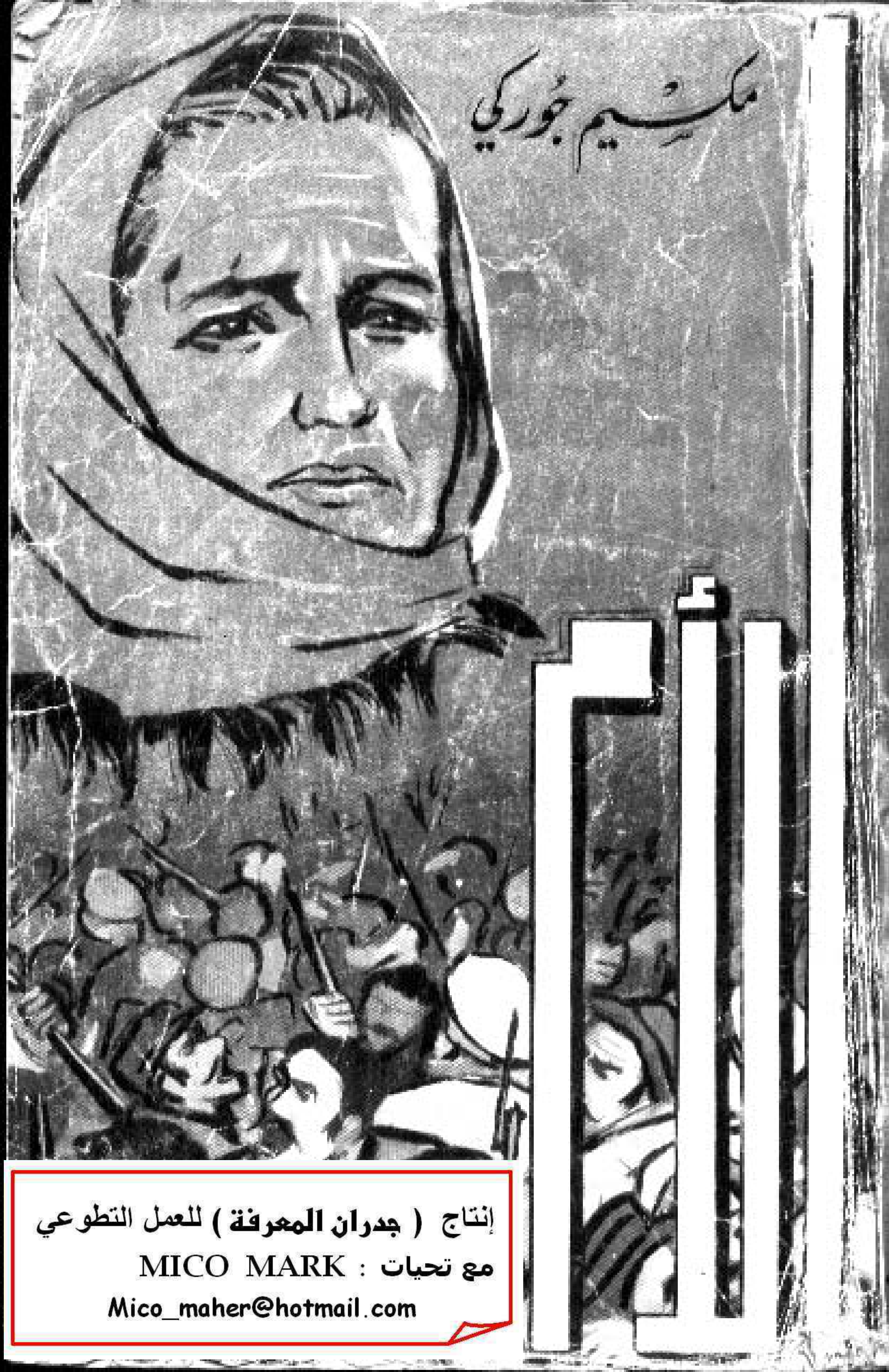

مكسيم جوركي
الأم

مقدمة الترجمة الفرنسية

كانت بواكير انتاج غوركي تعكس روابط القوة الجديدة التي اخذت تتركز مع تطور الرأسمالية السريع في المجتمع الروسي منذ نهاية القرن الأخير ، ومما لا شك فيه ان غوركي لم يكن في البدء اشتراكياً إلا في قلبه ، ولكن قصصه الأولى « تشلكاتش » ، « ايزرغيل العجوز » و « أغنية الصقر » وسواها ، كانت تفيض عزة نفس وإيثاراً وعنفواناً انسانياً ، وبطولة شخصية لمصلحة الجماعة كلها ؛ وكانت ترفعه الى مستوى ثوري ، وبعضها كقصة « المهرج » — ١٨٩٦ — كان يشير الى الأهمية التي كان يعلقها على أولى مظاهر الوعي العمالي .

وإذا كانت قضايا الاشتراكية لم تكن في رواية « توماس غوردييف » — ١٨٩٩ — قد تطورت بعد إلا بشكل تعليمي على يد الصحفي « يجوف » فإن ظهور الوعي الاشتراكي في وسط عمالي هو إحدى القضايا الأساسية التي تعالجها الرواية اللاحقة لها : « الخطوط الثلاثة » — ١٩٠٠ — .

وفي السنة اللاحقة كان «نيل» في مسرحية «البرجوازيون الصغار»—١٩٠٢— نموذجاً للعامل الواعي الذي كان مجرد ظهوره — على قلة هذا الظهور — يسيطر على المأساة كلها . والى هذا العام نفسه ، عام ١٩٠٢ يمكن ان يرد — كما يقول غوركي نفسه — مشروع الرواية التي ستصبح فيما بعد « الأم » .

ففي « نيجني نوفغورد » حيث كان يقيم آنذاك ، كانت صلته بالتنظيمات الاشتراكية المحلية محدودة ، واننا لا ننسى ان حزب العمال الاشتراكي الديموقراطي في روسيا ، ظل شكلياً عندما انشىء في مؤتمر « منسك » وانه لم يؤسس بصورة فعلية إلا بعد المؤتمر الثاني الذي انعقد في « لندرة » في تموز عام

١٩٠٣ . أما في «نيجني» فإن لجنة الحزب كانت قد تأسست منذ صيف ١٩٠١ .

وتثبت ذكريات المعاصرين ان « غوركي »كان يهب الثائرين منحته التعليمية التي يتقاضاها ، ويساعدهم بنصائحه وقلمه، وقد نوهت تقارير الشرطة ببراعته في « جمع الأعمال المشروعة الى العمل السري لدرجة أنه يحول كل نشاط مشروع الى نشاط ثوري » .

وكان توقيفه في آذار ١٩٠١ بسبب مظاهرات الطلبة في «سانت بطرسبورغ» مناسبة لانتفاضات عنيفة قام بها عمال « نيجني » وطلابها .

وبعد ستة أشهر من السجن أذن لغوركي المريض الذي يبصق دماً ان يذهب للاستشفاء في « القرم » التي لم يعد منها الى « نيجني » إلا في تشرين الأول عام ١٩٠٢ ؛ فلم يتح له ، والحالة هذه ، ان يشهد احتفال أول ايار حيث كان صانع الأقفال الفتى « ب . زالوموف » وعضو اللجنة التي ألفت في العـام المنصرم ، يحمل العلم الأحمر ، ويسير في طليعة الموكب .

هذا الفتى الذي اوقف على الأثر ثم حوكم وأدين ، هو الذي سيتقمص بطل « الأم » بول فلاسوف .

وكان غوركي ، دون ان يعرفه شخصياً في ذلك الحين ، أحد الذين يسعون ليخففوا عنه وطأة السجن، كما سيكون أحد الذين يقدمون له المعونات الضرورية لتسهيل فراره من سيبيريا ؛ ولم يقدر له ان يلتقي به إلا بعـد سنوات ثلاث .

وفيما كان «بيير زالوموف» مطارداً ، أوقف غوركي بسبب الدور الذي قام به في كانون الثاني عام ١٩٠٥ واحتجز في حصن « بيير وبول » المظلم ، ثم نقل تحت ضغط الرأي العام العالمي الى « ريغا » حيث فرضت عليه الإقامـة الجبرية ، ولكنه استطاع الهرب الى فنلندا ، وأقام في « كوفوكالا » عند صديقه الرسام « ريبين » ، وظل من هذه المحطة الصغيرة على الحدود التي تكاد تكون الضاحية الكبرى لمدينة «سانت بطرسبورغ» ظل على صلته بالمنظمات الثورية، وعلى الأخص، الحزب الاشتراكي الثوري ، وحزب العمال الاشتراكي الديموقراطي .

ومن فنلندا اجتاز المانيا، ليحل في الولايات المتحدة حيث كان عليه ان يقوم

بجولة دعائية لصالح الحركة الثورية ؛ وان يجمع الأموال لتنشيطها وتشجيعها .

واننا لنجد آثار جهده الدعائي في النداآت الكثيرة التي نشرها في عامي ١٩٠٥ ١٩٠٦ باللغات الالمانيـة والانكليزية والفرنسية ، في الصحف الاشتراكية بأوروبة الغربية ، وفي رسالته الى « اناتول فرانس » التي هاجم فيهـا القروض الروسية وخاصة في رسالته الهجائية «فرنسا الجميلة» التي أثارت في بلادنا نقاشات عنيفة ، وقـد دمغ البورجوازية الأميركيـة في هجائياته : « في اميركه » ، « شارلي ماكس » ، « مقابلاتي » .

وفي الوقت نفسه كان يعد « الأم » (بدأ كتابتها في تموز عام ١٩٠٦ وأنهاها في اوائل كانون الاول) وخلال ذلك انتقل الى ايطاليا ، ولكن قصر هذه المدة لم يحل دون العمل الكثير . ولقد نسخ النص الأصـلي أكثر من خمس مرات ، وكانت التنقيحات التي تدخل عليه هامة . وفي نهاية كانون الاول بدأت الرواية تظهر باللغة الانجليزية في «نيويورك» ثم في المانيا في « Vorwarts » ، ومنذ العام التالي بدأت ترجمة الرواية الى اللغات الرئيسية في العالم ومنها الفرنسية . وقـد اعتمدت في هذه الترجمات المخطوطة التي نقحها غوركي في « كابري » في الاسابيع الاخيرة من عام ١٩٠٦ ، ولم يكن غوركي نفسه لينقطع عن العودة الى تنقيح هذه النسخة ، فقد عاد اليها مرتين في عام ١٩٠٧ ثم في عام ١٩١٣ . وأخـيراً في عام ١٩٢٢ .

وهذا النص الاخير يختلف اختلافاً بيناً عن النصوص الأولى من حيث الانشاء والخصائص، وحتى الأسلوب. وهو النص الذي ننقله لأول مرة الى اللغة الفرنسية.

ان غوركي لم يحذف أو يضف اليه بعض الحوادث فحسب، ولم يعدل البعض المهم منها ، بل انه في جلسة المحكمة جعل دور المحامين ثانوياً ، وأظهر التضاد العنيف بين العالمين : عالم العمال ، وعالم قضاتهم ؛ واسبغ على افـادة بول معنى ثورياً أكثر عمقـاً ، كما حوّر كذلك في الخصائص ، فنزع عن بول الملامح التي يمكن ان تضعفه كبطل بلشفي شاب ، كالبعض من عدم الثقـة بقواه ، والحنو المصطنع نحو والدته ، واتجاهه الى العاطفية ، وميله الى الزهد .

لقد أجهد نفسه ليظهره في نفس الوقت أكثر كمالاً وأكثر طبعية، وجعل حبه الخفي لساندرين اكثر بساطة وانسانية .

وكذلك فإن صورة الأم عُدلت بشكل أكثر عمقاً ، فلقد جدد غوركي من شبابها فهي امرأة في الأربعين ما تزال قوية ، منفتحة ، حساسة ، وخفف من تدينها ، وتحولت شفقتها الشاملة الى حب للمضطهدين، وكره لمضطهديهم ؛ وحل محل ايمانها الساذج بغلبة العدالة ، السخط والازدراء والغيظ .

وبقدر ما اغتنت لغته بالبساطة والحياة ، بقدر ما اخذت تبرز تحرر احكامه.

أما الشخص الذي تبدل تبدلاً جوهرياً فهو على التأكيد « اندريه » : فهذا الثوري العجوز الشديد الرأفة ، الذي كان يبدو كأنه المعلم « لبول » ، انتقل الى الصف الثاني ، فإذا ضعفة السياسي مثلاً أمام فوضوية الفلاحين ، يجعل ما في انسانيته من عاطفية شديدة أمراً ملموساً ، ويوضح قوة التفكير والطبع الثوري الاكيد عند بول .

غير أن هذه التنقيحات بالغة ما بلغت من الأهمية ، لا تغيّر الخاصة الأساسية للكتاب. انها فيما تصفّيه، تعمّقه، انها تنبثق عن الغاية نفسها التي دفعت الى تأليفه.

ان غاية غوركي لم تكن في الواقع، ان يقص ببساطة في عام ١٩٠٦ مقطعاً من النضال الثوري في « نيجني نوفغورد » خلال عام ١٩٠٢ ، بل كانت غايته اثراء ملامح ابطاله بملامح لمجاهدين آخرين، ومع ذلك فإن من أهم خصائص هذه الرواية ان الجانب الضعيف من الابتداع الذي استباحه المؤلف لنفسه كان بعيداً عن كل تزويق ومحصوراً فيما عرفه أو لاحظه من خلال تجربته الثورية الخاصة . الا ان مبدأ سياسياً هو الذي تحكم فيما اختاره غوركي ، فمنذ عام ١٩٠٢ الى عام ١٩٠٦ كانت الحركة العمالية قد نضجت ، وكان لينين قد أسس الحزب وطهره من «الاقتصاديين» وعصبتهم ، أي من الانتهازية، وجعل منه منظمة جديدة بقيادة الثورة الديموقراطية في نضالها ضد الحكم الاستبدادي .

وكانت هذه السنوات الاربع من النضال قد انضجت تحت قيادته طليعة عمالية ثورية من طراز جديد، وهذه الطليعة هي التي اختار غوركي ان يبرزها،

فأدخل في روايته التجربة السياسية لسنوات الثورة . والى هذا الوعي السياسي كان ابطاله مدينين بعظمتهم وحقيقتهم ، حقيقة التاريخ .

من أجل هذا لم يكن بناء الرواية قائماً على عقدة تحل وتعقد أقداراً شخصية ، بل على نمو روابط طبقية تعكس الاقدار الشخصية فيها ما بينها من تناقضات . فالخصائص والغنى الداخلي عند كل من ابطال الرواية ، وقابليته للانفتاح للحياة وللتأثير عليها ، كل ذلك يتوضح في هذا العرض كما يمكن للكتاب ايضاً ان ينتهي بالحكم على بول واندريه ، بتوقيف الأم ، ولكن هذه الهزيمة لا تضعف شيئاً من الثقة بالنصر النهائي ، نصر القيم الانسانية التي يحملونها في اعماقهم .

وكذلك فإن بول وأمه كانا يدركان دائماً بالا حظ لهما بتجنب السجن والنفي ولكنهما كانا يدركان أن مصيرهما شخصياً ، وهو أبعد ما يكون عن اضعاف الحركة الثورية ، يجب ان يكرس لتنشيط هذه الحركة .

ان اثراءهما الشخصي في الكفاح يعادل سمو الوعي عند الجماهير ، هذا الوعي الذي يقود ، بصورة عادية ، وبتصميم لا يقهر ، الى انتصار الثورة .

وبهذا المعنى تكون خاتمة الكتاب ايجابية متفائلة ، لأنها تظهر الواقعية في ذكريات غوركي الثورية، ويكون التاريخ هو نفسه الذي تكفل باظهار الحقيقة.

وما كان يتهيأ لغوركي ان يعطي روايته الصورة الصحيحة إلا لأنه هو نفسه كان يعتبر كتابه الذي خُط في لهب المعركة ، عملا ثورياً ، وقد امتدحه لينين فقال : «انه يربط بصميمية صنيعه الادبي بالحركة العمالية في روسيا وفي العالم أجمع».

وفي الظروف القاسية ، ظروف القمع التي أعقبت هزيمة عام ١٩٠٥ ، عندما كان « المنشفيك » يتراجعون برعب ، ارد غوركي ان يذكي شجاعة المناضلين الثوريين بأن يوضح لهم محتوى معركتهم ومتطلعاتها . انه أراد كتاباً يعبيء ، ومن أجل ذلك كتب الأم بسرعة .

لقد قال له لينين :

« لقد أحسنت اذ أسرعت ، فإن كتابك لمفيد ، لأن كثيراً من العمال

اسهموا في الحركة الثورية دونما وعي حقيقي، انهم اسهموا فيها غريزياً ، اما الآن فانهم سيقرأون « الأم » وسيجنون منها الكثير » .

ثم اضاف : « هذا كتاب تلح اليه الحاجة آنياً »

... اجل ... انه كتاب آني ... ومن هنا كان خلوده .

القسم الاول

— ١ —

في كل يوم ، في دخان زيت الضاحية العمالية ورائحته ، كانت صافرة المعمل تزأر وترتعش .

وكالصراصير المروّعة ، يخرج على عجل ، ومن منازل صغيرة رمادية ، رجال كئيبو الوجوه ، ما يزالون هلكى العضلات ؛ وفي الظهيرة الباردة ، ينطلقون ، ينطلقون في الشوارع غير المبلطة ، نحو القفص الحجري الشاهق الذي ينتظرهم بهدوءٍ ولا مبالاة ، بعيونه المربعة اللزجة التي لا عداد لها ولا حصر .

تحت أقدامهم يفرقع الوحل ، وهتافات مبحوحة ، هي هتافات الأصوات النعسى كانت تسعى لاستقبالهم ، وسبابٌ بذيءٌ كان يمزق الهواء ، ثم تأتي اصوات اخرى الآن ، هي ضجيج الآلات الأخرس ، وبغام البخار .

وعلى الضاحية تشرف المداخن العالية السوداء ، عبوسة قاتمة ، كالأعمدة الجبارة .

وفي المساء ، عندما تغرب الشمس ، وتلمع أشعتها الحمراء على زجاج النوافذ ، نوافذ البيوت ، يقيء المعمل من أحشائه الحجرية ، حثالاته البشرية ، وينتشر من جديد في الشوارع ، العمال الملطخو الوجوه بسواد الدخان ، العمال ذوو الاسنان اللامعة ، اسنان الجياع ، ينتشرون ليثقلوا الهواء بالعبق الرطب ، عبق زيوت الآلات .

إن أصواتهم تنطلق الآن نشيطة ، بل فرحة ، فلقد انتهت سخرة اليوم ، وفي المنازل ينتظرهم العشاء والراحة .

لقد ابتلع المعمل النهار ، وامتصت الآلاتُ من عضلات الرجال ما تحتاج

من قوى ، وامّحى هذا النهار دون أن يترك وراءه آثاراً ، وخطا المرء نحو قبره خطوة... ولكن عذوبة الراحة بدت له قريبة المنال ، وكذلك لذة المقهى العابق بالدخان ... وإنه لسعيدٌ من أجل ذلك !

وفي أيام الأعيـاد ينام الناس حتى العاشرة ، ثم يرتدي المترصنون منهم والمتزوجون أبهى ملابسهم ، ويذهبون الى الصلاة ، وهم ينعون على الشباب استهتاره بالأمور الدينية ، وعندما يعودون من الكنيسة ، يأكلون ثم يستسلمون الى الرقاد حتى المساء .

ولما كان الانهاك المتكدس خلال السنين يفسد الشهية ، فإن الكثيرين منهم يلجأون الى الشرب ، ليثيروا نشاط معدهم بالاحتراقات الكحولية الحادة .

وفي المساء يتنزهون في الشوارع بكسل ، يلبس الذين يملكون جزمات جزماتهم ، حتى ولو كان الطقس صاحياً ، ويحمل الذين يملكون مظلات مظلاتهم ، حتى ولو كانت الشمس مُشرقة .

وعندما يتلاقون يتحدثون عن المعمل ، عن الآلات ، ويكيلون الشتائم لرؤسائهم . إن أحاديثهم وأفكارهم لا تتعدى الأشياء المتعلقة بالعمل ، وقليلا ما تند خاطرة مسكينة سيئة الاداء ، فتلقي التماعةً فريدة في رتابة أيامهم الدكناء .

وعند العودة ، يتجادلون مع نسائهم ، ويضربونهن غالباً دون ان يزعجوا قبضاتهم .

أما الفتيان فإنهم يمكثون في المقهى ، أو ينظّمون سهرات قصيرة متناوبة ، يعزفون خلالها على الأكورديون ، ويغنون الأغاني الماجنة ، ويرقصون ، وينثرون النكات ويشربون .

... ويثورون بسهولة لأنهم منهكون بالعمل ، فالشراب يثير فيهم حنقاً لا سبب له ، حنقاً مَرَضياً ينشد المبرر ، ولكي ينفسوا عن كربهم ، يشتبكون تحت ستار مبرر تافه ، يشتبكون بضراوة وحشية ، فإذا هي معارك دامية ، يخرج البعضَ منها مشوهاً ، وقد تنجلي بعض الاحيان عن ضحايا .

أما علاقاتهم فإن شعور الحقد ، حقد الكائدين هو الذي يسودها في الغالب ،

وهو حقد أكثر عراقة من نصب عضلاتهم .

لقد ولدوا وهم يحملون هذا الداء النفسي الذي ورثوه عن آبائهم ، والذي يلازمهم كالشبح الاسود، حتى القبر ، ويحملهم على اقتراف اعمال بغيضة هي ابنة الفظاظة التافهة .

وفي أيام الأعياد يعود الشبان ، في ساعات متأخرة من الليل ، يعودون وثيابهم ممزقة ، ملطخة بالوحل والغبار ، ووجوههم مثخنة بالجراح ، يتباهون بلؤم بما سددوا الى رفاقهم من ضربات ، أو يهتاجون ويبكون للاهانات التي لحقت بهم ، حتى اذا وصلوا الى منازلهم ، وصلوها ثمالى تعساء ، بشكل يثير الشفقة ، والقرف .

وأحياناً يقود الأهل فتاهم الى البيت ، اذ يعثرون عليه منطرحاً من السكر عند قدم سياج أو في حانة ، فيمطرون الجسد الساكن بشتائمهم وضرباتهم ، ثم يلقونه في سريره ، كيفما اتفق ، ليوقظوه في ساعة مبكرة من الغد ، وليرسلوه الى العمل ، عندما ترسل الصافرة ، كالسيل المظلم ، هديرها الحانق .

واذا كانت الاهانات والضربات تنهمر قاسية على الفتيان ، فإن سكرهم وهذيانهم يبدوان ، في نظر الشيوخ ، شيئاً مباحاً مغتفراً ، فلقد كانوا ،في شبابهم يثملون مثلهم ويُضربون ... وكان ذووهم ايضاً يضربونهم .

انها الحياة ، كالماء العكر تنساب رتيبة بطيئة ، سنة بعد سنة ، وكل يوم يمر وهو يحمل نفس العادات القديمة اللازبة ، في التفكير والعمل ، وما من أحد يستشعر رغبة للتغيير فيها .

وقد يظهر في الضاحية أحياناً ، غرباء لا يدري أحد من أين أقبلوا ، فيسترعون الانتباه ، أول الامر ، لأنهم ، بكل بساطة مجهولون ، ويثيرون قليلاً من الفضول بعد ذلك ، بحديثهم عن الأماكن التي عملوا بها من قبل ، ثم يتلاشى جاذب الجديد، ويتعودهم الناس، فيدخلون في النسيان ، وتظل أحاديثهم تحمل حقيقة واحدة هي أن حياة العامل هي هي في كل مكان...فلِمَ التحدث عنها إذن ؟

غير انه قد يوجد بعض الاحيان ،من ينقل الى الضاحية اشياء جديدة بالنسبة لها ، وهؤلاء لا يناقشهم أحد فيما ينقلون ، بل يُصغى ، دونما تصديق الى أقوالهم الغريبة التي تثير عند البعض سخطاً اخرس ، وعند البعض الآخر كآبة . ويشعر فريق ثالث بأن هناك املاً غامضاً يقلقهم ، فينصرفون الى الاسراف في الشراب ، ليطردوا هذا الشعور المزعج الذي لا جدوى فيه .

وكان سكان الضاحية اذا ما لاحظوا على دخيل سمة غريبة ، اخذوه طويلاً بالقسوة ، وعاملوه بازدراء غريزي كأنهم انما يخشون ان يحمل الى وجودهم ما يفسد عليه رتابته المتجهمة الأليمة ، الهادئة رغم ذلك .

وكانوا ، وقد تعودوا ان تسحقهم قوة ثابتة لا تتغير ، لا يتوقعون اي تحسن في حياتهم ، بل يعتقدون ان كل تغير قد يطرأ على هذه الحياة ، لن يكون الا وسيلة تجعل نيرهم اشد وطأة .

وكان اولئك الذين يتحدثون عن اشياء جديدة ، يرون ان سكان الضاحية يتجنبونهم بصمت ، فيتوارون ، ويعودون الى التشرد ، واذا ما لبسوا في المعمل ، فإنهم يعيشون في عزلة لا يستطيعون معها أن ينصهروا في كتلة العمال الموحدة .

لقد عاش الرجل في هذا الجو خمسين عاماً ثم قضى نحبه .

— ٢ —

هكذا كانت حياة صانع الأقفال ميشال فلاسوف ، الرجل القاتم الكث الشعر ذي البسمة الشريرة ، والعينين الحذرتين القابعتين تحت حاجبيه الكثيفين .

لقد كان أفضل صانع للأقفال في المعمل ، وجبار الضاحية . وكان ربحه نزراً لأنه كان فظاً مع رؤسائه ، وفي كل أحدٍ كانت له ضحية . وكان الناس جميعاً يكرهونه ويخشونه ، وقد حاول البعض البطش به ، ولكن هذه المحاولات لم تنجح، فكلما كان فلاسوف يشعر بأنه هدف هجوم ما،يلتقط حجراً أو خشبة ، أو قطعة حديد ، وينتصب على قائمتيه ، ينتظر عدوه بصمت .

وكان وجهه المكسو بلحية سوداء من عينيه حتى عنقه ، ويداه اللتان يغطيهما

الشعر ، مثار رعب شامل ، وكان الناس يرهبون ، بصورة خاصة عينيه الصغيرتين النفاذتين اللتين تخترقان الناس كمثقب من فولاذ ، فيستشعر من تقع عليه نظراته ، انه امام قوة وحشية ، لا يقهرها الخوف ، قوة على أهبة البطش دونما رحمة .

– تنحي ايتها الجيف .

هكذا كان يقول بلهجة صماء . ومن خلال صوف وجهه الكثيف تلمع أسنانه الصفراء ، فإذا بخصومه يتراجعون ، جبناء ، وهم يمطرونه وابلا من السباب .

ويصيح بهم ثانية :

– أيتها الجيف .

... وتبرق نظراته شريرة حادة كالمخرز ، ثم يشمخ برأسه في تحدٍ ، ويتبعهم ويستفزهم :

– حسناً . من منكم يود ان تثكله امه ؟

ولكن احداً لم يكن يود ذلك .

لقد كان نزر الكلام ، وكان تعبيره المفضل : « ايتها الجيفة » ينعت بها مدراء المعمل والبوليس ، ويستعملها حين يخاطب زوجته :

– ألا ترين ايتها الجيفة ان سراويلي ممزقة ؟

... وعندما بلغ ابنه « بول » الرابعة عشرة ، راق لفلاسوف ان يمسكه من شعره ، ولكن « بول » أمسك بمطرقة ثقيلة وقال بإيجاز :

– لا تلمسني .

وتساءل فلاسوف :

– لماذا ؟

وتقدم نحو الفتى الرشيق الاهيف ، كالظل الكبير حينما يغمر غصناً طرياً ، ولكن بول هز المطرقة وقال :

– هذا يكفي . لن ادعك تمسني .

ورنا إليه الأب ، ووضع يديه المكسوتين بالشعر وراء ظهره ، وقال ساخراً :

– حسناً .

ثم أضاف وهو يتأوه بعمق :

– يا للجيفة النتنة .

وبعد قليل قال لزوجته :

– لا تطلبي مني دراهم بعد الآن . ان بول سيعيلك .

وتشجعت زوجته فسألته :

– ولكنك ستهدر مالك كله على الشراب !

– هذا أمر لا يعنيك ايتها الجيفة ، سأتخذ لنفسي خليلة صالحة .

ولم يتخذ خليلة ، ولكنه منذ ذلك الحين حتى مماته ، اي طوال عامين تقريباً ، لم يلق نظرة على ابنه ، ولم يوجه إليه كلمة .

وكان يملك كلباً ضخم الجثة ، كثيف الشعر مثله . وكان هذا الحيوان يرافقه كل يوم الى المعمل ، وينتظره ، في المساء ، عند بابه .

وفي الآحاد ، كان فلاسوف يجوب المقاهي . يسير صامتاً دون ان ينبس بكلمة ، ونظراته تجرّح المارة كأنه إنما يفتش عن أحد ما . وكان كلبه يتبعه طوال النهار يجرجر ذيله المتلبد الضخم .

وعندما كان فلاسوف يعود الى المنزل ثملا ، يجلس الى المائدة ويقدم لكلبه الطعام في طبقه ، وكان لا يضربه أبداً ولا يركله ، ولكنه كان أيضاً لا يدلله .

وكان إذا ما تهاونت زوجته برفع المائدة في الوقت المناسب ، يقذف الاطباق الى الارض ، ويضع أمامه زجاجة من الكحول ، ويسند ظهره الى الجدار ، ثم يعوي بصوت كريه أصم ، يعوي بأغنية ما ، وفمه واسع مفتوح وعيناه مغمضتان .

... وتعلق كلمات الأغنية الرعاعية الكئيبة بشاربيه اللذين يتساقط منهما فتات الخبز ، وتنطلق اصابعه الغليظة تمشط لحيته .

ويغني ، فتنطلق الكلمات متصاحبة مستعصية على الفهم ، ويذكّر النغم بالعواء ، عواء الذئاب في الشتاء .

ويستمر في الغناء ما احتوت زجاجته شراباً ، ثم يهوي الى جانب المقعد ، أو

يلقي برأسه الى الطاولة ، وينام على هذا الوضع ، وينـــام معه كلبه .. الى ان يتعالى نداء الصافرة .

... وأودى به فتق بعد ان لبث مسوّد الأسارير ، طوال ايام خمسة ، وكان يتقلب على سريره ، مطبق الاجفان ، ويصر بأسنانه ، ويقول لزوجته أحياناً :

— اعطني سماً ... سم الجراذين .

ووصف له الطبيب الكمادات ولكنه ، بالاضافة الى ذلك ، أعلن ان العمليه الجراحية ضرورية ، وأن المريض يجب ان يُنقل ، في النهار نفسه ، الى المستشفى .

وصرف فلاسوف بأسنانه :

... — يا للشيطان . سأموت لوحدي أيتها الجيفة .

وعندما انصرف الطبيب ، ارادت زرجته الباكية ان تقنعه باجراء العملية ، ولكنه قال لها ، وهو يهددها بقبضته :

— سأريك إذا ما شفيت .

... ومات في أحد الأصابيح عندما كانت الصافرة تطلق نداءها الى العمل.

وعندما كان مسجى في تابوته ، كان فمه مفتوحاً غير ان حاجبيه كانا مقطبين مستثارين . وشيعته امرأته وابنه وكلبه ، ودانيلو فيسو فشيكـــوف ، اللص السكير الذي طُرد من المعمل ، وبعض البؤساء في الضاحية .

ولم تبكه زوجته كثيراً ، ولم يسفح عليه بول دمعة واحدة . أما اولئـــك الذين كانوا يمرون بالموكب ، من سكان الضاحيـــة ، فكانوا يتوقفون ويرسمون علامة الصليب ويقولون لجيرانهم :

— يجب ان تكون بيلاجي مسرورة بلا شك ... لأنه مات !

ويرتفع صوت آخر مصححاً :

— انه لم يمت ولكنه انفلق .

... وبعد ان انزل النعش في حفرته ، انكفأ الناس ، ولكن الكلب ظـل هناك منطرحاً على الثرى الرطب ، يشم طويـلاً ، تراب القبر ، دون ان ينبح .

وبعد ايام قليلة ، صُرع الكلب ولا يدري أحد من الذي صرعه .

— ٣ —

وفي يوم أحد ، وبعد وفاة أبيه بخمسة عشر يوماً عاد بول فلاسوف الى المنزل ثملاً ، وولج اول حجرة وهو يترنح ، ثم صاح وهو يضرب الطاولة بقبضتــه ، كما كان يفعل والده :— الى العشاء .

واقتربت امه فجلست الى جانبه ، واحتضنته ثم جذبت رأسه الى صدرها ، ولكنه ؛ وقد كان يسند يده الى كتفها ، دفعها وصرخ :

— ابتعدي يا اماه ، ابتعدي خبباً .

وخاطبته بصوت حزين ملاطف ، منتصرة على مقاومته :

— أيها الحيوان الصغير .

وغمغم بول ، ولسانه العصي يدور بصعوبة :

— اريد ان ادخن ، اعطني غليون أبي .

لقد كانت هذه هي المرة الأولى التي يثمل فيها ، وكانت الكحول قد انهكت جسمه ، ولكنها لم تكن قد أخمدت ضميره ، وكان هناك سؤال يضج في رأسه :

— هل انا ثمل ؟ هل انا ثمل ؟

... وأربكته ملاطفات امه ، ومسّه الحزن المطل من عينيها ، فشعر برغبة في البكاء ، ولكنـه تظاهر ، لكي يقهر هذه الرغبـــة ، بأنه ثمل اكثر مما هو في الواقـع .

وظلت هي تداعب شعره المشعث ، المبلل بالعرق ، وتخاطبه برقـــة :

— ما كان يجب ان ...

... وأخذته نوبـــة تقيؤ ، فحملته الى سريره ، بعـد سلسلة من التقيؤات العنيفة ، وغطت جبينه الباهت بمنديل مبلل ، فاستعاد نشاطـه بعض الشيء ، ولكن كل شيء كان يدور حوله ، وفي محجريه ثقل ، وفي فمـه مرارة وتقزز ؛ وكان يرنو من خلال أجفانه الى وجه امه الواسع ، ويفكر بلا انقطاع :

— أني ما أزال صغيراً على الشرب .. إن الآخرين يشربون فلا يحـدث ذلك

اي ازعاج لهم .. أما أنا فالشرب يسبب لي التقيؤ .

وتناهى إليه صوت أمه العذب البعيد :

— كيف ستتمكن من إعالتي ، إذا ما بدأت تدمن الشراب ؟

فأغمض عينيه وأجاب :

— إن الجميع يشربون .

... وتأوهت بيلاجي ، فهو على حق ، وهي تعلم ان الرجال لا يجدون مكاناً آخر سوى الحانة ، ينشدون فيه المتعة ، ومع ذلك فقد أجابته :

— أما أنت فيجب الا تشرب ؛ لقد شرب ابوك كثيراً بالنيابة عنك ؛ وعذبني كثيراً ، وباستطاعتك أنت ان ترفق بأمك .

وأصغى بول الى هذه الكلمات الحزينة الوادعة ، وذكر كيف عاشت امه في الصمت ، والنسيان ، يعذبها الانتظار الممزق ، انتظار الصفعات . لقد كان في الفترة الاخيرة لا يمكث في المنزل إلا قليلاً تجنباً للقاء أبيه ، فكاد لذلك ان ينسى امه ، والآن وقد أخذ يستعيد وعيه شيئاً فشيئاً ، ها هو يحدق بها بإمعان .

إنها كبيرة ، مقوسة القامة قليلاً ، وجسمها الذي أنهكه الجهد الطويل المتواصل ومعاملة أبيه السيئة ، يتحرك دونما ضجة ، يتحرك بانحراف ، كأنها حين تخطو ، تخشى الاصطدام بشيء ما . وفي وجهها البيضوي الواسع المنتفخ الذي حفرته التجاعيد تشع عينان قلقتان ، حزينتان ، تلفهما الكآبة ، كعيون معظم النسوة في الضاحية . وفوق حاجبها الأيمن يلوح ندب عميق الغور ، ويخيل للرائي ان أذنها اليمنى ، أعلى قليلاً من الأخرى ، فهي تبدو ابداً كأنها تنشر في الفضاء اذناً كئيبة ؛ وفي شعرها الاسود الكثيف تلوح خصل بيضاء تتميز بلونها عن الأخريات .

لقد كانت كلها تسيل رقة وحزناً واستسلاماً ، وكانت عبراتها تسيل على خديها ببطء .

وقال لها بول بهدوء :

— لا تبكي ، واعطني ماء لأشرب .

— سآتيك ببعض الماء المثلج .

وعندما عادت إليه بالماء وجدته قد غفا ، فلبثت جامدة امامه لحظة ، وفي يدها يرتجف الأبريق ، ويقرقع الجليد على حفافه .

ووضعت الابريق على الطاولة ، وركعت بصمت أمام صور القديسين !

... وهزت زجاج النوافذ صرخات سكرى ؛ وفي الظلمات ، وضباب الليلة الخريفية تعالى نباح اكورديون . وكان احد المارة يغني بصوت مرتفع جداً ، وآخر يجدف بكلمات بذيئة ، وكانت تسمع ايضاً اصوات نسوة مستثارة ، نسوة كئيبة منهمكة . وكانت الحياة في منزل آل فلاسوف الصغير تتابع سيرها اكثر هدوءاً وسلاماً من ذي قبل ، ومختلفة بعض الشيء عما هي عليه في المنازل الاخرى . وكان منزلهم هذا يقوم في طرف الشارع الكبير ، قريباً من منحنى قصير وعر يؤدي الى مستنقع ، وكان ثلث المنزل عبارة عن مطبخ وغرفة صغيرة تنام فيها الام ، ويفصلها عن المطبخ حاجز رقيق ؛ أما الباقي فيؤلف غرفة مربعة ذات نافذتين ، يقوم في زاوية من زواياها سرير بول ، وفي زاوية اخرى مائدة ومقعدان . ولم يكن في البيت من اثاث سوى بعض الكراسي ، وخزانة فوقها مرآة صغيرة ، وصندوق للثياب ، وساعة جدار ، وايقونتان في احدى الزوايا .

وقد فعل بول كل ما يوافق مزاج شاب ناشىء ، فاشترى «اكورديون» وقميصاً منشّى الصدر ، ورباط عنق براقاً ، وجزمة وعصاً ، فساوى بذلك أترابه ؛ وكان يسمر ويرقص بعض الرقصات التي تعلمها ، ويعود في الآحاد ، بعد ان يكون قد شرب لفاً معروفاً ، وكانت «الفودكا» ذات تأثير سيء قوي عليه ، فإذا شرب شكا في اليوم الثاني صداعاً وحرقة في المعدة ، وشحوباً في الملامح وخموداً .

وسألته امه يوماً :

— قل لي ، هل لهوت جيداً مساء الأمس ؟

فأجابها بحنق قاتم :

— لقد تناولت بعض الكافيار الملعون ، وسأذهب غداً لصيد السمك فذلك أجمل ، أو فإني سأشتري بندقية .

وكان يشتغل باندفاع ، دون تغيب عن العمل أو عقوبة ، وكان كثير

الصمت ، تعبر عيناه الزرقاوان الواسعتان كعيني امه ، عن عدم رضاه .

... ولم يشتر بندقية ، ولم يذهب الى صيد السمك ، ولكنه كان يصدف رويداً رويداً عن الحياة المشتركة التي يحياها الفتيان ، فلا يشهد السهرات الا نادراً وانّى كان يذهب ، في الآحاد ، فإنه كان يعود دون ان يكون قد تناول شيئاً من الشراب ابداً .

وكانت امه التي تراقبه بعين يقظة ، كانت تلاحظ ان وجهه الاسمر المسفوح يهزل ، وأن نظرته تغدو اكثر صرامة ، وشفتيه تحملان تغضّن قسوة غريبة .

وكان يبدو كمن ملأه غيظ أخرس ، أو كمن تلبّسه داء وبيل .

لقد كان رفاقه من قبل يأتون إليه ، أما الآن فقد انقطعوا عن زيارته ، لأنهم لايجدونه ابداً في البيت ؛ وكانت امه تلحظ بكثير من الغبطة انه لا يقلد أترابه في المعمل ، ولكن احساساً بخطر مجهول كان يجتاح قلبها ؛ عندما كانت تلمس عناده وتهربه من الانتظام في تيار الحياة العامة .

وكانت تسأله أحياناً :

— إنك لست على مايرام ياصغيري بول .

فيجيب : بلى ... اني على ما يُرام .

وتتأوه : كم انت نحيل .

وبدأ يحمل كتباً ويقرأها في الخفاء ثم يخبئها في مكان ما، وكان أحياناً ينسخ فصلاً بكامله على ورقة ، ثم يخبئها هي أيضاً .

وكانا قليلا ما يتحدثان ، أو يتقابلان ، كان يشرب شايه في الصباح دون ان ينبس بكلمة ، ثم ينطلق الى عمله . وعند الظهيرة يعود ، لتناول الغداء ، فيتبادلان على المائدة بعض الكلمات المجردة من المعنى ، ويتوارى هو من جديد حتى المساء .

وإذا ما تصرّم النهار استحم بعناية ، وتناول عشاءه ثم انصرف الى كتبه طويلا ، فإذا أقبل الأحد ، انطلق منذ الصباح ، كيلا يعود إلا في ساعة متأخرة

من الليل .

وكانت بيلاجي تعرف انه يذهب الى المدينة ، ويتردد على المسرح ولكن احداً لم يعد من المدينة ليخبرها انه رآه . وكان يخيل اليها ان ابنها يغدو على مر الايام اقل ثرثرة ، ولكنها كانت تلاحظ ، في الوقت نفسه، انه كان يستعمل بين الفينة والفينة ، ما لا تدري من الفاظ جديدة لا تفهمها، في حين ان التعابير الفجة القاسية التي تعودتها منه ، قد اخذت تختفي من لغته .

وظهرت في سلوكه تفاصيل كثيرة استرعت انتباهها ، فلقد أقلع عن التصنع وصار يظهر عناية اشد بنظافة جسمه وثيابه ، واصبحت مشيته اشد اطمئناناً وتحرراً ، ومظهره اكثر بساطة ورقة ، وهذا ما كان يقلق أمه .

وكان هناك ايضاً شيء جديد في سلوكه نحوها ، فلقد كان يكنس احياناً حجرته ، ويرتب سريره ، ايام الآحاد ، ويجتهد ، على وجه العموم، في ان يخفف من عبء مشاغلها ، ولم يكن في الضاحية كلها من يتصرف مثل هذا التصرف .

... وفي احد الأيام حمل بول معه لوحة تمثل ثلاثة اشخاص يسيرون بخفة وجذل ، ويتحدثون ، وثبّت هذه اللوحة في الجدار وعلق عليها قائلاً :

— هذا هو المسيح الذي بُعث حياً في طريقه الى عمواس .

وأعجبت اللوحة بيلاجي ، ولكنها اعترضت :

— إنك تبارك المسيح ، ولكنك لا تذهب الى الكنيسة .

... وكان عدد الكتب يتكاثر باطّراد ، فوق الرف الذي صنعه رفيق له نجار ، وكذلك كانت حجرته تأخذ شكلاً لطيفاً محبباً ،وكان يخاطب بيلاجي بتعظيم ويسميها « الأم » ، ولكنه كان في بعض الأحيان يفاجئها متردداً :

— لاتقلقي يا أماه ... فسأعود متأخراً .

... ومن خلال هذه الكلمات كانت تستشعر انه ينطوي على شيء قوي جاد يثلج صدرها ، ولكن قلقها كان ينمو ، وكان الوقت الذي يمر لا يفلح في تهدئة هذا القلق لأن الأحساس بأمر غريب مجهول كان يسحق فؤادها .

وكان عدم الرضا من ابنها يداخلها احياناً فتفكر :

« إن الآخرين يعيشون كرجال ، اما هو فيحيا كراهب . انــــه مسرف في الجدية والاتزان وهذا ما لا يتلاءم وسنه » .

وكانت تتساءل : اتراه عاشقاً ؟

ولكن الاهتمام بفتاة ما ، يستلزم توفر النقود ، اما هو ، فإنه كان يلقي اليها كل اجره تقريباً .

... وانسلخت على هذا المنوال اسابيع وشهور ، بل سنتان من حياة غريبة صامتة تعج بالخواطر ومشاعر الخوف القلق ... وهي خواطر ومشاعــر كانت تنمو بلا انقطاع .

— ٤ —

وفي احدى الأمسيات انتحى بول بعد العشاء زاوية ، بعــد ان اسدل ستائر النوافذ ، وشرع يقرأ ؛ والقنديل البترولي معلق في الجـــدار فوق رأسه .

وخرجت امه من المطبخ بعد ان رتبت الأواني ، واقتربت منــــه مترددة الخطى ، فرفع رأسه ، ونظر اليها نظرة متسائلة .

وقالت هي : لا شيء يا بول ... هذه انا ... ثم نأت عنه بانفعال . ونمّ عن ارتباكها ارتفاع حاجبيها ؛ ومكثت في المطبخ زمناً ، وهي جامدة ساهمـــة متشككة تتشاغل طويلاً بغسل يديها ، ولكنها ارتدت اخيراً نحو ابنها لتقول له بهمس :

— اريد إن أسألك ... ماهذا الذي تقرأه باستمرار ؟

... وألقى بول الكتاب :

— اجلسي يا اماه .

... وجلست الى جانبه بتثاقل ، وتحفزت كأنها تستعد لسماع أمر فظيــع ، ودون ان يرفع اليها بصره ، أخذ بول يتحدث بصوت منخفض ، وقـــد اتسم حديثه بطابع من خشونة .

— اني اقرأ كتباً ممنوعة . انهم يحرّمون قراءتها لأنها تنطق بالحقيقة عن حياتنا كعمال ، وهذه الكتب تُطبع في الخفاء وإذا عثروا عليها في حوزتنا ، فإنهـــم يزجونني في السجن ، أجل في السجن ، لأني اريد ان اعرف الحقيقـــة !

« افهمت الآن ؟ »

... وشعرت بضيق في التنفس ، وجمّدت على ابنها عينين شاردتين :

لقد بدا لعينيها غريباً متغيراً ، وزُين لها ان صوته قد تغيّر ، فهو اكثـــر خفوتاً ، اكثر امتلاءً ، اكثر رنيناً . وكانت أصابعه النحيلة تمسد شاربيه الناعمين ونظرته الغريبة تنطلق من تحت حاجبيه لتضيع في المبهـــم .

وداخلها شعور هو مزيج من الخوف والشفقة على ابنها ، وسألته :

— ولم تفعل ذلك يا بول ؟

فرفع رأسه ، وقذفها بنظرة قاسية وأجاب دون ان يرفع من صوتـــه ، أجاب بهدوء : اريد ان اعرف الحقيقة .

... وكان صوته خفيضاً ولكنه حازم ، وكانت عيناه تلتمعان عنيدتين ...

ولكنها كانت تعني ان ابنها قد وهب نفسه ، الى الابد ، لأمر غامض رهيب !

لقد كان كل شيء في الحياة بالنسبة لها ، حتمياً لا يمكن تجنبه ، ولقد تعودت ان تستسلم دونما تفكير ، لذلك ، راحت تبكي ، وقلبها فريسة الحزن والغم ، تبكي بهدوء دون ان تجد الكلمات للتعبير .

... وقال لها بول بصوت حنون :

— لا تبكي يا اماه .

فخيل إليها كأنه إنما يسمعها كلمات الوداع .

— تأملي ... أية حياة هي حياتنا . لقد بلغت الأربعين من عمرك ، ومع ذلك هل عشت حقاً ؟ لقد كان أبي يضربك ، وأنا أدرك الآن أنه كان يثأر ، على حساب اضلاعك ، من شقائه ، شقاء حياته التي خنقته ، دون ان يدري من اين جاءه هذا الشقاء ! لقد ناضل ثلاثين عاماً ، وبدأ نضاله عندما كان المعمل لا يزال مؤلفاً من

بناءين .. أما الآن فهو مؤلف من سبعة !

وكانت تصغي اليه برعب ونهم ، وكانت عيناه تبرقان جميلتين صافيتين ، وكان يقترب من امه ، وهو يسند ظهره الى الطاولة ، حتى كاد يلامس وجهها الغارق بالدمع . ولأول مرة ، كان يبوح بما وعى، ويتحدث بكل إيمان الشباب، وحرارة التلميذ الفخور بمعرفته للحقيقة ؛ هذه المعرفة التي يؤمن بها كدين كان يتحدث عما يعتقده جلياً واضحاً ، ولم تكن غايته ان يتحدث الى امه فحسب ، بل ان يبرهن أيضاً عن إيمانه .

.. وكان يتوقف بين الفينة والفينة ، إذ تعوزه الكلمات فيرنو الى الوجه الكئيب الذي تلمع فيه عينان طيبتان غاصتان بالدمع، ملفعتان بالرعب والقلق، يرنو إليه فيشفق عليها ، على امه ، ويمضي ليتحدث عنها هذه المرة، عن حياتها :

— أية هناآت عرفتها ..؟ أتستطيعين ان تحدثيني عن شيء بهيج في حياتك؟

.. وكانت تصغي، وتهز رأسها بأسى، وتعاني احساساً بشيء جديد لم تعرفه من قبل ، إحساساً هو مزيج من الغضب والغبطة ، وكان هذا الإحساس يداعب بعذوبة قلبها المتوجع .

لقد كانت هذه هي المرة الأولى التي تسمع فيها حديثاً كهذا عن نفسها ، عن حياتها ، وكانت تلك الكلمات التي سمعتها توقظ فيها خواطر مبهمة طواها الحذر منذ أمد بعيد ، وتعيد بلطف ، الحياة الى إحساسها المنطفيء بالحرمان المظلم ، الحرمان من الحياة. وتبعث من جديد خواطر شبابها البعيد وانطباعاته.

لقد كانت تستعيد قصة طفولتها مع أترابها . وتتحدث طويلاً عن كل شيء. ولكنها كانت ، كالأخريات ، لا تعرف إلا التشكي ؛ ولم يكن احد ليشرح لها لمَ كانت الحياة شديدة القسوة ، شديدة العسر .

وهو ذا ابنها القابع هناك ، يحس بكل ما تقوله عيناه وملامحه وكلماته ، يحس بذلك كله قلبها . ويملأ هذا القلب زهواً به، هو الذي فهم جيداً حياتها ، وحدثها عن آلامها ورثى لها كل ذلك . ما كان لأحد أن يرثي للأمهات !

وكانت تعلم ان ما قاله بول عن حياة النساء هو الحقيقة، الحقيقة المرة. وكانت

تشعر بفيض من الأحاسيس العذبة يتدفق في صدرها ، وبعذوبة هذه الأحاسيس المجهولة تبعث الدفء في قلبها .

— ثم .. ماذا تريد ان تفعل ؟

— أتعلم ثم أُعلّم الآخرين . يجب علينا نحن معشر العمال ان ندرس ، ان نعرف ، ان ندرك لِمَ كانت حياتنا هكذا شديدة القسوة !

واستعذبت ان ترى عينيه الزرقاوين القاسيتين الجادتين أبداً ، تومضان الآن بكثير من الرقة والعذوبة ، وبدت على شفتيها ابتسامة خفيفة ، إبتسامة رضى ، في حين ان عبراتها كانت ما تزال ترتعش في تجاعيد وجهها .

لقد كانت موزعة بين شعورين : كانت فخورة بابنها الذي يدرك جيداً أسباب البؤس في الحياة، ولكنها كانت لا تستطيع أن تنسى أنه ما فتيء صغيراً، وأنه لا يتكلم كأترابه ، وأنه قرر أن يخوض المعركة وحده ضد الحياة الرتيبة التي يحياها الآخرون ، والتي تحياها هي أيضاً ، وكانت تود أن تقول له :

« وماذا تستطيع أن تفعل وحدك يا صغيري ؟ » ولكنها كانت تخشى أن تغمطه حقه من الاعجاب ، حقه هو الذي بدا لها بغتة حاد الذكاء ، فيه بعض من غرابة .

ورأى بول البسمة على شفتي امه، وقرأ الانتباه في ملامحها والحب في عينيها، فأدرك أنه استطاع أن يُفهمها حقيقته، وفجّر الزهو الفتيّ ، الزهو بقوة حديثه، الإيمانَ في نفسه ، فاندفع ، وقد ملأه الحماس ، يتكلم ساخراً تارة ، مقطب الجبين تارة أخرى . وكان الحقد يدوّي ، بين الفينة والفينة في صوته ، وكانت أمه ، حين تسمع مقاطعه العنيفة القاسية تهز رأسها مذعورة وتسأله بصوت خفيض :

— أهكذا إذن يا بول ؟

وكان يجيب بصوت حازم : نعم .

لقد كان يحدثها عن اولئك الذين يبتغون خير الشعب ، عن اولئك الذين يبذرون الحقيقة ، والذين يطاردهم أعداء الحياة من أجل ذلك ، يطاردونهم كالحيوانات المتوحشة ، ويزجونهم في السجن ، وصاح بحدة :

— لقد رأيت رجالاً كهؤلاء .. وانهم لأفضل من في الدنيـــا .

وأثار « هؤلاء الرجال » رعب أمه وودت آن تسأله ثانية :

— أهكذا إذن يا بول ؟

ولكنها لم تفعل ، بل راحت تصغي ، مبهورة ، الى أحاديث بول عـــن هؤلاء الرجال الذين لا تستطيع فهمهم ، والذين لقنـــوا ابنها اسلوباً خطراً في القول والتفكـــير .

وقالت له : لقد أوشك الفجر أن يبزغ ، فهلا ذهبت لتنام ؟

فأجاب : سأذهب حالاً ..

ومال إليها يسألهـا :

— هل فهمتني الآن ؟

وتأوهت : أجل .. وفاضت دموعها من جديد .. وأضافت وهي تشهق :

— انك تلقي بنفسك الى التهلكة .

ونهض ، وخطا بضع خطوات في الغرفـــة :

— حسناً . لقد عرفت ماذا أفعل ، وأي طريق أسلك ، لقد بحت لـــك بكل شيء ، واني لأتوسل إليك يا اماه ، إذا كنت تحبينني حقاً ، ألا تحولي بيني وبين ذلـــك .

وصرخت : يا عزيزي .

ثم تمتمت : ليته لم يبح لي بشيء ..

فأخذ يدها ، وشد عليها بقوة بين يديه .

ومستها هذه الكلمة التي لفظها بكثير من الحرارة « يا اماه » ، وهذا الضغط الغريب على يديها وهو ما لم تألفه من قبل ، فقالت بصوت لاهث :

— لن أفعل شيئاً لأحول بينك وبين ما تبغي ، ولكني أطلب إليـــك فقط أن تكون حذراً ، أن تكون حذراً .

ودون أن تدري مم تحذره أضافت بأسى :

— إنك تزداد نحولاً يوماً عن يوم .

ولفت جسمه القوي المتين بنظرة حادة مدلله ، وقالت له بصوت منخفض ، وعلى عجل :

— ليحفظك الله يا بني . افعل ما تشاء فلن امنعك أبداً ، ولن أطلب منك إلا أمراً واحداً فحسب ، هو أن تكون حذراً حين تخاطب النـاس . يجب أن تتجنبهم . انهم يكرهون بعضهم بعضاً . انهم طماعون حسودون ، يسعدهم أن يقترفوا الأذى ، واذا ما شرعت في اطلاعهم على حقائقهم ، في الحكم عليهـم ، فإنهم سيكرهونك ، سيقضون عليك .

وابتسم بول الذي كان يصغي الى هذه الـكلمات المرة ، وهو منتصب بالقرب من الباب :

— أجل إن الناس أشرار ، ولكنهم أصبحوا ، مذ تعلمت أن هناك حقيقة على الارض ، خيراً مما كانوا وأفضل .

وابتسم ثانية ثم أردف :

— وأنا نفسي لا أدري كيف حصل ذلك . لقد كنت في طفولتي اخشى كل شيء في العالم ، وعندما كبرت هيئت لأن أكره البعض لجبنهم ، ولأن أكـره الآخرين هكذا دون ان أعرف لذلك سبباً ، أما الآن ، فانهم مختلفـون بالنسبة الي ، واني لاشفق عليهم كما أعتقد ، انا لا أدري كيف ، ولكن قلبي يتفطر عندما أدرك انهم ليسوا هم المسؤولين عـــن خساستهم !

وصمت لحظة ، كأنه إنما يصغي لشيء في داخله ، ثم تابع وهو مطرق :

— هذا ما تهمس به الحقيقة .

ورنت اليه بعينيها وغمغمت :

— لشد ما تغيرت ، ولشد ما تخيفني ... آه يا ربي .

... وعندما آوى الى فراشه ونام ، نهضت دونما جلبـة ، ودنت من سريره بهدوء ، وكان بول مستلقياً على ظهره ، ووجهه الشاحب الصارم يلقي بظله على الوسادة البيضاء ، ويداه تنعقدان فوق صدره ... وكانت هي الى جانب السرير حافية القدمين ، تتحرك شفتاها بصمت ، وتنحدر من عينيهـا ، ببطء ، دموع كبيرة عكرة تتساقط دمعة بعد دمعة .

-٥-

... واستمرت حياتها صامتة ، واستمرا قريبين بعيدين ؛ حتى إذا كان يوم عيد في وسط الاسبوع ، قال بول لأمه وهو يهم بالذهاب :

— سيكون عندي ، نهار السبت ، ضيوف من المدينه ؟

وسألته امه : من المدينة ؟

ثم انخرطت في البكاء .

وصاح بها بول محنقاً : لمَ تبكين يا اماه ؟

فتأوهت وهي تمسح دمعها بمئزرها : لا أدري لماذا ؟

— هل أنت خائفة ؟

فاعترفت : أجل ... اني خائفة .

فمال اليها ، وقال لها بصوت غاضب كما لو كان يخاطب طفلاً :

— هذا الخوف هو الذي يفجرنا جميعاً . أما اولئك الذين يحكموننا فإنهم يستغلون هذا الخوف ، ويزيدوننا رهبة .

فناحت امه : لا تغضب . أتريدني ألا أخاف وقد عشت حياتي كلها خائفة ؟

فأجابها بصوت خفيض ناعم :

— اغفري لي ، لا أستطيع أن أفعل غير هذا .

ثم خرج .

وظلت مضطربة طوال ايام ثلاثة ، وكان قلبها يتوقف عن الوجيب كلما تذكرت أن اولئك الناس سيأتون الى منزلها .. إنهم غرباء لا بد أن يكونوا مخيفين ، ثم إنهم اولئك الذين اوضحوا لابنها الطريق الذي يسلكه الآن .

وفي مساء السبت عاد بول من المعمل ، فاستحم ، وأبدل ملابسه ، ثم غادر المنزل وهو يقول لأمه دون أن يرفع إليها بصره :

— قولي لهم إذا جاءوا ، اني سأعود في الحال ؛ وأرجوك ألا تخافي .

... وتهالكت على المقعد خائرة القوى ، فقطب بول حاجبيه وسألها :

— ربما كنت تودين الخروج !

فأحنقها ذلك ، وهزت رأسها بالنفي :

— لا ، وعلامَ أخرج ؟

... وكان ذلك في نهاية تشرين الثاني ، وكان ثلج خفيف ناعم قد تساقط اثناء النهار على الأرض المتجمدة ، وانها لتسمعه الآن يفرقع تحت أقدام بول الذي مضى ، وفي زجاج النافذة كانت تزدحم الظلمات الكثيفة البغيضة ، تزدحم دون حراك في الكوى ، في حين ظلت هي جالسة تسند مرفقيها الى المقعد ، وتنتظر وبصرها مسمّر على الباب .

وكانت تتراءى لها في العتمة كائنات شريرة ، غريبة الازياء ، تتوافد نحو المنزل من كل صوب ، وكانت هذه الكائنات تمشي بخطىً ذئبية مقوسة الظهور ، تتلفت في كل اتجاه ؛ وهوذا الآن شخص ما يطوف بالبيت ، ويتحسس الجدار بيديه .

وتعالى صفير شق طريقه في الصمت كالخط الدقيق ، حزيناً منغماً ، وتاه متأملاً في فراغ الظلمات ينشد شيئاً ما ، ويدنو، ثم غار فجأة تحت النافذة، كأنه إنما غار في خشب الحاجز .

وسمعت وقع خطوات تتساحب في المدخل، فارتعشت ، ونهضت تمد عينيها الجاحظتين .

وشُرّع الباب وظهر أولاً رأس يعتمر قبعة واسعة من القطيفة ثم انسلت ببطء قامة فارعة محنية ما لبثت أن انتصبت ورفعت ، على مهل ، ذراعها الأيمن، وتنفس الداخل الصعداء بصوت صادر من اعماق الصدر وحيّا :

— طبتم مساءً .

فانحنت الأم دون أن تنبس ببنت شفة .

— أليس بول هنا ؟

... وخلع الرجل ببطء سترته المصنوعة من الفرو ، ورفع رجله ، وراح ينكت بقبعته ، ما علق على حذائه من ثلج ، ثم كرر نفس الحركة ونفض الثلج

عن حذائه الآخر ، والقى بالقبعة في احدى الزوايا ، ودخل الحجرة مترنحاً على ساقيه الطويلتين .

ودنا من كرسي فتفحصها كما لو كان يتأكد من متانتها ، ثم جلس وتثاءب مغطياً فمه بيده .

وكان رأسه كامل الاستدارة ، نظيفاً من الشعر ، وكان حليق الوجه يحمل شاربين طويلين متهدلي الاطراف .

وتفحص الحجرة بعينيه الواسعتين الجاحظتين كعيني نمل ، ووضع احدى ساقيه فوق الاخرى ، وسأل وهو يهدهد كرسيه :

— وكوخك ، أهو ملك لك أم أنك تشغلينه بالايجار ؟

وأجابته بيلاجي التي كانت تجلس قبالته :

— إننا نشغله بالايجار .

فقال : إنه ليس فخماً .

وقالت بفتور : سيعود بول بعد قليل ، فانتظره .

فأجاب الرجل الطويل بهدوء :

— وهذا ما أفعله .

وأعاد هدوءه وصوته العذب وبساطة ملامحه ، الشجاعة الى نفسها ، وكان هو ينظر اليها بصراحة ووجه عطوف ، وكان شعاعٌ من المرح يتراقص في عينيه الشفافتين ، وكان في هيكله المقرّن المحدودب ، بساقيه الطويلتين ، شيء يثير البسمة ويحببه الى القلب ، وكان يرتدي قميصاً ازرق ، وبنطلوناً اسود أُدخلت اطرافه في الحذاء .

وودت الأم أن تسأله من يكون ؟ ومن أين أقبل ؟ ومـا اذا كان يعرف ابنها منذ امد بعيد ، ولكنه تململ فجأة ، وبادرها هو بالسؤال :

— ومنذا الذي ثقب جبهتك هكذا ايتها الأم الصغيرة ؟

وكانت لهجته لا كلفة فيها ، وكانت في عينيه بسمة طيبة صافية ، ولكن السؤال أحنقها ، فزمت شفتيها ، وبادهته بعد لحظة من الصمت ، وبتهذيب بارد :

— وماذا يعنيك امر ذلك ايها السيد العزيز ؟

فاستدار نحوها بكل كيانه :

— لا تحنقي ، فلقد سألتك هذا السؤال لان أمي بالتبني كانت هي ايضاً تحمل في جبهتها ندباً كالذي تحملينه ، ولقد احدثه لها قرينها الذي كان اسكافياً إذ ضربها بأحد القوالب ، لقد كانت هي غسالة ، وعندما تبنتني كان ذلك السكير قد عثر عليها لسوء حظها ، في مكان لا أدريه ، وكان يضربها ولن اقول لك غير هـذا ، فقد كان يتولاني خوف منه كخوفي من الشياطين .

وشعرت الأم ان هذه الصراحة قد جردتها من سلاحها ، وفكرت بأن ما اظهرته من طبع سيء تجاه هذا الرجل الشاذ ، سيحنق بول ، فابتسمت ابتسامة المخطىء :

— أنا لم أغضب ، ولكنك فاجأتني بالسوال : إن زوجي ، تغمده الله برحمته ، هو الذي قدم لي هذه «الهدية» ... ثم ألست انت تترياً ؟

... وارتعشت ساقاه الطويلتان ، وتألق وجهه ببسمة عريضة جداً بحيث تدلت معها اذناه حتى عنقه ثم قال بجد :

— كلا ، لست تترياً حتى الآن !

فقالت ، وقد ادركت مغزى مزاحه :

— ولكن لهجتك ، كما يقال ، ليست لهجة روسي .

فصاح الضيف بمرح ، وهو يهز رأسه وقد ادرك نكتتها :

— بل احسن من لهجة روسي . إني «بيوروسي» (١) من مدينة «كاينيف» .

— وهل انت هنا منذ زمن طويل ؟

فقال وهو يمسد شاربيه :

— لقد حللت في المدينة منذ عام تقريبا ، ومضى حتى الآن شهر على مجيئي الى المعمل . لقد التقيت في المعمل برجال اخيار ، ابنك والآخرين ، واني اود ان استقر هنا .

(١) من سكان روسيا البيضاء

واثار اعجابها ، واحست برغبة في ان تشكره للكلمة الطيبة التي اثنى بها على ولدها :

— أتود ان تتناول قليلاً من الشاي ؟

فأجاب وهو يهز كتفيه :

— ولكن اتريدينني ان اكون المدعو الوحيد ؟ عندما يجتمع الشمل تقومين بواجبات الضيافة !

وعاودها الخوف فهمست بحرارة :

«شريطة ان يكونوا جميعهم مثله»

*

وسُمع من جديد وقع اقدام في الرواق ، وفتح الباب بعنف ، فنهضت الأم ، وادهشها كثيراً ان ترى ان القادم لم يكن سوى فتاة حدثة السن ، ذات وجه قروي بسيط ، وضفائر كثيفة من شعر متألق :

— احسب اني لست متأخرة ؟

فأجاب البيوروسي الذي كان ما يزال في الحجرة :

— كلا .. وهل أتيتِ مشياً ؟

— اجل ... وهل انت والدة بول ؟ طاب مساؤك ... اني ادعى ناتاشا .

— واسم ابيك ؟

— فاسيليفنا . وانتِ ؟

— بيلاجي نيلوفنا .

— ها نحن إذن قد تعارفنا .

وأجابت بيلاجي بزفرة خفيفة :

— اجل .

ثم راحت تتفحص الفتاة باسمة .

... وساعد البيوروسي الفتاة على خلع معطفها :

— هل الطقس بارد ؟

— نعم ... إنه بارد جداً في الحقول .. والريح تصفر ...

... وكان صوت الفتاة صافياً مرناناً ، وفمها صغيراً مكتنزاً ، وجسمها لدناً ملتفاً ، وبعد ان خلعت معطفها ، راحت تفرك بشدة وجنتيها القرمزيتين بيديها الصغيرتين اللتين احمرتا من البرد ، ثم ولجت الغرفة بسرعة ، بعد ان نفضت على العتبة اعقاب حذائها .

ومرت بخاطر الأم هذه الفكرة :

— لعلها لا تملك جزمة .

وقالت الفتاة وهي ترتجف ، وتمط كلماتها :

— اجل .. اني متجمدة ... يا آلهي .

وقالت الأم بحرارة وهي تتوجه نحو المطبخ :

— سأعد لك الشاي بسرعة ، وستشعرين بالدفء .

... وخيل اليها انها تعرف الفتاة من زمن بعيد، وانها تحبها كأم طيبة رؤوم ، وراحت وهي تبتسم ، تصغي الى الحديث الذي يدور في الحجرة .

— إنك لا تبدو منشرحاً يا ناكودكا .

ويجيب البيوروسي بصوت منخفض :

— وهو كذلك . ان لهذه الأرملة عينين طيبتين ،واعتقد ان عيني أمي ربما كانتا شبيهتين بها . وانت تعلمين اني كثير التفكير بأمي ، ويخيّل اليّ دوماً انها ما تزال حية .

— اتقول انها ماتت ؟

— كلا...هذه أمي بالتبني... وانا اتحدث عن امي الحقيقية . اني اتصورها تتسول في ناحية ما من «كييف» ، وتشرب الفودكا ، وعندما تثمل ، يهشم رجال الشرطة وجهها .

وقالت الأم في نفسها : «يا للمسكين» ثم تأوهت .

.. واخذت ناتاشا تتكلم بسرعة وحرارة ، ولكن بصوت خفيض ، ثم رن من جديد صوت البيوروسي .

— انت ما زلت غرة يا رفيقة . انك لم تتعودي شظف العيش . ان الاتيان بطفل الى الدنيا أمرٌ عسير ، وتربيته تربية صالحة أمر أشد عسراً .

وقالت الأم لنفسها : أرأيت ؟

وودت أن تتوجه بكلمة لطيفة معزية الى البيوروسي ، ولكن الباب فتح ببطء ودخل نيقولا فيسو شيكوف ، ابن ذلك اللص العجوز ، لص «دانيلو» . ان الضاحية كلها تعتبره كذب . إنه ابداً مقطب الجبين ، يعيش في عزلة عن الناس ، وهو دائماً عرضة لسخريتهم بسبب خلقة النفور .

وسألته بيلاجي وقد اخذتها الدهشة :

— ماذا تريد يا نقولا ؟

فمسح براحته الواسعة وجهه الجدور الناتيء الوجنتين ، ودون ان يلقي تحية المساء سألها بصوت خفيض :

— هل بول هنا ؟

— لا .

... وألقى نظرة على الحجرة ثم دخل .

— طبتم مساءً ايها الرفاق .

وهمست الأم بحقد : «وهو ايضاً» ؟ وادهشها ان ترى ناتاشا تمد اليه يدها بوجه طلق وودود .

... ثم اقبل شابان يافعان يكادان يكونان غلامين ، وعرفت بيلاجي احدهما . إنه «تيو» حفيد عامل في المعمل يدعى «سيزوف» ، وكان ذا وجه مقرّن ، وجبهة عالية وشعر مضفور . أما الثاني فكانت لا تعرفه ، وهو ذو شعر أملس ومظهر متواضع ، وليس في شكله — هو الآخر — ما يبعث على الخوف .

... وأخيراً اقبل بول يصحبه رفيقان تعرفهما ، انهما من عمال المعمل .

وسألها ابنها بلطف :

— هل اعددت الشاي ؟ شكراً .

وسألته ، وهي لا تعرف كيف تعبر له عن شعورها بالتقدير الذي تحسه في لاوعيها :

— اينبغي استحضار بعض المشروب ؟

فأجابها بول وهو يبتسم بطيبة .

— كلا ... لا لزوم لذلك .

وراودها خاطرٌ بأن ابنها قد بالغ كثيراً في تصوير خطر هذا الاجتماع ، ليسخر منها ، فسألته بصوت هامس .

— أهؤلاء هم الناس الخطرون ؟

فأجاب وهو يلج الغرفة :

— انهم هم بالضبط .

فقالت بغبطة : حسناً ..

ولكنها غمغمت في سرها :

— انه ما زال طفلا ...

— ٦ —

كان الماء يغلي في ابريق الشاي ، فحملته الأم الى الغرفة ، وتحلق الضيوف حول الطاولة ... أما «ناتاشا» فظلت ، قابعة ، وفي يدها كتاب تقلبه ، تحت المصباح ، في احدى الزوايا .

— لكي ندرك لِمَ يعيش الناس حياةً سيئة جداً ..

فقاطعها البيوروسي :

— ولكي ندرك لِمَ يكونون هم انفسهم اشراراً ...

— يجب أن نعرف كيف بدأوا حياتهم .

وهمست الأم وهي تهيىء الشاي:

— اسمعوا يا ابنائي اسمعوا ...

وصمت الجميع وسألها بول مقطب الحاجب :

— ماذا قلت يا اماه ؟

— أنا ؟

ولكنها ، وقد رأت عيونهم جميعاً مركزة عليها ، اجابت بارتباك :
— لقد قلت ما قلته عفواً ، قلته هكذا لنفسي .
وضحكت ناتاشا ، وابتسم بول ، أما البيوروسي فقال :
— شكراً على الشاي أيتها الأم الصغيرة .
وردت :
— أتشكرني ولم تتذوقه بعد ؟
ثم أضافت ، وهي تحدق بابنها :
— لعل وجودي بينكم يزعجكم .
وأجابتها ناتاشا :
— وكيف تزعجين ضيوفك وانت ربة البيت ؟
ثم صاحت بلهجة طفولية ضارعة ؟
— اعطني الشاي بسرعة يا بيلاجي الطيبة ؛ إني ارتجف ، ورجلاي متجمدتان .
وردت الأم : حالاً ، حالاً .
وشربت ناتاشا فنجانها ، وتنهدت بصوت مسموع ، وقذفت ضفيرتها الى ما وراء ظهرها ، واخذت تقرأ في كتاب مصور أصفر الجلد .

... وراحت الأم ، وهي تحاول الا تحدث بفناجينها أية جلبة ، راحت تسكب الشاي ، وتصغي الى صوت الفتاة الايقاعي الصافي النبرة ، هذا الصوت الذي كان يواكب الأغنية العذبة ، أغنية إبريق الشاي .

... وكالثوب الرائع انبسطت أمام عينيها قصة اولئك البدائيين المتوحشين الذين كانوا يعيشون في الكهوف ، ويصطادون الحيوانات الضارية بالحجارة .

لقد كانت القصة ممتعة ، وكانت بيلاجي ، بين الفينة والفينة ، تلقي على ابنها نظرة متسائلة ، وتود أن تسأله عما هو محرم في هذه القصة ؛ ولكنها لم تلبث أن تعبت من متابعة السرد ، فراحت تتفحص ضيوفها :
لقد كان بول يجلس الى جانب ناتاشا ، وكان هو اوسمهم جميعاً ؛ وكانت

الفتاة وهي منكبة على كتابها ، ترد بين اللحظة واللحظة ، شعرها الذي ينهمر على جبينها .
لقد كانت تهز رأسها ، وتترك كتابها قليلاً ، وتخفض من صوتها لتدلي ببعض الملاحظات الشخصية ، في حين كان بصرها ينزلق بمحبة ، على وجوه سامعيها .
وكان البيوروسي يستند بصدره العريض الى زاوية الطاولة ، ويلقي نظرة حولاء على شاربيه ، محاولاً أن يرى أطرافها العصية . وكان فيسو شيكوف جالساً على كرسيه ، جامداً كالتمثال ، ويداه على ركبتيه ، ووجهه المجدور ، العطل من الحاجبين ، يبدو بشفتيه الرقيقتين جامداً كالقناع ؛ وكانت عيناه الضيقتان ، تتركزان على ملامحه التي يعكسها النحاس المتألق ، فيبدو كأنه خامد الأنفاس .
وكان «تيو» الصغير يصغي الى القراءة ، وهو يحرك شفتيه بصمت كأنه يستعيد الكلمات ، في حين كان رفيقه يبسم بتفكير ، محدودب الظهر ، ويسند مرفقيه الى ركبتيه ، ويحضن خده بباطن كفيه .
وكان احد الشابين اللذين رافقا بول اشقر الشعر ، اجعده ، ذا عينين خضراوين مرحتين ، وكان يريد بلا شك أن يقول شيئاً لأنه كان يتململ بصبر نافذ . أما الآخر ، ذو الشعر الأشقر القصير ، فقد كان يمر يده على رأسه المائل نحو الارض ، ولا يُرى من وجهه شيء . وكان الجو في الحجرة على ما يرام ، وكانت الأم تستشعر ارتياحاً خاصاً تجهل سببه حتى الآن ، وعندما عادت ناتاشا إلى القراءة ، مزهوة ، كانت هي تستعيد أمسيات شبابها الصاخبة ، والأحاديث الفجة ، أحاديث الفتيان الذين كانت رائحة الخمرة تتضوع من انفاسهم ؛ وتتذكر مزاحهم الوقح الماجن ؛ وهصر قلبها ، وهي تستعيد هذه الذكريات ، احساس بالشفقة ، الشفقة على نفسها .
... وانبعثت في خاطرها ذكرى خطبتها لزوجها الراحل : لقد امسك بها في احدى الامسيات ، في ظلام المدخل ، وحشرها بالجدار وهو يميل عليها بكل ثقله ، وسألها بصوت مختنق اصم :
— هل تريدين الزواج مني ؟

وشعرت بأنها اهينت ، وآلمته وهي تعرك صدره ، فنشق مخاطه ، واطلق في وجهها انفاسه الحارة الرطبة ، فيما ظلت هي تحاول ان تفلت من بين يديه ، ان تهرب منه . وزمجر :

— الى اين تذهبين ؟ اجيبي .

.. ولم تجب ؛ فهي جريحة الكرامة حتى الاعماق ، يكاد الخجل يخنقها .

وفتح باب المشى فجأة ، فأفلتها ببطء وقال :

— سوف ابعث نهار الاحد بمن يطلب لي يدك !

... ولم يخلف وعده .

وأغمضت بيلاجي عينيها ، وارسلت زفرة عميقة .

وبغتة ، دوّى صوت فيسو شيكوف الخانق :

— أنا لست بحاجة لان اعرف كيف كان الناس يعيشون من قبل ، ولكنني بحاجة الى أن اعرف كيف ينبغي أن يعيشوا اليوم .

فصاح الفتى الاحمر الشعر وهو يثب واقفاً :

— أجل هذا ما ينبغي ان نعرفه .

ورد تيو :

— انا لا اوافقكما على ذلك .

واحتدم النقاش ، وكانت صرخاتهم تتدفق كألسنة اللهب ، ولم تكن الأم لتدرك لِمَ يتصايحون ، وكان الانفعال يضرج وجوههم جميعاً ، ولكن احداً منهم ، لم يتلفظ بما تعودت سماعه من خشن الكلام .

ومرت بخاطرها هذه الفكرة :

«لعل وجود الفتاة بينهم هو الذي يهذب الفاظهم»

ووجدت لذة في تأمل وجه ناتاشا الصارم ، ناتاشا التي كانت تراقبهم بيقظة كما تراقب الأم اطفالها .

وصاحت بهم الفتاة فجأة :

— اصغوا اليّ ايها الرفاق .

فصمتوا جميعاً ، واستدارت نحوها عيونهم .

— إن اولئك الذين يقولون بأنه ينبغي لنا ان نعرف كل شيء هم المصيبون . إن نور العقل يجب ان يهدينا نحن ايضاً ، واذا كنا نود ان نمد بالنور اولئك الذين يغرقون في الظلمات ، فيجب ان يكون باستطاعتنا الرد بشرف وامانة على كل الاسئلة . يجب علينا ان نعرف الحقيقة كلها ، والبهتان كله .

وكان البيوروسي يصغي ، ويهز رأسه على إيقاع كلماتها ، أما فيسو شيكوف والفتى الاحمر الشعر ، والعامل الذي جاء مع بول ، فقد كانوا يشكلون زمرة متميزة . وكان ذلك لا يروق للأم ، دون ان تدري لماذا .

وعندما انهت ناتاشا كلامها نهض بول ، وسأل بهدوء :

— هل ان ما نبغيه هو أن نأكل حتى التخمة ؟

ورد بنفسه على هذا السؤال ، وهو يحدق بثبات ، الى زملائه الثلاثة :

— كلا .. علينا ان نبرهن لأولئك الذين يمسكون بأعناقنا ويسملون ابصارنا اننا نرى كل شيء ، واننا لسنا بلهاء ولا بدائيين فطريين . وان ما ننشده ليس هو أن نأكل فحسب ، بل أن نعيش ككائنات جديرة بالحياة . يجب ان نبرهن لأعدائنا ان حياة الارهاق التي يفرضونها علينا ، لا تحول دون ان نكون في مستواهم ذكاءً ، بل ، وفوق مستواهم .

... وكانت الأم تصغي اليه وترتعش مزهوة اذ تسمعه يحسن الكلام الى هذا الحد .

وقال البيوروسي :

— في الناس اكثر من متخم ، ولكن ليس فيها شرفاء . وعلينا ان نقيم عبر المستنقع الآسن ، مستنقع الحياة ، ممراً يقود خطانا نحو عالم جديد من الطيبة الاخوية . هذه هي مهمتنا ايها الرفاق .

وردد فيسو شيكوف بهدوء :

— عندما تحين ساعة المعركة ، لا يبقى هناك من وقت لتنظيف الاظافر .

.. وكان اكثر من نصف الليل قد تصرّم ، عندما افترقوا ، وكان اول

المتصرفين فيسو شيكوف والفتى الاحمر الشعر ، ولم يعجب ذلـــك ايضاً الام ، فغمغمت في سرها محنقة ، وهي ترد على تحيتهم :

— انظري كم هم متعجلون !

وسألت ناتاشا :

— هل ترافقني يا ناكودكا ؟

فأجاب البيوروسي : هذا اكيد .

وفيما كانت ناتاشا ترتدي معطفها في المطبخ قالت لها الأم :

— إن جواربك شفافة لا تلائم طقساً كهذا الطقس ، وسأصنع لـــك ، اذا وافقتِ ، جورباً من الصوف .

فأجابت ناتاشا ضاحكة :

— شكراً يا بيلاجي . إن جوارب الصوف خشنة تخز ساقيّ .

— ولكني سأصنع لك زوجاً ناعماً لا يخز ساقيك .

فتأملتها ناتاشا بعين غامزة قليلاً ، واربكت هذه النظرة الثابتـــة الأم ، وأردفت بصوت خفيض :

— اغفري لي بلاهتي ، فلقد قلت ما قلته عن طيبة قلب .

وردت عليها ناتاشا ، برقة ، وهي تشد يدها :

— لكم انت طيبة .

وقال لها البيوروسي وهو ينظر اليها نظرة صريحة :

— طابت ليلتك أيتها الأم الصغيرة .

وانحنى ليخرج في اعقاب ناتاشا .

ورنت الأم الى ابنها الذي كان واقفاً على عتبة الحجرة يبسم وسألته مضطربة :

— ما الذي يضحكك ؟

— اضحك لانني فرح .

فقالت بعصبية :

— اني عجوز بلهاء ، هذا اكيد ، ولكنني ، في الوقت نفسه ادرك ما هو حسن .

فردت عليها :

— إنك على حق ، وعليك ان تنامي فلقد حان وقت رقادك .

— سأذهب الى فراشي حالاً .

.. ودارت حول الطاولة تقوم بتنظيفها راضية ، ومع ذلك فقـــد كانت ملامحها تنم بعض الشيء عن القلق الحلو الذي كانت تستشعره . لقد كانت سعيدة ، لأن الأمور قد سارت بهدوء ، وعلى احسن ما يكون الحال .

— لقد كان رأيك مصيباً يا صغيري بول . ان البيوروسي لطيف جـــداً ، والفتاة ، يا لها من فتاة ذكية .. فمن تراها تكون ؟

وأجاب بول بإيجاز وهو يذرع ارض الغرفة بخطاه :

— انها مدرّسة .

— لذلك فهي فقيرة ، ورديئة الثياب جداً . انها ستصاب بالبرد . واهلها ؟ أين هم أهلها ؟

— انهم في موسكو .

وتوقف بول أمامها وقال لها بصوت وقور :

— اسمعي .. إن أباها ثري يبيع الحديد ، ويملك بيوتاً كثيرة ، ولقد طردها لأنها اختارت لنفسها هذا الطريق . لقد نشأت نشأة مرفهة ، وكان ذووها جميعاً يدللونها .. اما الآن فهي كما ترين . انها ستمشي ، على قدميها ، وفي ظلام الليل ستمشي وحيدة ، اكثر من سبعة كيلومترات .

وأذهلت هذه التفاصيل بيلاجي ، فوقفت في وسط الحجرة تحدق بولدهـــا صامتة ، وقد انشقل حاجباها من الدهشة :

— هل هي ذاهبة الى المدينة ؟

— نعم .

— آه .. ألا يساورها الخوف ؟

وقال بول مبتسماً :

— كلا . إنها لا تخاف .

— ولكن لِمَ ذهبت ؟ لقد كان بامكانها ان تقضي الليل هنا ، كان بامكانها ان تنام في سريري .

— ليس ذلك يسيراً ، فلو بقيت لرآها الناس في الغد وهي تخرج من هنا . وهذا ما نتحاشاه .

وألقت الام بصرها على النافذة ، بسهوم ، واردفت برقة :

— لا أفهم يا بول لِمَ كان ذلك خطراً ومحرّماً ، فانا لا أرى فيه اي ضير .. أليس كذلك ؟

ولم تكن متيقنة ؛ بل كانت تريد من ابنها تأكيداً ، فحدق في عينيها وقال بهدوء :

— أجل . ليس في ذلك اي ضير ، ومع ذلك ، فالسجن ينتظرنا جميعاً ، ويجب ان تدركي هذا جيداً .

وأخذت يداها ترتعشان وقالت بصوت منسحق :

— ولكن قد يساعدكم الله ، فيغيّر الحال .

ورد عليها بحنو :

— كلا ، فانا لا اريد ان اخدعك . إننا لن ننجو من السجن .

وابتسمت :

— إنك مجهد فهيّا الى سريرك . طابت ليلتك .

وعندما أصبحت وحدها ، اقتربت من النافذة ، وتسمرت هناك ترنو الى الشارع :

لقد كان الطقس في الخارج بارداً ، وكان الظلام مسيطراً ، وكانت الريح ، وهي تلهو ، تكنس الثلج عن سطوح المنازل الصغيرة الهاجعة ، وتلطم الجدران مدمدمة ؛ ثم تهوي الى الارض ، وتطارد ، على امتداد الشارع ، السحب البيضاء المتكونة من نتف الثلج المتناثر .

وغمغمت بهدوء :

يا يسوع ارحمنا .

... وأحست بالدموع تتجمع في عينيها ؛ ورف في داخلها البؤس المنتظر الذي حدثها عنه ابنها بكثير من الوضوح والتأكيد ، رفّ ، كفراشة ليل عمياء مهيضة الجناح .

وانبسط امام عينيها سهل عــار تغمره الثلوج ، وكانت الريح تهب باردة هوجاء بيضاء ، يواكبها صفير خفيف . وفي وسط السهل ، كان يعدو وحيداً متعثراً ، شبح صغير قاتم ؛ تلتف الريح حول ساقيه ، وتنفخ رداءه ، وتذرو في وجهه ذرات الثلج الوخازة .

انها منهكة ؛ يغوص قدماها في الطبقة الكثيفة ، وتعاني البرد والخوف .انها مقوسة الظهر ، انها كعشبة ضعيفة في السهل الاغبش ، في اللعبة المجنونة ، لعبة ريح الخريف .

وعلى يمينها ، عند المستنقع ، كان ينتصب جدار الغابة القاتم ، حيث تنوح أشجار الحور والصنوبر عجفاء عارية .

وأمامها ، في البعيد يلوح ألق باهت من أضواء المدينة

وغمغمت الأم وهي ترتعد خوفاً .

— يا الهي ارحمنا .

— ٧ —

... كانت الايام تنزلق يوماً بعد يوم كحبات السبحة ، وانجمعت أسابيع واشهراً ، وفي كل سبت ، كان رفاق بول يجتمعون في منزله ، وكان كل اجتماع من اجتماعاتهم كدرجة من سلم طويل ، هين المرتقى ، يفضي الى البعيد البعيد ، دون ان يدري احد الى اين ؛ سلم يرفع ببطء اولئك الذين يتسلقونه .

.. وكانت وجوه جديدة تظهر ، حتى ضاقت بهم حجرة آل فلاسوف الصغيرة ، وكادوا يختنقون فيها . وكانت ناتاشا ، تصل مرهقة مقرورة ، ولكنها مزودة دائماً بمخزون لا ينضب من المرح والحيوية .

وكانت الأم قد حاكت لها جورباً ، وألبسته القدمين الصغيرين بنفسها ،

وضحكت ناتاشا بادىء الأمر ثم صمتت وقالت وهي مغرقة في التفكير :

— لقد كانت مربيتي ايضاً طيبة ، الى ابعد حدود الطيبة . لكم هو غريب أن يحيا الشعب حياة قاسية مليئة بالخزي والمهانة ، ثم يكون اكثر طيبة ، وارق قلباً من الآخرين .

وأشارت الأم بحركة من يدها ، الى مكان مجهول ، في البعيد القصي وقالت :

— وإنك لكذلك ، فلقد ضحيت بذويك وبكل ...

ولم تستطع ان تكمل جملتها ، فتأوهت ، وصمتت ، وراحت تحدق بناتاشا . انها تشعر نحوها بعاطفة من عرفان الجميل ، ولا ندري لماذا .

وظلت جالسة إمامها على الارض ، في حين كانت الفتاة تبتسم حالمة ، محنية الرأس :

— ذويّ ؟ ان ذلك لا يهم . فوالدي فظّ شديد الفظاظة ، وكذلك أخي . ثم إنه سكير يدمن الخمرة . وشقيقتي الكبرى بائسة . فلقد اقترنت برجل يكبرها سناً، يكبرها بكثير . وهو فوق ذلك ، ثريّ ملّ شحيح . أما أمي، فوا حسرتاه عليها . إنها بسيطة مثلك ، صغيرة كفأرة ، شرودٌ تخشى الناس جميعاً . لكم يجتاحني احياناً الحنين الى رؤيتها .

وقالت الأم وهي تهز رأسها حزينة :

— اواه يا صغيرتي المسكينة .

فانتفضت الفتاة بغتة ، ومدت يدها كأنها تريد أن تدفع عنها شيئاً ما :

— أوه .. كلا .. هناك بعض الاوقات استشعر فيها مثل هذا الفرح ، ومثل هذه السعادة .

وبهت وجهها ، ولمعت عيناها الزرقاوان ، ووضعت يدها على كتف الأم ، وأردفت وهي تهمس بصوت عميق متزن :

— ليتك تعرفين ، ليتك تدركين أي عمل عظيم نأتيه .

ومس قلب بيلاجي شعور كالغيرة ، كالحسد ، فنهضت ، وقالت بكآبة :

— لقد فات الاوان، فانا عجوز مسرفة في الشيخوخة، جاهلة مسرفة في الجهل.

وصار بول يتولى المبادرة في الحديث ، إكثر فاكثر ، ويناقش بحرارة فائقة ولكنه كان يزداد نحولاً ، وكانت الأم تلاحظ انه حين يخاطب ناتاشا ، او حين ينظر اليها ، ترق نظراته القاسية ، ويزداد صوته عذوبة ، ويبدو أكثر بساطة .

وتهمس الأم في سرها وتبتسم : ان شاء الله .

... وفي الاجتماعات ، عندما كان النقاش يبلغ إوج حرارتـه وعنفه ، كان البيوروسي يقف مترنحـاً كمضرب الجرس ، ويتكلم بصوتــه المُرّن الضّاج ، فتغطى بساطته وما يحمله هذا القول من طيبة ، على اصوات الآخرين ، ويعيدهم الى الهدوء والاعتدال . أما فيسو شيكوف العبوس أبداً ، فإنه كان يثير جواً من التوتر الشامل ، وكان هو والفتى الأحمر الشعر المدعو « ساموالوف » يبدآن العراك ويشد أزرهما أيفان بوكين ، الفتى المستدير الرأس ، الأشقر الحاجبين الذي يبدو كالمغسول .

وكان « جاك سوموف » الفتى الأملس الشعر ، الشديد النظـافة ، يتكلم نزراً دون ان يرفع صوتــه المتلىء ، وكان ك « تيو » مازين الشاب العريض الجبهة ، يتفق دائماً في وجهة نظره مع بول والبيوروسي .

واحياناً ، كان نقولا ايفانوفيتش هو الذي يأتي من المدينـة بدلاً من ناتاشا؛ وكان يلبس نظارتين ، ويحمل لحية صغيرة صهباء ، ويحتفظ بلهجـة الاقليم النائي الذي تحدّر منه ، وكان يبدو دائماً ساهم النظرة ، موزع الفكر ؛ وكان يتحدث عن الاشياء البسيطة ، عن حياة العائلة ، عن الاطفال والتجارة والبوليس ، وثمن الخبز واللحم ، وكل ما يتعلق بالحياة اليوميـة ، وكان يكتشف في كل شيء النفاق والفوضى ونوعاً من البلاهة المضحكة غالباً ، المؤذية دائماً ؛ وكانت بيلاجي تشعر كأنه آتٍ من بعيد، من مملكة أخرى يحيا الفارس فيا حياة شريفة هينة ؛ لذلك يبدو له كل شيء هنا غريباً ، فهو لا يستطيع أن يتعود هــذه الحيـاة ، وان يتقبلها كضرورة . إنها لا تروق له ، ولا تبتعث فيه أية رغبة مطمئنة ، بل إنه يصر بعناد على أن يعيد صياغتها كما يشتهي .

لقد كان شاحب اللون ، تتوزع حول عينيه تجعدات خفيفة ، وكان صوته عذباً ويديه أبداً حارتين ؛ وعندما كان يصافح بيلاجي ، يحتضن يدها كلها بين اصابعه القوية الخشنة ، وكانت هذه الحركة تبعث في قلبها الراحة والاطمئنان .

وكان بين الذين يقبلون من المدينة أيضاً فتاة هي اكثرهم مثابرة على الحضور ، فتاة متناسقة الجسم فارعة القوام ، رحبة العينين ، ذات وجه أصفر هزيل ، تدعى « ساندرين » .

وكان في خطوها وحركاتها شيءٌ من الرجولة ، وكانت تقطّب حاجبيها الاسودين كالمستثارة ، وكانت جوانب أنفها الأقنى ترتعش عندما تتكلم .

وكانت هي اول من اعلن بصوت قويّ أجش :

— نحن اشتراكيون .

وعندما سمعت الام هذه الكلمة ، رنت الى الفتاة برعب صامت . لقد سمعت — وكان ذلك في شبابها — ان الاشتراكيين هم الذين قتلوا القيصر ، وشاع يومذاك ان الملاكين ، وقد رغبوا في الانتقام من القيصر لأنه حرر الاقنان ، اقسموا على ألا يقصوا شعورهم إلا إذا صرعوه ، وهم من اجل ذلك سموا اشتراكيين .

والآن ... لا تستطيع ان تفهم لمَ كان ابنها ورفاقه اشتراكيين !

... وعندما انصرف الحضور جميعاً كاشفت بول :

— اصحيح انك اشتراكي يا بول ؟

فاجاب بحزم وصراحة كعادته :

— اجل ، فهل في ذلك ما يضير ؟

فاطلقت زفرة عميقة ، وتابعت ، منكسّة الاجفان .

— أهذا ممكن يا بول؟ ولكنهم ضد القيصر . وقد قتلوا واحداً من القياصرة .

وخطا بول في الحجرة بضع خطوات ، وقال وهو يمرر يده على خده باسماً :

— إنهم شيء لا حاجة لنا به .

... وحدثها طويلاً ، وبصوت رصين مطمئن ؛ وكانت هي تحدق في عينيه وتفكر :

« إنه لن يقترف شراً ابداً ، ولن يستطيعه . »

.. واخذت هذه الكلمة الرهيبة «اشتراكي» تتردد بعد ذلك كثيراً ، ثم اخذ اثرها العنيف يتلاشى رويداً رويداً حتى غدت شيئاً مألوفاً في سمعها ، تماماً كمجموعة التعابير الاخرى التي تستعصي على فهمها .

ولكن « ساندرين » كانت لا تعجب الأم ، وكانت كلما رأتها ، تشعر بالاضطراب والضيق .

وفي احدى الامسيات قالت وهي تقلب شفتيها استياءً :

— ان ساندرين شديدة القسوة . انها تأمر دائماً : « افعل هذا وانت افعل ذاك »

... واطلق البيوروسي ضحكة هدوية :

— احسنتِ ... لقد اصبتِ الهدف ايتها الأم .. أليس كذلك يا بول ؟

ودنا الى الأم ، وقال ساخر النظرة :

— يا للنبلاء .

ورد بول بجفاف :

— انها فتاة طيبة .

— حقاً انها لكذلك ولكنها لا تدرك ان عليها هي كنبيلة ان تطيع ، واننا نحن الذين نشاء وتقدر ان نحقق ما نشاء .

ودخلا في نقاش حول موضوعٍ لم تفهمه .

... ولاحظت الأم ان ساندرين كانت ، بصورة خاصة ، شديدة القسوة بالنسبة لبول . وكانت هذه القسوة تبلغ احياناً حد العنف ؛ وكان بول يبتسم ويصمت ، ويتفرس في وجه الفتاة بنفس النظرة الوادعة التي كان من قبل ينظر بها الى ناتاشا ؛ وكان هذا ايضاً لا يروق للأم .

وكانت بيلاجي احياناً تفاجأ بغمرة الفرح الذي يستخف الفتيان فجأة وينتشر بينهم كالعدوى . وكان ذلك يحدث عادة في الامسيات ، حين يقرأون في الصحف انباء تتعلق بالعمال في الخارج . إن عيونهم حينئذ تلتمع بالفرحة ، ويغدون ، وهذا ما يحيرها ، سعداء كالاطفال ، ويضحكون ضحكات صافية مرحة ، ويربتون

بحب ، على اكتاف بعضهم بعضا

ويصرخ احدهم وقد املأته الغبطة .

— يا لهم من ابطال . العمال الالمان .

ويتعالى الهتاف ثانية :

— ليحيا عمال ايطاليا .

وعندما كانوا يرسلون بهتافات الاعجاب هذه الى البعيد، الى رفاق لايعرفونهم ابداً ، ولا يفهمون لغتهم ، كانوا على يقين بأن اولئك المجهولين سيسمعونهم ، سيدركون تحمسهم .

ويعلن البيوروسي براق العينين، طافح القلب بحب يحتضن الكائنات جميعاً، يعلن :

— انه لجميل ان نكتب اليهم ، اليس كذلك ؛ لكي يدركوا ان لهم في روسيا اصدقاء يعتنقون نفس العقيدة ، ويعيشون للاهداف نفسها ، ويغتبطون بانتصاراتهم .

ويتحدثون جميعاً، والنظرة الحالمة في عيونهم ، والبسمة على شفاههم ، يتحدثون طويلا عن الافرنسيين والبريطانيين والسويديين كأصدقاء شخصيين لهم ، ككائنات قريبة منهم يقدرونها ويقاسمونها افراحها ، ويستشعرون آلامها .

وفي الحجرة الصغيرة ، كان يولد شعور القربى الروحية التي تربط بين عمال الارض كلها ؛ وكانت الأم ايضاً تلمس هذا الشعور الذي يجعلهم جميعاً قلباً واحداً ؛ تلمسه رغم انها لا تفهمه بوضوح ، وكانت تستمد منه الفرح والشباب ، وقوة طاغية تزخر بالآمال .

وقالت يوماً للبيوروسي :

— غريب امركم . ان الجميع بالنسبة لكم رفاق ؛ ارمنيين كانوا ام يهوداً ام نمساويين . انكم تحزنون لحزن الناس جميعاً ، وتفرحون لفرحهم .

وهتف :

— « أجل ، رفاق للجميع ايتها الام الصغيرة ، رفاق للجميع . ليس هناك بالنسبة لنا امم ولا عروق ، بل هناك اصدقاء او اعداء ؛ والعمال جميعاً اصدقاء

لنا ، اما الأثرياء ، وأولئك الذين يحكمون ، فهم جميعاً اعداء لنا .

إننا حين نلقي نظرة مجردة على العالم ، ونرى اية كتلة ضخمة نكوّن نحن العمال واية قوة مختزنة فينا ، نحس بغمرة من الفرح كأن قلوبنا في عيد . ان هذا الشعور نفسه ، ايتها الام الصغيرة ، هو ما يحسه الفرنسي والالماني ، والايطالي ، حين يصون الحياة . إننا جميعاً ابناء ام واحدة ، وفكرة واحدة لا تقهر ، هي اخوة العمال في الاوطان كلها ؛ وهذه الاخوة تبعث فينا الحرارة . انها الشمس المشرقة في سماء العدالة ، وهذه السماء هي في صدر العامل .

إن الاشتراكي ، مهما كان مبتغاه ، وأي اسم اختار ، اخ لنا في الفكر ، اخ لنا اليوم والى الابد ، اخ لنا على مدى الاجيال .

.. وكان هذا الايمان الطفولي الذي لا يتزعزع ، يعبر عن نفسه يوماً بعد يوم في هذه الشلة القليلة ، وبقوة متنامية ؛ وكانت الام كلما لاحظت ذلك الفيض من الأمل ، تشعر شعوراً غريزياً بأن هناك شيئاً عظيماً مشعاً قد ولد في العالم ، شيئاً كالشمس ، التي تُرى في كبد السماء .

وكانوا يغنون احياناً كثيرة ، يغنون بمرح وملء حناجرهم ، اغنيات شائعة، وأحياناً كانوا يستهلون مرحهم باغنيات جديدة فائقة الحلاوة ، ولكنها غريبة الالحان كئيبتها ، يخفضون فيها من اصواتهم الجهيرة ، كأنهم إنما يؤدون لحناً دينياً ، وتصفرّ وجوههم ، وتتأجج باللهب ، وتنساب من الكلمات الرنانة قوة فائقة .

وكانت إحدى هذه الاغنيات الجديدة ، بوجه خاص ، تبعث الكآبة والقلق في نفس بيلاجي . انها اغنية لا تسمع فيها التأملات الحزينة لنفس جريحة وحيدة، تائهة في الدروب المظلمة ، دروب الشكوك المعذبة ، ولا شكايات لا وصف لها ولا لون ، شكايات روح هدّها الاملاق والخوف . ولم تكن ترن بالاهات المغمومة ، آهات قلب قوي يشده الى المدى نهم غامض ، ولا بصرخات التحدي من جسور يقف على اهبة الاستعداد ليسحق الخير والشر دونما تمييز ، ولم يكن فيها ابداً ذلك الحقد الاعمى ، حقد المهان الذي يحطم كل شيء ليثأر لكرامته .

وبكلمة واحدة ... لم يكن فيها اي صدى للعالم الهرم ، عالم العبيد .
لم تكن تروق للام كلماتها القاسية ، ولا نغمها الصارم ، ولكنها كانت مع ذلك ، تزخر بقوة اكبر من الكلمات والانغام ، قوة تتخطى الكلمات ، الانغام لتوقظ في النفس شعوراً مسبقاً بشيء فائق السمو . وكانت الام تقرأ ذلك في وجوه الفتيان وعيونهم ، وتحسه يضج في صدورهم ، وكانت ، تحت تأثير تلك القدرة الغامضة الكامنة في الاغنية ، تصغي اليها ابداً ، بانتباه شديد ، وبقلق يفوق كثيراً ذلك الذي تثيره الاغنيات الاخرى في نفسها ...
... وكانوا يؤدونها بهدوء اكثر من الاخرى ، ولكنها كانت تضج بالقوة ، وتسكر كأنسام اليوم الاول من آذار ، كأنفاس اول يوم من ايام الربيع .
وكان فيسوشيكوف يقول مقطب الحاجبين :
— سيأتي اليوم الذي يُتاح لنا فيه ان ننشدها في الشارع .
وفي احدى المرات التي ادخل والده فيها الى السجن بتهمة السرقة ، اعلن بهدوء :
— نستطيع الآن ان نجتمع في منزلي .
وفي كل مساء تقريباً ، بعد الانصراف من العمل ، كان لا بد لاحد افراد هذه الشلة من أن يأتي الى منزل بول ، وكانوا يقرأون معاً ، وينسخون بعض الفصول من الكتب ، ويبدون كثيري المشاغل ، ولم يكن لديهم وقت للاستجمام ؛ وكانوا يتناولون العشاء ، والشاي ، دون ان يتخلوا عن كراريسهم ، وكانت احاديثهم تزداد استعصاء على إدراك الام .
وكان بول يردد دائماً :
.. نحن بحاجة الى جريدة !
وكانت حياتهم تزداد حركة وحرارة ، وكانوا ينتقلون بسرعة من كتاب الى آخر ، كما ينتقل النحل من زهرة الى زهرة .
وقال فيسوشيلوف يوماً :
— لقد بدأ الناس يتحدثون عنا . ومن الاكيد انه سيقبض علينا عما قريب .
واجاب البيوروسي :

— لقد وُجد السُمُّن ليقع في الشبكة .
... وكان اعجاب بيلاجي بالبيوروسي يزداد يوماً عن يوم ، وكان اذا مادعاها الأم الصغيرة .. يخيل اليها كأن يد طفل ناعمة تدغدغ وجنتيها ؛ وكان هو الذي يقطع لها الحطب عندما يكون بول مشغولاً .
وفي احد الأيام أقبل يحمل على كتفه لوحاً خشبياً ، ثم اخذ الفأس واستبدل بمهارة ورشاقة ، احدى الدرجات المهترئة أمام مدخل البيت . وفي مرة أخرى ، اصلح السياج المتهدم ، وكان ، وهو يقوم بعمله ، يصفر ألحاناً حلوة كئيبة .
وقالت الأم يوما لابنها :
— لِمَ لا نؤوي البيورسي في منزلنا ؟ فذلك خيرٌ لكما معاً ، لأنه يوفر على كل منكما الذهاب لرؤية الآخر ؟
فسألها بول وهو يهز كتفيه :
— ولِمَ تزعجين نفسك ؟
— إزعاج ؟ لقد كانت حياتي كلها مليئة بالإزعاج دون ان ادري سبباً لذلك . وإني لأرى ان بامكاني ان أؤدي هذه الخدمة لفتى طيب مثله .
— افعلي ما شئت ، وسأكون سعيداً اذا ما رضي بذلك .
... وجاء البيورسي فأقام في بيتهم !

— ٨ —

ولفت البيت الصغير في طرف الضاحية انتباه الناس ، فراحت الأبصار المرقابة تخترق جدرانه ، واخذت تحوم فوقه اجنحة الشائعات من كل لون .
وكان النــاس يحاولون ان يكشفوا السر الغامض الذي يخفيه ، وكانوا ، في ظلمة الليل يتلصصون ، من النوافذ ، وفي بعض الاحيان كان ينقر الزجاج جبان ، ثم لا يلبث أن يولي الأدبار سريعاً .
واستوقف بيلاجي ، في احد الأيام ، صاحب فندق يدعى « بيغوبتسوف »

استوقفها في عرض الشارع . وكان عجوزاً ، ضئيل الجسم ، حسن البزة ، يربط باحكام حول عنقه الأحمر المترهل ، منديلا من الحرير الأسود ؛ ويرتدي صدارة سميكة ، خبازية اللون ، وتمتطي أنفه الدقيق اللماع نظارتان من صدف ، وهذا ما أكسبه لقب : « العين العظيمة » ، وبدون ان يتوقف او ينظر جواباً فاجأها بسيل من الكلام المفرقع كالحطب اليابس :

— كيف انت يا بيلاجي ؟ وكيف حال صغيرك ؟ ألن تزوجيه عما قريب ؟ لقد اصبح في سن الزواج ، وفي زواج الأبناء راحة الأهل . إن الحياة الزوجية تكسب المرء عافية عقلية وجسدية . إنها تحفظه كما يحفظ الخلُ الفطر . وانا لو كنت مكانك لزوجته. في عصرنا يجب أن نأخذ بعين الاعتبار وجود كل انسان، فلقد اخذ الناس يعيشون على هواهم ، وغزت الفوضى العقول ، وصار الناس يأتون اعمالاً ذميمة . لقد انصرفت الشبيبة عن بيوت الله وتجنبت الأندية العامة ، وصارت تجتمع في الخفاء ، وتتهامس في الزوايا . ولماذا يتهامسون ؟ أتسمحين لي أن اسألك ذلك ؟ ولِمَ يبتعدون عن المجتمع ؟ وماذا يعني القول الذي لا يستطيع المرء ان يجهر به امام الناس ، في الفندق مثلا ؟ اسرار ؛ اسرار ؟... ولكن كنيستنا الرسولية المقدسة هي مكان الأسرار ؛ اما الأسرار الاخرى التي تطبخ في الزوايا فمنشؤها ضلال العقل . أتمنى لك صحة طيبة .

... ورفع قبعته ، وهو يطوي ذراعه ببرودة ، ولوح بها في الهواء ثم مضى وتركها فريسة الارتباك .

وفي مرة أخرى التقت ماريا كورسونوف ، جارة آل فلاسوف ، وهي ارملة حداد كانت تبيع المآكل عند باب المعمل ، التقت الأم في السوق وقالت لها :

— راقبي ابنك قليلاً يا بيلاجي ؟

— ولماذا ؟

واجابتها ماريا بلهجة غامضة :

— انه يثير الاقاويل ، الأقاويل السيئة يا عزيزتي ، ويشاع انـه ينظم نوعاً من الجمعيات العمالية على طريقة السيّاطين، وهذا يدعى « فرقاً ». انهم سيتبادلون

ضرب السياط مثلهم .

— كفى حماقات يا ماريا .

وردت البائعة :

— يجب ان تصبي اللوم على مرتكبها لا على ناقلها .

... وحملت الأم كل هذه الاقاويل الى ابنها ، فهز كتفيه دون ان يجيب ؛ أما البيوروسي فقد أطلق العنان اضحكته الطيبة الداوية .

وقالت لها : ... والفتيات أيضاً ناقمات عليكم جداً ؛ فأنتم من خير الفئات، وكلكم من اطيب العمال ، وكلكم لا تعاقرون الخمرة ، ولا تأبهون لهن ؛ ويقال أن فتيات منحطات يأتين من المدينة للقائكم .

وصرخ بول بسخرية القرف :

— لا شك في ذلك .

وزفر البيوروسي :

— كل ما في المستنقع تفح منه رائحة النتن . وكنت تحسنين صنعاً أيتها الأم الصغيرة لو شرحت لهذه البطات الناشئة ما هو الزواج، لكيلا يستعجلن تحطيم اضلاعهن .

— إنهن يعرفن ذلك جيداً يا عزيزي ويدركنه ولكنهن لا يعرفن ماذا يفعلن بأنفسهن .

ولاحظ بول :

— إنهن يسئن الفهم ، وإلا لوجدن طريقاً آخر .

والقت الأم نظرة على وجهه الصارم :

— حسناً ، علمهن أنت ، فليس عليك إلا ان تدعو أقلهن طيشاً .

واجاب بول بجفاف :

— ليس ذلك مستطاعاً .

وسأل البيوروسي : وماذا لو حاولنا ؟

وصمت بول لحظة ثم قال :

ـ إن ذلك يبدأ بنزهات ثنائية ... ثم يتزوج البعض ، وينتهي الامر .

... وأوغلت الأم في تأملاتها . لقد كانت صلابة بول الرهبانية تقلقها ، وكانت تلاحظ ان رفاقه ، حتى الاكبر منه سناً كالبيوروسي مثلاً ، يعملون بتوجيهاته ، غير انه كان يتراءى لها أن الجميع يرهبونه ، ولا يحبونه بسبب من هذه القسوة .

وفي احدى الامسيات كانت مضطجعة ، وكان بول والبيوروسي ما زالا يقرآن ، فأصاخت بسمعها ، من خلال الحاجز الرقيق ، الى حديثهما الخفيض :

وقال البيوروسي فجأة :

ـ أتعلم أن ناتاشا تعجبني ؟

ولم يجب بول على التو ، بل قال بعد صمت :

ـ أعلم ذلك .

واحست بالبيوروسي ينهض ببطء ويذرع الحجرة، وسمعت قدميه الحافيتين تتساحبان على أرضها ، وسمعته يصفر لحناً حزيناً ، ثم يعود الى الكلام:

ولكن هل لاحظت هي ذلك ؟

وصمت بول ، وسأله البيوروسي خافضاً من صوته :

ـ وماذا تعتقد أنت ؟

ـ لقد لاحظتْ . ومن اجل ذلك رفضت العمل معنا.

وعادت خطى البيوروسي تتساحب على أرض الحجرة، وعاد صفيره الخفيف يتهدج ، ثم سأل .

ـ وماذا قلت لها ...؟

ـ ماذا ؟

همس : أني ... أني .

فقاطعه بول : ولِمَ تقول ذلك ؟

وتوقف البيوروسي ، واحست الأم انه يبتسم :

ـ حسناً . انا اعتقد ان الشاب اذا احب فتاة وجب عليه ان يبوح لها بذلك

والا فان حبه لن يفضي الى نتيجة .

وصفق بول كتابه وهو يغلقه :

ـ واية نتيجة تنتظر منه ؟

وصمت الاثنان هنيهة .

وسأل البيوروسي : واذن ؟

فأجاب بول بتأن : يجب ان يتصور المرء بوضوح مقصده . لنفترض انها هي ايضاً تحبك يا اندريه ، وهذا ما لا اعتقده ، ولكننا نفترضه افتراضاً ؛ وانكما تزوجتما . يا له من زواج طريف : زواج عامل ومثقفة ... وسترزقان اطفالاً ؛ وسيتوجب عليك ان تعمل وحدك ، وان تعمل بإرهاق ؛ وستصبح حياتك حياة حرمان ، لأنك ستحتاج ان تدفع نفقات الاطفال والمسكن؛ وستنتهيان كلاكما ، من اجل ذلك ، الى الدمار .

وخيم الصمت ، ثم استأنف بول كلامه بصوت هادىء :

ـ الافضل يا اندريه ان تدع هذا الامر ، والا تزعجها .

وخيم الصمت ثانية ، ونبضت ساعة الجدار تحصي بدقاتها الثواني التي تمر ، وقال البيوروسي :

ـ أهو قلب ذاك الذي يحب بنصفه الاول ويكره بنصفه الآخر ؟

... وسُمع حفيف اوراق تقلَّب . لقد عاد بول بلا شك الى القراءة .

... وظلت الأم مستلقية ، مغمضة العينين ، تخشى الاتيان بأية حركة ، وداخلها اشفاق على البيوروسي كاد يستدر عبراتها ، واشفاق اشد منه على ابنها فغمغمت في سرها : « يا حبيبي » .

وسأل اندريه فجأة:

ـ اذاً فعليّ ان اصمت ؟

فرد بول بهدوء : ذلك اشرف لك .

فقال اندريه : حسناً . هذا هو السبيل الذي سأسلكه .

ثم صمت لحظة ، واضاف بلهجة حزينة :
— وسيكون هذا عسيراً عليك يا صغيري بول عندما انت ايضاً...
— لقد كان عسيراً علي ...
ولامست جدران المنزل هبة ريح ، وسجل دقاق الساعة ، بدقة ، تفلت الزمن ، وقال البيوروسي ببطء :
— هذه القضايا يجب الا تثير ضحكنا !
فدفنت الام وجهها في الوسادة وبكت بصمت .
... وفي الصباح بدا لها اندريه اصغر قامة واكثر رقة ، وكان ابنها ، كما تعهده ، نحيلاً ، منتصب القامة ، صموتاً ، وكانت ما تزال حتى ذلك الحين ، تنادي البيوروسي باندريه اونيسيموفيتش ، ولكنها خاطبته اليوم ، دون اكتراث :
— يجب ان تصلح حذاءك يا صغيري اندريه ، والا فستبرد قدماك .
واجاب هو : سوف اشتري بأجري حذاء جديداً .
ثم شرع يضحك ، وراح فجأة يسألها ، وهو يضع يده الطويلة على كتفها :
— ربما كنت انت امي الحقيقية ، ولكنك لا تودين ان تعترفي بذلك امام الناس ؟ انك لا تجدينني وسيماً .. أليس كذلك ؟
واجابته بأن ربتت على يده . وكانت تود ان تحدثه احاديث كثيرة مفعمة بالود ، ولكن قلبها كان يعصره الاشفاق ، ولسانها يأبى ان يطيع .

— ٩ —

... وانتشر الحديث في الضاحية عن الاشتراكيين الذين ينثرون في كل مكان وريقات مكتوبة بالحبر الازرق . وكانت هذه الوريقات تفضح بعنف ما يدور في المعمل ، وتتحدث عن الاضرابات العمالية في « بطرسبورغ » وجنوب البلاد ، وتهيب بالعمال الى الاتحاد والنضال دفاعاً عن مصالحهم .
وكان اولئك الذين يمثلون جيلاً معيناً ، ويتقاضون في المعمل اجراً طيباً ،

يحملون الوريقات الى ادارة المعمل ويصيحون :
— مخربون ... يجب ان تحطم رؤوسهم .
اما الشبان فكانوا يقرأونها بحمية :
— هذه هي الحقيقة .
وكانت الأكثرية التي سحقها العمل والتي لا تبالي بشيء تجيب بكسل :
— لن يؤدي هذا الى خير ... أفمن المستطاع أن ...
ولكن الأوراق كانت تروق للناس ، فاذا مر اسبوع دون أن تصدر ، سأل بعضهم البعض الآخر :
— لقد انتهى امرهم ؟.. يقال ...
غير ان الوريقات لا تلبث أن تعود الى الظهور نهار الاثنين ، ويبدأ التعليق الهامس عليها من جديد
وفي المعمل والفندق كان يُلاحظ وجود أشخاص لا يعرفهم احد ، يطرحون الاسئلة ، ويختبرون ، ويتنسمون الأخبار ، ويستلفتون ، بغتة ، أنظار الجميع . بعضهم يستلفت النظر بحذره المريب ، وبعضهم الآخر باجتماعيته المفرطة .
وكانت الأم تعرف أن هذا الاضطراب كله من صنع ابنها ، وكانت ترى الناس يتألبون حوله ، فتختلط مخاوفها على مستقبله بزهوها في أن تكون أماً له .
وفي احدى الامسيات نقرت ماريا كورسونوف زجاج النافذة ، وعندما فتحت الأم لها ، وشوشت في أذنها على عجل :
— إحذري يا بيلاجي ... لقد أنهى حملانك الصغار ضحكهم ... ففي هذه الليلة سيفتش منزلكم ومنزل مازين وفيسو شيكوف .
وكانت شفتا ماريا الغليظتان تصطفقان بسرعة ، وانفها المكتنز ينشق ، وعيناها تغمزان وتدوران من اتجاه الى آخر ، وهما ترقبان شخصاً في الشارع .
— وأنا لا اعرف شيئاً ، ولم أقل لك شيئاً ... وحتى أني لم أرك اليوم أبداً ... أسمعت ؟

ثم توارت .

واغلقت الأم النافذة ، وتهافتت ببطء على كرسي ، غير ان حس الخطر الذي كان يهدد ابنها ، جعلها تثب بسرعة واقفة على قدميها . وارتدت ثيابها برشاقة ، ولفت رأسها بشال أحكمت شده ، واسرعت الى منزل « تيومازين » الذي كان مريضاً فلا يذهب الى العمل .

وكان ، عندما دخلت عليه ، يجلس بالقرب من النافذة يقرأ ، ويده اليسرى تهدهد اليمنى بشكل يظل معه الخنصر طليقاً . وما كاد يسمع النبأ حتى انتصب بعنف مصفر الوجه ، ودمدم :

ـ هذه المرة ... اذن ...

وسألته بيلاجي ، وهي تمسح بيدها المضطربة ، العرق عن جبينها :

ـ ماذ ينبغي ان نفعل ؟

فأجاب تيو وهو يمسح بيده السليمة شعره الأجعد :

ـ مهلا ... ولا تخافي .

فصاحت به : ولكني واثقة من انك انت ايضاً خائف .

ـ انا ؟

وتضرجت وجنتاه على الفور ، وابتسم بارتباك :

ـ ن ... نعم ... يا للشيطان . يجب اخطار بول ، وسأرسل اليه من يخطره حالاً ؛ اما انت فعودي الى منزلك ، ولا تهتمي فالامر بسيط ، انهم لن يشنقونا ... سنرى .

وعادت مسرعة ، وجمعت الكتب كلها في كومة احتضنتها ، ودارت في المنزل طويلا تفتش عن مخبأ لها . لقد فكرت ان تخبئها في الفرن تحت المدفأة ؛ وحتى في برميل للماء ؛ وكانت تعتقد ان بول سيترك عمله ويعود سريعاً الى المنزل ، ولكنه لم يأتِ ... واخيراً جلست متعبة منهكة على مقعد في المطبخ ، وخبأت الكتب تحت ثيابها ، وظلت على وضعها هذا دون ان تجرؤ على التحرك ، الى ان عاد بول واندريه .

وصرخت دون ان تنهض : هل عرفت ؟

فاجاب بول مبتسماً : نعم ... وهل انت خائفة ؟

ـ اجل انا خائفة . جد خائفة .

وقال اندريه : يجب الا تخافي ، فالخوف لا يجدي شيئاً .

ولاحظ بول : حتى ابريق الشاي لم تهيئيه .

فنهضت الام عندئذ ، واشارت الى الكتب ، وقالت بارتباك :

ـ لم افعل بسبب هذه .

وانفجر بول واندريه ضاحكين ، فرد ذلك عليها شجاعتها . وتناول بول بعض المجلدات ، وانطلق يخبئها في الخارج ، في حين كان اندريه يشعل موقد الشاي .

ـ يجب الا تجزعي ايتها الأم الصغيرة ؛ فنحن نخجل لأولئك الذين يشغلون أنفسهم بحماقات كهذه .. لسوف يأتي فتيان ضخام اقوياء البنية ، على جنوبهم سيوف ، وفي جزماتهم مهاميز ؛ وسينقبون في كل مكان : يفتشون تحت السرير ، وتحت المدفأة ، واذا كان هناك من قبو ، فانهم سيهبطون اليه ، او اهراء فانهم سيصعدون اليه ، وتلتف على خراطيمهم خيوط العنكبوت ، فيحشرجون . ولا تعجبهم التسلية ، بل يداخلهم الخجل ، فيبدون من اجل ذلك ، بملامح الاشرار ، ويغضبون . عمل قذر يعرفونه جيداً . لقد قلبوا مرة كل ما في بيتي ، قلبوه رأساً على عقب ؛ وكانوا ، كذي قبل ، اغبياء بلهاء فانصرفوا دونما كلفة . وفي مرة اخرى اقتادوني معهم ، وزجوني في السجن حيث لبثت اربعة اشهر... وهو ، على ما ترين ، وقت قصير .

انهم يقبلون اليك ، فيجتازون الشارع بموكب ، ويطرحون عليك كومة من الاسئلة . انهم ليسوا خبثاء ، ولكنهم يفكرون كالطبول ، ويقودونك من بعد ، الى السجن . انهم يتقاذفونك من جهة الى جهة ، فلا تلمهم . فعليهم ان يحصلوا قوتهم . ومن ثم فأنهم يطلقون سراحك ، وهذا كل ما في الامر .

وصاحت بيلاجي :

— إن لك دائماً طريقة خاصة في الكلام يا صغيري اندريه .

وكان ، وهو جاثٍ امام الموقد ، ينفخ النار ليؤجج الجمر ، ثم ما لبث ان رفع وجهه العابق بالدم نتيجة للجهد الذي بذل ، وسأل وهو يعقص شاربيه :

— وكيف اتكلم ؟

— كأن احداً لم يذقك الهوان ابداً .

فتبسم وقال وهو يهز رأسه باسماً :

— أهناك فوق سطح الأرض امرؤ لم يُذل ؟ لقد أذقت الهوان حتى لم يعد الهوان يثير حنقي . إذ ما العمل اذا كان الناس لا يستطيعون التصرف إلا بهذه الطريقة ؟ إن الاستفزازات تعرقل سير العمل ، والتوقف عندها ، يعني إضاعة الوقت ، هذه هي الحياة . لقد كنت قبلاً أنقم على الناس ، ولكنني فكرت فيما بعد ، فوجدت ألاّ داعي لذلك ، فكل امرىء يخشى ان يتلقى الضربة من جاره ، وهو من اجل ذلك ، يتأهب ليسبقه إليها . هكذا هي الحياة أيتها الأم الصغيرة .

... وكانت كلماته تنساب بهدوء واتزان ، فتلطف من حدة القلق الذي يشيعه انتظار التفتيش ، وكانت عيناه الجاحظتان تبتسمان صافيتين ، وقامته الفارعة المترنحة تبدو رشيقة .

وزفرت الأم وقالت بحرارة :

— ليهبك الله السعادة يا صغيري أندريه .

وخطا البيوروسي خطوة واسعة نحو الموقد ، واقعى من جديد وهو يغمغم :

— اذا وُهبت السعادة فلن ارفضها ، أمـا أن أطلبها ... فإني لن افعل ذلك ابداً .

وعاد بول من فناء الدار ، وقال بصوت واثق وهو يمشط شعره :

— إنهم لن يعثروا على شيء .

ثم تابع وهو يمسح يديه بعناية :

— اذا اظهرتِ لهم بأنك خائفة ، يا اماه ، فانهم سيقولون في انفسهم : لا بد

ان هناك شيئاً ، وإلا لما اضطربت هكذا . انك تدركين جيداً أننا لا نضمر الشر أبداً ، فالحقيقة هي في جانبنا ، واننا من أجلها نعمل طوال حياتنا . هذه هي جريمتنا ، فلِمَ الارتعاش اذن ؟

ووعدته : سأستعيد رباطة جأشي يا بول .

وفي الوقت نفسه أردفت :

— ليتهم ، على الأقل ، أسرعوا في المجيء .

ولكنهم لم يأتوا تلك الليلة . وفي صباح الغد ، توقعت أن تكون مخاوفها مثار مزاح ، غير أنها كانت على العكس أول الضاحكين من نفسها :

— لقد خشيت ان أخاف .

— ١٠ —

وبعد شهر تقريباً من ليلة الذعر تلك ، جاؤوا .

وكان نقولا فيسوشيكوف هناك ، وكانوا ثلاثتهم يتحدثون عن جريدتهم . وكان الوقت متأخراً ، نحو نصف الليل ، وكانت الأم مضطجعة توشك ان تغفو ، ولكنها كانت تسمع بغموض اصواتهم الخفيضة القلقة .

ونهض اندريه بغتة ؛ واجتاز المطبخ وهو يمشي على رؤوس أصابعه ، ثم أحكم بهدوء اقفال الباب وراءه . وفي المدخل تعالت جلبة دلو حديدي وشُرع الباب فجأة على مصراعيه ، وخطا البيوروسي خطوة في المطبخ ، وقال بصوت خفيض ولكنه واضح :

— اني أسمع صوت مهاميز .

ووثبت الأم من سريرها تتلمس يداها المرتعشتان ثيابها ، ولكن بول ظهر على العتبة وقال لها بهدوء :

— إبقي في سريرك فأنت مريضة .

وسُمع حفيف خفيّ في الردهة ، فاقترب بول من الباب وقال وهو يدفعه بيده :

— من هناك ؟

وفي سرعة البرق انتصب في العتبة شبحٌ طويل رمادي،ثم تبعه آخر،وأحاط الدركيان بالفتى ، ورن صوت حادٌ ساخر :

— لسنا من تنتظرون أليس كذلك ؟

وكان المتكلم ضابطاً طويل القامة نحيفاً ، يحمل شارباً أسود كثيفاً ، وظهر بالقرب من سرير الأم « فيدياكين » موظف البوليس في الضاحيــة ، وهو يؤدي التحية بإحدى يديه في حـــين تشير الثانية الى بيلاجي ، ويقول ، وهو يقلب عينيه المخيفتين :

— هذه أمه يا صاحب السعادة .

ثم يضيف ، وهو يحرك ذراعه باتجاه بول :

— وهذا هو بالذات .

وتساءل الضابط وهو يرخي أجفانه :

— بول فلاسوف ؟

وهز بول برأسه أن « نعم » وتابع الضابط وهو يفتل شاربه :

— يجب ان أجري تفتيشاً في منزلكم. انهضي أيتها العجوز.. من يوجد هناك؟

ونظر الى الحجرة ثم توجه اليها بخطى واسعة :

—أسماؤكم ؟

ودخل شخصان طلبا كشاهدين. إنهما « تيرياكوف» السبّاك العجوز وأجيره السائق « ريبين » الرجل الجاد ذو الشعر الأسود واللحيـــة السوداء ، الذي قال ، عند دخوله ، بصوت ممتليء رنان : تحية يا بيلاجي .

وارتدت الأم ثيابها ، ثم دمدمت لتمنح نفسها شيئاً من الشجاعة .

— يا لأساليبهم . يأتون في الليل والناس نيام !

واكتظت بهم الحجرة التي كانت تفح منها رائحة دهان قوية ،وتقدم دركيان ومفوض شرطة الضاحية « ريسكين » وهم يضربون بأحذيتهم أرض الغرفـة ؛ فحملوا ما على الرف من كتب ، وكدسوها على الطاولة أمـام الضابط ؛ وكان هناك آخران يضربان الجـــدار بقبضتيها ، ويفتشان تحت الكراسي ، وتسلق

أحدهما المدفأة بصعوبة . وكان البيروسي وفيسوشيكوف ما يزالان في إحدى الزوايا ، يلتصق احدهما بالآخر ، وكان وجه نيقولا المجدور مغطى ببقع حمراء ، وعيناه الصغيرتان لا تتحولان عن وجه الطابط؛أما اندريه فقد كان يمسد شاربه، وعندما دخلت الأم الى الحجرة حيّاها باحناءة رأسٍ حميمة باسمة .

وتقدمت بيلاجي ، وهي تبذل جهدها في كبت رعبهـا ، تقدمت لا بمشية جانبية كعادتها ، بل شامخة الصدر،وهذا ما أضفى على سخصيتها عظمة مصطنعة ساخرة . لقد كانت تسير دونما ضجيج ، وكان حاجباها يرتعشان .

وكان الضابط يأخذ الكتب برشاقة ، يأخذها بين أنامله البيضاء النحيفـة ، فيقلبها ، ويهزها ، ثم يطرحها جانباً بحركة بارعة . وكان احدها يهوي احياناً الى الأرض بشيء من الفتور . وكانوا جميعاً صامتين ، فلا تسمع إلا شخير الدركيين الذين يتصببون عرقاً ، ورنين المهاميز ، وسؤالاً يرتفع بين الفينة والثينة :

— هل فتشتم هنا ؟

وجلست بيلاجي بجانب بول قرب الحاجز ، وشبكت مثـله ذراعيها فوق صدرها ، وحدقت كذلك بالضابط ، وكانت ركبتاها ترتعشان ، والضبـــاب يغشّي عينيها .

ولعلع صوت فيسوشيكوف فجأة ، حاداً قاطعاً :

— ولِمَ تطرحون الكتب في الأرض ؟

وارتعشت الأم ، وحرّك فيرياكوف رأسه كأنه إنما تلقى صفعة على رقبته ، وسعل ريبين وحدّق في نيقولا بإمعان .

وأسدل الضابط أجفانه ، ثم أغرق بصره ، للحظة ، في الوجه الجامد المجدور ، وراحت أصابعه تقلب الصفحات بسرعة أكثر ،وكان، بين الفترة والفترة يحلق بعينيه الرماديتين ، حتى ليخيل للرائي أنه يعاني ألماً مخيفاً ، وانه يكاد يطلق في وجه هذا الألم صرخة كليلة من الرعب .

وصاح فيسوشيكوف من جديد :

— ايها الجندي . اجمع هذه الكتب ..

وتلفت الدركيون جميعاً نحوه ، ثم تلفتوا الى الضابط الذي رفع ايضاً رأسه ولفّ قامة نيقولا الضخمة بنظرة متفحصة ، وقال بصوت متساحب أخنّ :

ـ اجمعوها .

وانحنى أحد الدركيين ، وراح وهو يرمق فيسوشيكوف بطرف عينه ، يجمع الكتب المتناثرة الأوراق .

وهمست الأم في أذن ابنها :

ـ يجب ان يصمت هذا الـ « نيقولا » !

ولكن ابنها هزّ كتفيه . أما البيوروسي فطأطأ رأسه

ـ من منكم يقرأ الكتاب المقدس ؟

وأجاب بول : انا

ـ ولمن هذه الكتب كلها ؟

فأجاب بول أيضاً : انها لي .

وقال الضابط وهو يستلقي على متكأ المقعد :

ـ حسناً .

ثم شد اصابع يديه الدقيقة ، ومد ساقيه تحت الطاولة ، وفتل شاربه ، ونادى فيسوشيكوف :

ـ أأنت اندريه ناكودكا ؟

وأجاب نيقولا وهو يتقدم نحوه :

ـ نعم .

ومد البيوروسي يده ، وأمسك نيقولا من كتفه ، وأرجعه الى الوراء :

ـ انه مخطيء فأنا اندريه .

ورفع الضابط مهدداً فيسوشيكوف بسبابته :

ـ إحذر يا هذا ..

ثم راح يقلّب اوراقه .

وفي الخارج كانت العيون اللا مبالية ، عيون الليلة القمراء ترنو من النافذة ،

وكان شخص ما يسير أمام المنزل ، والثلج يصر تحت خطواته .

وسأل الضابط :

ـ هل سبق يا ناكودكا أن أجري معك تحقيق في جرائم سياسية ؟

ـ نعم ، في روستوف ، وساراتوف ، ولكن رجال الدرك هناك كانوا يخاطبونني باحترام .

وغمز الضابط بعينه اليمنى ، ثم فركها ، وتابع ، وهو يكشر عن أسنانه الصغيرة :

ـ وألا تعرف ، يا ناكودكا ، نعم أنت بالذات ، ألا تعرف من هم السفلة الذين ينشرون في المعمل النداآت المجرمة ؟

وترنح البيوروسي فوق قائمتيه وكان ، والبسمة العريضة تنطرح على شفتيه ، يهم بأن يقول شيئاً ، عندما ارتفع من جديد ، صوت نيقولا المحنق :

ـ هذه هي المرة الأولى التي نرى فيها سفلة !

واصفرّت ندوب الجرح في وجه الأم ، وثقل حاجبها الآيمن ، وراحت لحية ريبين تهتز بشكل غريب ، وراحت أصابعه تسرحها ببطء وهو مطأطيء الرأس .

وصاح الضابط :

ـ إطرحوا هذا الحيوان خارجاً .

وتقدم دركيان فأخذا نيقولا من إبطه ، واقتاداه بعنف الى المطبخ حيث وقف ، وقد سمّر رجليه في الأرض ، وصاح :

ـ انتظروا ريثما ارتدي ثيابي .

وعاد مفوض الشرطة ليقول : لقد فتشنا كل مكان فلم نعثر على شيء .

وهتف الضابط مبتسماً : ـ مفهوم .. فنحن هنا أمام رجل خبير .

وكانت الأم تصغي الى صوته النسائي الراجف ، وتنظر برعب الى وجهه الأصفر ، وتتبين ، في أعطاف هذا الرجل ، عدواً لا رحمة عنده ، وقلباً يملأه احتقار ارستقراطي للشعب . إنها لا ترى ، رجالاً من هذه الفضيلة ، إلا نادراً ، حتى كادت تنسى أنهم موجودون ؛ ودار في خلدها : « هؤلاء هم الذين نضايقهم . »

— ايها السيد اندريه او نيسيموف ناكودكا،المجهول الأب، إني آمر بتوقيفك.
وسأل البيوروسي بهدوء :
— ولأي سبب توقفني ؟
وأجاب الضابط بتهذيب حاقد : هذا ما سأقوله لك فيما بعد .
واستدار نحو بيلاجي : أتعرفين القراءة ؟
فرد بول : كلا .
— إني لا أسألك انت .
قال ذلك بقسوة ثم أردف :
— أجيبي أيتها العجوز .
وانتصبت الأم وقد اجتاحها حقد غريزيّ عليه ، وانتظمتها رعدة كأنها انما أغرقت في ماء يجمد ، وتخضبت ندوب وجهها بلون ارجواني، وحط حاجبها،ثم أجابته وهي تمد نحوه ذراعها :
— لا ترفع من صوتك . فأنت ما تزال شاباً ، ولم تعرف الأسى بعد .
وقاطعها بول : هدئي من روعك يا أماه .
فصرخت وهي تندفع نحو الطاولة : لحظة يا بول ... ولم توقفون هؤلاء ؟
فصاح بها الضابط وهي تنهض :
— اخرسي ، هذا أمرٌ لا يعنيك . أحضروا فيسوشيكوف .
وراح يقرأ في ورقة أمامه ، وهو يرفعها ويدنيها من وجهه .
وأدخل نيقولا . وصاح به الضابط بعد أن توقف عن القراءة :
— اخلع قبعتك .
واقترب ريبين من بيلاجي وقال لها بصوت خفيض وهو يدفعها من كتفها .
— لا تحتدي أيتها الأم .
وسأل نيقولا قاطعاً على الضابط قراءة المحضر :
— كيف أستطيع ان أخلع قبعتي ويداي مغلولتان ؟
فطرح الضابط الورقة على الطاولة وصاح به :

— وقّعها .
ورنت الأم الى الحضور وهم يوقعون محضر الضبط ، وكان انفعالها قد خمد ، وقلبها قد وهن ، ودموع الاستخذاء والضعف تملأ عينيها . لقد سفحت مثل هذه الدموع طوال الأعوام العشرين من حياتها الزوجية ، ولكنها ، كانت في سنواتها الأخيرة ، قد نسيت حرقتها الكاوية .
ورنا اليها الضابط وقال بإيماءة احتقار :
— لم يئن بعد أوان البكاء يا سيدتي... فاحذري . فقد لا يبقى لك شيء من الدموع للغد .
فأجابته وقد عاودها الحنق :
— إن دموع الأمهات لا تنضب فعندهن منها ما يكفي ... وإذا كانت لك أم فإنها تعرف ذلك جيداً .
ورتّب الضابط أوراقه بسرعة في محفظة جديدة ، ذات قفلٍ لماع ، وأمر :
— الى الامام ... سر .
وبصوت منخفض تملأه المرارة قال بول وهو يشد على أيدي رفاقه :
— الى اللقاء يا اندريه .. الى اللقاء يا نيقولا .
ورد الضابط بسخرية :
— أجل الى اللقاء .
كان فيسوشيكوف يتنفس باعياء،وعنقه الضخم يحتقن بالدم ، وعيناه تبرقان بالغضب الشديد . وكان البيوروسي ضاحك الوجه ، يهز رأسه ، موجهاً بعض الكلمات الى الأم التي كانت تباركه باشارة الصليب قائلة :
— إن الله يرى العادلين .
وتهادت الشرذمة ذات المعاطف الرمادية،تهادت في المدخل على رنين المهاميز، ثم توارت . وكان ريبين هو آخر من انصرف . ولقد لف بول قبل ان يخرج بنظرة متفحصة من عينيه السوداوين وقال حالماً :
— حسناً ... الوداع .

وخرج بطيء الخطى ، يسعل في لحيته .

وظل بول ، وقد شبك يديه وراء ظهره ، ظل يذرع ببطء أرض الغرفة ، يذرعها طولاً وعرضاً بين الكتب المبعـــثرة ، والثياب التي تغطي الأرض ...

ويردد متجهم الاسارير :

ــ أرأيت كيف حدث هذا ؟

وغمغمت الأم وهي تتأمل بقلق وحيرة ، الحجرة التي عصفت بها الفوضى .

ــ لِمَ كان نيقولا فظاً غليظاً ؟

ورد بول بهدوء :

ــ لقد كان بلا شك خائفاً .

ودمدمت بيلاجي ، بوهن واعياء :

ــ لقد جاؤوا ، وقبضوا عليهم .. ثم اقتادوهم ..

ولم يبق لها إلا ابنها. وأخذ الاطمئنان يعود الى نفسها ، في حين كان تفكيرها يتركز بلا جدوى ، على الواقع . هذا الواقع الذي لا تستطيع فهمه وإدراكه :

ــ لقد سخر منا ذلك الرجل الشاحب . إنه يهدد ..

وقاطعها بول بحزم :

ــ كفى يا أماه ، وتعالي ، نرتب ما بعثروا ..

لقد خاطبها بيا أماه ، وبصيغة المفرد كما كان يخاطبها حين يكون أكثر قرباً منها . وسارت هي اليه ، وحدقت في عينيه ، وسألته بهمس :

ــ هل أهانوك ؟

ــ نعم ... وانه لشديد عليّ ذلك . لقد كنت أفضل أن اذهب معهم .

وخيل للأم انها ترى الدموع في عينيه ، وتحس ألمه ، فصعّدت زفرة وقالت له لتسري عنه :

ــ انتظر فسيأتي دورك أيضاً .

ــ أجل .

وبعد صمت قصير قالت بمرارة :

ــ لكم انت قاسٍ يا بول ، فليتك على الأقل تواسيني . اني اذا مـا تفوهت بأشياء رهيبة ، رددت عليّ بما هو أشد رهبة .

فرشقها بنظرة ، واقترب منها وقال بهدوء :

ــ هذا ما لا أدريه يا أماه .. وعلى كل حـــال ، يجب ان تتعودي ذلك .

فتأوهت وصمتت ، ثم تابعت ، وهي تكبت ارتعاشة رعب :

ــ وهل يمكن ان يعذبوهم ؟ ان يمزقوا اجسادهم ويسحقوا عظـــامهم ؟ اني عندما أفكر في هذا ، اواه.. انه لشيء رهيب يا صغيري بول . يا ابني الحبيب .

ــ انهم يعذبون الروح ، وهذا العذاب أشد إيذاء وألماً حين تقترفه ايديهم القذرة .

ــ ١١ ــ

وفي صبيحة اليوم التالي علم ان بوكين وسوموف وخمسة آخرين قد اوقفوا ، وفي المساء مر تيومازين مروراً خاطفاً : لقد فتشوا منزله هو ايضاً ، وشفوا غلته ولذلك فهو يشعر بأنه بطل .

وسألته الأم : هل داخلك الخوف يا تيو ؟

فشحب لونه ، وتقعر وجهه ، وارتعشت فتحة أنفه :

ــ لقد خشيت ان يضربني الضابط ، فلقد كان مارداً أسود اللحية ، يغطي الشعر ذراعيه ، وتتركز فوق انفه نظارتان سوداوان يبدو معها انه لا يحمل في وجهه عينين . وكان يصرخ ، ويرفس الأرض بقدمه ، ويقول بأني سأتعفن في السجن ، انا الذي لم يضربني احد من اهلي ، لا ابي ولا أمي ، فلقد كنت وحيدهما ، وكانا يحبانني .

وأغمض عينيه لحظة ، وعض شفتيه ، وبحركة سريعة نفش شعره بكلتا يديه ، وقال وهو يحدق في وجه بول بعينيه المحمرتين قليلاً :

ــ اذا ضربني احد ، فإنني أبقر بطنه بسكين ، واقطعه بأسناني . انه ليحسن صنعاً حين يقتلني على الفور .

وصاحت به بيلاجي .

ــ إنك شديد الهزال ، شديد النحول ، فماذا تصنع للدفاع عن نفسك ؟

ولاك تيو هذه الكلمات :

ــ سوف افعل .

وعندما انصرف قالت الأم لبول :

ــ سيتحطم هذا قبل الآخرين .

واعتصم بول بالصمت .

وبعد لحظات قليلة ُفتح باب المطبخ ببطء ، ودخل ريبين وقال باسماً :

ــ تحية . هو ذا انا . لقد ُحملت مساء الأمس على المجيء ، اما اليوم ، فلقد جئت بمطلق ارادتي .

وشد يمين بول بحرارة ، وأمسك الأم من كتفها قائلاً :

ــ هل تقدمين لي الشاي ؟

وتفحّص بول بصمت وجهه العريض ، البرونزي اللون ، ذا اللحية السوداء الكثة ، والعينين القاتمتين ، وكان في نظراته الهادئة ما يبعث على الرهبة .

وانطلقت بيلاجي الى المطبخ تعد الشاي ، أما ريبين فقد جلس يداعب لحيته ، وراح وهو يسند مرفقيه الى الطاولة ، يلف بول بنظرته السوداء .

وقال ... وكأنه يكمل حديثاً سابقاً :

ــ وهكذا ... يجب عليّ ان أحدثك بصراحة . لقد راقبتك منذ أمد طويل ــ فنحن نكاد نكون جارين ــ فلاحظت انك تستقبل كثيراً من الناس ، دون ان ينتج عن ذلك شغب او فضائح .

هذا أولاً ... ثم ان الناس الذين لا يثيرون الفضائح ، يستلفتون الانظار بسرعة : أليس كذلك ؟ وانا يزعجني ان ارى قوماً يعيشون في عزلة .

وكانت لهجته صارمة ، ولكنه كان يتكلم بيسر ، ويمسد لحيته بيده السمراء ، وعيناه لا تتحولان عن بول :

ــ لقد اخذوا يتحدثون عنك ... ولكن رؤساءك في المعمل يسمونك زنديقاً ، فأنت لا تذهب الى الكنيسة ... وانا كذلك لا أذهب اليها ... ثم هناك قضية المناشير التي ظهرت ... فهل انت صاحب هذه الفكرة ؟

ــ نعم ... انا .

فصاحت الأم هائجة وهي تخرج من المطبخ :

ــ ولكنك لست وحدك .

فابتسم بول ؛ وابتسم ريبين كذلك ، وهو يقول :

ــ حسناً .

وأحنق الأم انهما لم يعيرا كلامها أي انتباه ، فنشقت بصوت مسموع ، وعادت الى المطبخ .

هذه المنشورات كانت فكرة جميلة ... انها تحرك الجماهير ... بلغت تسع عشرة نشرة ؟

ــ أجل

ــ لقد قرأتها جميعها بإمعان ، وهناك أشياء لم أفهمها . اشياء لا ضرورة لها . نعم . فعندما يتكلم المرء كثيراً ، تكون هناك كلمات كثيرة لا قيمة لها .

وابتسم ريبين ، وكانت اسنانه بيضاء قوية .

ــ ثم كان التفتيش ... وهذا على الأخص ما حملني على اتخاذ موقف . أما أنت والبيوروسي ونيقولا فلقد اسفرتم عن وجوهكم و...

ولم يجد اللفظة المبتغاة ، فصمت ، وألقى نظرة نحو النافذة ، وهو ينقر بأصابعه على الطاولة :

ــ لقد أعلنتم عن عزمكم ... فكأنكم قلتم : « يا صاحب السعادة : قم بعملك ونحن نقوم بعملنا » ... والبيوروسي هو ايضاً فتى طيب . لقد سمعته مراراً يتكلم في المعمل ؛ وقلت في نفسي : هذا الفتى لا يمكن ان ُيحطّم والموت وحده هو الذي يقهره . انه قوي الأعصاب ... أتصدقني يا بول ؟

فأجاب بول وهو يهز رأسه : نعم .

ــ حسناً . انت ترى أني في الاربعين ، فأنا أكبر منك مرتين ؛ وهذا يعني أني رأيت أكثر منك عشرين مرة . لقد خدمت في الجندية ثلاث سنوات ، وتزوجت مرتين ، أما زوجتي الأولى فقد ماتت ، وأما الثانية فقد هجرتها .

وكنت في القوقازوعرفت الدوخوبوريين « Dokhodors » . يحسب الناس يابني انهم أسياد الحياة المسيطرون عليها ، ولكن الأمر على عكس ما يعتقدون .

وكانت الأم تصغي بنهم الى حديثه الواثق ،وقد سرها ان ترى رجلا ناضجاً مثله ، يزور ابنها ويحادثه كأنه انما يعترف له ؛ ولكنها كانت تلاحظ ان بول يعامل ضيفه بكثير من الفتور،ولكي تزيل من نفسها هذه الانطباعة سألت ريبين:

— أتريد شيئاً من الطعام يا ميشال ؟

— اشكرك ايتها الأم فلقد تناولت عشائي ... هكـذا إذن يا بول ، فأنت تعتقد ان الحياة لا تسير حسب القانون ؟

ونهض بول ، وراح يذرع أرض الغرفة ، ويداه وراء ظهره :

— كلا ... ان الحياة تسير على احسن حال . ألا ترى انها قادتك إليّ متفتح البصيرة ؟ انها توحّد بيننا شيئاً فشيئاً ، نحن الذين نعطي العمـل كل وجودنا ؛ وسيأتي الوقت الذي توحدنا فيه جميعاً . انها جائزة قاسية بالنسبة لنا ، ولكنها هي نفسها التي تفتح عيوننا وتكشف لنا عن معناها المرير . انها هي نفسها التي تعلم الانسان كيف يستحث خطاه .

وقاطعه ريبين :

— هـذا صحيح . يجب ان يُجدد الانسان . اذا كان جربا فقـده الى الحمام ، اغسله وألبسه ثياباً نظيفة ، فإنه سيشفى ... أليس هذا صحيحاً ؟ ولكن كيف ننظف الإنسان من الداخل ! هذه هي المشكلة .

وراح بول يتحدث بحرارة وحيوية عن السلطات ، عن المعمل ، عن الطريقة التي يدافع بها العمال في الخارج عن حقوقهم . وكان ريبين ينقر الطاولة أحياناً بأصبعه ، كأنه إنما يضع النقاط ، ولكنه كان يصيح في كل مرة

- هذا هو الواقع .

وجاء وقت ارتسمت فيه على شفتيه بسمة مختزلة ، ثم قال بهدوء :

- هه ؛ انك شابٌ ؛ انك لم تعرف الناس بعد .

ولكن بول أجابه باتزان وهو ينتصب أمامه :

— يجب ألا نتحدث عن الشيخوخة او الشبـاب ، ولننظر أي الأفكار

هي الأصح .

— إذاً فإنهم ، حسب رأيك ، يخدعوننا حتى في الله ؟ هذا صحيح . ثم إني اعتقد ايضاً ان الدين الذي نتمسك به ليس هو الدين الصحيح .

... وهنا تدخلت الأم . لقد كانت حين اخذ ابنها يتحدث عن الله ، وعن كل ما يمس الإيمان ، وعما هو عزيز لديها ومقدس، كانت تلاحق باستمرارنظراته لتطلب اليه بصمت ألا يمزق قلبها بتبشيره القاسي الكنود ، ولكنها كانت تعتقد انها تتلمس الأيمان في تشككه ، وهذا ما كان يطمئنها ويجعلها تسائل نفسهـا :

« كيف أستطيع ان افهم افكاره ؟ » ، ولقد تصورت انه لمن المزعج والمشين في آن واحد ، ان يستمع ريبين ، وهو الرجل الناضج ، الى موعظة بول ، ولكنها عندما طرح الضيف سؤاله لم تتمالك ان تجيب بإيجاز واصرار :

ـ عندما تتحدثون عن الله تعالى ، يجب ان تكونوا أكثر حذراً ، أما انتم ، فمن المؤكد انكم تفعلون ما تشاؤون .

واستعادت انفاسها ، وتابعت باندفاع وقوة :

ـ علامَ تعتمد عجوز مثلي في حزنها اذا انتزعتم الله منها ؟

وطفحت عيناها بالدمع . وكانت تغسل الآنية ويداها ترتعشان .

وقال بول بوقار وحنو :

ـ إنك لم تفهمينا يا امّاه .

واضاف ريبين بصوت بطيء معبر وهو يلتفت الى بول باسماً :

ـ سامحيني ايتها الأم ، فلقد نسيت أنك طعنت في السن لدرجة لا نستطيع معها اجتثاث ثآليلك .

وتابع بول :

ـ لم اكن اتحدث عن الله الطيب الرحيم الذي تؤمنون به ، بل عن الله الذي تهددنا به الكهنة ، كما لو كانوا يهددوننا بعصا،عن إلـه يُراد باسمه ان يخضع العالم كله للإرادة القاسية ، ارادة البعض .

وصرخ ريبين وهو يضرب الطاولة :

ـ اجل . هذا هو الواقع . لقد زيفوا لنا حتى الله ، وسخروا ضدنا كل ما في ايديهم . أتذكرين ايتها الأم ؟ لقد خلق الانسان على شاكلته ، على صورته ، اذاً فهو يشبه الانسان اذا شابهه الانسان ، ولكننا نحن لا نشبه الله ، بـل نشبه الوحوش الضارية. انهم يظهرونه لنا في الكنيسة على شكل فزاعة . لذا ينبغي ان نطوّر الله ، ايتها الأم ، ينبغي ان نطهره، فلقد ألبسوه ثوباً من الكذب والنميمة وشوهوا وجهه ليقتلوا روحنا .

وكان يتكلم بصوت منخفض ، ولكن كل كلمة من كلماته كانت تنقضّ على رأس الأم كالقبضة الثقيلة ، فترميها بالصمم ، وكان وجهه العريض الذي تؤطره لحيته السوداء بإطار من حداد، يثير رعبها، وألق عينيه القاتم يثقل عليها ويوقظ في قلبها الخوف المعذّب .

وقالت وهي تهز رأسها :

ـ خيرٌ لي ان انسحب ، فإن سماع هذا التجديف أمرٌ فوق احتمالي .

وهربت الى المطبخ في حين كان ريبين يصرخ :

ـ أرأيت يا بول؟ ليس هو العقل مرتكز كل شيء بل القلب،فالعقل منطقة في الانسان ، لا ينبت فيها شيء آخر ... ابداً ..

فقال بول باصرار :

ـ ان العقل وحده هو الذي سيحرر الانسان .

وأجاب ريبين بعناد :

ـ ان العقل لا يعطي القوة ،أما القلب فيعطي قوة ، ولكنه لا يعطي عقلاً.

وكانت الأم قدتخففت من ملابسها، واستلقت دون ان تؤدي صلاتها، وكانت تحُس بالبرد ، وتشعر بانحراف صحتها .

ان ريبين الذي بدا لها، أول الأمر،متزناً صحيح التفكير،يثير الآن كرهها .

وكانت تردد وهي تصغي الى صوته :

ـ زنديق ، باذر فوضى .. لقد كان ينقصنا ان يأتي هو أيضاً ..

... اما هو فكان يتكلم بهدوء وثقة :

ـ ان المكان المقدس يا بول يجب ألا يظل فارغاً . وان نفسنا نقطة حساسة. انها المكان الذي يسكنه الله، فإن يهجرها يشق فيها جرحاً، وعلينا ان نكتشف ايماناً جديداً ، ان نبدع إلهاً يكون صديقاً للناس .

فصاح بول : هذا ما كانه المسيح .

ـ لم يكن المسيح ذا إرادة ثابتة : لقد كان يقول : ابعد عني هذا الكأس . ولقد كان يعترف بقيصر ، أما الله فلا يعترف بسلطان انسانٍ على الآخرين لأنه هو السلطان كله . انه لا يجزيء نفسه،ولا يقول : هذا إلهي ... وذاك بشري. وكان المسيح يبيح التجارة ، ويبيح الزواج ، ثم انه لعن شجرة التين ، فكان ذلك ظلماً،أفمجرمة هي لأنها كانت لا تحمل ثمراً؟ اذا كانت النفس لا تعطي الثمر الطيب ، فليس الذنب في ذلك ذنبها، افأنا الذي غرس الشر فيها ؟ قل لي ؟

وكان صوتهما لا يفتأ يلعلع في الحجرة ، يعـلو تارة وينطفيء أخرى ، وكان بول يروح ويجيء ، والخشب يصر تحت خطواته ، وكانت الأصوات كلها، تنصهر حين يتكلم،في دوي صوته، أما ريبين فكانت دقات الساعة تُسمع عندما يجيب بصوته الاجش الهاديء، كما تسمع ايضاً الفرقعة الجافة،فرقعة الجليدالذي كان يخدش بأظفاره الحادة جدران المنزل .

ـ سأقول لك على طريقتي كسائق ، ان الله كالنار. انه يعيش في القلب،ولقد قيل : ان الله هو الفعل ، والفعل هو الفكر ...

فردد بول بإصرار : هو العقل .

ـ هو كذلك ، وهذا يعني ان الله هو في القلب ، وفي العقـل وليس في الكنيسة . ان الكنيسة هي قبر الله .

وكانت الام قد نامت ، فلم تشعر بريبين عندما خرج .

... وأخذ يتردد على بول دائماً ، وكان حين يجد أحد رفاقه عنده يقبع في الزوايا صامتاً يردد بين الفينة والفينة هذه الكلمة :

ـ هذا هو الواقع .

وفي احدى المرات نقل بصره بين الحضور ، وقال بوجه باسم :

ـ يجب ان تتحدثوا عما كان ... أما الذي سيكون فلا يعرفه أحد .

اسمعوا : عندما يتحرر الشعب يقرر بنفسه ماذا يحسن به ان يفعل . انهم يحشون رأسه بأشياء لا يريدها، وهذا يكفي . ليختبر الشعب نفسه ، فلربما كان يود ان يرفض كل شيء ، الحياة كلها، والعلوم كلها، ولربما رأى أن كل شيء موجه ضده ، كإله الكنيسة مثلاً، وليس لكم انتم إلا ان تضعوا بين يديه الكتب كلها ، وسيجيب هو بنفسه جيداً .

وكان إذا ما وجد بول وحده ، يدخلان في نقاش لا نهاية له ، ولكنه نقاش هادىء أبداً ، وكانت الام تصغي اليهما بقلق ، وتتبعهما بنظراتها محاولة ان تفهم ما يقولان . وكان يخيل لها أحياناً ان الفلاح ذا المنكبين العريضين واللحية السوداء، وابنها القوي الشديد البنية . قد أصيبا كلاهما بالعمى . لقد كانا يسيران من ناحية إلى أخرى بحثاً عن مخرج ، ويتشبثان بكل شيء ، ويزعزعان كل شيء بأيديهما القوية غير الحاذقة ، ويبدلان وضع الاشياء ، ويطرحانها ارضاً ثم يدوسانها بأقدامها ... وكانا يلامسان هذا، ويتلمسان ذلك ،ثم يدفعانها كليهما دون أن يفقدا الامل ، ولا الإيمان .

وكانا قد عوداها سماع الكثير من الكلمات المخيفة، يتلفظان بها بجرية ووقاحة، ولكن هذه الكلمات كانت لا تصدمها بنفس العنف الذي تعرضت له أول مرة ، فلقد تعلمت كيف تتحامى تأثيرها. وكانت احياناً تستشعر وراء الكلمات التي تنكر وجود الله ، إيماناً قوياً به ، وإذا كان ريبين لا يعجبها ، فإنها لم تعد تضمر له الكره الذي عرفته من قبل .

وكانت تذهب الى السجن مرة في الاسبوع لتحمل إلى البيوروسي الثياب والكتب ، وقد استحصلت يوماً على إذنٍ بمقابلته ، وعندما قفلت ، راحت تتحدث عنه بحنان :

ـ إنه ما فتىء كما عرفناه في البيت ، لطيفاً مع كل الناس ، يمازح من يمازحه. إن السجن بالنسبة له قاسٍ ومؤلم ، ولكنه لا يُظهر ذلك ابداً .

وعلق ريبين :

ـ هكذا يجب ان يكون الرجل . إننا نعيش جميعاً في العذاب ، ونتنفس به ، كأنه جزء من كياننا ، وليس هناك ما نزهو به . إن الناس ليسوا معصوبي العيون ، كلهم ، بل هناك من يعصب عينيه بنفسه . وعندما يكون الناس ضرباً من الحيوانات ، لا يكون لنا إلا ان نصبر .

ـ ١٢ ـ

كان منزل آل فلاسوف الصغير الأشهب ، يسترعي اكثر فأكثر ، انتباه سكان الضاحية ؛ وكان في ذلك الاهتمام الذي يولونه إياه كثيرٌ من الحذر والريبة؛ والكره اللاواعي ؛ والى جانب هذا الشعور كان ينمو باطـّراد فضولٌ مطمئن . وكثيراً ما كان يقبل على المنزل رجل مجهول ليقول لبول وهو يتفحص ما حوله بكثير من الاحتراس :

ـ يا بني إنك تقرأ الكتب والقوانين ، ومن المحتم أنك تعرفها ، إذن تعال فاشرح لي .

ثم يروي لبول ظلامة ألحقها به رجال البوليس أو إدارة المعمل، وفي الحالات المعقدة ، كان بول يسطر بطاقة صغيرة ، ويرسل الرجل الى المدينة ، الى محام من معارفه ، وقد يشرح بنفسه المسائل الأشياء التي تستعصي على فهمه ، حين يكون ذلك بمقدوره .

وأخذ شعور الاحترام يتنامى شيئاً فشيئاً ، الاحترام لهذا الشاب المتزن الذي يتكلم عن كل شيء ببساطة وجرأة ، ويلاحظ ويصغي لكل شيء بانتباه ، وينغمس بعناد في خضم كل قضية خاصة معقدة ، ويكتشف أبداً الخيط المشترك، الخيط الذي لا نهاية له والذي يربط الآلاف من البشر بوشائج لا تنفصم .

وزادت مكانة بول في نظر الرأي العام أيضاً، بعد حادثة «كوبك المستنقع»(١) فلقد كان ينبسط وراء المعمل مستنقع واسع ، تنمو فيه اشجار الشربين والحور ويكاد يؤلف حوله حلقة عفنة ؛ وفي الصيف كانت الابخرة الصفراء الكثيفة تتصاعد

(١) الكوبك جزء من ماية من الروبل — اي الليرة الروسية .
(المترجم)

منه ، مع سحب البعوض التي تنتشر في الضاحية ، فتزرعها بالحميّات .

وكان المستنقع ملكاً للمعمل ؛ وقد وضع المدير الجديد مشروعاً لتجفيفه بقصد الاستفادة منه ؛ وفي الوقت نفسه لاستخراج ما فيه من فحم . وقد قال للعمال ان هذه العملية تجعل جو المنطقة صحياً ، وتحسن شروط المعيشة ، وأصدر أوامره باقتطاع كوبك واحد من كل « روبل » من اجورهم ؛ لتأمين المال اللازم للتجفيف .

وكان استياء العمال عظيماً ، وأثارهم بشكل خاص ان هذه الضريبة الجديدة لم تكن تطبق على الموظفين المستخدمين .

وفي اليوم الذي اعلن فيه قرار المدير اي يوم السبت ، كان بول مريضاً فلم يشتغل ، ولم يعرف شيئاً عن القضية ، وقد جاءه في اليوم الثاني ، بعد القداس ، المعدّن سيزوف — وهو عجوز لطيف — وصانع الاقفال « ماكوين » وهو رجل فارع القامة شديد النزق فقصّا عليه ما حدث .

وقال سيزوف باتزان :

— لقد اجتمع المسنّون فينا وتباحثنا في الموضوع ، فأوفدنا رفاقنا إليك لنسألك لأنك رجل واع مثقف ، عما إذا كان هناك قانون يجيز للمدير ان يشن الحرب على البعوض بدراهمنا ؟

وقال ماكوين وهو ينقل عينيه المنقبضتين :

— إنك تذكر ان « الشطّار » كانوا قد جمعوا المال منذ سنوات اربع ، لبناء حمامات . ولقد تجمع لديهم يومذاك ثلاث آلاف وثمانماية روبل . ولم تنشأ الحمامات فأين ذهب المال ؟

وبيّن بول جور هذه الضريبة ، وأظهر الفائدة الكبرى التي يجنيها المعمل من تحقيق هذا المشروع ، وعلى هذا الأساس انصرف الرجلان ، وقد بدا عليهما التجهم .

وقالت الأم باسمة بعد ان شيعتهما الى الباب :

— ارأيت يا بول .. حتى الطاعنون في السن يأتون إليك ليتزودوا من فطنتك .

ولم يجب بول ، بل جلس الى طاولته مهموماً ، وراح يكتب ، وبعد بضع دقائق قال لها : ارجوك الذهاب فوراً الى المدينة لايصال هذه الوريقة .

— وهل الامر خطير ؟

— أجل ... فهناك تطبع جريدتنا ، ويجب مهما كلف الامر أن تظهر قصة « الكوبك » في العدد المقبل .

واجابت : حسناً ، سأنطلق حالاً .

وكانت هذه اول مهمة يكلفها بها ، وكانت سعيدة لأنه أنبأها عن محتواها بصراحة .

وقالت وهي ترتدي ثيابها :

— إني ادرك هذا يا بول ، انه عمل لا يختلف عن السرقة . ماذا يدعى ذلك الرجل ؟ ايغور ايفانوفيتش ؟

... وعادت في المساء متأخرة منهكة ، ولكنها سعيدة ، وقالت لابنها :

— لقد رأيت ساندرين وهي تسلم عليك ... وايغور هذا ، ليس بالمتعجرف إنه يمزح بلا انقطاع .

واجابها بول برقة :

— اني في غاية السرور لأنهم ظفروا باعجابك .

— يالهم من قوم بسطاء ياصغيري بول . كم هو جميل ان يكون الناس بسطاء . ثم ... انهم جميعاً يقدرونك .

ولم يذهب بول نهار الاثنين الى العمل ، فلقد كان يشكو بعض الصداع ، غير ان « تيومازين » اقبل عليه ، عند الظهيرة ، منفعلاً مسروراً ، وأخبره وهو يسترد انفاسه :

— اسمع . لقد ثار عمال المعمل جميعاً ، وبُعثت اليك لأحضرك . فلقد قال سيزوف وماكوتين انك تستطيع شرح القضية احسن من الآخرين . ليتك ترى ما يحدث ؟

وارتدى بول ثيابه دون ان يتفوه بكلمة .

— لقد تجمعت النسوة ، وبدأن الصراخ .

وقالت الأم : وانا ايضاً سأذهب ، لأرى ماذا يطبخون هناك ؟ سأذهب

وقال بول : اذهبي .

وساروا مسرعين ، صامتين ، وكان الانفعال يرهق الأم ، فتحس ان شيئاً فظيعاً سيحدث. وعند باب المعمل ، كان رهط من النساء، يصرخن ويتشاجرن .

وعندما اوشك الثلاثة ان يندفعوا الى الساحة ، اصطدموا فجأة بجمع كثيف اسود يضج هياجاً ، ولاحظت الإم ان العيون كلها كانت تتلفت باتجاه واحد ، نحو جدار معمل الحديد . وهناك كان يقف سيزوف ، وماكوتين ، وفيالوف ، وخمسة آخرون او ستة من العمال النافذين الناضجين ؛ يقفون على كومة من بقايا الحديد ، وهم يؤشرون بأيديهم .

وصاح احد الناس : هو ذا فلاسوف .

— فلاسوف ؟ ليأتِ الى هنا .

وتعالت الصيحات من هنا وهناك :

— الصمت . الصمت .

وارتفع من مكان قريب صوت ريبين المتسق النبرات :

— يجب ان نقاوم من اجل العدالة ، لا من اجل « كوبك » ؛ وان ما نتمسك به ليس هو هذا الكوبك ؛ فهذا القرش الصغير ليس اكبر من سواه ولكنه اثقل وزناً ، لانه اغنى بالدم البشري من « روبل » مدير . إننا لا نصنع منه قضية ولكننا نصنعها من دمنا ، من الحقيقة .

— احسنت . هذا صحيح يا ريبين .

— انك على حق ايها السائق .

— هو ذا فلاسوف .

وكانت الاصوات تتلاقى في عاصفة من الضجيج والضوضاء ، فتطغى على جلبة الآلات وتأوهات البخار العميقة ، ودوي المحركات ، وكان الناس يتراكضون من كل صوب ، يلوحون بسواعدهم ويحمّس بعضهم بعضاً ، بكلمات ملهبة مثيرة . إن الهياج الذي كان يغفو ابداً في الصدور المتعبة يستيقظ الآن ، وينشد لنفسه منطلقاً ؛ وهاهي القضية تنطلق منتصرة ، ناشرة جناحيها القاتمين لتنظيم الجماعات

بقوة متناهية ولتثيرها وتمخضها وتمدها بالحقد اللاهب المسعور .

وكانت سحابة من الضباب والغبار تسبح فوق الحشد ، وكان العرق يتصبب من الوجوه المحتقنة ، ويهمي دموعه السوداء على الوجنات المسفوعة ، وكانت الاسنان تلمع ، والعيون ينطلق منها الشرر .

وظهر بول الى جانب سيزوف وما كوتين ، وعلت صرخته :

— ايها الرفاق .

ولاحظت الأم ان وجه ابنها كان مصفراً ، وان شفتيه كانتا ترتعشان فاندفعت بلا وعي منها الى الامام ، تشق لنفسها طريقاً بين الحشد . وكان الحضور يتدافعونها ويقولون لها بحنق : الى اين تريدين الذهاب ؟ ولكن ذلك لم يثنها، إذ استطاعت ان تشق طريقها بين الجمهور بكتفها ومرفقيها ،واستطاعت ان تقترب ببطء من ابنها ، مدفوعة برغبة جامحة في ان تكون على مقربة منه .

وعندما قذف بول تلك الكلمة التي شحنها بمعنى عميق هائل ، احس بتشنج الفرحة ، فرحة النضال يزحم حنجرته ،واجتاحته الرغبة في ان يلقي الى الجماهير بقلبه ، هذا القلب الذي استغرقه حلمه اللاهب بالحقيقة والعدالة .

— ايها الرفاق

وكررها ، وهو يصب فيها كل حيويته واندفاعه :

— إننا نحن الذين نبني الكنائس ونقيم المصانع ؛ نحن الذين نصنع السلاسل ونصهر النقود ، نحن القوة الحية التي تهب الناس جميعاً الخبز والملذات من المهد الى اللحد .

وصرخ ريبين : اصبت ، اصبت .

— ابداً وفي كل مكان . نحن اول من يعمل ، وآخر من يعيش . مَنْ من الناس يهتم بأمرنا ؟ من منهم ينشد خيرنا ؟ من منهم يعاملنا كبشر ؟ لا احد .

... ودوّى صوت : لا احد .

وراح بول بعد ان سيطر على نفسه ، يتكلم بكثير من البساطة والهدوء ، واخذ الحشد يدنو منه شيئاً فشيئاً ، ويكتظ حوله كجسد قاتم كثير الرؤوس

ويحدق به بثات العيون اليقظة ، وينتشي بأقواله .

— لن يكون لنا مصير اذا لم نشعر بأننا رفاق ! وإذا لم نكـــون أسرة واحدة من الاصدقاء، تربطها بقوة رغبة واحدة،رغبة النضال من أجل حقوقنا.

وتعالت بالقرب من الام اصوات خشنة :

— اخلص بنا الى النتائج .

وتصاعدت اصوات اخرى من هنا وهناك :

— دعوه يتكلم .

وكانت السحن المسودة المحتقنة تبدو حذرة متشككة،وكانت بعض الابصار تتركز على بول وقورة متأملة .

وقال أحدهم : انه اشتراكي ، ولكنه ليس غبياً .

وصاح رجل أعور ضخم الجرم ، متين البنية ، صاح وهو يدفع الأم بكتفه :

— انه ليس بخائف .

— لقد آن ايها الرفاق ، ان ندرك ان احداً لن يساعدنا إذا لم نساعد نحن انفسنا . الفرد للجميع ، والجميع للفرد ، هذه هي شريعتنا إذا كنا نريـــد ان نقهر عدونا .

وصاح ما كوتين : إنه على حق ايها الفتيان .

ثم لوح بقبضته في الهواء ، بحركة عريضة .

وتابع بول : يجب ان نحمل المدير على الحضور الآن ...

وكأن إعصاراً عصف بالحشد ، فأخذ يتموج ، وأخذت عشرات الاصوات تتعالى متضامنة :

— المدير ، المدير .

— لنرسل إليه وفداً في الحال .

وكانت بيلاجي قــد بلغت الصف الامامي ، وراحت تحدق ، من اسفل بابنها ، وقد امتلأت زهواً . وكان بول هناك ، بين العمال الشيوخ الذين يحظون بالاحترام والتقدير ، وكانت الجموع كلها تصغي إليه وتستصوب رأيه، ومرما أنه

لم يفقد اعتداله ، وانه لا يجدف كالآخرين .

وكنقاط الماء المتساقطة على سطح من تنك ، انهمرت الهتافات المتقطعـة ، وانهمر معها السباب والشتائم ، وكان بول يتطلع من علٍ الى الحشد ، بعينيه الواسعتين المفتوحتين كأنه إنما يبحث عن شيء ما .

— اعضاء الوفد .

— سيزوف .

— فلاسوف .

— ريبين ... فهو شرس الناب .

وفجأة ندت بعض الصرخات اقل دوياً :

— هو ذا مقبل علينا .

— المدير .

وافسح الجمهور الطريق لرجل فارع القامة ، مستطيل الوجه ، يحمل في اسفل ذقنه لحية خفيفة ، فاندفع ، ينحّي العمال من طريقه بحركة عصبية من يـده ، ينحيّهم دون ان يلمسهم ، مردداً :

— اسمحوا لي .

وكانت عيناه مزورّتين،وبصره يتفحص وجوه العمال بنظرة متقصية مستشفة، نظرة رجل مجرب ، وكان هؤلاء يرفعون له قبعاتهم ، وينحنون ، في حــين كان هو يتابع طريقه دون ان يرد على مظاهـــر الاحترام هـــذه ، ناشراً الصمت والاضطراب في صفوفهم ، بشكل يستشعر المرء معه ان وراء البسمات المرتبكة وضجيج الهتافات الاصم ، ندم أطفال واعين ، على الحماقات التي ارتكبوها .

ومر أمام الام مصوباً إليها نظرة قاسية ، ثم توقف أمام كومة الحديد .

ومدّ له احدهم يده من اعلى فلم يلمسها ، وبحركة رشيقة قوية تسلق ، واتخذ لنفسه مكاناً امام بول وسيزوف .

— ماذا يعني هذا الاجتماع ؟ ولماذا تركتم العمل ؟

وخيّم الصمت في لحظات ، وتموّجت الرؤوس كالسنابل ، وبدا على سيزوف انه يود لو يقذف بقبعته في الفضاء ، ثم هز كتفيه وطأطأ رأسه .

وصرخ المدير : أجيبوا .
فانتقل بول الى جانبه ، وقال بصوت قوي مشيراً الى سيزوف وريبين :
— لقد كلفنا نحن الثلاثة ، من قبل رفاقنا ، ان نبلغك ضرورة الرجوع عن قرارك باقتطاع « كوبك » من اجورنا .
وقال المدير دون ان ينظر الى الشاب :
— ولماذا ؟
فرد بول بصوت داوٍ :
— لاننا نعتبر هذه الضريبة جائرة .
— انكم إذاً لا ترون في مشروعي الرامي لتجفيف المستنقع إلا رغبة في استثمار العمال ، لا وسيلة لتحسين مستواهم ، أليس كذلك ؟
وأجاب بول : نعم !
وسأل المدير ريبين : وأنت أيضاً ؟
فرد هذا : ان وجهة نظرنا جميعاً متفقة .
وقال المدير ، وهو يستدير نحو سيزوف :
— وأنت أيها « البطل » ؟
— وأنا أيضاً أرجوك ان تتخلى عن « قرشنا » .
وابتسم بارتباك وهو يطأطيء رأسه من جديد .
وأجال المدير بصره ، في الحشد ، ببطء ، وهز كتفيه ثم صب على بول نظرة متفحصة وقال :
— إنك شاب مثقف، كما أحسب ،فهل أنت أيضاً لاتدرك فائدة هذا المشروع؟
— إذا جُفف المستنقع على نفقة المعمل ، فإن كلا منا يلمس فائدة ذلك .
فأجاب المدير بجفاف :
— ليس المعمل مؤسسة للإحسان ، واني آمركم جميعاً باستئناف العمل فوراً .
ثم هبط ، تتحسس أطراف قدميه الحديد بحذر ، ولا يلتفت الى أحد .
وانتشرت بين الجمع ضوضاء تنم عن عدم الرضا فتوقف المدير وسأل :

— ما هـذا ؟
وصمت الجميع إلا صوت لعلع من بعيد ، من بين العمال :
— اذهب واعمل بنفسك .
وصاح المدير وهو ينتزع الكلمات انتزاعاً :
— سأفرض الغرامة عليكم جميعاً إذا لم تستأنفوا العمل في مدى ربع ساعة .
ثم تابع سيره وسط الزحام ، وارتفعت وراءه غمغمة خرساء ، وكان كلما نأى ، تعلو شيئاً فشيئاً ضوضاء الأصوات .
إذهب الآن وكلمه .
— هذا هو موقفهم من حقوقنا .. آه .. إننا حقاً لمحظوظون .
وكانوا يصرخون في وجه بول :
— هه أيها المحامي ، ماذا يجب ان نفعل الآن ؟
فيما ينطلق بالكلام ، لقد أحسنت الكلام . . . ولكنــه أتى ولم يتيسر الحال .
— وأنت يا فلاسوف ... ما العمل ؟
وتلاحقت النداآت الملحة ، فأعلن بول :
— إيها الرفاق .. إني أقترح ان تتركوا العمل ما زال مصراً على اقتطاع « كوبك » من أجرنا .
وتأججت جذوة الهياج من جديد :
— إنك تحسبنا بلهـاء .
— الاضراب ؟
الاضراب من أجل « كوبك » ... ؟
— وماذا يهم ؟ ... فلنضرب .
— إنهم سيطرحوننا جميعاً خارج الابواب .
— ومنذ الذي يستجديهم البقاء ؟
— سيجدون من يتوسل إليهم .
— أمثال يوضاس ؟

١٣

ونزل بول ، وعاد الى جانب امه ، وعاد حولها الطنين : هذا يجـادل ذاك ، والكل منفعلون صارخون .

وقال ريبين لبول وهو يقترب منـــه :

ـ لا تعلن الاضراب ، فالشعب متعطش الى الربح ولكنه جبان ،وهنـاك ثلاثماية عامل فقط قد يتبعونك لا أكثر . إننا لن نستطيع ان نزيح « مزبـلة » كهذه بمذراة واحدة !

وكان بول صامتاً ينظر الى الحشد ذي الوجه الاسود الهائل ، ينظر إليه وهو يتململ ، ويحدق به ينتظر منه شيئاً ، وكان قلبه يخفق بضيق ، ويتراءى له ان كلماته قد تبددت دون أن تترك أثراً في نفوس القـــوم ؛ كالقطرات المتناثرة المتساقطة فوق أرض أنهكها طول الجفاف .

وقفل الى منزله حزيناً منهكاً ، وكانت امه وسيزوف يسيران وراءه أمـا ريبين فكان يسير الى جانبه وصوته يطن في اذنه :

ـ إنك تتكلم جيداً ، هذا صحيح ، ولكنك لا تمس القلب ؛والشرارة يجب ان تُلقى في أعماق القلب . إنك لن تقنع النـاس بالمنطق ، فالحذاء لطيف جداً ولكنه شديد الضيق على أقدامهم .

وكان سيزوف يقول للأم :

ـ هذا هو الزمن الذي يجب أن نرحل فيه ، نحن العجائز ، الى المقبرة ؛ لاننا الآن أمام شعب جديد ينمو . كيف نعيش ؟ لقد كنـــا نزحف ، وننحني حتى الأرض لكي نحيا . ولكنني لا أدري ما إذا كان الشبان قد ثابوا اليوم الى رشدهم ، أم أنهم ما زالوا ينغمسون في ضلال يفوق ضلالنا لانهم على كل حال ليسوا مثلنا . لقد رأيتهم كيف يخاطبون المدير كأنه ندّ لهم . أجل ...الى اللقاء يابول ، لقد أحسنت يا بنيّ الدفاع عن الناس ، وستجد بعونه تعالى الطريقة التي تنقذهم بها ، إن شاء الله .

ومضى سيزوف ؛ ودمدم ريبين :

ـ الى قبرك ، لا ردك الله . فإنك لم تكن اليوم إنساناً بل غراء صالحاً لسد الشقوق . ارأيت يا بول ؟ إن اولئك الذين كانوا يهتفون لبرسلوك مندوباً عنهم . إنهم هم أنفسهم الذين كانوا يقولون عنك انك اشتراكي مشاغب . أجل إنهم هم . لقد كانوا يتهامسون : سيطرد من المعمل ، وهذا ما يليق به .

ـ إنهم على حق بوجهة نظرهم .

ـ والذئاب أيضاً على حق عندما يمزق بعضها بعضاً .

وكان وجه ريبين مكفهراً وصوته يرتعش بشكل غير معتاد .

ـ إن الناس لا يصدقون الكلام المجرد العاري ،بل يجب أن تتألم ليصدقوك ، وأن تغمس كلماتك بالدم .

... وظل بول طوال نهاره مغموماً ، مضنىً ، يسيطر عليه قلق غريب ، وكانت عيناه البراقتان تبدوان كأنهما تبحثان عن شيء ، وقد لاحظت امه ذلك ، فسألته بجزع : ما بك يا صغيري بول ؟

فأجابها مطرقاً : إنه الصداع .

ـ يجب أن تنام ، وسأذهب لاستدعاء الطبيب .

ـ لا حاجة لذلك .

وحدث نفسه بصوت هامس :

ما زلت فتىً تنقصني القوة . هذا هو الواقع . إنهم لم يثقوا بي ، ولم يتبعوني لأني لم أعرف كيف أقول لهم الحقيقة . وان ذلك لإذلال لي .

وقالت له أمه برقة ، وهي ترنو الى وجهه المتجهم وتعزيه :

ـ قليلاً من الصبر ، إنهم لم يفهموا اليوم شيئاً ، ولكنهم غداً سيفهمون . يجب أن يفهموا .

ـ هذا مؤكد ، فلقد فهمت أنا نفسي حقيقتك .

ودنا بول منها : ولكنك يا أماه إمرأة طيبة .

ثم تحول عنها أما هي فقد هزتها الرعشة ، كما لو أحرقتها النـــار ، متأثرة بالكلمات التي سمعته يرددها هامساً ، ووضعت يدها على قلبها ، وابتعدت متقبلة

بحذر دعاب ابنها .

، وفي الليل عاد رجال الدرك ، فيما كانت هي نائمة ، وكان هو في سريره يقرأ ، عادوا واستأنفوا التفتيش بضراوة . لقد فتشوا في كل مكان ، في غرفة المؤونة ، في فناء الدار ، وتصرف الضابط الباهت اللون ، كالمرة الأولى ، تصرفاً جارحاً ساخراً ، كأنما كانت هوايته أن يسخر ، وقد أجهد نفسه ليمسهم بسخريته حتى الأعماق ، وكانت الأم تجلس في إحدى الزوايا صامتة لا تحول بصرها عن ابنها ، أما هو فكان يحاول أن يكبت اضطرابه ، ولكن أصابعه كانت ترتعش بشكل غريب عندما يضحك الضابط ، وكانت تشعر أنه يكاد يعجز عن الاجابة على أسئلة الدركي ، وأنه يتحمل مزاحه الثقيل ، ولم يكن ذعرها كمثله عند التفتيش الأول ، وكانت تستشعر كرهاً أكثر لضيوف الليل هؤلاء بلباسهم الرمادي ومهاميزهم ، وكان كرهها يطغى على خوفها .

وجاء بول يوشوشها :

— إنهم سيأخذونني .

فطأطأت رأسها ، وأجابت بصوت خفيض .

— أفهم ذلك .

أجل . لقد كانت تفهم أنهم سيزجونه في السجن لانه خطب اليوم في العمال ، ولكن العمال جميعاً كانوا موافقين على كل ما قاله ، وسيدافعون عنه جميعاً فلا يلبث أن يطلق سراحه .

واشتهت أن تضمه الى صدرها ، وأن تبكي ، ولكن الضابط كان الى جانبها يراقبها مسبل الأجفان ، وكانت شفتاه تختلجان ، وشارباه يتراقصان ؛ وداخلها إحساس بأن هذا الرجل ينتظر منها أن تسفح بين يديه الدموع ، والشكوى والتوسلات ، وظلت تضغط على يد ابنها ، وهي تحشد كل إرادتها ، وتحاول ان تجتزىء في كلامها . وقالت له ببطء ، وهي تمسك أنفاسها ، هامسة :

— الى اللقاء يا بول ، هل أخذت كل ما يلزمك ؟

— أجل ... لا تقلقي .

— ليكن الله معك .

وعندما اقتادوه تهالكت على المقعد مغمضة العينين ، وراحت تنتحب ببطء .

... وانتحبت طويلاً وهي مطأطئة الرأس ، تسند ظهرها الى الجدار كما كان يفعل زوجها ، ويثقل عليها الضيق وشعورها المذل بضعفها ؛ وتصب في نوح تأوهاتها الرتيب كل ما في قلبها المجروح من أسى . وكانت ترى أمامها ، كالبقعة الجامدة ، ذلك الوجه الشاحب ، ذا الشاربين الخفيفين ، الذي تبدو الغبطة في عينيه المتغضنتين ، فيتدحرج في صدرها ، كالكرة السوداء ، الغضب الشديد والسخط على اولئك الذين ينتزعون الأبن من والدته ، لا لسبب إلا لأنه ينشد الحقيقة .

... وكان الطقس بارداً ، والمطر ينقر زجاج النوافذ ، وكان يخيل إليها أن أشباحاً ترود حول منزلها في حلك الليل ، أشباحاً رمادية ، طويلة الأذرع ، ذات وجوه حمراء عريضة لا عيون فيها . وكانت هذه الأشباح تسير ورنين مهاميزها يتصادى ضعيفاً .

وكانت الأم تتمنى :

— ليتهم على الأقل أخذوني معه .

وعوت صافرة المعمل بصوتها الآمر تدعو لاستئناف العمل ، وكان صوتها اليوم أصم خفيفاً ، مضطرباً ، ودخل ريبين وهو يمسح قطرات المطر عن لحيته ، وسألها :

— هل أخذوه ؟

وتنهدت : أجل ... لقد أخذه « الملاعين »

وقال ريبين ساخراً : حسناً ... ولقد فتشوا منزلي ، نبشوا كل شيء ، نعـ...م ... وعووا ، ولكنهم لم يوجهوا اليّ أية إهانة . إذن لقد أخذوا بول ؟ لقد أدركت المؤامرة ، فلقد غمز المدير غمزة ، وأشار الدركي إشارة معناها : لقد فهمت ... ومن ثم ... كان الاعتقال . آه ... انهم زملاء ... بعضهم ينهمك في حلب الشعب ، في حين يمسك الآخرون بقرونه .

وصاحت الأم وهي تنهض :

– يجب أن تعملوا شيئاً من أجل بول ، لأن ما فعله كان من أجلكم جميعاً .
– ومن الذي يجب أن يعمل ؟
– أنتم جميعاً .
– اتصدقين أن ذلك يحدث ؟ لا ... يجب الا تدخلي هذا في حسابك .
ومضى ضاحكاً ثقيل الخطى ، وظلت كلماته القاسية اليائسة تؤجج حزنها .
– إنهم قد يضربونه ويعذبونه ...
وتخيلت جسد ابنها وقد أشبع ضرباً ، تخيلته ممزقاً مدمّى ، فجثم الرعب على صدرها كالخزف البارد ، وسحقها هذا الرعب ، واحست بألم في عينيها . ولم تشعل في هذا اليوم موقدها ، ولم تهيىء فطورها ، ولم تشرب الشاي ، ولم تتناول إلا كسرة من الخبز أكلتها عند المساء .
وعندما آوت الى فراشها استعرضت حياتها كلها . أنها لم تكن في يوم من ايامها شديدة الوحدة ، شديدة العري كمثلها الآن . لقد تعودت في سنواتها الأخيرة أن تعيش في الترقّب الدائم ، ترقّب شيء ذي اهمية ، شيء يحمل إليها السعادة ، وكانت ترى الفتيان حولها يضطربون ضاجين جذلين تملأهم الحيوية ، وكان وجه ابنها الجاد نصب عينيها أبداً ، وجه ابنها ، خالق حياتها المنكودة ، الطيبة مع ذلك . وها هو الآن بعيد عنها ...

– ١٤ –

ومر النهار بطيئاً ، وجاء في أعقابه ليل مؤرق ونهار آخر أشد طولاً ، وكانت ترجو أن يلم بها خلاله أحد ، ولكن أحداً لم يأتِ ، وهبط المساء ، ثم خيم الظلام .
وكان المطر ينتحب ، ويرشح من الجدران ، والريح تعصف في المدخنة ، وشيء ما يتحرك تحت الخشب في أرض الحجرة ؛ وكانت قطرات الماء تتساقط من السقف فيواكب نقرها الكئيب دقات الساعة . وبدأ المنزل كله كأنه يتأرجح بفتور وهو منغرس في قلب الغم ، غير مبالٍ بما يحيق به .

ونُقرت النافذة نقرة ... ثم نقرتين ..
لقد كانت تعرف هذه الاشارة ، ولم تك من قبل تروعها ، ولكنها هذه المرة أحست معها برعشة من الغبطة ، وقذفها من سريرها أملٌ غامض ، فطرحت على كتفيها شالاً ، وفتحت .
ودخل ساموا لوف ، وتبعه آخر كان يغطي وجهه بقبعة معطفه وينثال شعره على عينيه .
وسألها سامو الوف دون أن يحييها ، وكان ، على غير عادته ، قاتم الوجه مغموماً ، سألها :
– لعلنا أيقظناك من رقادك ؟
فأجابته : لم أكِ نائمة .
وسكتت ، وسمّرت على الزائرين عينين يملأهما الترقب .
وخلع رفيق سامو الوف قبعته ، وهو يطلق آهة ثقيلة مبحوحة ، ومد الى الأم يداً عريضة قصيرة الأنامل ، وقال لها بمحبة كما لو كان يخاطب صديقة قديمة :
– طاب مساؤك يا أماه ... ألم تعريفنني ؟
وصرخت بيلاجي فجأة وبفرح غامر :
– أهذا أنت . يا ايغور ايفانو فيتش ؟
ورد وهو يحني رأسه الضخم ، ذا الشعر الطويل كشعر الكاهن :
– بلحمي وعظمي .
وتألق وجهه المستدير ببسمة حلوة ، وكانت عيناه الصغيرتان الرماديتان تركزان على الأم نظرة صافية ودوداً . لقد كان ، بعنقه الضخم المستدير وذراعيه القصيرين ، أشبه ما يكون بابريق الشاي ؛ وكان وجهه يطفح بالبشر ، وينساب من صدره صوت كأنه الحشرجة المبحوحة .
واقترحت الأم :
– تفضلا الى الغرفة ، فسأرتدي ثيابي بسرعة .
وأجاب سامو الوف وهو قلق الملامح ، يصوّب إليها نظرة مزوّرة :

— نريد أن نحدثك في أمر .
ودخل ايغور ايفانوفيتش الغرفة وقال :
— في هذا الصباح ياعزيزتي خرج من السجن نيقولا ايفانوفيتش الذي تعرفينه .
— لقد كان في السجن إذن !
— لقد قضى فيه شهرين وأحد عشر يوماً ، والتقى بالبيوروسي وبول اللذين يقرآنك السلام . إن ابنك يتوسل إليك الا تقلقي ، ويقول لك إن الطريق التي اختارها تستلزم أن يكون السجن أبداً موطن الراحة ، وأن هذا هو ما قررته « سلطاتنا الباسلة » . ولننتقل الآن الى الموضوع ... أفتدرين كم هو عدد الذين اوقفوا نهار أمس ؟
— كلا ... أهناك إذن آخرون غير بول ؟
فقاطعها ايغور بهدوء :
— إنه الموقوف التاسع والأربعون ، وينتظر أن يصطاد البوليس دزينة اخرى ، وهذا السيد واحد منهم .
وقال سامو الوف متجهماً : نعم ... أنا واحد منهم .
وشعرت بيلاجي انها تتنفس بسهولة أكثر ، ومرت بخاطرها هذه الفكرة كالبرق :
« إنه ليس وحده هناك » .
وعندما ارتدت ثيابها ، دخلت الغرفة ، وقابلت ضيفها ببسمة شجاعة :
— حتماً إذا كانوا قد اعتقلوا عدداً كبيراً ، فإنهم لن يوقفوهم طويلاً .
وأجاب ايغور ايفانوفيتش .
— هذا صحيح . وإذا نظمنا أنفسنا لنفسد عليهم لعبتهم ، فإنهم سيكونون كالسابق بلهاء أغبياء ، وهذه هي الخطة إننا إذا ما توقفنا الآن عن توزيع المناشير في المعمل ، فإن رجال الدرك ، عليهم اللعنة ، سيرتاحون من هذا العمل المؤسف ، وسيكرسون جهودهم لمقاومة بول ورفاق سجنه ...
وصاحت الأم مضطربة :

— وكيف ذلك ؟
فقال ايغور بهدوء : انه امر بمنتهى البساطة . ان رجال الدرك قد يفكرون احياناً تفكيراً صحيحاً : عندما يكون بول طليقاً يكون هناك كراريس ومناشير ، واذا لم يكن كذلك ، فليس هناك كراريس ولا مناشير . فماذا يعني هذا؟ هذا يعني انه هو الذي ينشرها . أليس كذلك ؟ واذن فسيبدأ رجال الدرك في نهشهم ، لأنهم يحبون ان يعملوا أسنانهم في احد ما ، فلا يبقوا منه إلا الغبار .
وردت الأم مغمغمة ؟
— لقد فهمت ، لقد فهمت ... يا آلهي ، ما العمل إذن ؟
ورفع ساموا لوف من صوته :
— لقد اعتقلهم السفلة ، اعتقلوا الجميع تقريباً ، وعلينا الآن أن نتابع العمل كالسابق ، ليس من أجل قضيتنا فحسب ، بل لانقاذ رفاقنا .
واضاف ايغور وهو يبتسم ابتسامة صغيرة :
— ليس لدينا رجال للعمل ، ولدينا مقال رائع أنشأته بنفسي؛ فكيف ندخله الى المعمل ؟ هذه هي العقدة .
وقال ساموا لوف : لقد بدأوا في تفتيش الداخلين جميعاً ، عند الباب .
وأدركت الأم انهم ينتظرون منها شيئاً فسارعت تسأل :
— حسناً ... ما الذي يجب عمله ، وكيف ؟
وظهر ساموا لوف على العتبة :
— أنت على صلة طيبة بالبائعة ماريا كورسونوف .
— نعم .. وماذا يعني ذلك ؟
— فاتحيها بالأمر فقد تقوم هي بتهريب الكراريس ...
فأشارت الأم بيدها إشارة الرفض :
— لا ، لا ، إنها ثرثارة ، وسيعرفون أن ذلك قد حصل بإيحاء مني وبأنه صدر عن بيتنا ...

وفجأة ، لمعت في خاطرها فكرة ، فقالت بصوت خفيض :

ـ هاتوها ، اعطوني إياها فسأتدبر الأمر جيداً وسأجد الوسيلة ، سأطلب من ماريا أن تأخذني كمساعدة لها . سأقول لها : انني مضطرة أن اعمل لكي آكل. وسأحمل الطعام الى المعمل . سأتدبر الأمر جيداً .

وأكدت لهم بكلام سريع ، وهي تضع يديها فوق صدرها ، بأنها ستؤدي المهمة على وجهها الاكمل دون أن ينكشف أمرها ، ثم انتهت الى القول بلهجة ظافرة :

ـ سيرون إنه وإن كان بول ليس هنا ، فان يده تطالهم حتى وهو في سجنه . سيرون .

وانتشى الثلاثة ، وكان ايغور يبتسم ويفرك يديه بحرارة :

ـ عظيم أيتها الأم . ليتك تعلمين كم هو مدهش هذا ... إنه بكل بساطة شيء رائع .

وقال ساموا لوف وهو يفرك يديه ايضاً :

ـ اذا نجحت الخطة فسأكون في السجن اسعد حالاً مما لو كنت على مقعد وثير .

وصاح ايغور بصوته المجحوح : إنك كنز ، إنك ثروة .

وابتسمت الأم ، فلقد كانت تدرك انه اذا ما ظهرت المناشير في المعمل ، فان الادارة ستتأكد أن ابنها ليس هو الذي يحملها . وكانت ترتعش من الغبطة ، ترتعش بكل كيانها ، وهي تأنس في نفسها القدرة على إداء هذا الواجب .

وقال ايغور لساموا لوف :

ـ أبلغ « بول » عندما تذهب لزيارته ان له أماً مدهشة .

وأجاب ساموا لوف والبسمة ترتسم على ثغره :

ـ سأقابله أولاً .

ـ قل له اني سأعمل ما يتوجب عمله ، وليثق من ذلك .

وقال ايغور وهو يشير الى ساموا لوف :

ـ واذا لم يوقفوه ؟

ـ وماذا نصنع ؟ ليكن ما يكون .

وانفجرا ضاحكين ، وابتسمت هي ، بعد أن أدركت هفوتها ، ابتسامة طويلة غامضة فيها شيء من الخبث ؛ ثم قالت وهي تطرق برأسها :

ـ لكل همومه التي تشغله عن التفكير بهموم الآخرين !

واندفع ايغور يقول :

ـ هذا طبيعي . اما بشأن بول فلا تقلقي ولا تبتئسي ، انه سيخرج من السجن افضل من ذي قبل ، ففي السجن يرتاح المرء ويتثقف ، وهذا ـ ولنتكلم بحرية ـ ما لا يتيح لنا الوقت ، نحن الآخرين ، ان نحصل عليه . وانا مثلاً ، دخلت السجن ثلاث مرات ! لم ادخله بفرح عظيم طبعاً ، ولكن دخوله كان شيئاً مفيداً جداً بالنسبة لي روحياً وفكرياً .

وقالت الأم وهي تتأمل بمحبة وجهه البسيط الملامح :

ـ انك تتنفس بصعوبة .

فأجاب وهو يرفع اصبعه في الهواء :

ـ ان لذلك اسباباً خاصة . والآن ... هل ما قلته مفهوم يا اماه ؟ غداً سنهيىء لك المواد ، وستبدأ الآلة التي تبدد ظلمات القرون عملها . عاش القول الحر ، وعاشت قلوب الأمهات ... والى اللقاء بانتظار الغد .

وقال ساموالوف وهو يشد على يده بقوة :

ـ الى اللقاء ، اما انا فلا استطيع ان اهمس مثلك اية كلمة من هذا ، في اذن الأم .

واجابت بيلاجي تجامله :

ـ سننتهي جميعاً الى الفهم .. !

وأوصدت الباب بعد انصرافهم ، وركعت في وسط الحجرة تصلي ، في حين كان المطر يتساقط في الخارج .

لقد كانت تصلي دون ان تنبس بكلمة ، وكانت تجمع في فكرة واحدة

عظيمة ، كل اولئك الذين اقحمهم بول في حياتها . لقد كانت تراهم يعبرون بينها وبين الصور القديسة ، وكانوا جميعـــاً شديدي البساطـة ، شديدي التراص ، والانفراد .

وفي ساعة مبكرة من الغد انطلقت الى ماريا كورسونوف ، فاستقبلتهـــا البائعة الصاخبة ابداً ، الملطخة ابداً بالشحم ، استقبلتهـا بحرارة وسألتها وهي تربت على كتفها بيدها السمينة :

— هل تشعرين بالسأم ؟ لا لا تقلقي فالامور تسير في مجراهـا وليس ثمة ضير . لقد كانت الامور في السابق هكذا . كانوا يسجنون الناس عندما يسرقون ولكنهم الآن يسجنونهم اذا جهروا بالحقيقة . ربما كان بول قد قال ما لا يجب قوله ، ولكنه ، انبرى للدفاع عن الجميع ، والناس جميعـاً يعرفون هـذا ، فلا تقلقي . انهم لا يقولون جميعـــاً قوله ، ولكن الشجعان منهم يعرفونه جيداً . لكم وددت ان ازورك دائمـــاً ولكن ليس لدي متسع من الوقت ، فأنا اهتم بشؤوني المطبخية ... ثم بتجارتي ، وسأموت متشردة . ان عشاقي — يا لهم من سفلة — هم الذين ينهشونني . ! انهم شرهون ، شرهون كالدويبات في قطعة خبز. لقد وفرت عشرة روبيلات ولكن واحـداً من هؤلاء المارقين زحف ، فالتهم منها على الاقل روبلين . لكم هو بائس ان يكون المرء امرأة ، ولكم هي قذرة الحياة على وجه هذه الارض . انه لقاس حقاً ان يعيش المرء وحيداً ، ولكنه شيء قاتل ايضاً ان يعيش مع آخر .

وقطعت بيلاجي هذا السيل من الكلام :

— لقد جئت اطلب اليك ان تقبليني مساعدة لك .

وسألت ماريا : وكيف ذلك ؟

ثم راحت بعد ان فرغت صديقتها من الكلام ، تهز رأسها مذعنة :

— هذا ممكن . اتذكرين كم مرة حميتني من زوجي ؟ حسناً ... فسأحميك أنا الآن من العوز . يجب علينا جميعـاً ان نساعدك لان ابنك يقاسي العذاب من اجل قضية هي قضية الجميع . انه فتى شجاع ، هذا ما يقوله الجميع ويتألمون له ،

اما انا فأتنبأ بان هذه التوقيفات لن تحمل الهناء للادارة ... الا تعلمين ما يحدث في المعمل ؟ انهم يا عزيزتي مستاؤون . امـا في الادارة فانهم يقولون لبعضهم بعضاً : لقد عُقص الرجل في كاملة ، ولن يستطيع ان يتابع طريقاً طويلاً.. اما النتيجة فهي انه من اجل عشرة ضُربوا ، يثور سخط المئات .

وتوصلتا الى اتفاق . وفي اليوم التـالي ، وفي وقت الغداء كانت بيلاجي في المعمل ، تحمل الطعام الذي اعدته ماريا في طنجرتين ، امـا هذه ، فكانت في السوق تشتري حوائجها .

- ١٥ -

وسرعان ما تنبّه العمال الى البائعـــة الجديدة ، وكان البعض يقتربون منها مشجعين :

— هل عثرت على عمل يا بيلاجي ؟

وكانوا يواسونها ، ويؤكدون لها أن بول سيطلق سراحه عما قريب ، وكان آخرون يثيرون بعباراتهم المواسية قلبها المعذب ، في حين يكيل آخرون غيرهم الشتائم للادارة ورجال الدرك ، فيترك سخطهم هذا أعمق الأثر في نفسها .

والى جانب هؤلاء كانت هناك فئـة تنظر اليها بشماتـــة ، حتى ان المصوب « ايساي غوربوف » قال لها وهو يكز اسنانه :

— لو كنت حاكماً لشنقت ابنك ، لأعلمه كيف ينكّب الشعب الطريق القويم .

وجمّدها هذا التهديد الحقود ببرد مميت ، ولم تجب على «ايساي» بشيء ، بل ألقت نظرة خاطفة على وجهه الضيق المغطى ببقع الكلف، ثم اسبلت عينيها متأوهة.

وكان الإضطراب يسود المعمل، والعمال يتناثرون جماعات صغيرة، وينقدون باهتمام وبصوت خفيض، ارباب العمل وتند عنهم من حين الى حين، وهم يطوفون ارجاء المعمل ، شتائم وهتافات حانقة .

ورأت بيلاجي ساموا لوف يمر بالقرب منها يخفره اثنان من رجال البوليس،

وكان يسير واحدى يديه في جيبه ، والأخرى تلامس شعره الأشقر والأشهب ، ونحوٌ من مئة عامل يواكبونـه ، ويغرقون رجلي البوليس بالسباب والسخرية .

وصاح به أحدهم : هل ستقوم بجولة ؟

وهتف آخر : المجد للعمال ... انهم يسيرون بموكب . ثم ندت عنه شتيمة صارخة .

وصرخ رجل اعور ضخم ، صرخ بحنق :

— انه لأجدى لكم ان تقبضوا على اللصوص ، لا أن تطاردوا الشرفاء .

واكمل آخر من بين الجمع :

— ليتهم فعلوا ذلك في الظلام ، ولكنهم سفلة لا يخجلون حتى في وضح النهار .

وكان الشرطيان يسيران مسرعين متجهمي الملامح ، يحاولان ألا يريا شيئاً مما حولهما ، ويتظاهران بأنهما لا يسمعان الهتافات التي كانت تواكبهما . وتقدم منهما ثلاثة عمال يحملون عصياً ضخمة من الحديد ، فهددوهما بها صائحين :

— حذار يا عشاق الصيد .

وعندما مر ساموا لوف بالقرب من بيلاجي ، أومأ لها برأسه ضاحكاً وقال :

— لقد امسكوني .

وحيته باكبار وصمت ، وقد أثر فيها مشهد أولئك الفتيان الشرفاء الذين لا يعاقرون الخمرة ، بل ينطلقون الى السجون والبسمة تفوف شفاههم ؛ وبدأت تكن لهم حباً عطوفاً ، حب ام .

وبعد عودتها من المعمل ، قضت بعد الظهر كله عند ماريا ، تساعدها في عملها وتستمع الى ثرثرتها ، وفي ساعة متأخرة من المساء عادت الى بيتها الفارغ البارد الذي لا ود عنده ، ولبثت وقتاً طويلا تروح وتجيء ، قلقة لا تدري أين تجلس ولا تدري ماذا تفعل . لقـد كانت قلقة ؛ اذ هبط الليـل ولم يأتِ ايغور والمنشورات التي وعد باحضارها .

ووراء النافذة كانت تتراقص ندف الثلج الثقيلة الرمادية ، ثلـج الخريف ، وتعلق بالزجاج ثم تنزلق بصمت ، وتدوب تاركة بقايا رطبة . وكانت بيلاجي

تفكر بابنها .

وطُرق الباب بحذر ، فعدت اليه مسرعة لتفتحه ، فاذا الطارق ساندرين . انها لم ترها منذ أمد بعيد ، وكان اول ما فاجأها من الفتاة بدانتها المفرطة .

وحيتها ، سعيدة بأن تعثر على رفيقة ، تجنبها قضاء جزء من ليلها في الوحدة ، وكان قد مضى عليها زمن طويل لم تلتقيا فيه فسألتها :

— هل كنت في سفر ؟

واجابت الفتاة باسمة :

— كلا .. لقد كنت في السجن مع نيقولا ايفـانوفيتش ، الا تذكرينه ؟

وصاحت الأم :

— وكيف انساه ، لقد قال لي ايغور البارحة انهم اطلقوا سراحه . أما انت فلم اك اعلم ، ولم يقل لي احدٌ انك ...

وقاطعتها الفتاة وهي تدير بصرها فيما حولها :

— ولِمَ الخوض في هذا الحديث ؟ يجب ان استبدل ثيابي ريثما يصل ايغور .

— إنك مبتلة .

— لقد كنت احمل المنشورات .

وقالت الأم بلهفة : اعطنيها ، اعطنيها .

... وفكت الفتاة ازرار معطفها بسرعة ثم انحنت فتساقطت منهـا رزم الأوراق كما تتساقط اوراق الشجرة ، فجمعتها الأم ضاحكة :

— لقد قلت في نفسي عندما رأيتك منتفخة هكذا أنـك لا شك متزوجة ، وانك تنتظرين مولوداً ... يا الله ، كيف حملت هـذا كله ؟ .. ألم تأتي سيراً على قدميك ؟

وقالت ساندرين وهي تبدو رشيقة رقيقة كالسابق :

— بـلى .

ورأت الأم ان وجنتيها كانتا غائرتين ، وان عينيها قد أمستا واسعتين تحف بهما هالات سوداء .

وقالت الام وهي تهز رأسها متأوهة :

ـ لقد اطلقوا سراحك منذ قليل، وكان عليك ان ترتاحي، وبدلاً من ان...

ـ ذلك واجب . قولي لي كيف حال بول ؟ أليس شديد الوهن ؟

وكانت تتكلم دون ان ترفع بصرها الى الأم ، وتصفف شعرها محنية الهام ، مرتعشة الأنامل .

ـ أؤكد لك انه قوي العزيمة ، وانه على ما يرام .

وتابعت الفتاة بصوت خفيض :

ـ إن صحته حسنة أليس كذلك ؟

ـ إنه لم يعرف المرض ابداً ... لشد ما ترتجفين ... مهلا ، سآتيك بقدح من الشاي مع مربى التوت الشوكي .

ـ لا بأس ... ولكن علامَ تزعجين نفسك ؟ إن الوقت متأخر فاسمحي لي ان أعد ذلك بنفسي .

وردت الأم بلهجة مؤنبة :

ـ إنك جد متعبة .

ثم انهمكت في اعــداد الشاي ، وتبعتها ساندرين الى المطبخ ، وجلست على المقعد .

وقالت وهي تلقي بيدها وراء رأسها :

ـ ومع ذلك فالسجن ينهك القوى . يا للبطالة اللعينة ، فليس هناك ما هو اشد إيلاماً منها . إن المرء ليعرف كل ما عليه ان يعمله ... ولكنه يظل هناك في قفصه كالحيوان .

ـ ومن ينبئك عن هذا كله ؟

وردت الأم بنفسها على السؤال الذي طرحته ، ردت متأوهة :

ـ لا احد إلا الله . اما انتم فما من ريب انكم لا تؤمنون به .

واجابت الفتاة بايجاز وهي تهز رأسها :

ـ كلا ...

واعلنت الأم بلهجة حماسية مفاجئة :

ـ حسناً ... وانا لا اصدقكم .

وبعصبية مسحت بمريولها يديها الملطختين بالفحم ، وتابعت بأيمان متأجج :

ـ انكم لا تفهمون عقيدتكم ! كيف يستطيع المرء ان يحيا حياة كهذه دون ان يؤمن بالله ؟

وتساحبت في المدخل خطىً صاخبة ودمدم صوتٌ ، واخذت الأم رجفــة اما الفتاة فانتصبت واقفة ، ووشوشت بسرعة :

ـ لا تفتحي إذا كانوا من رجال الدرك . قولي لهم انك لا تعرفينني ، وأنني اخطأت المنزل فدخلت بيتك صدفة ، وانني كنت في غيبوبة ، فنضوتِ عني ثيابي ، ووجدت الكتب .. أفهمتِ ؟

وسألتها الأم بحنان :

ـ ولِمَ ذلك يا صغيرتي العزيزة ؟

ـ انتظري .

واصغت ساندرين : يخيّل إليّ انه ايغور .

وكان القادم هو ايغور فعلا ، وكان مبلل الثياب يحطمه التعب ، وعندمــا دخل صاح :

ـ آه . آه . ابريق شاي ؟ هذا افضل ما في الدنيا يا أمــاه ؟ هل وصلتِ يا ساندرين ؟

وكان ، وهو يملأ المطبخ الضيق برّنات صوته المبحوح ، يخلع ببطء معطفه الثقيل ، ولا يتوقف عن الكلام :

ـ هي ذي يا أماه فتاة غــير مرغوب بها من السلطات . لقد أهانها حارس السجن فأعلنت أنها ستدع نفسها تموت جوعــاً اذا لم يقدم لها اعتذاره ، ولبثت ثمانية أيام مضربة عن الطعام، وكان من العدل ألا تخرج إلا وقدماها من أمام ... وبطني الصغير ماذا تقولون عنه ؟

ودخل الغرفة وهو ما زال يثرثر ويحتضن بذراعيه القصيرين بطنه المترهل ،

ثم ما لبث ان صفق الباب وراءه .

وسألت الأم ساندرين مندهشة :

ـ أصحيح أنك لم تأكلي طوال أيام ثمانية ؟

فردت الفتاة وهي تهز كتفيها بتأثر ظاهر :

ـ لقد كان عليه أن يقدم لي اعتذاره .

وأثار هدوؤها وعنادها الصارم شعوراً في نفس الأم يمازجه التعنيف، فسألتها من جديد :

ـ وماذا لو متِ ؟

ـ فأجابت بصوت خفيض :

ـ ليكن ، ومع ذلك فقد اعتذر . إن الاهانة يجب ألا تغتفر .

وقالت الأم ببطء :

ـ أجل . . ولكننا نحن النساء نُهان طوال حياتنا .

وصاح ايغور وهو يفتح الباب :

ـ لقد تخففت من حملي الآن . هـل الشاي جاهز ؟ اسمحي لي ان أذهب لأحضاره .

واضاف وهو يقترب من ابريق الشاي :

ـ كان ابي الفاضل لا يشرب أقل من عشرين قدح من الشاي يومياً . ولذلك سلخ بسلام في هذا العام الحقير ثلاثاً وسبعين عاماً دون أن يمرض . لقد كان يزن مئة وخمسة وعشرين كيلو غراماً ، وكان خادم رعية في قرية فوسكريسانسكي .

وصاحت بيلاجي :

ـ أ أنت ابن الكاهن جان ؟

ـ أجل ... وكيف عرفت ذلك ؟

ـ لأني انا ايضاً من قرية « فوسكريسانسكي »

ـ اذن أنت مواطنة ؟ من اي عائلة ؟

ـ نحن جيران لكم ... فأنا من آل « سيرغين »

ـ أأنت ابنة « نيل » الاعرج ؟ لقد عرفته جيداً ، ولقد شد اذنيّ اكثر من مرة .

وكانا يتضاحكان واحدهما يقف قبالة الآخر ، يتضاحكان تحت نار الاسئلة والأجوبة المتشابكة ، وكانت ساندرين ، وهي منهمكة في اعداد الشاي ، ترنو اليهما وتضحك .

ونبه احتكاك الاقداح الأم الى واجباتها :

ـ آوه ، المعذرة . اني اثرثر . ولكنه من الجميل جـداً ان يلتقي المـرء بمواطن ...

ـ انا الذي يتوجب عليّ ان اطلب منك المعذرة لتصرفي في بيتك كما اتصرف في بيتي ... ولكن الساعة الآن قد بلغت الحادية عشرة ، وامامي طريق طويل يجب ان اقطعه ...

وصاحت الأم بدهشة : الى اين ؟ الى المدينة ؟

ـ نعم .

ـ كيف ذلك . ان الوقت ليـل والسماء ممطرة ، وانت منهك ... ابق الليلة هنا .

والتفتت الى ساندرين :

ـ ينام ايغور في المطبخ ، وننام نحن هنا .

فأجابت الفتاة ببساطة :

ـ كلا ... يجب ان انصرف .

وقال ايغور :

ـ أجل ... يجب ان تتوارى هـذه الفتاة يا مواطنتي ، فهي معروفة هنا، واذا ظهرت غداً في الشارع فسيكون ذلك سيئاً .

ـ ولكن ... هل ستذهب وحدها ؟

وقال ايغور والبسمة ترتسم على شفتيه : نعـم .

وصبت الفتاة شيئاً من الشاي لنفسها ، وتناولت قطعة من الخبز ، واخذت

قلبها ، وعيناها المتأملتان تتركزان على الأم .

ـ وكيف تستطيعين السير بمفردك ؟ وناتاشا ايضاً ؟ .. انا لا اسير وحدي «لأنني اخاف .

وقال ايغور : وهي تخاف ايضاً .. أليس كذلك يا ساندرين ؟

ـ هذا أكيد .

ونقلت الأم بصرها عليهما واحداً بعد الآخر، وهتفت بصوت كالهمس :

ـ لكم انتم قساة .

وعندما انتهت ساندرين من شرب الشاي ، شدت على يد ايغور مودعة ، دون ان تنبس بكلمة ، واجتازت المطبخ ، والام تتبعها :

ـ ارجوك ان تبلغي بول تحيتي اذا ما رأيته .

وكانت يدها على مزلاج الباب، حين استدارت بغتة، وسألت بصوت خفيض :

ـ هل لي ان اعانقك ؟

واحتضنتها الأم دون ان تجيب ، وعانقتها بحرارة :

ـ شكراً لك .

... وخرجت بعد ان حيتها بايماءة من رأسها .

وألقت الأم ، وهي تعود الى الحجرة ، نظرة خاطفة مغمومة عبر النافذة . لقد كانت ندف الثلج المتميعة تتساقط في الظلمات ثقيلة بطيئة . وسألها ايغور :

ـ أتذكرين آل بروزوروف ؟

وكان يجلس متباعد الساقين ، وينفخ قدح الشاي بصوت مسموع وكان وجهه احمر مطمئناً ، ينضح بالعرق .

وقالت الأم بسهوم وهي تتجه نحوه بخطى مزورة :

ـ اجل اني اذكرهم .

ثم جلست ، وركزت على الرجل نظرة حزينة ، وسألته بلهجة رؤوم :

ـ آه ... وساندرين ... كيف ستصل ؟

وابتسم ايغور :

ـ سوف تصل منهكة . لقد سبر السجن غورها ، وكانت من قبل اصلب عوداً ، خاصة انها لم تربَّ تربية قاسية ... واعتقد انها تشكو مرضاً في رئتيها .

واستوضحت الأم :

ـ من اي عائلة هي ؟

ـ انها ابنة ملاّك ، ووالدها ـ كما تقول هي ـ رجلٌ خليع ... أتعرفين يا اماه انهما سيتزوجان ؟

ـ ومن هما اللذان سيتزوجان ؟

ـ بول وهي ... ولكن ذلك متعذر ، فحين تكون هي طليقة يكون هو في السجن ، والعكس بالعكس .

واجابت الأم بعد صمت :

ـ لا اعرف شيئاً من ذلك ؛ فإن بول لا يتكلم ابداً عن خصوصياته .

كانت ما تزال تحس بالاشفاق على الفتاة ، فقالت لضيفها وهي ترمقه بنظرة حقدٍ غير مقصود :

ـ لقد كان من الواجب ان ترافقها .

واجاب بهدوء :

ـ إن ذلك مستحيل ، فلديَّ هنا كومة من الاعمال يتوجب عليَّ ان انجزها واحتاج معها الى السير نهاراً بكامله ... وانه لعملٌ سيىء بعض الشيء ... مع الربو الذي اعانيه .

وقالت بلهجة لا يمكن تعريفها :

ـ إنها لفتاة جريئة .

وكانت تفكر بما قاله لها ايغور ، ويغيظها الا تتلقى هذا النبأ من ابنها مباشرة بل من رجل غريب ... وكانت من اجل ذلك تزم شفتيها وتقطب حاجبيها .

وقال ايغور وهو يهز رأسه :

ـ جريئة جداً . ولكني الاحظ انها تثير فيك الشفقة فعلامَ ذلك؟ اذا كنت ستوزعين شفقتك علينا جميعاً فلن يكفيك ما عندك. إننا جميعاً ، نحيا، في الواقع

حياة قاسية ، فمنذ امد غير بعيد مثلاً عاد احد رفاقي من المنفى ؛ وعند وصوله الى « نيني ـ نوفغورد » كانت زوجتــه وطفله ينتظرانه في « سمولانسك » وعندما بلغها كانوا في سجن من سجون موسكو . اما الآن فلقد جاء دور زوجته للذهاب الى سيبيريا . وانا ايضاً كانت لي زوجة ، زوجة رائعة ، ولكن خمس سنوات من هذه الحياة جرتها الى المقبرة .

وكرع قدحه دفعة واحدة ، واستمر في كلامه ، وراح يعد الاشهر والسنين التي قضاها في المعتقل والمنفى ، ويسرد قصص الشقاء المتنوع ، والضرب الذي تعرض له في السجون ، وقصص الجوع في سيبيريا . وكانت الأم ترنو اليه ، وتصغي وقد اذهلتها تلك البساطة ، وذلك الهدوء اللذان كان يصف بهما تلك الحياة المفعمة بالآلام والاضطهاد ، والمذلة .

ـ ولكن ... لنتحدث في موضوعنا ...

وتغير صوته واتزنت ملامحه وسألها اولاً عن الخطة التي اعدتها لأدخال المناشير الى المعمل ؛ وذهلت بيلاجي لمعرفته الدقيقة للتفاصيل كلها ، حتى اذا انتهيا من هذا الحديث ، عادا الى استرجاع الذكريات ، ذكريات مسقط الرأس . وفيما كان ايغور يتفكه ، كانت هي تتتبع مجرى سنيها العابرة فتبدو لها كالمستنقع تتناثر فيه الهضاب المتشابهة ، وتنمو شجيرات الحور بارتعاشها الجبان ، واشجار الصنوبر ، والصفصاف الابيض الضائع بين التلال . لقد كانت اشجار الصفصاف تنبت ببطء وتعيش خمساً من السنوات أو ستاً ، فوق هذه التربة والموّارة العفنة ، ثم تتساقط ، وتتعفّن هي الأخرى .

لقد كانت الأم تستحضر في ذهنها هذه اللوحة وقد استبد بها اشفاقٌ ينوء به قلبها ، وكان ينتصب امامها ظل لفتاة قاسية الملامح ، عنيدة التقاطيع ، تنطلق الآن تحت نتف الثلج الرطبة ، وحيدة هلكى .

... وابنها في السجن قد يكون ما زال حتى الآن ارقاً لم ينم .. إنه يفكر ، ولكنه لا يفكر بأمه ، بل هناك من هو أقرب اليه منها .

وكغمامة ملونة الانعكاسات ، حائرة الاشكال ، كانت الافكار الثقيلة تزحف ،

نحوها وتهصر قلبها بقوة .

وقال ايغور وهو يبتسم : انك متعبة يا اماه ، فهيا الى النوم . وتمنت له ليلة طيبة ، واجتازت المطبخ بخطى متأرجحة وحذر ، تحمل في قلبها اساها المحرق .

وفي الصباح ؛ عندما كانا يتناولان الشاي سألها :

ـ . . . واذا قبضوا عليك ، وسألوك من أين لك هذه المنشورات الملحدة ، فماذا تقولين لهم ؟

ـ أقول لهم ان هذا الأمر لا يعنيهم .

ـ نعم ... ولكن هذا القول لا يقنعهم ، وسيقنعون جيداً ، فيما لو كان الأمر يعنيهم بالفعل ؛ وسيسألونك بالحاح دون ان يضجروا ..

ـ ولكنني لن ابوح لهم .

ـ إنهم سيسجنونك .

فزفرت : سأحمد الله ، لأنني سأكون عضواً صالحاً لشيء ما على الأقل . من يحتاج اليّ ؟ لا احد .. ثم انهم ـ على ما يُقال ـ لا يعذبون ...

وهمهم بعد أن حدق فيها بامعان :

ـ كلا .. انهم لا يعذبون ... ولكن سيدة جريئة مثلك يجب ان تحتاط....

واجابت بابتسامة مرة :

ـ انه لجميل منك ان تلقنني هذا الدرس .

وصمت ايغور لحظة ، وذرع ارض الغرفة ثم اقترب منها :

ـ ان هذا لعسير يا مواطنتي ، اشعر جيداً انه عسير جداً بالنسبة لك .

واجابت بحركة من يدها :

ـ إنه عسيرٌ بالنسبة للجميع ، ولكنه ربمــا كان يسيراً على اولئك الذين يدركون ، وأنا ، ادرك شيئاً فشيئاً ما ينشده الناس الطيبون .

وقال ايغور بلهجة وقور :

ـ اذا كنت يا اماه تدركين ذلـــك فالطيبون جميعهم ، اجل جميعهم ، بحاجة اليك .

ورشقها بنظرة خاطفة ، وابتسم بصمت .

... وعند الظهيرة خبأت النشرات في صدرهـــا بهدوء وبكثير من المهارة مما حمل ايغور على ان يصيح مغتبطاً :

ـ « شيرغات »، كما يقول الالماني الطيب عندمـــا يكرع اناءً من الجعة . ان الأدب لم يبدل فيك شيئاً ايتها الام ، فلقد ظللت امرأة باسلة طيبة ، متقدمة في السن بعض الشيء ، ولكنها قوية كبيرة ، ألا فلتبارك خططك الآلهة التي لا عد لها .

.. وبعد نصف ساعة وصلت الى باب المعمل وهي تنوء بحملها الثقيل، ويبدو عليها الهدوء ورباطة الجأس .

وكان هنـــاك حارسان احنقهما هزء العمال ، يفتشان كل من يدخل الباحة دونما تمييز ، ويتراشقان الشتائم مـــع الداخلين ، وكان احد رجال البوليس يقف جانباً ، كما يقف ايضاً رجل آخر هزيل القائمتين ، احمر الوجه ، زائغ النظرة ، وقد اخذت بيلاجي ، وهي تنقل حمالتها من كتف الى آخر ، تتتبع حركاته بطرف عينها ؛ ويداخلها إحساس بأنه جاسوس .

وكان هناك فتى فارع الطول اجعد الشعر ، يعلق قبعته في عنقه ، ويصرخ في وجه الحارسين اللذين كانا يفتشانه :

ـ يجب ان تفتشوا في الرأس أيها الأبالسة لا في الجيب .

واجابه أحد الحارسين :

ـ ليس في الرأس شيء سوى القمل .

ـ حسناً ... التقطوا هذا القمل. فهذا هو العمل الوحيد الذي تتقنونه .

ولف الجاسوس الفتى بنظرة مريعة ثم بصق .

وقالت الأم : اسمحـــوا لي بالمرور ، فأنتم ترون اني مثقلة ، وان حمـــلي يقصم ظهري .

وصاح بها الحارس الرهيب : مرّي ، مرّي ولا تثرثري .

ووضعت الأم آنيتها على الأرض ، عندما وصلت الى مكانها المعتاد، ثم القت

نظرة عجلى على ما حولها وهي تمسح العرق المتصبب من وجهها ... واقترب منها في الحال صانعا اقفالهما الاخوان «غوسوف» وسألها أكبرهما ، ويدعى «فاسيلي»، سألها بصوت مرتفع ، وهو مقطب الحاجبين :

ـ هل يوجد معك فطائر ؟

فأجابته : كلا .. سوف احضر منها غداً . . .

وكانت تلك كلمة المرور ، فبرقت أسارير الأخوين ، ولم يتمالـــك جان وهو اصغرهما ، من أن يهتف : آه ايتها الأم ... إنك امرأة فاضلة .

وقرفص فاسيلي وراح يحدق في أحد الأوعية بينما كانت رزمة من الأوراق تنزلق تحت سترته .

وقال لأخيه بصوت جهير :

ـ لن نذهب الى المنزل يا جان ، وسنتناول غداءنا من طعام السيدة ، إذ من الواجب ان نقدم العون للبائعة الجديدة ..

ثم دس ببراعة ، كلية من المنشورات في ساق جزمته .

ووافق جان على الفكرة : هذا صحيح ... ثم انفجر ضاحكاً .

وكانت الأم تتلفت حولها بحذر، وتنادي بين الفترة والفترة معلنة عن بضاعتها:

ـ شوربا ... عجة سخنة ...

وكانت تحتال فتسحب من المنشورات رزمة بعد رزمة ، ثم تدسها في ايدي العمال الأصدقاء ، ومع كل رزمة ، كان وجه ضابط الدرك يبدو لعينيهـــا كبقعة صفراء أشبه ما تكون بلهيب عودٍ من الثقاب في غرفة مظلمة ؛ وكانت تقول له بذكاءٍ وغبطة ساخرة :

ـ خذ ... هذه لك يا ابني الصغير .

ثم تضيف منشرحة الصدر وهي تدس الرزمة التالية :

ـ خذ أيضاً ...

... وعندما أقبل العمال وصحونهم في ايديهم أخذ جان يضحك بضجيج ، فتوقفت بيلاجي عن توزيع النشرات، وراحت تسكب شورباء الملفوف والعجة،

في حين كان غوسوف يقول مازحاً :
— لكم هي بارعة ... هذه البيلاجي .
ورد عليه سائق متجهم الوجه :
— الحاجة تعلمك كيف تصطاد الجرذان . لقد اختطف الاوباش ذاك الذي كان يعولك .. حسناً .. اعطني عجة بثلاثة قروش .. ولا تبتئسي أيتها الأم .. فستتدبرين أمرك .
وابتسمت الأم : شكراً لهذا الكلام الطيب .
وابتعد العامل وهو يغمغم : هذا الكلام الطيب لا يكلفني غالياً ..
وعادت بيلاجي تنادي من جديد :
— شوربا سخنة ، عجة ، شوربا بالملفوف ..
وكانت تقول في نفسها بأنها ستقص على ابنها حديث هذه الخطوة الأولى ، وكان وجه الضابط الشاحب يمثل أمامها أبداً ، كريهاً قلقاً ، وشارباه الاسودان يتراقصان فينمان عن اضطرابه ، وكانت أسنانه المتراصة تلمع تحت شفته العليا التي قلصها الغضب ، وكان الفرح يغرد في قلب الأم كالعصفور ، وعيناها تتغضنان بخبث ، وكانت تحدث نفسها وهي توزع بضاعتها بمهارة فتهمس :
— خذ هذه ... وهذه ايضاً .

-١٦-

وفي المساء بينما كانت تتناول الشاي ، تعالى ، تحت النافذة ، وقع حوافر ، حوافر جواد تخب في الوحل ، وسمعت صوتاً تعرفه ، وبوثبة واحدة تخطت المطبخ إلى الباب ؛ فإذا بها ترى شخصاً يجتاز الباحة بخطى واسعة ، فيزوغ بصرها ، وتدفع الباب برجلها وهي تستند إلى حاجز السلم .
وقال الصوت الذي تعرفه جيداً :
— طبت مساءً أيتها الأم الصغيرة.
واستقرت على كتفها يدان طويلتان خشنتان .

واجتاحتها مرارة الأمل الخائب ، وفرحة اللقيا ، لقيا اندريه ، وامتزج الاحساسان المتفجران في احساس واحد ، احساس عميق لاهب ملأها بموجته العارمة ، وعصف بها فألقاها على صدر اندريه .
وضمها اندريه بذراعيه الراعشين ، وكانت هي تبكي بصمت دون ان تتفوه بكلمة وكان اندريه يداعب شعرها ، ويقول لها بصوت غرّيد :
— لا تبكي أيتها الأم الصغيرة ، ولا تنهكي قلبك . أقسم لك انهم سيطلقون سراحه قريباً ، فهم لا يملكون ضده أي دليل، لأن الشبان التزموا الصمت جميعاً كالأسماك المشوية .
وقادها إلى الحجرة وهو يغمر كتفيها بذراعه ، وراحت وهي تلتصق به ، تمسح الدموع عن وجهها بحذر السنجاب، وبدا وجودها المتعطش لسماع ماسيقول، بدا هذا الوجود كله معلقاً بشفتيه .
— ان بول يعانقك ؛ وهو بصحة جيدة وعلى احسن ما يكون نشاطاً؛ ولاشيء يشكو منه إلا ضيق السجن ، فلقد أوقف عدد من الناس يفوق المئة ، من هنا ومن المدينة ، ولذلك يقيم في الغرفة الواحدة ثلاثة أو أربعة . ولا مجال للتشكي من إدارة السجن فالقوم هناك ليسوا أشراراً ، ولكنهم مرهقون بالعمل، العمل الذي أغرقهم به حتى الآذان رجال الدرك الشياطين ؛ وهم ليسوا ، في مطلق الأحوال ، قساة القلوب ، بل انهم يرددون دائماً : «الهدوء أيها السادة ، الهدوء. لا تخلقوا لنا المتاعب» ، وهكذا تسير الأمور على أحسن وجه .
أما السجناء فإنهم يثرثرون ، ويتبادلون الكتب ويتقاسمون الطعام ، والسجن سجن جيد ، صحيح انه قديم البناء ؛ مسرف في القدم، ولكنه رغم ذلك لطيف، لا يصاب المرء فيه بالصفراء . ورجال السلطة العامة قومٌ طيبون يساعدوننا كثيراً . لقد أطلق سراحي أنا ، وسراح بوكين وأربعة آخرين ، وسيطلق سراح بول عما قريب ، وهذا أمر أكثر من أكيد ... اما فيسو شيكوف فسيطول أمد اعتقاله: انهم غاضبون عليه وهو يوسعهم سباً بلا هوادة . ورجال الدرك لا يطيقون رؤيته ، وربما أحيل إلى المحاكمة أو إلى الجلد ..... ويحاول بول أن يهدئه

فيقول له : «استكن يا نيقولا ، فإنهم لن يكونو أفضل مما هم ، اذا صرخت في وجوههم» ولكن نيقولا يخور : «سأبقر بطونهم كالأرانب» ... أما بول فيظل هادئاً متزناً ، واني لأؤكد انهم سيطلقون سراحه عما قريب .

ورددت الأم باسمة مطمئنة :

— نعم ... عما قريب ، أنا أعلم ذلك ، عما قريب .

— حسناً ... ما دمت تعرفين ذلك ، فصبي لي قدحاً من الشاي وحدثيني عن الحال .

وكان يرنو اليها متهلل الوجه ، وقد التمع في عينيه لهب ودود يخالطه حزن خفيف .

وقالت الأم ، وهي تطلق زفرة عميقة ، وتتأمل وجهه النحيل الذي يثير السخرية بما انبث فيه من أجمات الشعر القاتم :

— يا صغيري اندريه ... إني أحبك حباً جماً .

وردّ البيوروسي وهو يتأرجح فوق كرسيه :

— ان القليل منه يكفيني ؛ فأنا أعلم انك تحبينني ، وانك تستطيعين ان تحبي العالم كله ، لأن لك قلباً كبيراً ...

واصرت : لا ... إني احبك انت بصورة خاصة ، فلو كانت لك ام لغبطها الناس لأن لها ابناً مثلك .

وقال بهمس : وانا أيضاً لي ام في ناحية ما من الارض .

وهتفت : هل عرفت ما فعلته اليوم ؟

وقصت عليه بحرارة ، ولسانها يتعثر من الغبطة ، كيف ادخلت المنشورات إلى المعمل وزوّقت القصة بعض التزويق .

وجحظت عيناه دهشة ، ثم انفجر ضاحكاً ، هازاً فخذيه ، ولطم رأسه بيده وصاح بملء الفرح .

— اوه ، اوه ... ولكن هذا ليس مزاحاً . إنه عمل جدي سيسر به بول أليس كذلك ؟ هذا جميل أيتها الأم الصغيرة بالنسبة لبول ، وللجميع .

وكان يفرقع بأصابعه جذلاً ، ويتأرجح في مقعده ويصفر ، وكانت فرحته

المتفجرة الغابرة توقظ فيها رجعاً قوياً .

وعادت إلى الكلام كأنما قد فتح قلبها على مصراعيه وانبجس منه كينبوع طروب ، فيض من الألفاظ المعبرة عن تلك الغبطة الهادئة التي تفعمها .

— يا إلهي ... لقد تأملت حياتي ، وتساءلت ... لماذا عشت ؟ عشت للضرب ... والعمل ... وكنت لا أرى أحداً سوى زوجي ؛ ولا اعرف شيئاً سوى الخوف . وحتى أنني لا أدري كيف نشأ بول . هل أحببته عندما كان زوجي حياً ؟ لا أدري ؛ لقد كان همي كله ، وافكاري كلها تدور حول امر واحد هو ان اطعم ذلك الوحش الضاري ، ليشعر بالاكتفاء والشبع ، وأن أضع نفسي في خدمته في الوقت المناسب ، كيلا يستشيط غضباً ، ويشبعني ضرباً ؛ أو على الأقل ، لكي يوفرني من الضرب هذه المرة . ولا أذكر انه فعل ذلك أبداً . لقد كان يضربني بضراوة ، حتى لأحسب انه كان لا يضربني أنا بالذات ، بل يضرب فيّ كل اولئك الذين يكرههم . ولقد عشت عشرين عاماً على هذه الوتيرة ، ولا أعرف شيئاً مما حدث قبل زواجي ، وقد تعاودني الذكرى ، ولكنني لا ألبث أن أصبح كالعمياء ، لا أرى شيئاً أبداً .

لقد كان ايغور ايفانوفيتش ، وهو ابن قريتي ، كان هناك ، وكان يتحدث عن هذا أو ذاك . أما أنا فأذكر بيوتاً وناساً ... أما كيف كان يعيش هؤلاء الناس ، وماذا كانوا يقولون ؟ وماذا حل بهم ؟ فذلك ما لا أذكره ، وانما أذكر بعض الحرائق ، بل اثنتين منها . لقد أفلت مني كل شيء وباتت نفسي مغلقة كمنزل مهجور . انها عمياء صماء .

وتنفست الصعداء وتنشقت الهواء بنهم كسمكة خرجت من الماء ، وانحنت ثم تابعت بصوت أشد خفوتاً :

— عندما قضى زوجي نحبه تعلقت بابني . أما هو فقد أخذ يهتم بهذه الامور التي ، تعرفها ، وكنت انظر إلى تصرفه بعين غير راضية ، وكنت في الوقت نفسه أشفق عليه ؛ وأسائل نفسي : كيف أعيش وحيدة إذا هلك لا سمح الله ؟ أية كآبة كنت استشعرها وأي قلق ؛ لقد كان قلبي يتمزق كلما فكرت بالمصير

الذي ينتظره .

وصمتت وهزّت رأسها بهدوء ثم أردفت بلهجة متزنة :

— ليس حبنا نحن النساء حباً صافياً،فنحن نحب ما نشعر اننا بحاجة الى حبه. خذ على ذلك مثلا . أنت الذي تعيش معذباً بعيداً عن أمك ما حاجتك اليها ؟ وكل اولئك الذين يتعذبون من أجل الشعب ، والذين يذهبون إلى السجن أو إلى سيبيريا ، أو يموتون ، وتلك الفتيات اللاتي ينطلقن وحدهن في الليل ، في الوحل ، وتحت الثلج والمطر ، واللاتي يقطعن سبعة كيلومترات ليأتين الينا ... هؤلاء جميعاً من يدفعهم ؟ من يستحثهم ؟.. إنهم يحبون فحسب ، وهذا هو الحب الصافي . إنهم يعتقدون . أنهم يؤمنون يا اندريه .. أما أنا فلا أعرف حباً كهذا ، إنني احب ما في ذاتي ، وكل ما يتعلق بي .

وقال البيوروسي الذي كان يفرك كعادته بعصبية ، رأسه ووجنتيه وعينيه، قال لها دون أن يرفع بصره :

— إنك تستطيعين أيضاً . فنحن جميعاً نحب ما هو أقرب إلينا ، ولكن ماهو بعيد يغدو بالنسبة للقلب الكبير .. قريباً . إنك تستطيعين أن تحبي حباً عظيماً لأن قلبك كأم ..

وقاطعته هامسة : إن شاء الله . أنا احس هذا الحب بكل تأكيد ، أحسه جيداً ، وان الحياة لجميلة معه . إسمع. إنني أحبك ، وربما كنت احبك أكثر مما احب بول . إنه منطو على نفسه . تصور انه يود أن يتزوج من ساندرين ، وانه لم يحدثني عن ذلك ابداً ؛ لم يحدثني أنا .. أمه ..

— ليس هذا صحيحاً . أنا أعلم ذلك . أما الصحيح فهو انه يحبها وهي تحبه، ولكن غاية هذا الحب ليست الزواج ؛ إنها تتمنى ذلك ، ولكن بول لا يبغيه .

وقالت الأم بشرود ، وبصرها الحزين يتعلق بأندريه :

— إذاً فالأمر هكذا ؟ إن الناس يتنكرون لذواتهم .

وأجاب اندريه بصوت خفيض :

— إن بول رجل فذ .. إنه من حديد .

وتابعت هي بلهجتها الحزينة :

— والآن..هوذا في السجن .وذلك أمر مريع مخيف ، يختلف عن ذي قبل . إن الحياة لم تعد هي نفسها ، وكذلك الخوف ، وكلاهما يرعبانني .

وقلبي ... هو الآن غيره بالأمس . لقد فتحت نفسي عينها وتطلعت ، فإذا الحزن فيها يمتزج بالغبطة . إني أدرك قليلا من الأمور ، وانه لشديدٌ عليّ ألا تؤمنوا بالله . هذا هو الواقع ، ولست استطيع حياله أن أفعل شيئاً ، ولكنني، مع ذلك أرى انكم قومٌ طيبون .. وانكم نذرتم أنفسكم لحياة قاسية في سبيل الشعب ، نعم .. لحياة قاسية في سبيل الحقيقة .

لقد أدركت أنا أيضاً تلك الحقيقة التي تنشدونها ، ما دام هناك أغنياء فسيظل الشعب معدماً لا يعرف العدالة ولا الفرحة ، ولا أي شيء آخر . إني أعيش بينكم ، وفي كل ليلة أتذكر حياتي الغابرة أكثر من مرة ، وأتذكر قوتي التي سحقتها الأقدام ، وقلبي الفتيّ الممرغ ، فأشفق على نفسي ، وهذا أمرٌ شديد المرارة ؛ ومع ذلك فإن الحياة أصبحت بالنسبة لي أفضل من ذي قبل ، وانا أرى نفسي بوضوح يوماً عن يوم .

ونهض البيوروسي ، وراح يذرع ارض الغرفة بقامته الفارعة الهزيلة، جاهداً ألا يجر قدميه جراً :

— إن ما قلته حسن ، حسن .. ولقد كان في « كيرتش » شاب ينظم الأشعار ، فكتب يوماً هذين البيتين :

... والأبرياء الذين أعدموا ،

ستبعثهم من رموسهم قوة الحقيقة ..

وقتله البوليس ، هو نفسه ، في «كيرتش» ، ولكن ذلك لا أهمية له ، بل المهم انه كان يعرف الحقيقة ، وأنه بذرها بين الناس ، وانتِ أيضاً ، كما ترين ، مخلوق بريء حكم بالموت ..

وقاطعته الأم : لقد جاء دوري .. اني اتكلم ، وأصغي ، ولا اصدق اذنيّ .

لم افكر قط في حياتي إلا بأمر واحد هو ان اعبر مع النهار منسية ، لا يراني احد قانعة فقط بالسلامة . أما الآن فأنا أفكر فيكم جميعاً . أنا لا أفهم تمام الفهم تصرفاتكم ، ولكني احسكم جميعاً قريبين مني . اشفق على الناس جميعاً، وأتمنى لهم الخير جميعاً ، وبصورة خاصة ، لك انت يا عزيزي اندريه .

ودنا منها وقال :

— شكراً .

وأخذ يدها بين يديه ، وشدها بحرارة وطواها ثم استدار عنها سريعاً . وارهق الانفعال الأم ، فراحت تغسل آنية المطبخ متباطئة . وكانت تلتزم الصمت ، ويدفىء قلبها شعور البأس والبسالة .

وقال لها البيوروسي :

— اسمعي ايتها الأم الصغيرة . عليك ان تُدللي ، في يوم من الأيام ، فيسوشيكوف بعض الدلال ... لأن اباه ، هو ايضاً في السجن . ويا له من شيخ قميء مقرف ؛ اذا رآه نيقولا من نافذته شتمه ، وليس هذا باللائق . إن نيقولا رجل طيب ، يحب الكلاب والفئران والمخلوقات كلها ، ولكنه لا يحب الناس..

آه .. لشد ما يمكن ان يُفسد إنسان .

وقالت بيلاجي وهي مطرقة :

— لقد اختفت امه ، وأباه لص سكير ..

وعندما مضى اندريه لينام باركته الأم دون أن يلحظ ذلك ، وكان قد مضى عليه وهو في سريره نحو نصف ساعة عندما سألته برقة :

إنك لم تنم بعد يا اندريه .

— لا ... ولماذا ؟

— طابت ليلتك .

وأجابها ممتناً : شكراً أيتها الأم الصغيرة . شكراً .

— ١٧ —

وفي الغد عندما بلغت بيلاجي باب المعمل مثقلة بحملها أوقفها الحرس بخشونة وأمروها بأن تضع طناجرها في الأرض ، ثم فتشوها بدقة .

واحتجت بهدوء فيما كانوا يتحرون ثوبها دونما خجل :

— سيبرد طعامي بسببكم .

وأجابها احدهم بصوتٍ كريه : اخرسي

وقال لها الآخر بثقة وهو يدفعها بكتفه دفعاً رفيقاً :

— وإذا لم تصمتي فسيلقى طعامك كله في السياج .

وكان أول من اقترب منها سيزوف العجوز . لقد تلفت حواليه بحذر ، وسألها بصوتٍ خافت :

— هل سمعتِ ما يقال أيتها الأم ؟

— وماذا يقال ؟

— لقد عادت المناشير الى الظهور . لقد نثرت في كل مكان . نثرت كالملح في الخبز . وبدأت الاعتقالات ، والتحريات . لقد زجوا بجفيدي مازين في السجن، واعتقلوا إبنك ، ثم ظهر بصورة أكيدة أنها ليساهما اللذين يوزعانها .. لقد ظهر ذلك جلياً الآن .

وجمع لحيته في قبضته ، ورنا الى بيلاجي وقال وهو ينأى عنها :

— عرجي على بيتنا .. فأنت وحيدة ، وهذا ما يبعث السأم . أليس كذلك؟

وشكرته . وكانت وهي تعلن عن بضاعتها تراقب بعين يقظة ، الاضطراب غير العادي الذي يسيطر على المعمل . لقد كان العمال جميعاً كأنهم في هياج ؛ يتجمعون في زمر لا تلبث أن تتفرق ، وينتقلون من ورشة إلى اخرى ، وكنت تتنسم في الهواء المثقل بالهباب نفحة استبسال وجرأة . وكانت تتصاعد من هنا وهناك صيحات تحريض ، وهتافات ساخرة وكان العمال المتقدمون في السن يكتفون بالابتسام ، والمناظرون يروحون ويجيئون ، والقلق بادٍ في ملامحهم ، ورجال البوليس يتراكضون فيتفرق العمال ببطء حين يرونهم ، أو

يكفون عن الحديث دون أن يتحركوا من أماكنهم ، ويرنون إلى وجوههم الكريهة الحانقة بصمت .

وكان العمال يبدون كمن استحم في النضارة ، وكان الشبح الشامخ ، شبح «غوسيف» البكر يظهر هنا وهناك ، يتبعه اخوه الأصغر كظله ، ويقهقه بصوت داو .

ومرّ النجار «فافيلوف» والثقّاب ايساي ، بالقرب من الأم على مهل ، وكان ايساي ، وهو رجل صغير هزيل ، شامخ الرأس ، يميل بعنقه إلى اليسار ، ويرنو إلى النجار المنتفخ الوجه ، الذي تبدو عليه اللامبالاة ، ويحدثه بحرارة ولحيته تهتز :

— انظر يا إيفان إيفانوفيتش . انهم يقهقهون .انهم مغتبطون رغم ان تصرفهم كما قال حضرة المدير ، يؤدي الى خراب الدولة . انه لا يجب هنا ، يا ايفان ايفانوفيتش تنقية التربة من النباتات الطفيلية فحسب ، بل يجب حرثها .

وكان فافيلوف يسير ، ويداه مشبكتان وراء ظهره ، وأصابعه تتشنج وكان يقول بصوت مرتفع :

— قل ما شئت يا ابن الكلبة ، ولكن لا تحاول أن تأتي على ذكري

واقترب غوسيف من الأم :

— لقد جئت لأتناول طعامي عندك .. لأن «بضاعتك» جيدة .

ثم أضاف وهو يخفض صوته ويغمز بعينيه :

— لقد كانت ضربتك محكمة أيتها الأم .. هذا عظيم .

وأومأت اليه بيلاجي برأسها إيماءة ود ، وكان يسرّه أن يرى ذلك الفتى ، الذي يُعد اكثر شبان الضاحية مزاحاً ، وأن يتحدث اليه سراً ، مخاطباً إياه باحترام . وكانت هي سعيدة ، بهذا الهيجان الشامل وتحدث نفسها :

— من الأكيد اني لو لم أكن هناك ..

وتوقف ثلاثة جنود على مقربة منها ، وقال أحدهم بصوت خفيض ولهجة متحسرة !

— لم اعثر على واحد من المنشورات .

— ينبغي أن يقرأ المنشور بصوت عالٍ . صحيح اني لا اعرف القراءة ولكنني أرى جيداً انهم تلقوا ضربة في الضلوع ..

وتلفت الثالث حواليه واقترح :

— هيا بنا الى غرفة الوقود .

وتمتم غوسيف غامزاً :

— لقد بدأت النتائج تظهر ..

.. وعادت بيلاجي الى منزلها شديدة الابتهاج .

وقالت لأندريه : انهم يتحسرون لأنهم لا يعرفون القراءة .. أما انا فقد كنت اعرفها عندما كنت صغيرة .. ولكنني نسيتها .

— يجب ان تتعلميها من جديد .

— وفي سن مثل سني ؟ علامَ تريدني أن أثير ضحك الناس عليّ ؟

ولكن اندريه تناول كتاباً عن الرف ، وأشار الى حرف من حروف الغلاف برأس سكينة وسألها :

— اي حرف هو هذا ؟

فأجابت ضاحكة : انه حرف الراء.

— وهذا ؟

— حرف الألف .

وكانت مضطربة منفعلة . فلقد توهمت ان عيني اندريه تضحكان منها وتسخران ، وكانت تتحاشى نظراتها ، ولكن صوته كان يرن عذباً صافياً ، ووجهه يبدو متزناً جاداً ، فسألته ببسمة مكبوتة :

— أمن الممكن يا اندريه انك تفكر حقاً في تعليمي ؟

— ولمَ لا ، ما دمت تعرفين القراءة ؛ فإنك ستتذكرين بسهولة ؛ ولقد قال المثل: «اذا لم تكن هناك معجزة فيا للخسارة ..واذا كانت... فذلك أحسن.» كما قال أيضاً : «إنك لا تصبح قديساً بمجرد التطلع الى الايقونات »

ثم أردف وهو يهز رأسه :

ـ أجل .. إن الأمثال لا تغفل شيئاً ، فلقد قيل : «اذا عرفنا قليلاً غنمنا هنيئاً» فهل هذا صحيح ؟ إن المعدة هي التي تفكر بالأمثال ؛ إنها تحبك منها لجاماً للنفس ، لتمسك بزمامها جيداً .. وهذا الحرف ما هو ؟

وكانت الأم تجهد نفسها ، مسترخية النظرة مقطبة الحاجب ، لتتذكر الاحرف المنسية وكانت وقد استغرقتها هذه الغاية ، تنسى الأحرف الباقية . وبدت عيناها منهكتين ، وظهرت فيهما اولاً دموع الإجهاد ، ثم غزرت فيهما دموع الأسى .

وقالت وهي تنفجر منتحبة :

ـ أنا أتعلم الأبجدية . أتعلم القراءة في سن الاربعين .

وقال اندريه بصوت خفيض ملاطف :

ـ يجب ألا تبكي ، فأنت لا تستطيعين العيش إلا كذلك ؛ ومع هذا فأنت تدركين الآن ان الناس يعيشون حياة منكودة . إن هناك آلافاً منهم يستطيعون أن يحيوا حياة أفضل من حياتك ، ولكنهم يعيشون كالحيوانات ، وهم مع ذلك ، يعتزون بحياتهم تلك . فأي خير يتحقق في وجود هؤلاء ؟ إنهم اليوم يعملون ويأكلون ، وسيفعلون ذلك في الغد ، وسيظل الأمر هو نفسه طوال حياتهم : عمل وأكل . وفي خلال ذلك ينفحون الدنيا أطفالاً يكونون في بادىء الأمر مصدراً لسلواهم ، ولكن عندما يبدأ هؤلاء في الأكل كثيراً ، يحنق الأهل ، ويسيئون معاملتهم : «هيا ، أيها الشرهون ، انموا سريعاً . يجب أن تشتغلوا» إنهم يودون ان يجعلوا من صغارهم بقرة حلوباً ، ولكن هؤلاء يكدحون بدورهم من اجل بطونهم ؛ ويحيون بدورهم ، حياة بائسة ، كحياة المحكوم بالاعدام وهو في اغلاله . إن هؤلاء وحدهم هم الذين يحطمون قيود العقل البشري ، وأنتِ الآن ، أيتها الأم تتصدين على قدر طاقتك ، لمثل هذه المهمة .

وزفرت الأم : لا تحدثني عن نفسي ، فماذا استطيع أنا أن افعل ؟

ـ ولِمَ ذلك ؟ إن كل قطرة من المطر تروي بذرة . إنك عندما تستطيعين القراءة ..

.. وراح يضحك ، ثم نهض ، واخذ يذرع الغرفة طولاً وعرضاً :

ـ أجل ستتعلمين .. وعندما يعود بول .. أليس كذلك ؟

وردت عليه :

ـ آه يا اندريه . عندما يكون المرء شاباً يسهل عليه كل شيء .. ولكنه يغدو كلما تقدم في السن ، غنياً بالأحزان ، فقيراً بالقوى ، وبالعقل .. ثم لا يعود يملك شيئاً ..

ـ ١٨ ـ

وفي المساء خرج اندريه من المنزل ، واشعلت بيلاجي المصباح ، وجلست قرب الطاولة تنسج جورباً ؛ ولكنها ما عتمت ان نهضت ، وسارت بضع خطوات حيرى ، وانطلقت نحو المطبخ ، ثم احكمت اقفال الباب وعادت الى الغرفة وقد ارتسم على جبينها تغضن قلق .

وأسدلت الستائر ، ثم أخذت كتاباً كان على الرف ، واقتعدت من جديد مكانها من الطاولة ، وسرّحت بصرها في ارجاء الغرفة ، وانكبت على الصفحات ، وراحت شفتاها تتحركان . وكانت عندما تترامى الى سمعها جلبة في الشارع ، تطبق الكتاب وتصغي بانتباه شديد ؛ ثم لا تلبث ان تعود من جديد ، فتفتح عينيها تارة ، وتغمضها تارة اخرى ، وتغمغم :

« ا .. ر .. ضـ .. نا »

وطرق الباب فوثبت على عجل ، والقت الكتاب على الرف وسألت محنقة :

ـ من الطارق ؟

ـ أنا .

ودخل ريبين ، فمسد لحيته بزهو وقال :

ـ لقد كنت قبلاً تسمحين بالدخول دون أن تسألي من الطارق ؟ هل أنت

وحدك ؟ لقد كنت اعتقد ان البيورومي هنا، فلقد رأيته اليوم .. ان السجن لا يفسد الرجال .

وجلس .

ـ حسناً . لنتحدث قليلاً .

وكان على ملامحه مسحة جد ، وسرّ خفي بعثا في قلبها رعباً غامضاً .

ورن صوته المتزن :

ـ كل شيء يكلف مالاً ، فلا شيء يتم بدون بذل ، لا الحياة ولا الممات ، وهكذا النشرات فانها تكلف مالاً .. فهل تعرفين من أين يأتي المال الذي يغطي نفقاتها ؟

وأجابت بيلاجي بهدوء وهي تتوقع خطراً :

ـ لا ادري .

ـ وأنا أيضاً لا أدري شيئاً من ذلك .. أفهل تدرين ايضاً من يكتبها ؟

ـ انهم فئة من العلماء ...

وقال ريبين ، ووجهه الملتحي يستطيل ويتضرّج :

ـ انهم سادة . أجل . انهم سادة اذن اولئك الذين يصوغونها ويوزعونها، وفي هذه النشرات يهاجم السادة ، فقولي لي الآن .. أية فائدة يجنونها من بذل المال لإثارة الشعب ضد أنفسهم ؟

وارتعشت أجفان الأم ، وصرخت بهلع :

ـ ماذا تتخيل ؟

وقال ريبين وهو يتململ فوق مقعده بتثاقل الدب :

ـ وأنا ايضاً شعرت بالبرد عندما توصلت الى هذه الفكرة .

ـ هل توصلت الى معرفة شيء ما ؟

ـ اشم رائحة الخديعة . انا لا اعرف شيئاً ولكني موقن انها خديعة . اني احتاج الى معرفة الحقيقة ، وقد عرفتها لن أتعاون مع هؤلاء السادة فهم اذا ما احتاجوا اليّ دفعوني الى الأمام لتكون عظامي الجسر الذي يعبرونه الى

من ذلك ،

وكانت كلماته القاتمة كأنها انما تهصر قلب الأم ، فصرخت وقد تملكها الضيق :

ـ يا سيد .. أمن الممكن الا يدرك بول ذلك ؟ واولئك الذين ..

.. وأخذت الوجوه النبيلة الصارمة ، وجوه ايغور ونيقولا ايفانوفيتش وساندرين تنتصب أمامها ، فيتفطر قلبها ، وتتابع وهي تهز رأسها بالنفي :

ـ كلا ، كلا .. انا لا استطيع ان اصدق . إنهم يعملون بوحي ضمائرهم ؟

ـ عمن تتحدثين ؟

ـ عنهم جميعاً . عن كل اولئك الذين رأيتهم بلا استثناء .

وأطرق ريبين وقال :

ـ يجب ان ينطلق بصرك الى أبعد ، أيتها الأم ، فقد لا يكون اولئك الذين يترددون الى هنا ، والذين كنا نراهم عن كثب ، قد لا يكونون هم انفسهم على علم بشيء . إن هؤلاء يؤمنون ، وهذا ما يجب ان يكون ، ولكن ربما كان وراءهم آخرون لا ينشدون إلا المصلحة .. إن المرء لا يندفع ضد مصلحته إلا بثمن .

ثم أضاف بايمان عنيد ، ايمان قروي :

ـ لا خير أبداً يرتجى من هؤلاء السادة .

وسألته الأم وقد وقعت من جديد فريسة للشك :

ـ وماذا قررت ؟

وتأملها ، وصمت لحظة ثم قال :

ـ انا ؟ يجب الا استمر في التعاون مع هؤلاء السادة .. هذا هو ما قررته .

ثم صمت من جديد ، وهو متجهم الأسارير .

ـ لقد أردت أن اضع نفسي انا وفتيانك ، للعمل معهم ، واني لاصلح لهذه المهمة ، واعرف ماذا يجب أن يقال للناس .. اما الآن فسأرحل . انا لا استطيع ان اثق بهم ، وعليّ أن اذهب

وطأطأ رأسه ، يفكر :

- سأنطلق وحدي في القرى والدساكر ، سأوقظ الشعب ، إذ على الشعب ان يأخذ مكانه في النضال . واذا ادرك ذلك فإنه لن يضل الطريق ابـــداً . وسأبذل جهدي لـكي يدرك بأنه لا امل له إلا بنفسه، والا منطق إلا منطقه.. هذا هو الواقع .

وداخل الأم إشفاق عليه وخوف، ولم تك منقبل تشعر نحوه بأي تعاطف، ولكنه اصبح فجأة قريباً من نفسها ؛ فقالت له برقة :

- سوف يقبضون عليك .

فرنا اليها وأجاب بهدوء :

- سيقبضون عليّ ثم يطلقون سراحي فأعيد الكرة .

- ان الفلاحين انفسهم سيوثقون يديك ، وستُزج في السجن .

- إذا زججت في السجن فاني سأخرج منه ، وسأعود للعمل . اما الفلاحون فانهم سيوثقون يدي مرة ومرتين ، ثم ينتهون الى الاعتقاد بأنه يجب الاصغاء إليّ لا القبض عليّ ، وساقول لهم : «لا تصدقوني ولكن اصغوا إليّ فقط... واذا أصغوا اليّ فانهم سيصدقونني» .

وكان يتكلم ببطء كأنه يتحسس كل كلمة قبل ان يلفظها :

- لقد مروت ، في الزمن الأخير هذا ، بتجارب كثيرة ، وأدركت كثيراً من الامور ..

وقالت بيلاجي وهي تهز رأسها بأسى :

- سوف نهلك يا ميشال .

فركز عليها عينيه السوداوين العميقتين اللتين كانتا تبدوان كأنهما تنتظران جواباً ، وكان جسمه القوي يميل الى الامام ، ويداه تستندان الى متكأ المقعد ، ووجه البرونزي يبدو شاحباً في اطار لحيته السوداء .

- انت تعرفين ما قاله يسوع عن حبة القمح . «ينبغي ان تموت لتبعث في سنبلة جديدة ، وما زال لديّ متسع من الوقت .. قبل أن امـــوت .. واني لامرؤ ذو حيلة ».

وتململ في مقعده ثم نهض متباطئاً :

- أنا ذاهب الى الفندق ، وسأمكث هناك ، بعض الوقت . يظهـــر أن البيوروسي لن يحضر ، فهل تراه انهمك في العمل من جديد ؟

وأجابت الأم باسمة :

- نعم .

- هذا ما يجب . أعيدي عليه ما قلته لكِ .

واجتازا المطبخ بتثاقل ، وتبادلا بعض العبارات دون ان ينظر أحدهما الى الآخـــر .

- والآن ، وداعاً .

- لقد قضي الأمر .

- ومتى ترحـــل ؟

- غداً ، في الصباح الباكر . وداعاً .

وسار ريبين محني الظهر واجتاز الردهة كالمكره ، وظلت الأم على العتبـــة لحظة تصيخ بسمعها الى الخطى الثقيلة ، والى الشكوك التي استيقظت في قلبها ؛ ثم ارتدت دونما جلبة الى الغرفة ، ورفعت طرفاً من أطراف الستارة ، وتطلعت من النافذة . لقد كانت الظلمات الكثيفة وراء الزجاج جامدة لا تتحرك .

وقالت في نفسها :

- إنه الليـــل .

وكانت تشفق على هـــذا القروي النير التفكير ، وكان هو واسع الصدر شديد البـــأس .

... وأقبل اندريه بادي النشاط والمرح .

وعندما حدثته عن زيارة ريبين صاح :

- حسناً ، لينطلق في القرى ، يبشر بالحقيقة ويوقظ الشعب . إنه لا يشعر بالراحة معنا ؛ فلقد نبتت في رأسه أفكاره القروية ، ولم يبق في هـــذا الرأس مكان لأفكارنا .

وقالت بغبطة :

— إن ما قاله عن السادة يدل على أن هناك أمراً مبيتاً ... فضلاً عن أنهم يخدعوننا .

وصاح البيوروسي ضاحكاً :

— هل يزعجك هذا ؟ آه ... المال ... ليتنا نملك المال أيتها الأم الصغيرة ؛ فنحن ما زلنا نعيش حتى الآن بمال الآخرين : خذي مثلاً نيقولا ايفانوفيتش . إنه يقبض خمسة وسبعين روبلاً في الشهر يدفع لنا منها خمسين . والآخرون كذلك . وهناك طلاب جياع يبعثون إلينا ، أكثر الأحيان ، ببعض المال الذي يجمعونه فلساً فلساً . إن السادة بلا شك أنواع : بعضهم يخدع ، والبعض الآخر في المقدمة ، أما أفضلهم فإنهم معنا .

وفرك يديه وتابع بقوة :

— إن نصرنا ليس للغد ، ولكننا سنعد بانتظار أول أيار ، عيداً « صغيراً » طيباً ، وسيكون هذا العيد بهيجاً .

وطردت حماسته الكآبة التي زرعها ريبين في نفسها ، وكان يختال في الغرفة وهو يمسح شعره بيده ، ويقول ، وعيناه مسمرتان في الأرض :

— أني أحس أحياناً تفجر حياة عجيبة في قلبي ، ويخيل اليّ أن المرء يلقى أصدقاءً أنّى ذهب ، أصدقاء يدفعهم جميعاً نفس اللهب ، أصدقاء طيبين ، مرحين ، يتفاهمون دونما كلام ؛ ويعيشون في انسجام رائع ، ويغني كل قلب انشودته ، وتسيل هذه الأناشيد كلها كالجداول ، وتصب في نهر واحد يندفع عريضاً ، حراً ، نحو البحر ، بحر الهناآت الصافية ، هنا آت الحياة الجديدة .

وكانت بيلاجي تجهد نفسها في ألا تأتي بأية حركة كيلا تقطع عليه حديثه . لقد كانت تصغي إليه دائماً أكثر مما تصغي للآخرين ، وكان يتحدث ببساطة أكثر ، فتمس كلماته القلب بقوة . كان بول لا يقول أبداً كيف يرى المستقبل ، في حين أن المستقبل كان في نظر اندريه كشطر من قلبه ؛ وكان يخيل إليها وهي تستمع الى خطبه أنها تصغي الى حكاية حلوة ، حكاية العيد العظيم الذي

سيشرق على الناس جميعاً ، وكانت هذه الحكاية تلقي الضوء ، بنظرها ، على اتجاه حياة ابنها وعمله ، هو ورفاقه .

وتابع البيوروسي وهو يهز رأسه :

— وعندما نعود الى الواقع ، عندما نتلفت حولنا نجد كل شيء بارداً موحلاً ، والناس هلكى مختنقين .

ثم تابع بحزن عميق :

إن هذا لمهين ؛ ولكن ينبغي أن نحذر الإنسان ، أن نخافه . وحتى أن نكرهه . إن الانسان موزع . وعلينا أن نحب فقط ... فهل هذا ممكن ؟ كيف تغفر لمن ينقض عليك كوحش ضارٍ لا يعترف بأن فيك روحاً تحيا ؛ ويسدد ضربات قبضته الى وجهك كإنسان ؟ محالٌ أن تغتفر له ذلك ؛ وهذا ليس بالنسبة لي أنا ، فأنا أتحمل الإهانات كلها إذا لم يكن سواي ، ولكنني لا أريد أن أخضع أبداً ، لأولئك الذين يستخدمون القوة ولا اريدهم ان يتعلموا ضرب الآخرين على حسابي .

وهنا لمعت عيناه بألق بارد ، فأحنى رأسه بعناد وقال بكثير من الحزم :

— يجب ألا أغتفر أي عمل سيء ؛ حتى ولو لم يكن يمسني شخصياً ؛ فأنا لست وحدي على الأرض . لنفترض اني استكنت اليوم للإهانة فلم آرد عليها ، وبأني ضحكت منها لأنها لم تجرحني؛ فإن وجهها الذي اختبر قوته فيّ ، سيعتدي غداً على شخص آخر . من أجل هذا يجب التمييز بين الناس ، ويجب أن يكون المرء ثابت الجنان ، وأن يقول : « هؤلاء اخوتي ، وهؤلاء ليسوا كذلك » إن هذا الموقف صحيح ولكنه لا يبعث على السرور .

وانطلق تفكير الأم بصورة لا واعية الى الضابط وساندرين فزفرت :

— كيف نصنع الخبز من قمح لم يزرع بعد ؟

فصاح اندريه :

— هذه هي المصيبة .

— أجل .

وتراءى لها فجأة شبح زوجها عبوساً ثقيلا كصخرة ضخمة يغطيها العشب ، وتخيلت البيوروسي وقد تزوج ناتاشا ، وابنها وقد ربط مصيره بساندرين .

وتابع اندريه مستشاطاً :

ـ وعن أي شيء ينتج هذا ؟ إنه ناتج فقط ـ وهذا ما يبدو في الوقت نفسه مضحكاً ـ ناتج عن أن الناس غير متساوين . لنضع الناس جميعـاً في مستوى واحد ، لنوزع بالتساوي كل ما أبدع العقل وكل ما صنعته الأيدي ، نتحرر من عبودية الخوف والحسد واغلال الطمع والغباوة .

هذه هي الأحاديث التي كانت تدور غالباً بين البيوروسي والأم .

وكان اندريه الذي عاد الى العمل في المصنع، يضع أجره كله بين يدي بيلاجي التي كانت تقبضه ــ بكل بساطة ــ كما تقبض أجر بول .

وكان اندريه يقترح أحياناً بعين ضاحكة :

ـ لِمَ لا نقرأ قليلا ايتها الأم الصغيرة ، لِمَ لا نقرأ ؟

وكانت هي ترفض مازحة ، ولكنها ترفض بعنـاد ، وكانت بسمة اندريه تربكها وتحنقها فتقول :

ـ أراك تضحك ، فهل في هذا ما يضحك ؟

وكانت تسأله دائماً عن معنى هذه اللفظة أو تلك، حين يشكل عليها معناها، تسأله دون أن ترفع إليه بصرها ، وبصوت تحاول أن تشحنه باللامبالاة ؛ وقد استنتج انها كانت تدرس على نفسها في الخفاء ، وأدرك مبلغ ضيقها فلم يعد يقترح عليها أن تقرأ معه .

وصارحته مرة :

ـ إن بصري ضعيف يا اندريه . إني بحاجة الى نظارتين .

ـ ربما كان ذلك . سنذهب نهار الأحد الى المدينة ، وسآخذك الى الطبيب ، وسيكون لك نظارتان .

— ١٩ —

كانت قد طلبت السماح لها بمقابلة بول ثلاث مرات ، وكانت تتلقى ، في كل مرة ، رفضاً « شهماً » من قائد الدرك ، وهو عجوز صغير قرمزي الوجنات ، ضخم الأنف : سترى خلال اسبوع ياسيدتي على الأقل ، وليس أقل من ذلك . أما الآن فمستحيل .

وكان مربوع القامة ممتلئاً ، يذكرها بحبة خوخ ناضجة طال عليها الأمد في الدكان وعلاها زغب التعفن ؛ وكان ينقب دائماً أسنانه النضيدة البيضاء بقطعة صغيرة من الخشب الأصفر المدبب، وكانت عيناه الصغيرتان المدورتان والخضراوان تبتسمان بحرارة ، وفي صوته جرس محبّب ودود .

وقالت الأم للبيوروسي : إنه عالي التهذيب ، يبتسم أبداً .

ـ أجل . أجل . إنهم في غاية اللطف والبشاشة . يُقال لهم : خذوا. هو ذا رجل ذكي شريف . إنه خطر علينا فاشنقوه ، فيبتسمون ويشنقون الرجل ثم يعودون الى الابتسام .

ـ لقد كان الضابط الذي قام بالتفتيش عندنا شديد البساطة ، ثم تبين على الأثر انه كان سافلا .

ـ هؤلاء ليسوا ببشر . إنهم مطارق لسحق الناس وابتلائهم بالصمم . إنهم آلات تستخدم لتكييفنا نحن أفراد الشعب ، لنغدوا اداة طيعة ، وهم أنفسهم في خدمة اليد التي تحركنا . إنهم ينفذون ما يؤمرون به دونما تفكير ، ودون ان يسألوا عن الغاية .

وأخيراً أعطي الاذن لبيلاجي .

واقبلت يوم الأحد الى نظارة السجن ، وقبعت متواضعة في إحدى الزوايا ، وكان في الغرفة الضيقة القذرة المنخفضة السقف بضعة أشخاص غيرها ينتظرون موعد الزيارة ولم تكن هذه ، بلا شك، هي المرة الأولى التي يأتون بها الى السجن ، فلقد كانوا يعرفون بعضهم بعضاً ، وكانوا ، يتجاذبون فيما بينهم ، بصوت منخفض متساحب ، حديثاً لحمته الشكوى والهذر ، حديثاً لزجاً كنسيج العنكبوت .

وكانت إمرأة بدينة ذاوية الوجه تقول وعلى ركبتيها كيس :

— هل عرفتم ؟ إن كاهن الكنيسة كاد ، هذا الصباح ، وفي القداس الأول ، ن يقتلع أذن صبي من جوقة التراتيل .

وسعل رجل طاعنٌ في السن يرتدي بزة عسكري متقاعد ، سعل بصوتٍ مسموع وقال :

— يا لهم من متشردين ، صبية الجوقة هؤلاء ...

وكان هناك رجل قصيرٌ أصلع ، قصير القائمتين ، طويل الذراعين ناتيء الفك بذرع أرض الغرفة وهو بادي الانهاك ، ويقول ، بصوت كئيب ، ودون أن يتوقف :

— إن غلاء المعيشة يزداد أكثر فأكثر ؛ لذلك صار الناس أكثر فساداً من ذي قبل . إن الليبره من لحم البقر ، الصنف الثاني ، تساوي أربعة عشر « كوبكاً » ؛ ورغيف الخبز يساوي الآن « كوبكين » ونصفاً .

وكان يدخل الغرفة أحياناً سجناء يرتدون اللباس الأشهب الموَحد، ويغطون أحذيتهم بكواليش ثقيلة من الجلد ؛ وكانت عيونهم تعشى عندما يدخلون الغرفة المظلمة قليلاً ، وكانت السلاسل تثقل رجليْ واحد منهم .

وكان كل شيء هادئاً هدوءاً عجيباً ، وبسيطاً لدرجة تثير القرف ، حتى ليحسب المرء أن هؤلاء الناس قد ألفوا هذا الجو منذ أمدٍ بعيد. لقد كان بعضهم يجلس بهدوء ، والآخرون يتسلقون السلم بفتور ، وآخرون أيضاً يقبلون لزيارة السجناء متأنقين مستسلمين . وكان قلب الأم يرتعش ضيقاً ، وكانت ترنو قلقة الى كل ما يحيط بها فتدهشها تلك البساطة الثقيلة الوطأة .

وكانت تجلس الى جانبها عجوز قصيرة مجعدة الوجه ، إلا أنها ما برحت شابة النظرة ، وكانت تصغي الى الحديث ، وهي تمد عنقها الهزيل ، وترنوا الى الناس ، وفي نظرتها غرابة التحدي .

وسألتها بيلاجي بلطف .

— من لك هنا ؟

فأجابت العجوز بسرعة وبصوت عال : — ابني ، وهو طالب ... وأنتِ ؟

— ابني أيضاً ، وهو عامل .

— ما اسمه ؟

— فلاسوف .

— لا أعرفه ... أمنذ وقت طويل هو في السجن ؟

— منذ ستة أسابيع .

— أما ابني فهو هنا منذ أكثر من عشرة أشهر .

وخيل لبيلاجي انها تتميز في صوتها إحساساً لا يوصف، إحساساً كأنه الزهو.

وكان العجوز الصغير الأصلع يقول بسرعة :

— نعم ، نعم ... لقد نفذ صبر الناس . إنهم جميعاً غاضبون . إنهم يضجون فلقد ارتفع سعر كل شيء ، وأصبح الناس ، بنتيجة ذلك ، أقل قيمة . إننا لا نسمع أصوات المصلحين .

— هذا صحيح كل الصحة . يا للفوضى ، يجب أن يرتفع صوت ليأمر بالصمت، هذا ما يجب ان يحصل ؛ صوت حازم .

ونشط الحديث واشترك به الحاضرون ، وكان كل واحدٍ منهم يسارع الى قول كلمته عن مستوى المعيشة ، ولكنهم كانوا جميعاً يتكلمون بصوت منخفض وكانت الأم تستشف في حديثهم شيئاً بدا لها غريباً . إن الآخرين يتكلمون في منزلها بشكلٍ آخر . إنهم يتكلمون لغة أكثر بساطةً، ووضوحاً ، وأدنى الى الفهم .

وناداها حارس ضخم الجثة ، مربع اللحية أشقرها، وتفحصها من رأسها حتى اخمص قدميها ، ثم راح يحلج أمامها بعد أن قال لها :

— اتبعيني .

وتبعته ، وراودتها رغبة في ان تدفعه من وراء ليسرع خطاه ، وفي غرفة صغيرة كان بول واقفاً يبتسم ويبسط لها يده . وحضنتها الأم وراحت تضحك .

وكانت أجفانها ترتعش ولسانها يبحث عن الكلمات ، وأخيراً قالت برفق :
ـ صباح الخير ، صباح الخير .
ـ هدئي من روعك يا أماه فليس ما يدعو الى الاضطراب ...
وشد على يدها بقوة .
وقال الحارس متأوهاً :
ـ تراجعي الى الوراء أيتها الأم ، لا تقتربي منه كثيراً، ولتبق بينكما فسحة..
وتثاءب بصوت مرتفع .
وسألها بول عن صحتها ، وعن البيت ، وكانت تنتظر أسئلة أخرى، فراحت تبحث عنها في عينيه ، ولكنها لم تعثر عليها . لقد كان – كما هو دائماً – هادئاً ، ولكنه اكثر شحوباً ، وكانت عيناه تبدوان اكبر من ذي قبل .
ـ ان ساندرين تقرئك السلام .
وارتعشت أجفانه ورقت ملامحه وابتسم ؛ ووخزت قلب الأم مرارة شديدة فتابعت وهي تشعر بالحنق والمذلة :
ـ هل سيطلقون سراحك قريباً ؟ لماذا سجنوك مادامت المنشورات قد عادت الى الظهور ؟
ولمعت عينا بول بألق الغبطة .
ـ عادت من جديد ؟
وأعلن الحارس بلهجة اللامبالي :
ـ الحديث عن هذه الامور ممنوع هنا . تحدثوا فقط عن الشؤون العائلية.
وسألته الأم :
ـ أليس هذا من الشؤون العائلية ؟
فأجابها باستخفاف : لا أدري ... وكل ما أدريه ان هذا ممنوع .
وتدخل بول :
ـ حدثيني يا أماه عن العائلة .
واجتاحها شعور ببطولة فتية : لقد حملت ذلك كله الى المعمل .

ثم توقفت لحظة وتابعت باسمة :
ـ شورباء ، ومجدرة ، وكل ما تطبخه ماريا ... ومأكولات اخـــرى ...
وفهم بول وعض شفته ليخنق رغبته في القهقهة ، ورد الى الوراء شعره المنثال ثم قال بصوت مداعب لم تأنسه من قبل :
ـ جميل ... لقد وجدت إذن عملا فلا تضجرين أبداً !
وردت دونما صلف :
ـ وعندما عادت هذه المناشير الى الظهور، عادوا أيضاً الى تفتيشي .
وصاح الحارس غاضباً .
ـ عدنا الى الحديث في السياسة؟ لقد قلت ان هذا ممنوع. يُحرم المرء من الحرية لكيلا يعرف شيئاً. انك لا تصغين الى شيء مماأقول. يجب ان تفهمي انهذاممنوع.
وقال بول :
ـ حسناً .. لا تتكلمي في الموضوع يا أماه ... إن ماثيو ايفانوفيتش رجل طيب ، ويجب ألا نثير غضبه . إننا على أتم التفاهم ، وقد جيء به اليوم الى هنا، صدفة ، إذ ان نائب المدير هو الذي يشرف عادة على المقابلات .
واعلن الحارس وهو ينظر الى ساعته :
ـ لقد انتهت المقابلة .
واحتضنها بول بحرارة وعانقها ؛ وأسعدها هذا التصرف، واثر فيها فأخذت تبكي . وصاح ماثيو : هيا افترقا .
وقاد الأم وهو يغمغم :
ـ لا تبكي . سيطلقون سراحه . إنهم سيطلقون سراحهم جميعاً إذ لم يبق هنا مكان يتسع لهم .
وعندما عادت الى المنزل أخبرت اندريه بحماسة وغبطة :
ـ لقد حدثته بلباقة ... وفهم هو ...
ثم زفرت : لقد فهم ، وإلا لما كان عانقني. انه لم يفعل ذلك في حياته أبداً.
وقال اندريه ضاحكاً :

– آه ... هذا جميل منك . ان كل انسان في هذه الدنيا ينشد شيئاً ما ، والام تنشد المداعبة دائماً .

وصاحت بدهشة مفاجئة :

– عجباً كيف تسيطر العادة على اولئك الذين يترددون على السجن . لقد انتزع اولادهم منهم ، ووضعوا في السجن ، ولم يؤثر ذلك فيهم شيئاً . إنهم يأتون فيجلسون وينتظرون ويثرثرون .. أليس كذلك ؟ فإذا كان المثقفون يتعودون هذا ... فما هو حال الشعب ؟

وأجاب مبتسماً :

– هذا أمرٌ طبيعي ، ومع ذلك فإن القانون بالنسبة لهم أخف وطأة مما هو بالنسبة لنا ؛ حتى ولو صفعهم هذا القانون ، فإنهم يسخرون منه ،ولكن ليس الى حدٍ كبير ؛ لأن الضربة تظل أقل إيلاماً حين يتلقاها المرء من عصاه .

– ٢٠ –

وفي احدى الأمسيات ، بينما كانت الأم جالسة تحيك الجوارب ، واندريه يقرأ بصوت عالٍ قصة ثورة العبيد الرومان ، طُرق الباب بشدة ، ففتح اندريه ، ودخل فيسو شيكوف يتأبط صرة وهو منسرح الشعر على رقبته ، غارق في الوحل حتى ركبتيه ؛ وقال بصوت غريب ، وهو يأخذ يد بيلاجي بيده ويهزها بعنف :

– كنت ماراً من هنا فرأيت نوراً في النافذة ، فدخلت لأحييكم . اني خارج تواً من السجن . إن بول يبعث إليكم بتحيته .

ثم تهالك متردداً على احد المقاعد ،وأجال في الحجرة بصره المتشكك القاتم.

لم يكن فيسوشيكوف يعجب الأم ، فلقد كان في رأسه الحليق ذي الزوايا ، وعينيه الصغيرتين ، شيء يثير رعبها ؛ أما الآن، فإنها تشعر في حضرته بالغبطة ، لذلك قالت بحرارة وهي تبتسم منفعلة :

– لشد ما نحلت ... لنعدّ له الشاي يا اندريه .

وأجاب اندريه الذي كان في المطبخ :

– ها أنذا أعده .

– وكيف حال بول ؟ هل اطلق سراح آخرين سواك ؟

فطأطأ رأسه وقال :

– بول لا يزال في السجن . إنه يتجلد . ولم يطلق سراح أحد سواي .

ثم رفع رأسه ، ونظر الى الأم ، وتابع ببطء وهو يكز على أسنانه :

– لقد قلت لهم : عندكم ما يكفيكم فاطلقوا سراحي ، وإذا لم تفعلوا فإني اقتل شخصاً ، ثم اقتل نفسي ... وكان ان اطلقوا سراحي .

– نعم .

قالتها بيلاجي وهي تنأى عنه ، وأجفانها ترف بحركة لا إرادية، عندماتلتقي عيناها بالعينين الصغيرتين ، عيني الرجل ذي الوجه المجدور .

وصاح اندريه من المطبخ :

– وتيو مازين ... أما زال ينظم الأشعار ؟

– نعم ، ولكني لا أفهم شيئاً من هذا .

ثم أردف وهو يهز رأسه :

– أهو هزار ؟ لقد وضع في القفص فراح يغني . انا لا افهم سوى أمر واحد هو أنه ليست لي اية رغبة في الذهاب الى المنزل .

وقالت الأم بشرود :

– هذا أكيد ، فماذا ستجد في منزلك ؟ انه خاوٍ لا دفء فيه كل شيء فيه بارد كالجليد .

وصمت لحظة مسبل الأجفان،وأخرج من جيبه علبة للسجائر فتناول سيجارة وراح يدخنها ببطء؛ ويتتبع ببصره سحابة الدخان الرمادي التي تتلاشى أمامه، ثم لم يلبث ان انفجر ضاحكاً ، فكانت ضحكته أشبه ما تكون بنباح الكلب .

– أوه بارد ؟ يجب ان يكون كذلك. قد تكون الجعلان المتجمدة تتساحب في أرضه ، كما أن الفيران قد تموت فيه من البرد .

ثم سأل بصوت أصم دون ان يرفع بصره الى الأم :

ـ اتسمحين لي بأن أقضي الليل عندك ؟ هل تريدين ؟

فقالت بحرارة : أجل .

وكانت تشعر بالضيق ، وبأنها في حضرته ليست على ما يرام .

ـ إننا نعيش في زمن يخجل فيه الابناء من ذويهم .

وسألت الأم وهي ترتعش : ماذا ؟

فرجمها بنظرة ، وأغمض عينيه ، وبدا وجهه المجدور فجأة كوجه اعمى ، ثم ردد وهو يصعد زفرة :

ـ لقد قلت ان الابناء بدأوا يخجلون من ذويهم ، وهذا لا ينطبق عليك ، فإن بول لن يخجل بك ابداً ؛ ولكنني أنا الذي اخجل بأبي ؛ ولـن اذهب الى منزله ابداً . ليس لي أب ولا منزل . وقد وضعت تحت رقابة البوليس ولولا ذلك لانطلقت الى سيبيريا . هناك سأحرر المنفيين ، وسأهيىء لهم خطة الهرب .

وكانت الأم تدرك بقلبها الحساس ان الفتى يتألم ، ولكن ألمه لم يكن يوقظ فيها الشفقة ، فقالت له كيلا تثقل عليه بصمتها :

ـ إذا كان الأمر كذلك على وجه اكيـــد ، فإنه من الأفضل لك ان تذهب الى سيبيريا .

وخرج اندريه من المطبخ فقال :

ـ بماذا تكرزين ؟ قولي ؟

فنهضت الأم : يجب ان اعد شيئاً للأكل .

وركز فيسوشيكوف بصره على اندريه وصاح فجأة :

ـ اعتقد ان هناك ناساً يجب ان يقتلوا .

ـ أوه ، أوه ... ولماذا ؟

ـ كيلا يبقى منهم أحد .

وكان يقف في وسط الغرفة ضخماً جافاً يترنح ويتفحص نيقولا من عل ، ويداه في جيبه ، وكان فيسو شيكوف يتكوم في مقعده ، تلفه سحابة من دخان ،

وتبدو في وجهه الاغبر بقع حمراء .

ـ سأنتزع فك إيساي غوربوف ... سترى .

ـ ولماذا ؟

ورد فيسو شيكوف وهو يرمق اندريه بعين متجهمة شريرة :

ـ ليستمر في تجسسه ، ليستمر . إنه المسؤول عما آل إليه والدي : فهـــو يعتمد عليه في خطواته الاولى كجاسوس .

وصاح به اندريه :

ـ أتحققت من هذا ؟ ومن الذي جعلك مسؤولاً ؟ يا لهم من اوغاد .

فأجاب بحزم : ان الاوغاد كالاذكياء تماماً . انهم متشابهون ، فأنت مثلاً فتى ذكي وكذلك بول ، ولكن هل انا في نظرك كثيو مازين او ساموالوف ، او كواحد منكم بالنسبة للآخر ؟ لا تكذب فلن اصدقك . انكم جميعـاً تدفعونني وتنحونني جانباً .

وقال اندريه برقة وعطف وهو يجلس الى جانبه :

ـ إنك مريض ياعزيزي المسكين .

ـ مريض ؟ وأنتم ايضاً مرضى . ولكن اوجاعكم تبدو لكم اكثر نبلاً من اوجاعي . أننا بالنسبة لبعضنا البعض ، قذرون . هذا ما اقوله فماذا تستطيع ان تجيبني ؟ قل !

وسدد اندريه نظرته الحادة ، وراح ينتظر الجـــواب ضاحك السن ، وكان وجهه المجدور لا يحمل اي تعبير ، وشفتاه السميكتان ترتعشان كما لو احرقهما سائل مغلي .

وقال اندريـــه والابتسامة الحزينة الحارة في عينيـــه ، تداعب نظرة فيسو شيكوف الحقود .

ـ لن أرد عليك فأنا أعرف جيداً ان الجدل مع امرىء دامي القلب ليس إلا إثارة له . أعرف ذلك يا أخي العجوز .

فغمغم نيقولا وهو مطرق :

ـ يجب ألا تجادلني ، فأنا لا أعرف الجدل .

وتابع اندريه :

ـ ارى ان كلا منا قد مشى على نثار الثلج عاري القدمين ، وان كل انسان قد نفث في ساعاته القاتمة ، النار نفسها التي تنفثها انت الآن .

ورد فيسو شيكوف بتؤدة :

ـ إنك لا تستطيع ان تقول لي شيئاً . إن نفسي تعوي في داخلي كذئب ..

ـ وانا لا اريد ان اقول شيئاً ، وكل ما اعرفه هو ان هذا سينجلي ، ربما لم يحصل ذلك بكامله ، ولكنه سينجلي على كل حال .

وأخذ يضحك ، ثم ربت على كتف نيقولا :

ـ هذا هو ، ايها الأخ العجـــوز مرض من امراض الطفولة .. إنه شيء كالحصباء . وسنعاني منه جميعاً ؛ الاقوياء اقل قليلا ، والضعفاء اكثر قليلا . إنه يصيب الناس امثالنا عندما يكونون قد وجدوا ما يريدون ، ولكنهم قصروا عن فهم الحياة ، ولم يهتدو بعد الى المكان الذي يجب ان يتمركزوا فيه . إنهم يتخيلون انهم الوحيدون من نوعهم كثمرة طيبة ، كخيارة صغيرة يود النـــاس جميعاً ان ينهشوها . وبعد زمن ما تكتشف ان افضل ما فيك هو ايضاً عنـــد آخرين ليسوا اكثر سوءاً . وهذا ما يغريك . وتشعر بقليل من الخجل لانـــك تسلقت قبة الجرس لتهز جلجلك الصغير لدرجة لا يسمع معها صوته عندمـــا يقرع الجرس الضخم ، جرس الاعياد . وستكتشف بعد ذلك ان جلجلك ليس سوى جزء من الجوقة الشاملة ، في حـــين انه لو قرع وحده لغرق في ضجيج الاجراس الهرمة ، كذبابة في اناء من زبدة . فهل فهمت ما أود ان اقوله ؟

وهزّ نيقولا رأسه : ربما فهمته جيداً .

وراح يمشي بخطى صاخبة :

ـ وانا ايضاً لم اك أومن به ابداً ، فاغرب من وجهي ايتها الحطبة .

وقال نيقولا ببسمة مغتصبة ، وهو يرنو الى اندريه :

ـ أ أنا حطبة ؟ لماذا ؟

ـ هكذا . إنك تشبهها .

وفجأة خرج فيسو شيكوف وهو يفغر فمه الواسع ويضحك ضحكة داوية .

وسأله اندريه مشدوهاً وهو ينتصب في وجهه :

ـ ماذا دهاك ؟

ـ كنت اقول في نفسي انه سيكون غبياً لعيناً ذاك الذي يشتمك .

ـ كيف ولماذا يشتمني ؟

وهز اندريه كتفيه بتهكم . وقال فيسو شيكوف بسذاجة وهو يكشر عن اسنانـــه :

ـ لا أدري ... كنت أود ان أقول ان المرء الذي سيوجه إليـك الشتيمة يجب ان يكون فاسد الضمير .

وقال اندريه ضاحكاً :

ـ آه .. هذا ما كنت تود ان تنتهي إليه . ؟

وصاحب الام من داخل المطبخ :

ـ يا اندريه .

فخرج ، وبقي فيسوشيكوف وحده . واجال فيسو شيكوف بصره فـيما حوله ، ومد ساقه التي تنتهي بحذاء ثقيل ، فتفحصها ، وتلمس عضلات ساقـــه الثخينة ، ثم رفع يده، وادناها من وجهه، وتأمل راحتها بدقة ،ثم تأمل ظاهرها؛ لقد كانت مكتنزة قصيرة الأنامل يغطيها زغب اصفر. وحركها في الهواء ثم نهض.

وعندما اقبل اندريه يحمل الشاي كان هو امام المرآة :

ـ لم ارَ شدقي منذ امدٍ طويل .

وابتسم ابتسامة ساخرة ثم أضاف :

ـ إن لي شدقاً قذراً ...

وقال اندريه وهو يتأمله بفضول :

ـ وأي ضير في هذا ؟

وأجاب نيقولا ببطء :

ـ تقول ساندرين ان الوجه مرآة النفس :

— ليس هذا صحيحاً . فهي تحمل انفاً اعقف ، ووجنتين كالمقص ، ومع ذلك فهي تحمل روحاً كالنجم .

وحدق به فيسوشيكوف وابتسم . ثم جلسا لتناول الشاي . وتناول فيسو شيكوف حبة كبيرة من البطاطا ، وذر بحركة عنيفة قليلاً من الملح على قطعة من الخبز ، وراح يمضغ بهدوءٍ وبطء كالثور .

وسأل ، والطعام يملأ فمه :

— وكيف تسير الأعمال هنا ؟

وفيما كان اندريه يروي له بغبطة ، كيف تنمو الدعاوة في المعمل ، تجهم وجه وقال بصوتٍ أصم :

— ذلك أمر يطول ، يطول كثيراً . يجب الانطلاق بسرعة اكثر .

ورمقته الأم وأحست في نظرته من جديد ظل الضغينة .

وقال اندريه :

— الحياة ليست حصاناً ، ولا يمكن حملها على الجري بالسياط ...

غير ان فيسو شيكوف هز رأسه بعناد :

— ذلك امرٌ يطول ، ولا جلد عندي على الانتظار في العمل .

ومد ذراعيه في حركة اعياء ، وتطلع الى اندريه ثم صمت ينتظر جواباً .

وأجاب اندريه مطأطيء الرأس :

— يجب ان نتعلم جميعاً ، وأن نعلم الآخرين . هذا هو واجبنا .

— و الى متى تستمر هذه الفوضى ؟

وابتسم اندريه وقال :

سنتلقى الضربات اولاً ، و إني لاعرف ان هذا سيحدث اكثر من مرة ، ولكننا لن نكون كذلك عندما يتوجب علينا ان نخوض المعركة . يجب ان نسلّح الرأس اولاً... ثم نسلح الأيدي بعد ذلك . هذه هي وجهة نظري .

وشرع نيقولا يأكل ، وكانت الأم تراقب وجهه العريض خلسة محاولة ان تجد فيه شيئاً يوطد السلام بينها وبينه ؛ بينها وبين هذا الكيان الضخم الذي تحته

ازميل ، وكانت كلما التقت نظرتها بتلك النظرة النافذة التي تشع من عينيه الصغيرتين ، ترتعش اجفانها رهبة ، وكان اندريه متحمساً ، لذلك اخذ يتكلم ويضحك ، ثم توقف فجأة وراح يصفر .

وكانت الأم تعتقد أنها تعرف سبب قلقه ، الا ان نيقولا لبث في مكانه صامتاً ، فاذا ما وجه اندريه إليه سؤالاً ما ، اجاب عليه باقتضاب ، وبنفور ملحوظ .

وشعرت الأم واندريه بضيق ما ، وبأنهما ليسا على ما يرام في هذه الغرفة الصغيرة ، فراحا يرمقان ضيفهما ، متناوبين ، بنظرات مختلسة .

... وأخيراً نهض .

— سأنصرف لأنام فلقد طال سجني ثم اطلق سراحي دفعة واحدة ، فمشيت طويلاً ، لذلك فأنا متعب .

وعندما بلغ المطبخ خفتت حركته ، ثم جمد فجأة كميت ، فمالت الأم التي كانت تتبعه بسمعها ، مالت الى اندريه توشوشه :

— إنه يحمل أفكاراً رهيبة .

فأجاب اندريه ، هازاً رأسه :

— إنه فتىً صعب المراس ، ولكنه لن يظل على هذه الحال ، فلقد كنت مثله . إن الهباب يتكدس في القلب اذا كانت جذوته لا تشتعل بصفاء . ايتها الأم الصغيرة ، اذهبي الآن ونامي ، اما انا فسأبقى قليلاً لأقرأ .

وتوجهت الى الزاوية حيث كان سريرها الملفع بستارة مطرزة وظل اندريه وقتاً طويلاً ، يصغي ، وهو امام الطاولة ، الى همسها الدافيء ، همس صلواتها وزفراتها ؛ وكان ، وهو يقلب صفحات كتابه بسرعة ، يمسح جبهته بحركة محمومة ، ويفتل شاربيه بأصابعه الدقيقة ويحرك رجليه . وكان رقاص الساعة ينبض ، والريح تعول في النوافذ .

وكان صوت الأم الخفيض يتناهى اليه :

— يا آلهيَ . ما اكثر البشر في هذه الدنيا .. ومع ذلك فكلهم يشكو على

طريقته . فأين هم اذاً اولئك الذين يعرفون الغبطة ؟
وردد اندريه كالصدى :
— إنهم موجودون . وعما قريب سيتكاثرون ... اجل سيتكاثرون .

— ٢١ —

...وكانت الحياة تمر سراعاً بوجوه ايامها المتقلبة، المشرقة او المتجهمة، وكان كل يوم يحمل معه حديداً ، جديداً لا يقلق الام ابداً ؛ وكان يتوافد الى منزلها عند المساء ، مجهولون يتزايد عددهم يوماً بعد يوم ؛ فيتحدثون مع اندريه بصوت خفيض والاهتمام بادٍ في ملامحهم ، ثم يخرجون في ساعة متأخرة من الليل، وقد رفعوا قبات معاطفهم ، وتهدلت شعورهم فوق عيونهم ، يخرجون في الظلمات دونما ضجيج كيلا يثيروا انتباه احد ، ان من يراهم يحس ان كلا منهم يكبت حماسه ؛ وانهم يشتهون جميعاً ان يغنوا ويضحكوا ، ولكنهم ، وهم المنهمكون ابداً ، لا يجدون لديهم وقتاً لذلك ؛ فبعضهم ساخرٌ وقور ، وبعضهم مرحٌ يملأه زخم الشباب الفائض ؛ وآخرون غيرهم هادئون كثيرو التأمل ، ولكنهم كانوا جميعاً ، في نظر الأم ، متساوين في عنادهم وثقتهم بأنفسهم ، ورغم ان لكل منهم ملامحه الخاصة ، فإنهم كانوا ، في نظرها ، ينصهرون في وجه واحد هزيل يشع منه تصميمٌ هادىء، وجه صافٍ متجهم العينين، في نظراته عمق ودعاب وقسوة

وكانت الام تعدهم ، واحداً واحداً ، وتتصورهم حشداً يحيط ببول، يتوسطهم فلا تراه أعين اعدائهم .

وفي احدى الامسيات ، جاءت من المدينة فتاة شديدة الحذر ، مجدولة الشعر ، تحمل الى اندريه رزمة . وفيما كانت تنصرف قالت لبيلاجي وهي ترمقها بنظرة مشرقة مرحة :
— الى اللقاء يا رفيقة .
واجابت الام وهي تكبت بسمتها :
— الى اللقاء :

وبعد ان شيعتها اقتربت من النافذة ضاحكة ، لترقب « رفيقتها » وهي تنطلق في الشارع رشيقة الخطو ، ريانة كزهرة الربيع ، خفيفة كالفراشة ؛ وعندما اختفت الزائرة عن عينيها همست :
ـ رفيقة ؟ آه يا عزيزتي . ليمنحك الله رفيقاً طيباً ، رفيقاً لحياتك كلها . »
وكانت تلاحظ غالباً ان في اولئك الذين يقبلون من المدينة جميعاً ، شيئاً صبيانياً ، وكانت تبتسم لذلك بتسامح، ولكن الشيء الذي كان يؤثر في نفسها ، ويبعث فيها دهشة الفرح ، هو إيمانهم ، هذا الايمان الذي كانت تحس عمقه دائماً ، وبكثير من الوضوح . وكانت أحلامهم بانتصار العدالة تحرك مشاعرها، وتدفيء قلبها ، وكانت وهي تصغي اليهم ، تتأوه بلا وعي ، وتحس انها فريسة حزن غامض ، ولكن ما كانت تحسه اشد الاحساس هو بساطتهم وطيبتهم ونسيانهم لذواتهم ؛ وهو نسيان مفرط السخاء والطيبة .
وكانت تدرك كثيراً من الاشياء من خلال جدلهم حول الحياة ، وتشعر أنهم اكتشفوا الينبوع الحقيقي لشقاء الناس، وقد تعودت ان توافقهم على آرائهم، ولكنها كانت في اعماقها ، لا تؤمن بأنهم يستطيعون ان يكيفوا الحياة وفقاً لما يعتقدون ، وبأنهم يملكون من الطاقة ما يكفي لأن يشيع لهب نفوسهم في الطبقة الكادحة كلها .

إن كل إنسان يريد ان يشبع اليوم ، وليس هناك من يرضى بأن يرجىء طعامه حتى ولو الى الغد، إذا كان باستطاعته ان يتناوله الآن . وقليلون هم اولئك الذين يستطيعون سلوك هذا الطريق الشاق الطويل . إن عيونهم لا ترى أنه يفضي الى تلك المملكة الرائعة ، مملكة الأخوة الشاملة ، ومن اجل ذلك ، كان اولئك القوم الطيبون، يبدون لها أطفالاً رغم لحاهم ووجوههم التعبى .
وكانت ترثي لهم ، وتهز رأسها هامسة : يا للصغار المساكين .
ولكنهم كانوا جميعاً يحيون حياة طيبة ، جادة ، ذكية . لقد كانوا يتحدثون عن الخير ويرغبون في ان يلقنوا الآخرين ما كانوا يعرفون ، ثم يحققون هذه الرغبة دونما هوادة . وكانت هي تدرك ان وجوداً كهذا يمكن أن يحب رغم

خاطره، ثم تسترجع ماضيها متأوهة، فيتراءى لها كطريق لا هب ضيق كئيب، وكانت تستشعر، دون ان يساورها الشك، أنها شيء مفيد، في هذا الوجود الجديد. لقد كانت تحس من قبل انها ليست شيئاً مفيداً لأي انسان، أما الآن فهي ترى بوضوح ان الكثيرين يحتاجون اليها؛ ولقد كان هذا الشعور بالنسبة لها شعوراً جديداً حلواً، يحملها على ان ترفع رأسها باعتزاز.

وكانت تحمل دائماً وبانتظام، النشرات الى المعمل، يحدوهـا شعور باداء الواجب، حتى اصبح دخولها الى المعمل امراً معتاداً بالنسبة لرجال البوليس الذين كانوا لا يعيرونها اي اهتمام، ولقد فتشوها في مناسبات عدة إلا أن هـذا التفتيش كان يجري في اليوم التالي لظهور النشرات؛ وكانت تعرف كيف تثير الشبهة في نفوس الحراس والجواسيس عندما تكون لا تحمل شيئاً، فيستوقفونها، فتتظاهر بأن كرامتها قد مُست، وتدخل معهم في جدل عنيف حتى اذا اوقعتهم في الارتباك، انطلقت فخورة بحذقها...

وصارت تجد في هذه اللعبة، لذة كبرى.

وكان المعمل قد رفض إعادة فيسوشيكوف الى المعمل فدخل كمستخدم عند احد التجار، وكانت مهمته ان ينقل الى الضاحية كميات من الجسور والألواح وحطب التدفئة، وكانت تراه، وهو يمر، كل يوم تقريبـاً: يسير جواداه الاسودان وقد ارتعشت قوائمها وتقوست تحت وطأة حملها الثقيل، يسيران عجوزين نافري العظام يترنح رأساهما تعباً وحزنـاً، ويبدو الانهاك في عيونها الكدراء، ويمتد وراءهما جسر طويـل رطب، يتذبذب على إيقاع الجلبة، او صوت كدسة من الاخشاب تتساحب اطرافها على الأرض بضوضاء، في حين يسير نيقولا الى جانبها، وقد أطلق لها الأعنة، رث الثياب، صلب الملامح، أخرق الخطوة، كجذع نابت من الارض، يلطخه الوحـل، وينتعل حذاء ثقيلاً، ويعلق قبعته في عنقه.

وكان رأسه هو ايضاً يترنح، وعينه منغرزة في التراب، وكان جواداه يجتاحان، على غير هدى، العربات والمارة الذين كانوا يقبلون من الاتجاه المعاكس،

فتتطاير حوله الشتائم القاسية كالزنابير وتمزق الفضاء صيحات الغضب، ويظل هو يدب، دون ان يرفع رأسه او يجيب، وينبعث من بين شفتيه صفير حاد يصم الاسماع، ويغمغم بصوت ثقيل مخاطباً جواديه:

— خذا هذا...

وفي كل مرة كان يجتمع فيها رفاق اندريه في بيتها، ليقرأوا بعض المنشورات، او العدد الاخير من مجلة تطبع في الخارج، كان نيقولا يأتي فيجلس في احـدى الزوايا، ويصغي طوال ساعة او ساعتين دون ان ينبس بحرف. وكان الشبان، اذا ما انتهت قراءتهم يتناقشون طويلاً، ولكن فيسوشيكوف لم يكن ليشترك في النقاش ابداً، الا أنه كان يمكث طويلاً، حتى اذا لم يبق غـيره مع اندريه سأله وهو باهت الملامح:

— ومنذا الذي تعتقده اشد اجراماً من الآخرين؟

ويجيب اندريه مازحاً، وفي عينيه تعبير قلق:

— إنه اول من قال «هذا لي»، أرأيت؟ إن هذا الرجل قد انطوى منذ آلاف من السنين، وليس هناك اي جدوى في ان نثور عليه.

— والاغنياء والذين يساندونهم؟

وكان اندريه ينحني فيأخذ رأسه بين يديه ويمسد شاربه ويتكلم باسهـاب وببساطة عن حياة الناس، وكان كلامه كله يتلخص بأن العالم بأجمعه آثم، إلا ان ذلك لم يكن ليشبع نهم نيقولا.

لقد كان يهز رأسه بالنفي، وهو يطبق شفتيه الغليظتين بقوة، ويعلن بلهجة مرتابة، ان الامر ليس كما شرحه اندريه، ثم يمضي متجهم الوجه محنقاً.

ولقد صرخ مرة:

— لا... يجب ان يكون هناك مسؤولون. صدقني: انهـم موجودون، ويجب ان يمزقهم المحراث أنى كانوا! وبلا رحمة، كما يمزق حقلاً من الشيل.

وقالت الأم: هذا ما قاله يوماً إيساي التقـاب، وهو يتحدث عنك.

فتساءل فيسوشيكوف بعد صمت:

— إيساي ؟
— نعم ، ايساي . الرجل الخبيث .. انه يتجسس علينا جميعاً ، ويسأل، ولقد اخذ يتردد على شارعنا ، ويراقب نوافذ بيتنا .
فردد نيقولا : يراقب ؟
وكانت الام قد اضطجعت فلم تعد ترى وجهه ، ولكنها ادركت انها اطنبت في الحديث عن ايساي لان اندريه اجاب بسرعة ، وبلهجة مهدئة :
— دعيه يسير ويتطلع . ان لديه فيضاً من الوقت يتنزه خلاله
فقال نيقولا بصوت أصم : رويداً .. انه هو .. هو المسؤول .
فرد اندريه بحدة : مسؤول عن ماذا ؟ مسؤول عن كونه حيواناً ؟
ولم يجب فيسوشيكوف ، ثم خرج .
وظل البيوروسي يذرع ارض الغرفة ببطء ، منهك الخطى ، يجر ساقيه الطويلين الجافين كسيقان العنكبوت ، وكان قد خلع حذاءه ، كما تعود ان يعمل دائماً ، كيلا يحدث اية ضجة فيزعج بيلاجي، ولكنها لم تكن قد نامت بعد.
وقالت بقلق بعد ان انصرف نيقولا : إني اخاف منه .
فرد عليها ، وهو يمط كلماته :
— أجل .. انه فتىً نزق فلا تحدثيه عن ايساي ، فايساي، ايتها الأم الصغيرة، جاسوس حقاً .
— لا غرابة في ذلك فزميله دركي .
واجاب اندريه مذعوراً :
— قد يعتدي نيقولا عليه أرأيت أية مشاعر يولدها السادة ضباط مجتمعنا ، في نفوس الجنود البسطاء ؟ ماذا سيحدث اذا ما استشعر امثال نيقولا مهانتهم وافلت زمام الصبر من ايديهم ؟ ان الدم سيتدفق حتى السحاب، وسيغطي الارض زبدٌ احمر كرغوة الصابون .
فقالت الام بهدوء : ان هذا لمخيف يا اندريه .
واجاب بعد صمت قصير :

— اذا لم يخزهم الذباب فلن يرفسوا ، ومع ذلك ، فكل نقطة تسفك من دمهم ستغسلها سلفاً سيول الدموع ، دموع الشعب .
ثم اضاف وهو يبتسم ابتسامة صغيرة :
— سيكون ذلك عدلاً ، ولكنه لا يحمل العزاء .

— ٢٢ —

كان ذلك يوم احد ، وكانت الأم عائدة من دكان البقال ، وما كادت تفتح الباب وتقف على العتبة حتى غمرها فجأة طوفان من الفرح، كمطرٍ حارٍ في صيف: لقد سمعت في الغرفة صوت بول الجهوري .
وصاح البيوروسي : هي ذي ... لقد جاءت
ولاحظت السرعة التي استدار بها بول نحوها ، ورأت ان وجهه كان يشرق بانفعالٍ واعد بألف فرحة . وغمغمت وقد افقدتها المباغتة وعيها :
— ها انت ذا قد عدت الى المنزل .
ثم جلست .
وانحنى فوقها، وكانت شاحبة الوجه تلتمع في مآقيها دموعٌ صغيرة متلألئة ، وكانت شفتاها ترتعشان . واستولى عليه الصمت هنيهة ، وكانت هي تحدق فيه صامتة ايضاً .
ومر البيوروسي امامها وهو يصفر، مطأطىء الرأس ، ثم خرج .
وقال بول بصوت عميق خفيض :
— شكراً لك يا اماه ، شكراً لك يا امي العزيزة .
وشد يدها بأصابعه المرتعشة .
ودغدغت رأسه وقد غمرتها بالنشوة نبرات صوته وملامح وجهه المعبر ، وقالت بهمس، وهي تهدىء وجيب قلبها :
— ليكن يسوع معك . علامَ تشكرني ؟
— شكراً لك على العون الذي قدمته لنا في قضيتنا الكبرى إنها لسعادة نادرة

ان يستطيع امرؤ القول ، وبالعقل ايضاً ، ان امه غالية عليه .

وكانت، دون ان تنبس بكلمة، تتلقف كلماته بنهم ، متفتحة القلب، وتتأمله مشدوهة . إنه هناك ؛ امامها ؛ إنه واضح كل الوضوح ، قريب كل القرب .

ـ لقد كنت يا اماه ارى كثيراً من الامور تبعث في قلبك الغم ، وكان ذلك شاقاً عليك . وكنت اعتقد انك لن تهادنينا ابداً ، وانك لن تؤمني بأفكارنا ، ولكنك ستتحملينها بصمت ، كما كانت دائماً . . وكان هذا شديد الايلام ...

ـ لقد علمني اندريه كثيراً من الاشياء .

وقال ضاحكاً : اجل ... لقد قصّ عليّ ذلك .

ـ وايغور ايضاً . فنحن من قرية واحدة ؛ اما اندريه فقد كان يود ان يعلمني حتى القراءة .

ـ وانت كنت خجولة بعض الشيء ، فرحت تدرسين على نفسك خفية .

وقالت باضطراب : آه... لقد كان يتجسس عليّ .

ثم اقترحت على بول ، والانفعال بادٍ في ملامحها لفرط الغبطة :

ـ يجب ان نناديه فلقد خرج عمداً كيلا يزعجنا . إنه يعيش دون ام .

وصاح بول وهو يفتح باب المدخل :

ـ يا اندريه ... اين انت ؟

ـ هنا ، اقطع الحطب .

ـ تعـال .

ولم يأتِ على الفور ، وعندما دخل المطبخ قال بلهجة رب البيت :

ـ يجب ان اطلب الى نيقولا ليحضر لنا حطباً ، فلم يعد عندنا منه الكثير .
أرأيتِ ايتها الأم الصغيرة كيف هو بول ؟ إن السلطات تسمّن العصاة بدلاً من ان تعاقبهم .

... وأخذت الأم تضحك ، وكانت سكرى بالغبطة ، يملأ قلبها اطمئنان حلو، ولكن شعوراً من الحذر الشحيح كان يحملها على التمني بأن ترى ابنها هادئاً كما كان من قبل . لقد كانت اوبته بالنسبة لهـا سعادة غامرة ، وكانت تود ان

تنطوي هذه الفرحة — وهي اولى الفرحات في حياتها واكبرها — في قلبها ابداً ، وان تظل فيه قوية حية ! وخشية ان تتضاءل هذه السعادة، كانت تتعجل إخفاءها ما امكنها ذلك كصيادٍ اقتنص صدفة طائراً جميلاً .

واقترحت باهتمام :

— هيّا الى المائدة يا بول . انك على التأكيد لم تتناول اي طعام حتى الآن ؟

— كلا ، فلقد ابلغني الناظر البارحة انهم قرروا اخـلاء سبيلي ، ولم اشعر اليوم بجوع أو عطش .

وتابـع :

— لقد كان اول من التقيت به هناهو سيزوف العجوز. انه ما كاد يراني حتى اجتاز الشارع ليسلم عليّ. فقلت له: يجب ان تحذرني منذ الآن، فأنا رجل خطر، يراقبني البوليس، فأجابني : لا « يهمني ذلك » ... أتدرين ماذا سألني بخصوص حفيده ؟ قل لي هل سلوك ثيو في السجن حسن ؟ — ماذا تقصد بحسن السلوك ؟

— اقصد اذا كان لسانه ما يزال يسرف في الاستطالة حين يتحدث عن الرفاق .

وعندما قلت له : ان فيدور فتىّ شريف وذكي، داعب لحيته وقال لي بزهو:

— ليس فينا ، نحن آل سيزوف ، رجالّ اشرار .

وقال اندريه وهو يهز رأسه :

ليس هذا العجوز بغبي . إننا نثرثر معاً احياناً فيبدو لي انه رجل طيب .

— هل سيطلقون سراح ثيو قريباً ؟

— سيطلقون سراحهم جميعاً على ما اعتقد ، فليس لديهم ما يدينهم اللهم إلا وشايات ايساي ، وأي شيء استطاع هذا ان ينقله لهم ؟

وكانت الأم تروح وتجيء وتتأمل ابنها ، وكان اندريه ، وهو واقف بالقرب من النافذة ويداه وراء ظهره ، يصغي الى حديث الفتى الذي كان يذرع ارض الغرفة طولاً وعرضاً . وكانت لحيته قد نبتت ، وكان شعرها يتناثر في وجنتيه، حلقاتٍ سوداء ناعمة ، تخفف من سمرة وجهه المسفوع .

وألحت الأم : هيا الى الطعام .

وَوقفت هي تشرف بنفسها على المائدة .

واخذ اندريه يتحدث اثناء الطعام عن ريبين ، وعندما انتهى حديثه صاح بول بأسف :

ـ لو كنت موجوداً لما تركته يمضي . مـاذا يحمل معه ؟ إنه يحمل شعوراً كبيراً بالتمرد وافكاراً مشوشة ...

واجاب البيوروسي مبتسماً :

ـ أجل ... ولكن عندما يكون الرجل في الاربعين من عمره ، وعندما يكون قد قضى وقتاً طويلاً يصارع الدببة فانه لمن الصعب تطويره ..

واستغرقا في جدل كان الكثير من تعـابيره يستعصي كالمعتاد على فهم الأم ، وفرغا من الطعام وكانا ما يزالان يتراشقان بضراوة رشاشاً من الالفاظ الصعبة العصية ، وكانا احياناً يعبران عن آرائهما بلغة بسيطه سهلة .

واعلن بول بعزم : يجب علينا ان نتابع طريقنـــا دون ان ننحرف عنه خطوة واحدة . وان نرتطم في هذه الطريق ، بملايين البشر الذين يستقبلوننا كأعداء ..

... وكانت الأم تصغي وتفهم مما يدور ان بول لا يحب الفلاحين ، في حين كان اندريه يدافع عنهم ، ويحـاول ان يؤكد انه من الضروري ان يلقنوا هم ايضاً الافكار الخيرة ، وكانت تفهم ما يقوله اندريه بوضوح اكثر ، ويبدو لهـا انه محق فيما يقول ، ولكنها كانت في كل مرة يرد بها على بول تفتح اذنيها جيداً وتكبت انفاسها ، وتنتظر بفارغ الصبر جواب ابنها ؛ لترى ما اذا كـان رد البيوروسي قد أثاره ، إلا انها كانت تلاحظ انهما وان تناقشـا بحرارة وحماسة فان احداً منهما لم يكن يستثير حنق الآخر .

وكانت الأم تسأل ابنها بين الفينة والفينة :

ـ هل الأمر هكذا يا بول ؟

فيجيبها باسماً : اجل ... إنه لكذلك .

ويقول اندريه بمحبة وهزء :

ـ لقد اكلت حتى كدت تنشق ، ولكنك لم تمضغ طعامك جيداً ، ومـا زالت قطعة منه عالقة في زلعومك ، فغرغر لهاتك .

فينهض بول : لا تتصنع البله يا اندريه .

ـ ولكنني جادٌ كأني في جنازة .

وتضحك الام بهدوء ، وتهز رأسها .

ـ ٢٣ ـ

كان الربيع يقترب ، والثلج يذوب وينحسر عما كدسه تحت جبته البيضاء من وحلٍ وطمى ، وكان الوحل يزداد كل يوم بروزاً حتى بدت الضاحية كلهـا كأنها إنما ترتدي كل الاسمال القذرة ، وكان الماء يتساقط من السقوف اثنـاء النهار ، نقطة نقطة ، واللهب يتصاعد من جدران المنازل الدكناء الراشحـة التعبى ؛ في حين تبرز ، عند الغروب ، تماثيل الجليد ، منتثرة في كل مكان ، وهي بيضاء كدراء اللون ، وصارت الشمس تظهر أكثر فأكثر ، والسواقي تدندن حيرى في طريقها الى المستنقع .

وكان الناس يستعدون لاستقبال اول ايار .

وكانت النشرات تُلقى في المعمل ، وفي الضاحية ؛ لتشرح معنى هذا العيد ، وحتى الفتيان الذين لم تمسهم الدعاية بعد ، كانوا يقولون وهم يقرأون هذه النشرات :

ـ يجب التغلب على المصاعب .

وكان فيسوشيكوف يصرخ دائماً بشراسة :

ـ لقد آن الاوان ، وكفى تضليلاً وتمويهاً .

وكان ثيومازين فرحـاً ؛ كثير النحول ، تذكر كلماته والعصبية البادية في حركاته بقبرّة سجينة في قفص . وكان يرافقه دائمـاً جاك سومون وهو فتى صموت يعمل الآن في المدينة ويبدو عليه الجـد اكثر مما يحتمل سنه .

وكان ساموالوف الذي ازداد لونه شقرة اثناء وجوده في السجن ، وباسيل غوسيف ، وبوكين ، وداغونوف ، كان هؤلاء جميعاً وآخرون غيرهم ينادون

بضرورة التسلح ؛ اما   والبيوروسي وسوموف ، وآخرون معهم ، فقد كانوا يخالفونهم في الرأي .

ووصل ايغور منهكاً لاهثاً كالعادة ، ينضح عرقاً ، وقال مازحاً :

– ايها الرفاق . إن تغيير النظام الراهن عمل عظيم ، ولكن ، يجب ان اشتري حذاءً جديداً لكي يتحقق هذا العمل سريعاً .

وأراهم حذاءه الممزق المبلل ، وتابع :

– ولقد اصيبت جزمتي ايضاً بداءٍ عضال لا يُرجى البرء منه ، فتعرضت قدماي بسبب ذلك ، للبلل كل يوم . أنا لا اود أن أرحل الى القبر قبل ان يتوب هذا العالم العجوز توبة علنية واضحة ؛ ولهذا ارفض اقتراح الرفيق ساموالوف الرامي الى التسلح ، واقترح تسليحي أنا ، بزوج من الاحذية المتينة ؛ لانني مقتنع كل الاقتناع بأن هذا سيكون اكثر جدوى لنصر الاشتراكية من اعظم تحطيم .. للأشداق ..

وراح بهذه اللهجة الودود نفسها ، يروي لهم كيف حاول الشعب ، في بلدان مختلفة ، أن يحسّن من مستوى حياته . وكانت الأم تحب ان تسمع احاديثه ، اذ تترك في نفسها انطباعاً غريباً ، فأعداء الشعب الأكثر احتيالاً ، والذين خدعوه اكثر الاحيان وبقسوة أشد ، كانوا رجالاً صغاراً ، ضخام الكروش ، حمر الجلود ، طمّاعين ، مخاتلين ، قساة القلوب لا ضمائر لهم ؛ وعندما حوّلت سلطة القياصرة حياتهم الى جحيم انبروا يحرضون الشعب الصغير ضد هذه السلطة ، وعندما ثار الشعب وانتزع السلطة من الامبراطور ، انتزعها الرجال الصغار بالحيلة ، وراحوا ينكلون بالشغيلة ، فاذا أراد هؤلاء ان يحاجّوهم انقضوا عليهم ففتكوا بالمئات منهم والالوف .

وتجرأت ، في احد الايام ، فقصت عليه ما كانت تكوّنه في نفسها من اشياء ، خلال اصغائها اليه ، وسألته وهي تبتسم ابتسامة مرتبكة :

– إذن فالامر كذلك يا ايغور إيفانوفيتش .

فانفجر ضاحكاً يقلّب عينيه الصغيرتين ، وبعد قليل استعاد انفاسه ،

ودعك صدره :

– الحقيقة انه كذلك يا اماه . لقد امسكتِ ثور القصة بقرنيه ، ونسيت بعض التزويقات ، وبعض الحواشي ، ولكن ذلك لا يغيّر في الامر شيئاً . إن هؤلاء الصغار البدينين هم حقاً اعظم الخطاة ، وأسمّ الحشرات التي تلدغ الشعب . ان الفرنسيين يسمونهم بحق برجوازيين .. فاحفظي هذه الكلمة يا اماه : برجوازيين ... انهم يلوكوننا ويمتصون دمنا .

وسألت الأم : الاغنياء ... اليس كذلك ؟

– تماماً . أرأيت لو دسسنا قليلاً من النحاس كل يوم في طعام طفل ؟ إن ذلك سيعيق نمو عظامه ، فيظل قزماً . وهكذا اذا سممنا رجلاً بالذهب ، فان نفسه تغدو حقيرة جداً ، وغبراء كدرة ، تماماً ككرة من المطاط تساوي خمسة سحاتيت .

وقال بول مرة وهو يتحدث عن ايغور :

– أتدري يا اندريه ؟ ان اكثر الناس مزاحاً هم اشدهم عذاباً ؟

فصمت البيوروسي فترة ، ثم اجاب :

لو كان هذا صحيحاً ، لماتت روسيا كلها من الضحك .

وظهرت ناتاشا من جديد . لقد دخلت هي ايضاً السجن ، ولكن في مدينة اخرى ؛ ولم يبدل السجن منها شيئاً .

ولاحظت الأم ان البيوروسي يكون في حضرتها اكثر مرحاً ، فلقد كان يمزح ، ويثقل على الناس جميعاً بخبث لا لؤم فيه ، وذلك لكي يحملها على الضحك . وعندما تنصرف ، يشرع هو يدندن بكآبة ، أغانيه التي لا تنتهي ، ويلبث وقتاً طويلاً وهو يذرع ارض الغرفة جيئة وذهاباً ، ويجرجر قدميه .

وكانت ساندرين تأتي شكسة الطباع دائماً ، مسرعة ابداً ، وتغدو باستمرار اسرع غضباً واعنف طبعاً .

وفي احدى المرات تبعها بول حتى المدخل ليرافقها ، ونسي ان يقفل الباب وراءه ، فسمعت الأم حديثها الخاطف .

لقد سألته الفتاة بهمس :

ـ هل ستحمل العلم ؟

ـ نعم ..

ـ هل تقرر ذلك ؟

ـ نعم وهذا حق لي .

ـ السجن من جديد ؟

ولزم بول الصمت .

ـ ألا تستطيع . .. ثم توقفت

ـ ماذا ؟

ـ ان تتركه لآخر ...

فقال بصوت مرتفع :

ـ كلا .

ـ فكرّ في الأمر ملياً ، ان تأثيرك كبير ، والجميع يحبونك . انك ونالودا قائدا الحركة هنا انكما تستطيعان عمل الكثير وانتما طليقان فكرا ملياً ؛ فإنكما ستنفيان ، من اجل ذلك ، الى مكان قصي ، ولأمد طويل .

واعتقدت الأم انها تتميز في صوت الفتاة احاسيس عرفتها هي نفسها جيداً ! احاسيس الغم والخوف ، ووقعت كلمات ساندرين على قلبها كنقاط كبيرة من الماء المثلج .

وقال بول : كلا ، لقد قررت ولا شيء يثنيني عن قراري .

ـ حتى ولو توسلت اليك ؟

فأكمل بول على عجل وبصوت فيه قسوة :

ـ يجب الا تتكلمي هكذا ، بماذا تفكرين ؟ يجب الا تتكلمي هكذا .

فقالت بصوت خافت : ـ اني كائن بشري .

فرد بول بهدوء ولكن بلهجة خاصة كأنه لا يستطيع امساك انفاسه :

ـ نعم كائن بشرى ، كائن عزيز عليّ ، ومن اجل ذلك ينبغي الا تتكلمي

هكذا .

وقالت الفتاة : وداعاً .

وادركت الام من وقع خطاها انها انطلقت مسرعة ،حتى لتكاد تعدو عدواً .

وخرج بول في اثرها .

وشد على صدرها رعب" خانق ثقيل ، فلقد فاتها ان تلتقط تفاصيل حديثهما ، ولكنها كانت تحس ان هنالك حزناً ما ينتظرها .

ـ ماذا يريد ان يفعل ؟

وعاد بول يصحبه اندريه ،وقال هذا الاخير وهو يهز رأسه :

ـ ايساي البؤس هذا ... ماذا سنفعل به ؟

فأجاب بول بحدة :

ـ يجب ان نسدي اليه النصح ليتخلى عن خططه التجسسية .

وتدخلت الأم وسألت مطرقة :

ـ ماذا تود ان تفعل يا صغيري بول ؟

ـ متى ؟ الآن ؟

ـ في اول ... اول ايار .

فأجاب وهو يخفض من صوته :

ـ آه . آه سأحمل علمنا واسير به في الطليعة ؛ ومن المحتمل ان يرجعوني في السجن مجدداً من اجل ذلك .

واشتعلت عينا الام ، واجتاح فمها جفاف مقيت ، فأخذ بول يدها يداعبها :

ـ هذا ضروري ... اتفهمين ؟

فقالت وهي ترفع رأسها ببطء :

ـ لم اقل شيئاً .

وعندما التقت عيناها النظرة النافذة المصممة في عين بول ، طوت عنقها من جديد . وأفلت هو يدها ، وزفر ، ثم قال بلهجة تقريع :

ـ يجب ألا تبتئسي ، بل يجب ان تغتبطي ، متى يكون لنا امهات يرسلن

ابناءهن بغبطة حتى الى الموت ؟

وغمغم اندريه :

ـ مهلاً ، مهلاً .. هوذا سيد ينطلق على جياده العظيمة .

وتساءلت الام :

ـ هل قلت شيئاً ؟ انا لم امنعك ، وإذا كنت اشفق عليك ، فهذا من عمل قلبي كأم .

واستدار ، وسمعت بعض الكلمات القاسية الجارحة .

ـ هناك عواطف تحرم الانسان من ان يعيش ...

وارتعشت ، وخشية ان يتفوه بما يجرحها صرخت بحدة :

ـ لا تقل هذا يا بول . فأنا اعلم انك لا تستطيع ان تتصرف تصرفاً مغايراً .. اكراماً للرفاق .

فأجاب : كلا .. أنا افعل ذلك من اجل نفسي .

ووقف اندريه في العتبة ؛ وكانت قامته اشمخ من الباب حيث كان ينتصب كأنه في اطار ، وكان يطوي ركبتيه على نحو غريب ويسند احد كتفيه الى مصراع الباب ، ويقذف بعنقه وكتفه الآخر الى الامام .

وقال وهو متجهم الوجه ، وعيناه الجاحظتان تتركزان على بول :

ـ إنكم تحسنون صنعاً لو توقفتم عن الثرثرة يا سيد .

وكان اشبة ما يكون بحرفون في شق صخرة .

ووددت الام ان تبكي ، ولكنها أنفت ان يراها ابناها وهي تفعل ذلك فدندنت :

ـ آه . يا آلهي لقد نسيت ...

وانطلقت الى الرواق ؛ فأسندت رأسها الى زاوية من زوايا الجدار ، واطلقت العنان لدموعها . لقد كانت تبكي بهدوء ودونما انتحاب ؛ وكانت خائرة القوى كأن الدم يتفجر من قلبها ، في الوقت الذي تتفجر فيه الدموع من عينيها ؛ وكانت تتناهى الى سمعها ، من خلل الباب الذي لم يكن محكم الاغلاق ، ضوضاء نقاش حاد .

كان البيو روسي يقول :

ـ قل لي .. أيلذ لك ان تعذبها ؟

ويصرخ بول : لا يحق لك ان تتكلم مثل هذا الكلام .

ـ هل اكون رفيقاً صالحاً إذا ما سكتّ على حماقاتك البلهاء ؟ لماذا قلت ذلك ؟ أتدري لماذا ؟

ـ يجب ان نقول دائماً بحزم كل ما نبغي قوله سواء كان نفياً أم إيجاباً .

ـ وحتى لأمك ؟

ـ لجميع الناس ، فأنا لا اريد حباً او صداقة تربطني وتضع القيد في رجليّ .

ـ يا لك من بطل . إمسح مخاط أنفك ، واذهب فقل هذا كله لساندرين فلها ينبغي ان يُقال .

ـ لقد قلته .

ـ بهذه الطريقة ؟ إنك تكذب . لقد قلته لها بلطف ، قلته لها بحنان . لنا لم اسمعك ولكني أعرف ذلك . وأمام أمك تعرض بطولتك . ثق أيها البهيم ان بطولتك لا تساوي فلساً .

وأخذت بيلاجي تمسح دموعها بسرعة ؛ فلقد كانت تخشى ان يوجه البيوروسي الإهانة الى ابنها ، فسارعت الى فتح الباب ، وقالت وهي تدخل المطبخ مرتعشة من الحزن والخوف :

ـ آوه ... ما هذا البرد ... رغم اننا في الربيع !

وفيما كانت تتشاغل بنقل الأواني المطبخية من مكان الى آخر ، دون مبرر ، اردفت ، وهي ترفع من صوتها ليطغى على صوتيها الخافتين :

ـ لقد تغير كل شيء ؛ فذب الدفء في الناس ، وبرد الجو ، مع انه في مثل هذا الوقت عادة يكون الطقس حاراً والسماء صافية ، والشمس مشرقة .

وخيم السكون على الحجرة ؛ وتوقفت هي في المطبخ كأنها تنتظر شيئاً ما .

وسأل البيو روسي بصوت خفيض :

ـ أسمعت ؟ يجب ان تدرك انها اغنى قلباً منك .

وسألتها الأم بصوت مضطرب :

— هل تشربان الشاي ؟

ودون ان تنتظر جواباً ، قالت لتخفي اضطرابها :

— ماذا دهاني ؟ اني أشعر ببرد شديد .

واقترب بول منها ببطء ، ونظر اليها بشرود ، والبسمة الخاطئة تحرك شفتيه ، وقال بصوت خافت :

— سامحيني يا اماه ... فأنا ما زلت غلاماً غبياً .

وصاحت بأسى وهي تدفن رأسه في صدرها :

— لا تبكتني يا بول ؛ ولا تقل شيئاً . اصنع ما شئت فأنت سيد حياتك ، ولكن لا توجه اليّ كلاماً خبيثاً. أيمكن لأم ان تتجرد من الشفقة ؟ كلا ... وإني لأشفق عليكم جميعاً ، فأنتم ادنى الناس اليّ ، وانكم لجديرون بذلك . وإذا لم أعاملكم انا باشفاق فمنذا الذي يعاملكم ؟ إنك تسير يا صغيري بول ، ووراءك آخرون تخلوا عن كل شيءٍ وساروا ....

وكانت تشعر بأن هناك فكرة عظيمة ملتهبة تملأ قلبها ، وتهبها الأجنحة ، وتلهمها فرحاً يمازجه الغم والعذاب ، ولكنها كانت لا تجد الالفاظ التي تعبرها ، فراحت في قلق العيّ تلوح بيدها ، وترنو الى ابنها ، بعينين تشتعلان بالألم الفظيع الحاد .

ووشوش بول وهو يطأطيء رأسه :

— هذا صحيح يا اماه .. فسامحيني . إني أفهم ..

ورشقها بنظرة خاطفة وهو يبتسم ثم استدار وأضاف بارتباك يمازجه فرح :

— اقسم لك بشرفي اني لن انسى هذا ابداً .

وتركته ،وراحت عيناها تبحثان عن اندريه لتقول له بصوت متوسل ودود ،

— لا تؤنبه يا صغيري اندريه ، فأنت بلا شك ولدي البكر ..

ولم يتحرك البيو روسي الذي كان يدير ظهره اليها ، بل زمجر بصوت مثير للضحك :

— هو هو هو ... سأنهق وراءه ، ولن أتورع عن ضربه بشدة .

فاتجهت اليه بخطى وئيدة ممدودة اليد :

— يا بني الطيب ، يا ولدي العزيز .

فاستدار اندريه وطأطأ هامته كالثور ، ومر بجانبها متجهاً الى المطبخ ويداه مشبكتان وراء ظهره ومن المطبخ تعالى صوته بسخرية كئيبة :

— أغرب من وجهي يا بول إذا كنت تود ألا أعض رأسك . لا تصدقيني أيتها الأم الصغيرة فأنا أمزح .. سأعد الشاي .. نعم .. ما أوسخ الفحم الذي عندنا .. يا للقذارة ..

وصمت .وعندما دخلت الأم الى المطبخ كان يجلس على الارض ليشعل الموقد، ولم يبصرها وهي تدخل ، بل تابع :

— لا تخافي ، لن أمسه أبداً فانا وديع ناعم كرأس لفت مسلوق . وأنت لا تصغي الى « البطل » فانا احبه حباً جماً ، ولكني أكره صدريته .. إنه يرتدي صدرية جديدة أرأيت ؟ وهو معجب بها كل الاعجاب .. هو ذا يمشي ، وقد سبقه كرشه ، انه يدفع الناس في طريقه : «انظروا الصدرية الجميلة التي ألبس».. إنها جميلة حقاً ولكن.. لمَ يضعضع الناس ؟فهم مكتظون مزدحمون بدون هذا..

وابتسم بول :

— ا ترانك ستظل تدمدم هكذا طويلاً ؟ ان شتيمة واحدة يجب ان تكفيك.

وكان البيو روسي ما زال جالساً على الارض ، يضع ابريق الشاي بين رجليه يتأمله . وكانت الأم واقفة بقرب الباب تسمّر عينيها الحزينتين الودودتين على العنق الطويل المستدير ، عنق اندريه المحني .

وقلب رأسه الى الوراء ، واستند بيديه الى الخشب ، وحدّق في الأم وابنها وهو يغمز بعينيه المحمرتين قليلاً :

— انكم قوم طيبون .. نعم ..

فانحنى بول وأمسك بذراعه :

— لا تشد ، فإني ساسقط الى الارض إذا ما فعلت .

وقالت الأم بحزن :

— لِمَ انتما متضايقان ؟ هيا تعانقا عناقاً حاراً ، حاراً جداً .

فسأل بول : اتريد ذلك ؟

واجاب اندريه وهو ينهض : ولِمَ لا ؟

وتعانقا طويلاً ، وظلا بلا حراك فترة ، بديا فيها كأن روحاً واحدة تملأ اهابيهما ، روحا تلهبها صداقة حارة حميمة .

وكانت الدموع تنهمر على وجنتي الأم ، ولكنها لم تكن دموع المرارة فمسحتها بارتباك قائلة :

— ان النساء يحببن البكاء ، فهن يبكين من الفرح كما يبكين من الحزن .

ودفع البيوروسي بول دفعة صغيرة وقال وهو يمسح أيضاً عينيه :

— هذا يكفي... عندما تنط العجول يعد منها الشواء. آه يا للفحم اللعين . لقد نفخت طويلاً لأشعله حتى امتلأت به عيناي .

وجلس بول بالقرب من النافذة مطرقاً ، وقال بهدوء :

— إن دموعاً كهذه لا تبعث الخجل .

وأقبلت الأم فجلست الى جانبه ، يغمر قلبها شعور بالزهو دافىء عذب ، وكانت تستشعر شيئاً من الحزن إلا أنها كانت سعيدة هادئة البال .

وقال اندريه وهو يلج الغرفة :

— سأرتب الأواني ، فظلي مرتاحة ايتها الأم الصغيرة ، ارتاحي ، فلقد عذبت كثيراً .

وعلا رنين صوته الطروب عندما غاب عن انظارهما :

— جميل جداً أن يشعر المرء أنه يعيش حياة خيرة هكذا ، كما يعيش البشر .

وقال بول وهو يرمق امه بنظرة خاطفة :

— أجل .

فقالت : لقد تبدلت الأمور ، فالحزن شيء والبهجة شيء آخر .

وأجاب البيو روسي :

— هذا ما يجب ان يكون ، فكل قلب جديد ينمو ، أيتها الأم الصغيرة اللطيفة ، إنما ينمو في الحياة ، ثم يأتي انسان فيوقد فيه نار العقل ، ويصرخ وينادي : «يا هؤلاء.. أيها البشر في كل الأوطان ، اتحدوا في عائلة واحدة » وبتأثير هذا النداء تتحد القلوب كلها بأفضل ما فيها ، تتحد في قلب واحد كبير قوي ، رنان كجرس من فضة .

وضغطت الأم على شفتيها بقوة كي لا ترتعش ، وأغمضت عينيها لتمسك دمعها فلا ينسكب .

ورفع بول يده يريد ان يقول شيئاً ، ولكن الأم أنزلت يده هامسة :

— دعه يتكلم .

وتابع اندريه وهو واقف في الباب :

— اتعلمون إن هناك كثيراً من الأحزان تنتظر البشر ؟ ان دمعهم ما زال يمتص . ولكن ذلك كله ، لكن حزني كله ودمي ليس إلا فدية تافهة لبعض ما أحمل في صدري ورأسي . إني غني بالشعاع كنجم ، وسأتحمل كل شيء ، سأتجلد ، لأن في داخلي فرحاً لا يقوى انسان ما أو شيء ما على خنقه أبداً .. وفي هذا الفرح تكمن القوة .

... وشربوا الشاي ، ولبثوا حول المائدة حتى انتصف الليل ، وهم يثرثرون ثرثرتهم الحبيبة ، عن الحياة والناس والمستقبل :

وكانت كلما توضحت فكرة في رأس بيلاجي تخيرت من ماضيها ذكرى ، ذكرى ثقيلة أبداً خشنة أبداً ، واتخذتها مرتكزاً لهذه الفكرة .

وكان خوفها يتلاشى ويذوب في سيل حديثهم الحار ، وإنها الآن لتشعر نفس الشعور الذي خامرها يوم قال لها والدها بقسوة :

— عبثاً تكشرين ... ثمة سخيف يود ان يتزوجك فتزوجيه ؛ لان الزواج مصير كل فتاة . إن النساء كلهن يضعن الأطفال ، والاطفال شقاء بالنسبة لذويهم .. و أنت .. ألست كائناً بشرياً ؟

وكانت ترى أمامها عندئذٍ الطريق الذي لا يمكنهاان تتنكبه ، والذي يدور

دونما افق حول مكان مقفر قاتم ، وكانت الضرورة المحتومة لسلوك هذا الطريق تملأ قلبها بدعة مستسلمة عمياء، وانها لتشعر الآن بمثل تلك الدعة ، ولكنها كانت، وهي تتوقع شقاءً جديداً ، تقول في نفسها كأنها تحدث شخصاً ما : خذوا ..
وكان هذا يخفف من ألمها الخفي الذي يشدو في صدرها راعشاً كوتر مشدود.
وفي أعماق نفسها التي يخضها الترقب والقلق ، كان لهب الأمل يتصاعد ، خافتاً ، إنه أمل حي ، أمل لا يستطيع أحد أن يسلبه أو ينتزعه كله منها .

— ٢٤ —

وفي الصباح الباكر ، وبعد خروج اندريه وبول بفترة قصيرة جداً ، طرقت ماريا كورسونوف النافذة برعب ، وصاحت على عجل :
— لقد قُتل ايساي . فهيا بنا نرَ .
وارتعشت الأم ولمع اسم القاتل في ذهنها كالبرق ، وسألت بايجاز وهي تطرح شالاً على كتفيها :
— ومن الذي قتله ؟
فأجابت ماريا : لم يقف لأتبينه .. فلقد ضرب ضربته وولى الأدبار .
وتابعت وهما في الطريق :
— سوف يباشرون البحث والتفتيش عن المجرم ، ومن حسن الحظ ان رجليك كانا في المنزل هذه الليلة . اني استطيع ان اشهد على ذلك ، فلقد مررت امام بيتكم بعد منتصف الليل ، وألقيت نظرة خاطفة من خلال النافذة ، فرأيتكم جميعاً تجلسون حول المائدة .
وصاحت الأم بذعر :
— ماذا تقولين يا ماريا ؟ أيمكن ان يتهموهما ؟
وأجابت ماريا بيقين :
— ومنذا الذي يقتله ؟ إنهم جماعتك بكل تأكيد ، فالناس جميعاً يعرفون انه كان يتجسس عليهم .

وتوقفت الأم مبهورة الأنفاس ووضعت يدها على صدرها .
— ما بك ؟ لا تخافي ... لنسرع قبل ان ينقلوه .
وكانت الذكرى الثقيلة ذكرى فيسو شيكوف تتمتع بيلاجي ففكرت كالمخبولة :
— هو ذا ... وقد انتهى الى تنفيذ ما يريد .
وفي مكان غير بعيد عن جدران المعمل ، وفوق انقاض منزل التهمته النار منذ أمد قريب ، كان حشد من الناس يضجون كخلية من زنابير ، ويدوسون بقايا الكلس والرماد الذي كان يتطاير. وكان هناك كثير من النسوة ، والاطفال، وأصحاب الحوانيت ، وخدام الفندق والشرطة ؛ وكان هناك أيضاً الدركي « بيتلين » وهو عجوز ضخم الجثة ، فضي اللحية ، يحمل فوق صدره عدداً من الأوسمة .
وكان إيساي نصف ممدد على الأرض وقد اسند ظهره الى جسر سوّدته النار. وكان رأسه الحاسر يتهدل على كتفه الأيمن ، ويده اليمنى في جيب بنطاله ، في حين كانت اصابع يده اليسرى تتشبث بالأرض الرخوة .
ورنت الأم الى وجهه . لقد كانت عينه الكدراء تتركز على القبعة المطروحة بين ساقيه الممدودتين بارتخاء واعياء ، وكان فمه مفتوحاً بشكل يعبر عن الدهشة، وكانت لحيته الصهباء منفوشة الجانب ، وكان الجسم الضئيل ، برأسه الدقيق ووجهه العظمي الذي يغطيه نثار النخالة ، كان هذا الجسم قد تضاءل وضغطته يد الموت .
ورسمت الأم إشارة الصليب وهي تزفر : لقد كان يثير قرفها وهو حيٌّ ، أما الآن فإنه يثير فيها احساساً خفيفاً من الرحمة .
ولاحظ أحد الحضور بصمت خافت :
— ليس هناك دم . لقد ضربه القاتل بقبضته دون شك .
وتعالى صوت كريه :
— لقد أقفل فم خائن .

وتطاول الدركي ونحّى بيده حشد النساء وسأل بلهجة تهديد :

— من ذا الذي يفكر مثل هذا التفكير ؟

وكان الناس يبتعدون من طريقه ، حتى ان بعضهم ولـّى الأدبار .

وسمع الحضور ضحكة تزخر بسوء النية .

وعادت الأم الى منزلها وهمست : لم يحزن عليه احد .

وكان شبح نيقولا الضخم ينتصب أمامها كالطفل ، وفي عينيه الضيقتين لمعة باردة قاسية ، ويده اليمنى تتدلى متأرجحة كأنه إنما سحقها بقدميه .

وعندما عاد اندريه وبول للغداء استقبلتهما سائلة :

— قولا ... هل اوقف احدٌ بسبب إيساي ؟

فأجاب البيو روسي : لم نسمع شيئاً .

ولاحظت انهما كانا مرهقين ، فاستفسرت بصوت خفيض :

— الا يُقال شيء عن نيقولا ؟

فرمقها ابنها بنظرة قاسية وأجاب وهو يقطع كلماته تقطيعاً :

— ابداً ... حتى انهم لا يفكرون به ؛ ثم إنه ليس هنا ، فلقد ذهب يوم امس عند الظهيرة ، الى النهر ، ولمّا يعد . لقد تقصيت اخباره .

وقالت وهي تطلق زفرة عزاء :

— حسناً ، شكراً لله ، شكراً لله .

ورشقها البيو روسي بنظرة عجلى ثم اطرق .

واستأنفت الأم مضطربة البال :

— إنه ممدد ، ووجهه يعبر عن الذهول . إن أحداً ما لم يتحسر عليه ؛ ولم يقل عنه كلمة طيبة . إنه متضائل لدرجة هائلة ، يبدو معها كنفاية انفصلت عن شيء ما وسقطت هناك على الارض .

وأثناء تناول الطعام ألقى بول ملعقته فجأة وصاح :

— أنا لا أفهم هذا ..

فسأله اندريه : ماذا ؟

— ان يقتل المرء حيواناً لكي يأكل فقط أمرٌ غير مستحب ، وان يقتل وحشاً ضارياً أو طيراً جارحاً ، أمرٌ يمكن فهمه ، وأنا نفسي أستطيع ان اقتل وجلاً تحول الى وحشٍ كاسر بالنسبة للآخرين ... أما قتل مخلوق بائس ، فلا أدري كيف يستطيع الجاني ان يرفع يده لمثل هذا ؟

وهز اندريه كتفيه وقال :

— إنه لم يكن أقل أذى من وحشٍ مفترس . ثم إننا نقتل البعوضة لإنها تمتص قليلاً من دمنا .

— نعم ، هذا صحيح ، ولكن ليس هذا ما اريد ان اقول . إني اقول ان عملاً كهذا تتقزز منه نفسي .

وأجاب اندريه وهو يهز كتفيه ثانية :

— وما العمل ؟

وخيّم صوت طويل .

ثم قطع بول هذا الصمت وسأل بقلق :

— أتستطيع ان تقتل مخلوقاً من هذا النوع ؟

فرمقه البيوروسي بعينيه المدورتين ثم ألقى نظرة عجلى على الأم وأجاب بأسى يمازجه الحزم :

— من أجل الرفاق ، من أجل قضيتنا ، أقترف كل شيء ، وأقتل حتى ابني .

وصرخت الأم بفتور :

— اوه يا اندريه .

فابتسم لها : محالٌ ان تتصرف تصرفاً غير هذا ، فالحياة هي التي تفرض ذلك .

وردد بول ببطء : أجل ، أجل إنها الحياة .

وعصف التأثر ببول فجأة ، فنهض مدفوعاً بعامل خفي وحرك ذراعيه :

— ما العمل ؟ إننا مرغمون على كره الانسان لكي تستعجل اليوم الذي نستطيع فيه ان نقدره دونما تحفظ . يجب ان ندمر من يعرقل سير الحياة ، من

يبيع الآخرين بالمال ليضمن لنفسه الراحة والامجاد . وإذا ما اعترض طريق العادلين يوضاس يتربص بهم ليخونهم فإني اكون انا نفسي نوضاساً إذا لم ادمره . أليس ذلك من حقي ؟.. وأسيادنا لولئك أمن حقهم ان يسخروا الجند والجلادين والمؤسسات العامة والسجون والمنفى ، وكل ما هو شين وعار ليضمنوا سلامتهم وسعادتهم ؟ ما العمل إذن إذا كنت مرغماً احياناً على ان امسك الهراوة بكلتا يديّ ؟ لن ارفض ذلك ، وسآخذهابيدي .إنهم يصرعوننا بالعشرات،يصرعوننا بالمئات ، وهذا ما يعطيني الحق بان ارفع يدي وأهوي بها على رأس عدو، على رأس اقربهم إليّ وأشدهم إيذاءً لجهد حياتي كلها . هكذا صُنعت الحياة ، وأنا أناضل ضدها ؛ ولا اريدها . انا اعلم ان دم الاعداء لا يُبدع شيئاً إنه دم عاقر إن الحقيقة تنمو عندما يروي الدم الارض كمطر غزير ،في حين ان دمهم فاسد يتبخر دون ان يترك آثاراً ؛ .. ولكني سأتحمل وزر الجريمة ، سأقتل إذا وجدت ذلك ضرورياً ، وبما انني اتكلم عن نفسي ، فإن الجريمة ستموت معي ، انها لن تلطخ وجه الغد ولن تدنس احداً سواي .

وكان يروح ويجيء ويده تتحرك امام وجهه كأنه يقتطع شيئاً ما ويقذفه بعيداً عنه . وكانت الأم تراقبه يملأها الأسى والغم .لقد كانت تشعر بأن جزءاً منها قد تحطم ، و إنها من أجل ذلك تتألم أشد الألم .

وبارحتها الأفكار السوداء الرعديدة التي تساورها عندما تتذكر القاتل وكانت تقول في نفسها :« إذا لم يكن فيسو شيكوف هو الجاني ، فإن واحداً من رفاق بول لا يمكن ان يكونه ».وكان بول يصغي الى البيو روسي مطرقاً فيما يتابع هذا حديثه بقوة وعناد :

— عندما تسير في الطليعة يجب ان تقاوم حتى نفسك . يجب ان تعرف كيف تضحي بكل شيء ، ان تضحي بكل قلبك ، وليس بالأمر العسير ان يكرس المرء حياته لقضيته ، ان يموت من أجلها . إبذل ما استطعت البذل ، ضحّ بما هو اغلى من الحياة ، يتنامَ بقوة اعز ما فيك ، تتنامى حقيقتك .

وتوقف في وسط الحجرة ، وكان وجهه قد غدا أشد شحوباً وعيناه نصف

مغمضتين ثم استأنف كلامه وهو يرفع يده كما لو كان يؤدي قسماً عظيماً .

— أنا أعلم أنه سيأتي زمن يتبادل الناس فيه الاحترامَ والتقدير ، زمن سيكون كل امرىء فيه كالنجم في اعين الآخرين . سيكون ثمة على الارض رجال أحرار عظماء بحريتهم ، وسيسير كل انسان مفتوح القلب طاهراً من كل حقد ، وسيعيش الناس جميعاً دونما خبث ، ولن تكون الحياة عندئذ هي الحياة ، بل عبادة للانسان ، وستسمو صورته عالياً ، وتذل الذرى السامقة كلها متونها للاحرار . عند ذاك نعيش في الحقيقة والحرية ، نعيش من أجل الجمال . عند ذاك يعتبر الناس ان أفضلهم هم الذين يعرقون جيداً كيف يملأون بالوجود قلوبهم ، والذين يحبون هذا الوجود أعمق الحب ؛ ويصبح اشد الناس تعلقاً بالحرية ، أفضلهم ،.ففي نفوسهم يكمن أعظم قدر من الجمال ، وسيكونون من العظماء اولئك الذين سينعمون بهذه الحياة .

وصمت قليلاً ثم انتصب وقال بصوت كأنه يأتي من أعماق أعماقه :

— ومن أجل هذه الحياة أنا مستعد لكل شيء .

وارتعش وجهه ، وتساقطت من عينيه ، واحدة بعد اخرى ، دموع كبيرة ثقيلة .

ورفع بول رأسه ونظر إليه . لقد كان هو أيضاً شاحب الوجه ، متمدد الاحداق ، ونهضت الأم من مقعدها ، وكانت تحس ان الأسى القاتم يقترب منها ويزداد نمواً :

وسأل بول بصوت خافت :

— ما بك يا اندريه ؟

وعصفت برأس البيو روسي رعدة مفاجأة ، وتشنج كوتر مشدود ، وقال وهو يرنو الى الأم :

— لقد رأيت ... وأعرف ...

فنهضت الأم واقتربت منه بسرعة وأمسكت بكلتا يديه فحاول ان يسحب يمناه ، ولكنها شدتها بقوة ، وهمست بحرارة :

ــ هدىء من روعك يا عزيزي .
فقال بهدوء : مهلاً ، سأروي لكم كيف حدث ذلك .
فغمغمت وهي تحدق به والعبرات تملأ عينيها .
ــ لا حاجة لذلك ، لا حاجة لذلك يا اندريه .
واقترب بول ببطء وقد رطبت عينيه الدموع ، وكان شاحب الوجه يبتسم :
ــ لقد خشيت الأم ان تكون أنت ......
ــ لست بخائفة . إني لا أصدق ذلك . وحتى لو رأيته بعيني فلن اصدق أبداً .
وقال البيو روسي دون ان يلتفت إليها :
ــ مهــلاً .
وكان يهز رأسه ويحاول بلا انقطاع سحب يده :
ــ لست أنا القاتل ، ولكن كان عليّ ان أحول دون القتل .
وصاح بول : إخرس يا اندريه .
واحتضنت إحدى يديه يد اندريه وألقى بالثانية على كتفه ، كأنه يود ان يهدىء ارتعاش قامته الفارغة ؛ وحول اندريه وجهه نحو بول ، وتابع بصوت خفيض متقطع :
ــ كنت لا اريد ذلك أبداً . وانك لتعرف هذا جيداً يا بول ... ولكـن إليك ما حصل :
لقد سبقتني أنت ، ومكثت أنا في زاوية الشارع مع دراغنــوف ، وكان إيساي قد برز من الشارع الآخر ، وتوقف على مسافة منا ، يدمدم وينظر إلينا ، فقال لي دراغنوف : أرأيت ؟ إنه يتجسس عليّ وهذا شأنه في كل ليلة ، سأقضي عليه .
وانطلق الى منزله على ما أعتقد ، واقترب إيساي مني .
وأطلق اندريه زفرة ..
ــ لم يشعرني أحد بالمهانة والضعة كهذا الكلب .
ودون ان تنبس الأم بكلمة ، شدت اندريه من ذراعه ، وجرته نحو الطاولة ، ونجحت أخيراً في اجلاسه على مقعد ، وجلست هي نفسها الى جانبه وظل بول

واقفاً أمامها يشد لحيته بانفعال .
ــ وقال لي أنهم يعرفوننا جميعاً ، وأن رجال الدرك يراقبوننا ، وسيزجوننا في السجن ، في أول أيار . ولم أجبه ، بل ضحكت ولكن الغليان كان قد بدأ في داخلي .
وقال لي بعد ذلك : اني كنت فتى فطناً وأنه كان يجب عليّ الا أسلك هذا الطريق بل كان يجب عليّ ...
وتوقف عن الكلام . ومسح وجهه والتمعت عيناه ببريق بارد فقال بول : فهمت .
ــ كان يجب عليّ ان أضع نفسي في خدمة القانون .
ومد ذراعه وحرك قبضته المشدودة ، وقال ، وهو يخرج الكلمات من بين اسنانه :
ــ في خدمة القانون ؟ اللعنة لروحه ، فلقد كان يحسن صنعاً لو صفع وجهي ؛ لان ذلك سيكون أقل ايلاماً لي ، وربما له أيضاً ... ولكنه عندما بصق في قلبي بصاقه النتن ، فقدت صبري ..
وسحب يده من يد بول بعنف ، وقال باشمئزاز وبصوت اكثر هدوءاً :
ــ لقد صفعته ومشيت ، ولكني سمعت دراغنوف من ورائي يقول بكل هدوء :
ــ هل وقعت في الفخ ؟ ...
لقد كان مختبئاً في زاوية من زوايا الشارع بلا شك .
وبعد فترة من الصمت استأنف كلامه :
ــ ولم أرجع ، ولكنني شعرت بأني سمعت طلقة . ومضيت هادىء النفس كأنني قد ركلت بقدمي ضفدعة . وكنت في المعمل عندما تعالى الصراخ : «لقد قُتل إيساي» . لم اصدق ذلك ، ولكن يدي كانت تؤلمني ، ولم أك أستطيع تحريكها لا لأنها تؤلمني فحسب ، بل لأنها كانت كأنها انكمشت وتقاصرت .
ورمق يده بنظرة شزراء :
ــ من المؤكد إنني لن أستطيع ، طوال حياتي ، ان اغسل هذه اللطخة النتنة .
وقالت الأم :
ــ يكفي ان يكون قلبك نقياً ياصغيري .
فأكد البيو روسي :

— انا لا اتظلم ، ولكن هذا يثير في نفسي التقزز ، لأنني لم اك بحاجة الى ذلك.
وقال بول وهو يهز كتفيه :
— إني اسيء فهمك ، لست انت الذي قتلته ... ولكنك لو ...
— ان مجرد العلم بالقتل دون منع وقوعه ...
وقال بول بحزم .
— انا لم افهم شيئاً من هذا كله ...
ثم أضاف بعد فترة قصيرة من التفكير :
— اي انني استطيع فهمه ... اما ان احسه فلا ...
وعوت صافرة المعمل ، ومال البيو روسي برأسه يصغي الى زئيرها الصلف الآمر ، ثم قال منتفضاً : لن اذهب اليوم الى المعمل .
وقال بول : وأنا أيضاً لن اذهب .
وأعلن اندريه باسماً :
— أما أنا فسأذهب لأستحم .
وتهيأ بسرعة دون ان يتلفظ بكلمة ، ثم خرج متثاقلاً ؛ وتبعته الام بنظرة اشفاق :
— قل ما تشاء يا بول ، فأنا اعلم أن قتل امرىء خطيئة ، ومع ذلك فاني لا اجد في هذه القضية جرماً. لقد كنت اشفق على ايساي ، فهو صغير جداً كالحشرة ، وعندما رأيته تذكرت أنه هددك يوماً بالشنق . ولم اك اشعر بالحقد عليه ابداً كما ان موته لم يفرحني . لقد اشفقت عليه من قبل لطيبتي ، اما الآن ... فاني لا احس نحوه حتى بالشفقة .
وصمتت ، وفكرت لحظة ثم اضافت وهي تبتسم مندهشة :
— يايسوع ... هل تسمع يا بول ما اقول ؟
ولم يكن بول يصغي اليها بلا ريب ، بل كان يذرع ارض الغرفة ببطء وهو مطأطيء الرأس ، متجهم الأسارير :
— هذه هي الحياة . ارأيت كيف ان الناس مهيأون ليقف بعضهم في وجه

البعض الاخر ؟ وسواء كان ذلك باختيارهم أو على كره منهم ، فإنهم مجبرون على ان يضربوا . ومن ؟ رجلاً مغتصب الحقوق مثلهم ، وأشد شقاء منهم لانه حيوان. ان رجال البوليس والدرك والجواسيس هم جميعاً أعداء لنا ، ومع ذلك فهم بشر مثلنا . إنهم يُرهقون لدرجة ينضحون معها دماً وعرقاً ، ولا يعاملوننا كبشر . وهكذا يُستعدى الناس بعضهم على بعض وتُسمل اعينهم بالغباوة والخوف ، وتوثق أيديهم وأرجلهم ، ويُضطهدون ويُستغلون ، ويُسحقون ، ويُضرب بعضهم بيد البعض الاخر . لقد مُسخوا بنادق ومطارق وبلاطاً . ثم قيل : هذه هي الدولة !

واقترب من امه :

— إنها الجريمة يا اماه . القتل الفظيع ، قتل الملايين من الكائنات البشرية، قتل الأرواح . أتدركين ؟ إنهم يقتلون الروح . أرأيت الفرق بيننا وبينهم ؟ عندما يضرب واحدٌ منا إنساناً يشعر بالخجل . يشعر بالتقريع ، فيتعذب ويشمئز ، ولكن الاخرين يقتلون الناس بالألوف ، يقتلونهم ببطء ودونما رحمة ، يقتلونهم دون ان يرتعشوا. إنهم يقتلون بلذة، يذبحون الآلاف لا لغاية إلا ليختزنوا الذهب والفضة ووريقات لا قيمة لها ، ليختزنوا كل هذه التفاهات الحقيرة التي تمنحهم السلطان على الناس . تأملي : إنهم لا يبطشون بالشعب ولا يمثلون به لحماية انفسهم او للدفاع عن ذواتهم ، إنهم لا يفعلون ذلك من أجل أنفسهم بل من أجل ثرواتهم. إنهم لا يحمون أنفسهم من الداخل ، وإنما يحمونها من الخارج .

وأخذ يدي امه بين يديه وانحنى يشدهما :
— إذا استطعت ان تحسي كل هذا المقت ، وكل ذلك التعفن القذر ، فستدركين حقيقتنا ، وسترين كم هي عظيمة ورائعة .
ونهضت الأم شديدة التأثر ، تملأها الرغبة في ان تصهر قلبها وقلب ابنها في لهب واحد ، وهمست وهي تلهث :
— رويداً يا بول رويداً . إني أحس ذلك .

- ٢٥ -

وسُمع في المدخل وقع خطى ، فارتعشا كلاهما وتبادلا النظرات .

وفُتح الباب ببطء ودخل ريبين بخطوه المتثاقل ، وقال باسماً شامخ الرأس:

ـ هو ذا انا ، فحيّوني ، وليكن لي شرف الجلوس الى مائدتكم .

وكان يرتدي فروة خروف قصيرة ، يلطخها القار ، وينتعل حذاءً من التيل ويتدلى من وسطه عدد من الخطاطيف ، ويعتمر قبعة من الوبر .

ـ كيف الصحة ؟ هل اطلقوا سراحك يا بول ؟ حسناً ... كيف الحال يا بيلاجي ؟

وكانت بسمته عريضة تكشف عن اسنانه البيضاء ، وفي صوته جرسٌ شديد الحلاوة ، وكانت لحيته تشغل قطاعاً واسعاً من وجهه .

ودنت الأم منه وهي سعيدة بلقائه ، وشدت على يده السوداء الضخمة وقالت وهي تتنشق رائحة القار القوية الطيبة التي كانت تفوح منه :

ـ أهذا أنت ؟ إني لجد مسرورة .

وتفحّص بول ريبين باسماً :

ـ انك تبدو كفلاح وسيم .

ونزع ريبين فروته ببطء :

ـ أجل . لقد عدت فلاحاً ، اما انتم فإن بعض مظاهر السادة تبدو عليكم ... إني أعود الى الوراء .. فتأملوا .

ودخل وهو يسوّي دراعته المصنوعة من الكتان ، ويلقي على الحجرة نظرة شاملة .

ـ الأثاث ، لم يزد عليه شيء على ما أرى .. أما الشيء الذي ازداد فهو عدد الكتب . الخلاصة .. كيف سير الأعمال ؟

وجلس وهو يباعد بين ساقيه ، ويضع باطن كفه على ركبته ، ويتأمل بول بنظرة فاحصة من عينيه السوداوين ، وينتظر الجواب باسماً وبكثير من السذاجة :

وقال بول :

ـ ليست الاعمال سيئة على كل حال .

وثرثر ريبين :

ـ انهم يحرثون ويزرعون دون تباهٍ ، وسيجنون مازرعوا ، وسيطبخون الجثالة ، ويقطرون ، ويدخرون مبلغاً طيباً . أليس هذا صحيحاً ؟

وسأله بول وهو يجلس قبالته ؟

ـ وانت كيف حالك يا ميشيل ؟

ـ لا بأس . فالأمور على ما يرام . لقد توقفت قليلاً في اغيد بيغو .. أتعرفون اغيد بيغو ؟ انها قرية جميلة يُقام فيها معرضان في السنة ، ويزيد تعدادها على ألفي نسمة من الناس الاشرار ؛ وليس فيها أراض ، وإنما يستأجر أهلوها الاراضي ، لأن تربتها لا تصلح ابداً . لقد عملت فيها عند أحد مصاصي الدماء ، وهم كثيرون هناك ، كثرة الذباب على جيفة . إنهم يستخرجون الزفت ، ويصنعون الفحم ، وكنت أقبض أقل من الاجر العادي بأربع مرات ، وابذل ضعفي ما أبذله من جهد هنا . لقد كنا سبعة عمال في خدمة هذا النهم ، وكلهم من شبان المنطقة ما عداي . جميعهم يعرفون القراءة ، وبينهم فتى يهيم بها أسمه « ايفيم » .

وساله بول بحماسة : حسناً .. وهل كنت تتحدث معهم ؟

ـ كنت لا أصمت ابداً . لقد اصطحبت معي « وريقاتكم » . كنت احمل منها اربعاً وثلاثين ، غير انني كنت افضل استعمال انجيلي » .. ففيه يجد المرء كل ما يريد وهو كتاب ضخم غير ممنوع . ان الكنيسة هي التي طبعته .. لذلك يستطيع المرء ان يصدقه .

وتطلع الى بول وغمزه ثم ابتسم :

ـ ولكن ذلك لا يكفي ، فلقد أتيناك باحثين عن « منشورات » ؛ ونحن هنا اثنان : ايفيم وأنا . لقد كنا ننقل كمية من الزفت ، واغتنمنا الفرصة لنراك . انك ستزودني ، بلا شك ، بمؤونة .. قبل ان يصل ايفيم .. فهو ليس بحاجة لأن يعرف الكثير .

وكانت الأم ترنو الى ريبين ، وخيل اليها حين نزع سترته انه تعرى من شيء

آخر ؛ لقد فقد شيئاً من وقاره ، وغدت نظراته اكثر خبثاً ، وأقل صراحة.

وقال بول :

— احضري لنا قليلاً من الكتب يا أماه. انهم يعرفون ماذا يجب ان يعطوه ، قولي لهم ان هذه الكمية سترسل الى الريف .

وأجابت الام :

— حسناً ، لكن الشاي يوشك ان يكون جاهزاً ؛ وسأذهب بعد ذلك .

وسأل ريبين ضاحكاً :

— وأنت ايضاً يا بيلاجي تهتمين بهذه الامور ؟ إن في قريتنا كثيراً من عشاق الكتب ، والمعلم نفسه يرغب بها ويتذوقها . يقال انه فتى طيب رغم انه تربّى في مدرسة اكليركية . وهناك ايضاً معلمة مدرسة على بعد سبعة او ثمانية كيلو مترات .. ولكنهم جميعاً لا يريدون ان يقرأوا كتباً ممنوعة ؛ فالدولة هي التي تدفع لهم رواتبهم .. وهم يخافون . يلزمني كتاب واحد من هذه الكتب الممنوعة ؛ كتابٌ لاذع جداً ، لأهربه لهم في الخفاء .. وسيعتقد رجال البوليس أو الكاهن اذا ما رأوا هذا الكتاب الممنوع ان معلمي المدرسة هم الذين يقومون بالدعاية .. فلا يتاح لهم ان يعرفوني . لاني بعيد عن اللعبة .

وقهقه فخوراً بدهائه وخبثه ، قهقه حتى بدت نواجذه .

وحدثت الام نفسها :

— ارأيت ؟ له مظهر الدب .. ولكنه ثعلب .

وسأل بول : أتعتقد انهم يزجون بالمعلمين في السجن اذا ما ارتابوا بأنهم هم الذين يوزعون الكتب الممنوعة ؟

— نعم ... وماذا يعني ذلك ؟

— انكم انتم الذين توزعونها .. وليسوا هم ، فالعدل يقضي بان تزجوا انتم في السجن .

وصاح ريبين ضاحكاً وهو يضرب ركبته بكفه :

— أيها الخبيث اللعين . من سيفكر بأني انا ، انا الفلاح البسيط أهتم بأمور

كهذه؟ هل سبق لهم ان رأوا من قبل مثل ذلك ؟.. ان الكتب من عمل « السادة » وعليهم وحدهم ان يتحملوا المسؤولية .

وشعرت الام ان بول لا يدرك ما يقوله ريبين، وانه مقطب الجبين، غاضب، فتدخلت في الحديث وقالت بصوت عذبٍ مسالم :

— يريد ميشيل ايفانوفتيش ان يهتم بهذه الامور، على ان ينال الآخرون العقاب نيابة عنه ...

فوافق ريبين على قولها وهو يداعب لحيته :

— بالضبط ... ولكن هذا سيكون بصورة موقتة .

ورد بول بجفاف :

— لو قام واحد من بيننا يا اماه ، اندريه مثلا ، بعمل ما ، وانتحل اسمي، فزججت في السجن عقاباً على ذلك العمل .. فماذا يكون شعورك ؟

فارتعشت الأم ورنت الى ابنها بدهشة، وأجابت وهي تهز رأسها مستنكرة:

— كيف يمكن ان يتصرف امرؤ مثل هذا التصرف بحق رفيق ؟

فقال ريبين بصوت متساحب :

— آه ... آه ... لقد أدركت الآن قصدك يا بول .

وغمز بخبث وخاطب بيلاجي :

— عفواً ، أيتها الأم ، عمل لطيف .

ثم استدار نحو بول ، وقال بلهجة الحكيم :

— إنك ما زلت غراً يا فتاي الصغير . فلا مكان للشرف في الامور الخارجة على القانون . فكر قليلا : انهم اولاً، يزجون في السجن من يعثرون على الكتاب في حوزته وليس معلمي المدرسة . هذه واحدة . ثانياً : ان الكتب المسموح بها والتي يوزعها هؤلاء المعلمون تتضمن ما تتضمنه الكتب الممنوعة ، ولكن بكلمات مختلفة ، ونسبة من الحقيقة أقل . هذه ثانية . وهذا يعني أنهم يريدون الوصول الى نفس الغاية التي استهدفها انا ... ولكنهم يسلكون من اجل ذلك طريقاً ضيقاً ، كثير المنعطفات ، في حين اسلك الطريق المستقيم .. اما جريمتنا في

نظر السلطة فهي واحدة ... اليس هذا صحيحا؟ وثالثا: يا بني .. لا شأن لي انا معهم ... لأن الراجل لا يكون رفيقا للفارس . ومن المؤكد انه لا يمكن ان أزج فلاحاً في مثل هذا العمل ، اما هما فاحدهما ابن كاهن، والثاني، وهو الفتاة، ابنة ملاك كبير . فأية مصلحة اذن لهما في اثارة الشعب ؟... لا ادري ... أنا فلاح بسيط لا ادرك افكار المثقفين ، ولا اعرف ما اعمله انا نفسي . اما ما يريدونه هم ... فاني لا اريد ان اعرفه .. لقد ظل الكبار يمثلون بدقة دورهم كأسياد طوال الف عام ؛ لقد سلخوا جلد الفلاح .. وهاهم يستقظون فجأة ... وها انذا افتح عيون الفلاح الروسي . انا لا اؤمن يا بني بحكايات الجن . ولكن هذا ، كما ترى ، يشبه تلك الحكايات ان اولئك السادة ، من اي صنف كانوا ، بعيدون كل البعد عني ، فلو كنت اسير في الحقول شتاءً وتحرك امامي كائنٌ حيٌ ، فماذا عساه يكون هذا الكائن ؟ قد يكون ذئبا او ثعلبا ، وقد يكون بكل بساطة كلبا، ولكني ، على كل حال ، لا استطيع ان أميزه لأنه بعيدٌ عني كل البعد .

...وألقت الام نظرة عجلى على ابنها فاذا ملامحه تنم عن ألمه .

وكانت عينا ريبين تلتمعان ببريق قاتم ، وكان ينظر الى بول بادي الرضى ، ويمرر ، بدعة ، اصابعه على لحيته :

— ليس لدي الوقت الكافي لأتظرف . فان الحياة نفسها لا تمزح ابـداً ؛ والكلب في الوجار الحقير ليس كالكلب في الحظيرة... ولكل سرب من الكلاب طريقته في النباح .

وقالت الام وهي تفكر في بعض الوجوه التي تعرفها :

— هناك سادة يضحون بأنفسهم من اجل الشعب ويتعذبون طوال حياتهم في السجون .

— هؤلاء يختلف امرهم عن الآخرين ، فعندما يثري الفلاح يتحسس بالسيد ، وعندما يفتقر السيد يلجأ الى الفلاح، وتظل النفس حتماً طاهرة صافية ما دامت المحفظة خاوية ... اتذكر يا بول !

لقد شرحت لي مرة اننا نفكر على نسق الحياة التي نحياها ؛ فاذا قال العامل «نعم» وجب على السيد ان يقول «لا» ؛ واذا قال لا ، فان السيد بطبيعته كسيد يصرخ بضراوة : «نعم» ، وهكذا فان الفلاح والسيد يختلفـان في طبيعتهما ، فعندما يأكل الأول كفافه لا ينام الثاني ليله من التخمة . مما لا شك فيه ان في كل طبقة فئة سافلة ؛.. فأنا شخصياً لا أوافق على الدفاع عن الفلاحين جميعاً .

وانتصب اسود اللون قوياً ، وكان وجهه يتجهم ولحيته ترتعش، كأنما تصطك اسنانه ، ثم تابع وهو يخفض من صوته :

— لقد همت على وجهي من معمل الى معمل ، طوال سنوات خمس ، حتى نسيت الريف . وها انذا اعود اليه . لقد شاهدت ما يحدث هناك فقلت لنفسي : انا لا استطيع ان أعيش هكذا . أتفهمين ؟ لا أستطيع . أما أنتم الذين تعيشون هنا ، فانكم لا تعرفون شيئاً من تلك المخازي . هناك ، في القرية ، يلاحق الجوع الانسان كظله ؛ ولا أمل مطلقاً في ان تتوفر له الكفاية من الخبز . لقد افترس الجوع النفوس ، وصنع مخلوقات ليس لها وجه الانسان . انهم هناك لا يعيشون. انهم يتعفنون في حضن بؤس لا نستطيع ان نتصوره ، وتقيم السلطات حولهم نطاقاً من الحراسة اليقظة، وتتربص بهم كالغربان لترى ما اذا كنت تملك كسرة زائدة، فاذا رأت تلك الكسرة انتزعتها منك ، ولطمتك ، فوق ذلك، على فمك.

وأجال ريبين بصره فيما حوله ، ومال نحو بول وهو يسند يديه الى الطاولة:

— لقد اجتاحتني الرغبة حتى في التقيؤ عندما شاهدت هذه الحياة عن كثب؛ وكنت أفكر اني لا استطيع تحملها ، ولكني ، مـع ذلك تمالكت نفسي ، وقلت في سرّي : لا ، لا تكن غراً، سأبقى هنا . إني لن امنحهم الخبز، ولكنني سأثير المشكلة ، اجل يا بني، سأثيرها، إني أحمل الضغينة لأولئك الذين يصنعون الشر للناس ، فلقد انغرزت المهانة في قلبي كسكين .. ومن اجـل ذلك ... يرتعش قلبي .

وكان العرق يغطي جبهته . واقترب من بول ببطء ، ووضع على كتفه يداً مضطربة :

— ساعدني . أعطني نوعاً من الكتب لا يعرف أي انسان طعم الراحة بعد ان يقرأها . يجب ان نضع قنفذاً تحت كل جمجمة ؛ قنفذاً يحسن الوخز . وقل لجماعتك في المدينة ، أولئك الذين يكتبون لك ، قل لهم ان عليهم ان يكتبوا أيضاً لناس الريف . ليطبخوا لنا ، على مهل ، مرقة كثيرة الافاوية ؛ وليوزعوها على القرى ، فان فلاحينا سيقتتلون من اجلها حتى الموت .»

ورفع ذراعه ، ثم اضاف بصوت هادىء وهو ينثر مقاطع كل كلمة :

— لنداو الموت بالموت. هذا ما نريده. ومعنى ذلك انه يجب ان نموت ليبعث العالم ، ان تموت الألوف لتحيا الملايين في الأرض كلها . اجل هـــذا ما نريده ، وإنه ليسير ان يموت الناس ، اذا كانوا سيبعثون ، اذا كانوا سينتفضون من قبورهم.

وحملت الأم ابريق الشاي وهي ترمق ريبين بنظراتها الشزراء. لقد كانت كلماته العنيفة القاسية ترهقها أشد الارهاق ، وكان فيه شيء ما يذكرها بزوجها : فرجة فمه ، وحركات يده حين يشمر اكمامه . ولقد كان مثله أيضاً ، يتأجج بسعار لا يعرف الصبر ، ولكنه سعار صامت .

أما ريبين فكان لا يزال يتكلم ، ولكنه كان يبدو أقل رهبة من ذي قبل .

وقال بول وهو يهز رأسه .

— اجل ان هذا ضروري . اعطونا وقائع نطبع لكم جريدة .

ونظرت الأم الى ابنها باسمة ، ثم ارتدت ثيابها دون ان تنبس بكلمـــة ، وخرجت .

وصاح ريبين :

— افعلوا ذلك وسنقدم لكم كل ما يلزم ... ولا تكتبوا أشياء معقـــدة ، لكي تستطيع حتى العجول نفسها ان تفهم

وفتح باب الرواق ودخل احدهم .

قال ريبين وهو ينطلق نحو المطبخ ليرى من القادم :

— انه ايفيم . تعال الى هنا يا ايفيم ... هذا الفتى هو بول الذي حدثتك عنه

وانتصب امام بول فتى صلب العود ، عريض الوجه ، اصهب الشعر ، رمادي

العينين ، يرتدي فروة خروف نصفية ، ونظر اليه من اسفل ، وقال بصوت مبحوح :

— تحية .

ثم شد يد بول ، ورد الى الوراء شعره العصي ، واجال طرفه في الغرفة ثم اتجه بخطى تائهة وئيدة نحو الرف المثقل بالكتب .

وقال ريبين وهو يغمز بول :

— لقد رآها .

واستدار ايفيم ، ونظر الى بول ثم راح يتفحص الكتب قائلا :

— حسنا إن عندكم ما تقرأونه .. ولكن ، من المؤكد ، ان ليس لديكم متسع من الوقت للقراءة . اما عندنا في الريف فالوقت يتسع لذلك .

وقال بول :

— لكن الرغبة في القراءة أقل .

واجاب الفتى وهو يحك ذقنه :

— لماذا ؟ بالعكس . إن الناس عندنا بدأوا يحركون عقولهم قليلا

وتابع وهو يحدق في احد الكتب :

— علم طبقات الارض ؟ ماذا يعني ذلك ؟

وأخذ بول يشرح له . وقال ايفيم وهو يعيد الكتاب الى مكانه :

— لا حاجة لنا به . إن الفلاح لا يهمه ان يعرف من اين جاءت الارض ، بل يهمه أن يعرف كيف توزعت ، وكيف انتزعها الكبار من تحت اقدام الشعب ، وسواء كانت هذه الارض تدور او لا تدور ، فلا اهمية لذلك ، لانك تستطيع ان تعقلها بحبل ، أما المهم فهو أن تعطي ما يؤكل ، ان تغـــذي البشر الذين يعيشون عليها .

وقرأ ايفيم اسم كتاب آخر : « تاريخ الرق » فسأل :

— هل تتحدثون فيه عنا ؟

فقال بول وهو يناوله كتابا آخر :

— هو ذا كتاب يبحث في القنانة .

فأخذه وقلبه بين يديه ، ثم اعاده الى مكانه ، وقال بهدوء :

— هذا يتحدث عن الماضي .

— هل لديكم ارض مأجورة ؟

— نحن ؟ نعم ... لدينا . ونحن ثلاثة اخوة ، نملك اربعة هكتـــارات من الأراضي الرملية . إنها صالحة لتنظيف النحاس ولكنها لا تصلح ابداً لإنبات القمح وهي لا تساوي شيئاً .

وتابع بعد ان صمت قليلا :

— لقد تحررت من الارض ، فأي نفع فيها ؟ انها لا تطعم صاحبها بل تغل يديه . وها قد مرت سنوات اربع وانا اعمل كأجـــير زراعي . وفي الخريف سأغدو جندياً . لقد قال لي الاب ميشال : « لا تذهب ، فهم يرسلون الآن الجنود لقتال الشعب » .

ومع ذلك فسأذهب . إن الجيش يحارب الشعب منـــذ « ستيبان رازين » و « بوغاتشيف » (١) وقد آن الاوان لأن يوضع حد لذلك .

وركز بصره على بول وسأله :

— ماذا تقول ؟

فأجاب بول وهو يتمتم : اجل لقد آن الاوان ، ولكن الأمر صعب ... يجب ان نعرف ماذا تقول للجنود ، وكيف تخاطبهم .

فقال ايفيم :

— ستتعلم ، وستحسن ذلك جيداً .

فرد بول وهو يرمق ايفيم بفضول :

— يمكن ان يعدموك رمياً بالرصاص اذا قبضوا عليك .

وهمهم الفتى : انهم لن يمنحونا الغفران .

وعاد الى تفحص الكتب وقال ريبين :

(١) زعيمان من زعماء ثورات الفلاحين في القرنين السابع والثامن عشر لا تزال ذكراهما حية .

— اشرب شايك يا ايفيم ، فينبغي ان نرحل سريعاً .

— ها انذا آتٍ .

ووقعت عينه على كتاب يحمل اسم « الثورة » فصاح :

— الثورة ؟ هل يعني هذا « التمرد » ؟

وتقدم اندريه مضرج الوجه منفعلا ، فشد على يد ايفيم دون ان يتفوه بكلمة ثم جلس الى جانب ريبين وراح يضحك وهو يتأمله .

وسأله ريبين ، وهو يضربه بيده على فخذه :

— انك لست منشرحاً .

فأجاب البيوروسي : هذا صحيح .

وسأل ايفيم وهو يشير الى اندريه بإيماءة من رأسه :

— هل هو ايضاً عامل ؟

فأجاب اندريه : نعم ... فماذا تقصد ؟

فشرح ريبين : هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها عامـل مصنع ... ان هؤلاء كما يقول .. يتميزون عن الآخرين .

فسأل بول : بماذا ؟

وتفحص ايفيم اندريه بدقة ثم قال :

— ان عظامكم مدققة ، اما الفلاح فعظامه أكثر استدارة .

وأكمل ريبين : ان الفلاح يقف على رجليه بثبات اكثر . انه يشعر أن الارض تحت قدميه . رغم انها ليست له . إنه يحسها . انها الارض . ولكن عامـــل المصنع كالطائر لا وطن له ولا منزل ، انه اليوم هنا ، وغداً هناك . حتى المرأة لا تستطيع ان تربطه بمكان ، فلا يكاد ينشب بينها جدال حتى يقول لها : « وداعاً يا حلوتي » ثم ينطلق باحثاً عن حياة افضل ، في مكان آخر . أما الفلاح فيفضل ان يعمل في بيته دون ان ينتقل ... آه .. هي ذي الأم قد عادت .

ودنا ايفيم من بول وسأله :

— لعلك ستقدم إلي كتاباً ؟

— بكل سرور
وبرقت عينا الفتى بشعاع النهم ، وقال بحرارة :
— سأعيده ، ان فتياننا ينقلون الوقت الى مكان ليس ببعيد ؟ وسأكلفهم باعادته اليك .
وكان ريبين قد ارتدى معطفه وشد حزامه :
— هيا بنا ... لقد دهمنا الوقت .
وقال ايفيم وهو يريه الكتب ، وترتسم على شفتيه بسمة عريضة :
— لقد حصلت على شيء اقرؤه .
وعندما انطلقا ، صاح بول مخاطباً اندريه :
— ارأيت الى هؤلاء الشياطين ؟
فرد البيوروسي ببطء : نعم .. انهم كالسحالي ...
وقاطعته الأم : هل تتحدثان عن ريبين ؟ لكأنه لم يكن ابداً في المعمل ، فلقد غدا فلاحاً بحتاً ، لكم هو رهيب .
وقال بول لأندريه الذي كان يجلس قرب النافذة يتأمل قدح الشاي وهو متجهم الأسارير .
— لم تكن هنا ، فيا للخسارة . ولو كنت لاستطعت ان تشهد فورة قلب انت الذي تتحدث دائماً عن القلب . لقد عرض ريبين آراء مثيرة هزتني .. وكادت تخنقني ، ولم استطع حتى الرد عليه . لكم هو حذر من الناس ، ولشد ما يحتقرهم . لقد صدقت الأم ، فهذا الرجل يحمل في نفسه قوة رهيبة .
وقال أندريه محتفظاً بتجهمه :
— رأيت ذلك . لقد سمموا الناس ، وسيجتاح هؤلاء ، عندما يثورون ، العقبات كلها ، واحدة بعد أخرى . انهم يريدون الأرض خالصة لهم ، وسيحطمون كل ما يحول بينهم وبين هذه الغاية .
وكان يتكلم بأناة ، ويبدو على ملامحه انه يفكر بأمر آخر . وقالت له الأم تداريه :

— يجب ان تتحرك ياعزيزي اندريه .
فاجاب بهدوء ورقة :
— انتظري ايتها الام الصغيرة .. انتظري
ثم اردف وقد انفعل فجأة ، ضارباً على الطاولة بقبضة يده :
— نعم يابول . سيأتي الفلاح على كل ما تحمل الارض عندما يفيق من كبوته ، وكما تحرق آثار الطاعون سيحرق هو كل شيء ، ليدفن في الرماد كل آثار مهاناته .
وزاد بول بتؤدة :
— وسينتصب بعد ذلك في طريقنا
— ان مهمتنا يابول تنحصر في ألا نسمح له بذلك . مهمتنا ان نردعه ، فنحن أقرب الناس اليه ، وسيصدقنا ، ويسير وراءنا .
— اتعرف ان ريبين يقترح علينا اصدار جريدة خاصة للريف ؟
— هذا ما ينبغي عمله .
وقال بول ضاحكا : يخجلني انني لم أبحث الأمر معه .
ولاحظ اندريه بهدوء :
— ستسنح الفرصة المناسبة لذلك ، ويكفي ان تنفخ مزمارك ليرقص على صوته اولئك الذين لا تنغرس ارجلهم في الارض لقد صدق ريبين فنحن لا نحس الارض تحت اقدامنا ، ويجب الا نحسها ، لاننا نحن المهيأون لدفعها الى الحركة ، سنهزها مرة واحدة فينقلع الناس منها ، ثم نهزها ثانية فينقلعون منها ايضاً
وابتسمت الام :
— في نظرك كل شيء بسيط يا اندريه
— نعم ... بسيط كالحياة
وبعد لحظات اردف : سانطلق الى الحقول في جولة ...
فاعترضت الام : بعدان استحممت ؟ ان الهواء ينفخ في الخارج وهذا ما يؤذيك
— وهذا بالضبط ما احتاج اليه . .
وقال بول برقة :

ـ حذار ، قد يصيبك برد ، ومن الأفضل ان تنام .

ـ كلا ... اريد أن اخرج .

وارتدى ثيابه ثم مضى دون ان يتفوه بكلمة .

وعلقت الأم وهي تطلق زفرة :

ـ انه متعب .

فقال لها بول : لقد أحسنت صنعاً إذ خاطبته بعد هذه القصة بصيغة المفرد.

فرشقته بنظرة اندهاش :

ـ ولكني لم انتبه لذلك . فلقد أمسى قريباً إليّ جداً و ... لا ادري كيف اقول لك !

فقال بول بهمس : ما أطيب قلبك يا أماه .

ـ ليتني استطيع ان أقدم لك بعض المساعدة، لكم جميعاً. لو كنت اعرف...

ـ لا تخافي فسوف تعرفين .

وشرعت تضحك بهدوء :

ـ وهذا أيضاً ما لا أعرفه : « ألا أخاف . »

ـ حسناً يا أماه ، لندع الكلام في هـذا الموضوع ، وتأكدي اني معترف لك بالجميل كل الاعتراف .

وهرولت الى المطبخ كيلا يرى دموعها .

وعاد اندريه في ساعة متأخرة من المساء منهكا ، وذهب الى فراشه على التو وهو يقول :

ـ أعتقد أني اجتزت عشرة كيلو مترات على الأقل ..

فسأله بول : هل في ذلك فائدة لك ؟

ـ انا ذاهب لأنام فلا تزعجني .

وصمت ، ثم غفا ، كجذع شجرة .

وبعد قليل أقبل فيسوشيكوف رث الثياب ، قذراً ، ناقماً كعادته ، وسأل وهو يضرب برجليه :

ـ ألم تعرف من هو الذي قتل ذلك الوغد إيساي ؟

فرد بول بايجاز : كلا .

ـ هناك شخص لم يثر ذلك اشمئزازه . وانا الذي كنت أعد نفسي دائماً لخنقه . وهذا ما كان يجدر بي .

وقال له بول بلهجة حميمة :

ـ لا تقل مثل هذه الاشياء يا نيقولا .

وتدخلت الأم وقالت بود : هـذا صحيح . إنك طيب القلب ومع ذلك لا تفتر عن الزئير ، فعلام ذلك ؟

وكانت ، في هذه اللحظة ، تحس بشيء من الرضى لرؤيته ، حتى ان وجهه المجدور بدا لها جميلا . وقال ، وهو يهز كتفيه :

ـ انا لا أصلح إلا لمثل هذه الأشياء . إني أفكر وأفكر ... أين هو مكاني ؟ فلا أرى لي مكاناً . يجب ان أتحدث الى الناس ولكنني لا أعرف كيف أتحدث . إني أرى كل شيء ، ارى المآسي التي يصنعونها للناس ، وأحس هذه المآسي ولكنني لا أستطيع أن أرويها ... ان روحي خرساء .

ودنا من بول مطأطيء الرأس يحك الطاولة باصبعه ، وقال بصوت شاك كصوت طفل ، بصوت كأنه يصدر عن سواه :

ـ يا شباب ... كلفوني بعمل شاق ، أي عمل ، فأنا لا أستطيع ان أعيش هكذا دون أن أعمل شيئاً . إنكم جميعاً في صميم المعركة ، والأمور تسير بالنسبة لكم سيراً حسناً ، أما انا فأقف بعيداً ... انقل الجسور والأخشاب . إني لا استطيع أن اعيش من أجل هذا ، فكلفوني بعمل شاق .

وأخذه بول من يده وجذبه إليه :

ـ سنكلفك .

ولعلع صوت اندريه من وراء الحاجز :

ـ سأعلمك يا نيقولا أحرف الطباعة ، وستصبح أحد منضدي الأحرف عندنا فهل توافق ؟

واقترب فيسوشيكوف من الحاجز وقال :

ـ اسمع . اذا علمتني ، فسأقدم لك سكيناً كهدية .

فصاح به اندريه ، اذهب الى الشيطان بسكينك .

ثم انفجر ضاحكاً .

وألح نيقولا : إنها سكين عظيمة .

وأخذ بول أيضاً يضحك ، فتوقف فيسوشيكوف وسأل :

ـ هل تضحكان مني ؟

فأجاب اندريه وهو يثب من سريره :

ـ نعم ... ولكن اسمع : تعالوا نهيم في الحقول فإن ضوء القمر جميل ... هل تذهبون ؟

فقال بول : حسناً .

وأعلن نيقولا : وأنا معكم أيضاً، فإني احبك أيها البيوروسي وأنت تضحك .

ـ وأنا أحبك أيضاً حين تعد بالهدايا !

وحين كان يرتدي ثيابه في المطبخ قالت له الأم بلهجة مؤنبة :

ـ أسرع في ارتداء ثيابك ... أسرع .

وعندما خرجوا ، وثبت الى النافذة تلاحقهم ببصرها ، ثم ألقت نظرة على صورة القديسين ، وقالت بصوت خافت :

ـ يا آلهي .. كن في عونهم .

- ٢٦ -

كانت الأيام تمر سراعاً ، فلا تدع للأم متسعاً من الوقت للتفكير في أول أيار ، ولكنها كانت حين تأوي ، في الليل ، الى فراشها ، تعيى من انفعالات النهار وعمله الصاخب ، تشعر بقلبها ينقبض بهدوء :

ـ عجل بالاطلال يا أول أيار .

وكانت صافرة المعمل تعوي عند الفجر ، فيشرب بول واندريه شايهما على

عجل ويتناولان طعاماً خفيفاً ثم يمضيان ، تاركين على عاتق الأم كثيراً من المهام .

وتظل هي ، طوال النهار ، تدور كالسجاب السجين ، تهيء الطعام ، وتحضر مادة بنفسجية لطبع النداآت ، وصمغاً للاعلانات ، وكان يأتي اليها مجهولون فيسلمونها بطاقات مرسلة الى بول ، ثم ينسحبون بعد ان يقدموا لها احترامهم .

وكانت النداءات التي تدعو العمال الى التعطيل في أول أيار تلصق على الجدران كل ليلة تقريباً، وكانت هذه النداءات تظهر حتى على ابواب مخفر الدرك ، كما يُعثر عليها كل يوم في المعمل .

وفي الصباح كان رجال البوليس يروحون ويجيئون في الضاحية ، فينزعون ويمزقون الأوراق البنفسجية شاتمين ، ولكن هذه الاوراق كانت تعود عند الظهيرة فتتطاير في الشارع في جديد ، وتتساقط تحت ارجل المارة . وجيء من المدينة بعدد من رجال الأمن المدنيين ، فتمركزوا في منعطفات الشوارع ، يلاحقون بأبصارهم العمال الذين كانوا ينطلقون الى الغداء مرحين نشيطين ، او الذين كانوا يعودون بعده الى العمل وقد أسعدهم جميعاً ان يروا البوليس عاجزاً، حتى أن الطاعنين منهم كانوا يتهامسون ، والبسمة تختال على شفاههم :

ـ ماذا يفعلون ؟ ها ؟

وكانت الحلقات الصغيرة تنعقد في كل مكان ، فيدور الجدل بحرارة حول النداءات التي تقض المضاجع ، وكانت الحياة تغلي ، فلقد أثارت، في فصل الربيع هذا ، اهتمام الجميع ، وكانت تحمل لكل فرد شيئاً جديداً . تحمل للبعض سبباً جديداً للحقد على المخربين ، ولإغراقهم بالشتائم ؛ وللآخرين قلقاً مزعجاً وأملاً ؛ وللآخرين غيرهم ـ وهم الأقلية ـ فرحاً غامراً ، وشعوراً بأنهم هم القوة التي توقظ الناس .

وكان بول واندريه لا ينامان إلا لماماً ، وكانا يصلان ، قبل ان ترسل الصافرة نداءها ، بقليل ، يصلان منهكين ، شاحبي الوجه ، مبحوحي الصوت . وكانت الأم تعرف انهما كانا ينظمان الاجتماعات في الغاب ، وفي المستنقع ، ولم تك تجهل أن فصائل من الشرطة كانت تقوم ، خلال الليل ، بدوريات حول

الضاحية ، وكان الجواسيس يطوفون فيفتشون العمال الذين يسيرون منفردين ، ويفرقون الجماعات ، ويوقفون بعضهم أحياناً . لقد كانت تدرك ان ابنها واندريه معرضان للتوقيف ، كل ليلة ، وتكاد تتمنى ذلك ففي التوقيف ، كما كان يبدو لها ، خيرٌ لهما .

وأسدل ظلٌّ غريب من الصمت على مقتل ايساي ؛ وكان البوليس المحلي قد استجوب بعض الناس حول هذا الموضوع، بضعة عشر رجلا على الأخص ، ثم اسدل ستار الاهمال على القضية . وروت ماريا كورسونوف للأم ، في حديث لها معها ، ما قيل للبوليس الذي خاطبته هي ايضاً كالآخرين بعبارات رائعة :

— كيف يمكن العثور على الجاني ؟فان نحواً من مئة شخص ربما كانوا قد رأوا إيساي هذا الصباح ؛ وتسعين منهم على الأقل ودوا لو يصفعونه . لقد أمعن في مضايقة مواطنيه خلال سبع سنوات .

وكان التغير يبدو في ملامح البيوروسي ؛ فلقد غارت وجنتاه ، وانسدلت اجفانه المتثاقلة على عينيه الجاحظتين فأطبقتهما نصف اطباقة ، وانحدرت تجعدة خفيفة من فتحتي أنفه حتى زوايا شفتيه ، وقل كلامه عن الأشياء والأعمال والحوادث اليومية ، ولكنه كان يزداد انفعالاً ويغدو فريسة حماس يستبد بسامعيه ، فيمجد الغد ، ذلك العيد الرائع المشرق ، عيد انتصار العقل والحرية .

وعندما ضاع مقتل ايساي في لجة النسيان ، قال البيوروسي يوماً بلهجة ازدراء وهو يبتسم ابتسامة حزينة :

— إن أعداءنا لا يكرهون الشعب فحسب بل انهم ايضاً لا يحبون أولئك الذين يستخدمونهم كالكلاب لمطاردتنا ؛ وإذا أسفوا عليهم ، فانهم لا يأسفون على « يوصاسهم » المخلص ، وانما يأسفون على أموالهم .

وقال بول بحزم : كفى يا اندريه .

وأضافت الأم بصوت خافت :

— لقد تعثرنا بجذع نخر ، فتهاوى وتناثر كالغبار .

وأجاب اندريه بضيق : « هذا صحيح ، ولكنه لا يبعث في النفس العزاء »

وكان يردد في اغلب الاحيان هذه الكلمات التي تكتسب بين شفتيه معنى خاصا ، يحيط بالاشياء كلها ، معنىً لاذعاً شديد المرارة ..

.. وأقبل اليوم المنتظر ؛ يوم اول ايار .

.. وعوت صافرة المعمل كعادتها أمّارة قهّارة ، وقفزت الأم التي لم تستطع ان تغمض اجفانها طوال الليل ، قفزت من سريرها ، وهيأت الشاي المعدّ منذ العشية ، ثم انطلقت ، كالعادة ، تطرق باب الغرفة التي ينام فيها اندريه وبول ، ولكنها توقفت فجأة ، وانزلت يدها ، وجلست قرب النافذة ، واسندت خدها الى راحتها كما لو كانت تشكو ألماً في أسنانها .

وكان قطيعٌ من الغيوم الخفيفة البيضاء والوردية يهيم على وجهه مسرعاً في السماء الباهتة الزرقاء ، كسرب من الطيور الكبيرة ، نفّرها هدير البخار ففرت مذعورة . وكانت الأم ترنو الى هذه الغيوم ، وتصيخ بسمعها الى وجيب قلبها . لقد كان رأسها مثقلاً ، وعيناها جافتين يعكرهما احمرار الأرق ، وفي صدرها يخيم هدوء غريب ، وخفقات قلبها تتوالى بانتظام ، وكانت تفكر بأمور عادية :

— لقد اشعلت الموقد قبل الاوان ، ويكاد الماء أن يتبخر ، لأدعهما اليوم ينامان وقتاً اطول قليلاً ، فكلاهما مرهق .

وقفز من النافذة خيطٌ طفلٌ من شعاع الشمس ، خيطٌ مرح لعوب! فحملت اليه الأم يدها ، حتى اذا ما استقر صافياً فوق أناملها ، راحت يدها الاخرى تداعبه برفق باشة مطرقة .. ثم نهضت وانتزعت انبوب الابريق ، جاهدة الا تحدث اية جلبة ؛ وشرعت تصلي فترسم اشارة الصليب بحرارة ، وتحرك شفتيها بصمت .

وكان وجهها يتألق في حين يرتفع حاجباها ببطء تحت بقايا جرحها ، ثم ينخفض فجأة .

ودوى صوت الصافرة ثانية أقل عنفاً ، وأقل اطمئناناً ، وكان صوتها مرتعشاً نديا ، فأحست الأم انه اكثر امتداداً من ذي قبل .

وتعالى صوت البيوروسي صافياً :

— اتسمع يا بول ؟

وجرجر احدهما قدميه الحافيتين فوق ارض الغرفة ؛ وتثاءب آخر بنشوة ، فصاحت الأم : الشاي جاهز .

وأجاب بول بمرح : ها نحن ننهض .

وقال اندريه : لقد اشرقت الشمس والغيوم تتراكض .. انهـــا كثيرة اليوم هذه الغيوم .

ودخل المطبخ اشعث الشعر يتعته النعاس ، ولكنه كان مشرق الأسارير .

— صباح الخير ايتها الأم الصغيرة ، كيف قضيت ليلتك ؟

فاقتربت منه وقالت بصوت خفيض :

— ستظل الى جانبه يا صغيري اندريه أليس كذلك ؟

فغمغم اندريه :

— هذا اكيد . اننا نعيش معاً ، فاطمئني .

وسأل بول : هل هناك من مؤامرة تحبكانها ؟

— لا شيء أبداً يا بول .

وأجاب اندريه وهو يخرج من المدخل ليمشط شعره :

— انها تقول لي بأن استحم جيداً ، فستتعلق بنا أبصار الغواني .

ودندن بول : يا معذبي الارض انهضوا .

وصفا النهار شيئاً فشيئاً ، وبددت الريح السحب ، ووضعت الأم المائدة ، وكانت تهز رأسها وهي تفكر بأن كل شيء كان اليوم شديد الغرابة . لقد كان الصديقان يتمازحان هذا الصباح ويبتسمان ، ولكن من يعلم ماذا ينتظرهما عند الظهيرة ؟

... أما هي فكانت تشعر بالاطمئنان ، بل انها تكاد ان تكون فرحة .

وأطالوا الجلوس الى المائدة محاولين ان يبددوا ضجر الانتظار ، وكان بول كعادته ، يحرك ببطء وأناة ملعقته ليذيب سكر فنجانه ، ويذر الملح بعناية على قطعة الخبز المحمص المفضلة لديه . وكان البيوروسي يحرك قدميه تحت الطاولة فلا

تستقران للوهلة الأولى ، وكان يقص ، وهو يتبع خيطاً من شعاع الشمس يعدو في السقف وعلى الجدار :

— عندما كنت غلاماً في العاشرة راودتني رغبة في ان اصطاد شعاع الشمس في كأس ؛ فاخذت واحدة ، واقتربت من الجـــدار بخطى الذئب ، ثم صرت ضربتي فجرحت يدي ، وعوقبت بالضرب . وخرجت بعد ذلك الى الساحة ، فرأيت الشمس في مستنقع ، فصرخت بها : «اغربي مـــن وجهي والا سحقتك بقدمي» وكان ان غرقت في الوحل ، وعوقبت أيضاً بالضرب ، وإذا بي ، اخيراً اصرخ في وجهها : «لن يضيرني هذا ايها الشيطان الاشقر ، لن يضيرني» . ثم امد لها لساني ساخراً .. وهذا ما كان يبعث في نفسي العزاء .

وسأله بول ضاحكاً :

— لم تمثلت لك الشمس شقراء ؟

— لأنه كان قبالتنا حداد قرمزي الوجه اشقر اللحية ، وكان فلاحاً طيباً مرحاً ، وكنت أرى ان الشمس تشبهه .

وقالت الأم مقاطعة :

— إنكما تحسنان صنعاً لو تحدثتما عما ستفعلانه .

فرد اندريه برقة :

— إن الحديث عن الامور المقررة يؤدي الى افسادها ؛ سيأتي بيقولا أيتهـــا الأم الصغيرة ، عندما يجمعوننا ليقول لك ما يجب عمله .

وزفرت الأم : حسناً .

وقال بول وهو مطرق : يجب ان نخرج الى الشارع .

فنصحه اندريه : كلا ، مـــن الافضل ان تبقى في البيت تنتظر ؛ إذ لا يجدي شيئاً ان تجعل من نفسك هدفاً للبوليس ، فالبوليس يعرفك جيداً .

وأقبل عليهم ثيومازين متألق الوجه متورد الوجنات ، وبدد الانفعال والفرح اللذان يملآنه ، ما كانا يعانيان من ضجر الانتظار .

— لقد بدأت ... ان الجماهير تتحرك . انهم ينزلون الى الشارع واشداقهم

كالفؤوس . ان فيسوشيكوف ، وباريل غوسيف وساموالوف يرابطون عند باب المعمل منذ الصباح يحرضون العمال على العودة الى منازلهم ، وقد عاد عددٌ كبيرٌ منهم . هيا بنا ، فلقد أزفت الساعة ، انها العاشرة .

وقال بول بلهجة حازمة : ها أنذا ذاهب الى هناك .

وأكد ثيو : سترون ، بعد قليل سيتوقف المعمل كله . ثم انطلق راكضاً .

وقالت الأم بهدوء : انه يلتهب كشمعة في مهب الريح .

ـ الى اين ايتها الام الصغيرة ؟

ـ اني ذاهبة معكم .

ورنا اندريه الى بول وهو يمسد شاربه ، ورد بول شعره المتهدل الى الوراء بحركة خاطفة ثم لحق بأمه الى المطبخ :

ـ لن اقول لك شيئاً يا اماه ، وانت كذلك .. مفهوم

فغمغمت أمه : اجل ، اجل .. ليكن يسوع معكم .

ـ ٢٧ ـ

وعندما خرجت سمعت صخب الاصوات فاعتراها اكتئاب ورعشة ، وما كادت ترى جموع الناس مزدحمة في النوافذ والابواب ، تتبع اندريه وبول بنظرات الفضول حتى غامت عيناها ببقعة ضبابية تتموج متلونة ، فهي تارة خضراء شفافة ، وتارة اخرى رمادية كدراء .

وكانت التحايا تنهمر على الشابين، وفي هذه التحايا شيء من التخصيص، وكان سمع الام يتلقف شظايا الاحاديث المهموسة :

ـ ها هما القائدان .

ـ كلا .. لا يعرف احدٌ من هم القادة .

ـ حسناً .. فانا لم اقل سوءاً .

وتعالى صوت مهتاج : اذا قبض عليهما البوليس فانهما هالكان لا محالة

ـ سيزيد ذلك الامور تعقيداً .

وندّت عن احدى النسوة صرخة حانقة هلوع، قفزت من النافذة الى الشارع:

انك تفقد اتزانك . هل تحسب انك ما زلت صبياً ؟ كلا ؟

وفيما كانا يعبران امام منزل رجل يدعى «زوسيموف» وهو عامل بترت ساقاه في المعمل ، ويتقاضى من اجل ذلك راتباً تقاعدياً ـ أطل هذا برأسه من النافذة وصاح :

ـ هيه يا بول ، ان مشاكلك ستجر عنقك الى النطع . فانتظر ايها الجرو .

وارتعدت الأم ثم توقفت . لقد أثارت فيها هذه الصرخة سخطاً شديداً فرمقت الوجه المنتفخ ، وجه الرجل المقعد الذي انكفأ الى الداخل لاعناً ، ثم اسرعت لتنضم الى ابنها وسارت في أثره جاهدة الا تظل في مؤخرة الموكب .

وكان يبدو على بول واندريه كأنهما لايلاحظان شيئاً مما حولهما، ولا يسمعان الهتافات التي تواكبهما ، وكانا يسيران على مهل دون ان يغذا الخطى ، فاستوقفهما ميرونوف، وهو رجل ناضج متواضع ، يحترمه الناس جميعاً لأنه يحيا حياة صابرة طاهرة ، وبادره بول :

ـ انك لا تعمل اليوم يا دانيلو ايفانوفيتش ؟

فرد ميرونوف وهو يحدج الرفيقين متفحصاً :

ـ ان زوجتي توشك ان تضع حملها ، ثم ان الجو مضطرب اليوم ، ويقال انكم ، انتم الشبان ، تودون خلق المتاعب للادارة ، وتحطيم الزجاج ؟

فأجابه بول : او تحسبنا مخمورين لنفعل ذلك ؟

وتدخل اندريه : سنسير بكل بساطة مع اعلامنا في الشارع ، وسننشد الاناشيد فأصغ اليها . انها تعبر عن عقيدتنا .

وأجاب ميرونوف بلهجة المفكر : اني اعرفها ، فلقد قرأت نشراتكم .

والتفت الى الأم وقال لها وبسمة الطيبة تلمع في عينيه الذكيتين :

ـ وانت ايضاً يا بيلاجي تسيرين مع المتمردين ؟

ـ يجب ان يسير المرء مع الحقيقة حتى ولو كان على حافة قبره .

ـ أرأيت ؟ ان الناس لصادقون إذن حين يقولون بأنك تحملين النشرات

المنوعة الى المعمل . ؟

وسأله بول : من يقول ذلك ؟

هكذا يقولون .. حسناً .. الى اللقاء .. واياكم الحماقات .

وراحت الأم تضحك بهدوء فلقد كان يملأها زهواً ان يتحدث عنها الناس هكذا .

وقال لها بول باسماً :

ـ ستدخلين السجن يا أماه .

وكانت الشمس ترتفع باستمرار فتبعث حرارتها في الطراوة المنعشة ، طراوة النهار الربيعي ، وكانت السحب تهيم بطيئة ، فتغدو ظلالها اكثر نحافة وشفافية ، وتتساحب هذه الظلال لينة لدنة فوق ارض الشارع ، وعلى سطوح المنازل ، فتلف الناس بغلالاتها ، وتبدو كأنها تقوم بتطهير الضاحية فتمسح الوحل والغبار عن السطوح والجدران ، والضجر عن وجوه الناس . وكانت البهجة تنتشر ، والاصوات تغدو اشد رنيناً ، فتلقف الصدى البعيد ، صدى الضجيج المتصاعد من آلات المعمل .

ومن جديد ، كانت الاقاويل تتطاير وتنثال في سمع الأم ، تتطاير من النوافذ والساحات كئيبة او شريرة ، جازمة او مرحة ، وودت بيلاجي لو تستطيع ان تجيب عليها ، فتشكر او تشرح ، وان تندمج في حياة هذا النهار الغنية بالالوان .

وفي زاوية من الشارع الكبير ، وفي زقاق ضيق ، كان نحو من مئة شخص يتجمهرون ، وكان صوت فيسوشيكوف يدوي بينهم :

ـ انهم يعتصرون دمكم كما يُعتصر العنب .

وكانت تعابيره التي لا براعة فيها تنهمر فوق رؤوسهم ، فتتعالى ، وفي وقت واحد ، بعض الاصوات :

ـ هذا صحيح ، هذا صحيح .

ثم تذوب هذه الاصوات في خضم الضجيج .

وقال البيوروسي :

ـ لقد سدد الفتى ضربة ، فلنذهب اليه ، ولنساعده .

وانحنى ، وقبل ان يتمكن بول من الامساك به ، اخترق الجمع كالمثقب ، وتعالى صوته الجهور :

ـ ايها الرفاق . يُقال ان الارض تحمل على ظهرها كل انواع الشعوب ، اليهود والالمان والانكليز والتتار ، ولكني انا لا اصدق ذلك ، فليس على ظهر الارض سوى شعبين ، سوى عرقين لا انسجام بينهما أبداً ، هما : الاغنياء والفقراء . ان ازياء الناس لتختلف ، وكذلك لغاتهم ، ولكننا عندما نرى كيف يعامل الاثرياء الفرنسيون والالمان والانكليز عمالهم ، ندرك انهم جميعاً بالنسبة للعامل طغاة . طغاة ، ليت الحسكة تعلق في حناجرهم .

ودوّت من بين الجميع ضحكة ، وتابع اندريه :

ـ وعندما ننظر الى الامر من الناحية الاخرى ، نرى ان العامل الفرنسي ايضاً ، ومثله التتري والتركي يحيون حياة الكلاب ، مثلنا نحن العمال الروس .

وكان الحشد يتضخم حوله بلا انقطاع ، ويتسلل الناس بجهد الى الطريق الضيق ، يتسللون واحداً بعد واحد ، ثم يقتربون بصمت ، فيمدون اعناقهم ويتطاولون على رؤوس اقدامهم . ويرفع اندريه صوته :

ـ لقد أدرك العمال في الخارج هذه الحقيقة البسيطة ، واليوم ، في هذا اليوم المشرق ، يوم اول ايار ..

وصرخ احد الحضور : البوليس ، البوليس .

وكان اربعة من رجال البوليس الفرسان يدورون نحو زاوية الزقاق ، ويتوجهون مباشرة نحو الجمهور وهم يهزون كرابيجهم صائحين :

ـ هيا تفرقوا ..

فتكفهر الوجوه ، ويتفرق الناس مرغمين امام الخيول المقتحمة ، ويتسلق بعضهم الاسوار ، ويرتفع صوت جهوري يتحدى :

ـ لقد أركبوا الخنازير ظهور الخيل وها هي ذي تدمدم : ونحن ايضاً لنا قادة كبار .

وظل البيوروسي وحده في وسط الزقاق ، واندفع نحوه جوادان يترنح رأساهما ، فابتعد من طريقهما ، في حين امسكته الأم من ذراعه وجرته مغمغمة :

— وعدتني ان تبقى مع بول ، وها انذا اراك تعرض نفسك لألسنة السياط.

فأجابها باسماً المعذرة .

وتملك بيلاجي إعياء يختلط فيه الغم بالخور ، إعياء كانت تحسه يتزايد فيملأ رأسها بما يشبه الدوار؛ وكان الحزن والفرح يتعاوران على قلبها بشكل غريب .

وكانت تتمنى لو تسرع صافرة المعمل ، فتعلن حلول الظهيرة .

وبلغوا الساحة قرب الكنيسة حيث احتشد فوق فسحتها - وقوفاً وقعوداً — نحو خمسمئة شاب وغلام متحمسين جذلين ، وكان الحشد يتموج ، والمحتشدون يتلعون اعناقهم ويرنون الى البعيد، الى كل جهة ، بصبر نافد ، وكانوا يستشعرون شيئاً من رهبة القداسة ، ويبدو البعض كأنه أضاع اتجاهه ، في حين يبدو البعض الآخر كمن اصيب بالصرع ، وكانت تُسمع احياناً اصوات ضعيفة مكبوتة ، تند عن بعض النسوة ، فيستدبرهن الرجال مكرهين ، وأحياناً اخرى تنفجر شتيمة بصوت خفيض ، وكان ضجيج أصمّ من الأحاديث الحاقدة يلف الحشد كله ، وصوت امرأة يتهدج :

— كن حذراً يا متري .

وكان صوت سيزوف الوقور يُسمع راعداً مقنعاً :

— كلا .. يجب ألا نتخلى عن الشبان ، فلقد اصبحوا أكثر تعقلاً منا وأوفر جرأة من؛ الذي صنع كل شيء في قصة «فلس المستنقع» ؟ إنهم هم . يجب الا ننسى ذلك . لقد دخلوا السجن لهذا السبب ، اما الغنم فكان لنا جميعاً .

ولقف زئير الصافرة القاتم ضجيج الاحاديث ، ثم سرت في الجمع رعشة ، فاذا الجالسون ينتصبون ، وفي لحظة يتسمر كل شيء في وقفة انتظار متحفز ، كثيرٌ من الوجوه يكسوها الشحوب .

— ايها الرفاق ..

وكان ذلك هو صوت بول ، صوته الرنان الواثق .. ولفحت عيني الأم غمامة

جافة ، واستشعرت انها قد استردت ، دفعة واحدة ، كل حيويتها ، فاتخذت مكانها بالقرب من ابنها ؛ وتلفت الجميع الى بول ، والتفوا حوله كنثار الحديد حين يجتذبها جسمٌ ممغنط ، وكانت الأم ترنو اليه فلا ترى إلا عينيه ، عينيه المزهوتين، عينيه الجسورتين المشتعلتين .

— أيها الرفاق :

لقد قررنا ان نعلن بوضوح وصراحة من نحن؛ فرفعنا اليوم علمنا ، علم «الفكر والحقيقة والحرية» .

وارتفعت في الفضاء سارية بيضاء طويلة ثم انخفضت ، فشطرت الحشد ، ثم توارت . وبعد لحظة ، ارتفع العلم العريض ، علم الشعب العامل الكادح ، ارتفع خفاقاً كطائر قرمزي اللون .

ورفع بول ذراعه ، فرفرف العلم ، وحضنت السارية البيضاء الملساء أيدٍ كثيرة كانت احداها يد الام :

وهتف بول : «عاش الشعب الكادح» .

ورددت وراءه مئات الاصوات في هتاف مدوٍ :

— عاش حزب العمال الاشتراكي الديموقراطي . عاش حزبنا ، عاش رفاقنا، عـاش ..

وسرى الغليان في الحشد ، وشق الطريق الى العلم اولئك الذين كانوا يدركون اي معنى يرمز اليه ، وكان مازين وساموالوف والاخوان غوسيف قد اخذوا مكانهم الى جانب بول ، اما نيقولا فيسوشيكوف فقد كان يعمل على إقصاء الناس عنه ، وكان آخرون غيرهم يدفعون الأم التي لا تعرفهم ، يدفعونها في تزاحمهم وهم محمومو النظرات .

وصاح بول : عاش العمال في كل وطن .

وبقوة وفرح دائمي التنامي ردد الهتاف الف صوت ، وكان صدى هذه الاصوات يهز كل نفس .

وأمسكت الأم بيد نيقولا ، وأخذت يد شخص آخر ، وكانت الدموع تخنقها ولكنها لم تكن تبكي ، وانما كان ساقاها يرتعشان : فتقول متلجلجة :

-- ابنائي .

وتلألأت في وجه نيقولا المجدور بسمة عريضة ، ورنا الى العلم هاتفاً بكلام لا يُفهم ، باسطاً ذراعه نحوه ، ثم لم يلبث أن ارخى يده فجأة ، وأمسك بعنق الام واحتضنها ثم راح يقبلها .

وطغى على ضجيج الحشد صوت البيوروسي ، الهادىء العذب :

– ايها الرفاق :

باسم إله جديد يسير الآن موكبنا ، باسم إله النور والحقيقة ، إله العقل والخير . إن هدفنا ناءٍ عنا ، ولكن تيجان الشوك قريبة دانية ، فليبتعد عنا اولئك الذين لا يثقون بذواتهم ، والذين يخافون العذاب ، نحن ندعو إلينا اولئك الذين يؤمنون بانتصارنا ، اما الذين لا يبصرون هدفنا ، فليبتعدوا لان الشقاء وحده هو الذي ينتظرهم . ايها الرفاق . رصّوا صفوفكم . عاش عيد الاحرار ، عاش اول ايار .

وازداد ازدحام الجمهور ولوّح بول بالعلم الذي انتشر وخفق متألقاً تحت الشمس في بسمة عريضة حمراء .

وجلجل صوت ثيومازين راعداً :

– ايها المعذبون في الارض هبوا .

ورددت عشرات الاصوات في موجة عذبة عارمة :

– يا ضحايا الجوع هبوا .

وكانت على الشفاه بسمة تحرقها ، وكانت الام تسير وراء مازين ، وترنو الى ابنها ، والعلم الذي يحمل ، وحولها تتراقص وجوه مستبشرة ، وعيون من كل لون ..

وكان ابنها واندريه في الصف الاول . إنها تسمع صوتيهما : لقد كان صوت اندريه العذب الخافت ، يمتزج ودوداً بصوت بول الممتلىء الاكثر خفوتاً :

«إنها المعركة الفاصلة ...

فلنوحد صفوفنا ، لنوحدها فغداً ...»

وكان الناس يتراكضون لاستقبال العلم الأحمر صائحين ، فيختلطون بالجمع ، وينطلقون معه ، وكانت الصيحات تذوب في أنغام النشيد ، هذا النشيد الذي كان ينخفض به الصوت في المنزل ، فاذا به ينحدر في الشارع كنهر هائل القوة ، سويّ لا التواء فيه ولا عوج . إنه يهدر بصوت البسالة ، فاذا كان هذا الصوت يهب بالقوم ان يسلكوا الطريق الطويل الذي يفضي بهم الى الغد ، فانه ليحدثهم في الوقت نفسه ، وبصراحة ، عن تجارب هذا الطريق .. تجاربه الرهيبة . وفي اللهب الهادىء الكبير ، كانت تذوب رواسب الماضي السوداء ، والكتلة الثقيلة ، كتلة العواطف المعتادة ، ويتحول الخوف اللعين الى رماد .

وكان الى جانب الأم وجه مجهول ، يختلط في ملامحه الذعر والبشر معاً ، ويترنح على انغام النشيد ، وصوت تهزه الزفرات يرتفع صائحاً :

— متري .. إلى اين ؟

وأجابتها الأم دون أن تتوقف :

— دعيه . لا تقلقي عليه . لقد كنت مثلك ايضاً كثيرة الخوف ، ولكن ابني الآن في الطليعة . إنه ذاك الذي يحمل العلم .

— الجنود هناك .. فإلى أين تذهبون ايها اللصوص .؟

وصرخت السيدة الفارعة النحيلة فجأة ، وتشبثت يدها الهزيلة بذراع بيلاجي :

— إنهم ينشدون .. ومتري ايضاً ينشد معهم .

فغمغمت الأم : لا تقلقي ، هذا شيء مقدس ، واذكري ان المسيح ما كان ليكون لولا ان وجدت هناك فئة تموت من اجله .

لمعت هذه الفكرة فجأة في ذهنها ، فأذهلتها بما فيها من حقيقة بسيطة متألقة ، فرمقت السيدة التي كانت تشد على ذراعها ، ورددت بابتسامة ذاهلة :

— ما كان المسيح ليكون لولا ان كانت هناك فئة ماتت من اجله ، من أجل سيدنا ..

وظهر سيزوف بجانبها ورفع قبعته ولوّح بها على انغام الاغنية :

— إنهم يسيرون بحرية يا اماه أليس كذلك ؟ لقد اخترعوا نشيداً ، ويا له

من نشيد .. أليس كذلك يا أماه ؟

ثم أضاف : إنهم لا يرهبون شيئاً ... ولكن واحسرتاه ... ان ابني في لحده ..

وأخذ قلب الأم يخفق بعنف ، فتباطأت في المسير ، ثم لفظها التيار جانباً فإذا بها تجد نفسها منزوية امام احد الاسوار ، في حين كانت الموجة البشرية العارمة تندفع أمامها ، فتدرك معها أن الحشد كان هائلاً ، وهذا ما يدخل السرور الى قلبها :

— ايها المعذبون في الارض ، هبوا .

لكأن نفيراً ضخماً كان يدوّي في الفضاء ، يدوي فيلهب الناس ويوقظ في البعض الميل للصراع ، ويوقظ في الآخرين فرحاً غامضاً وتطلعاً حاراً ، واحساساً مسبقاً بحدث جديد . إنه يبعث هنا قلق الأمل ، ويطلق هناك سيل الحقد المر ، الحقد المتراكم عبر السنين .

وكان الناس جميعاً يرنون بأبصارهم الى الأمـام ، الى حيث كان العلم الأحمر يتمايل ويخفق . وزمجر صوت متحمس :

— ها هم أولاء قد انطلقوا ، برافو ايها الصغار .

وكان صاحبه يعاني بلا شك إحساساً اكبر من ان تستطيع الكلمات العادية التعبير عنه ، فراح يشتم باندفاع ، ولكن الحقد القاتم الأعمى ، حقد العبد ، كان يعج كالأفعى ، ويتلوى في كلمات مسعورة ، ثم يزيده استعاراً ، ذلك التنور الذي كان يكشفه للابصار .

وهتف احدهم بصوتٍ محطم وهو يلوّح من احدى النوافذ ، بقبضته مهدداً

— أيها المراطقة .

وانطلق عواءٌ مزعج مقذع اخترق سمع الام :

— أضد الامبراطور ؟ أضد جلالة القيصر هذه الثورة ؟

وكانت الوجوه المذعورة تعبر سراعاً بقربها ، إنهم رجال ونساء يقفزون ويتراكضون ، وكان الحشد يندفع كسيل بركاني قاتم ، يقوده النشيد ، هذا

النشيد الذي يبدو كأن نبراته القوية تكتسح كل شيء ، وتكنس كل ما تصادفه في طريقها .

وكانت الأم ترى في البعيد ، العلم الاحمر ، ولا ترى ابنها ، بـل تتخيل وجهه بجبينه البرونزي ، ونظرته المتأججه بلهب الايمان .

وها هي ذي في الصفوف الاخيرة من الحشد ، بين اولئك الذين كانوا يسيرون دونما تزاحم ، ويتطلعون الى الامام بلا مبـالاة ، يتطلعون بفضول باهت بارد كفضول ذلك المتفرج الذي لم تعد عقدة المسرحية سراً مغلقاً عنده ؛ ويسيرون ويتحدثون بصوت منخفض وبكثير من الوثوق :

— يوجد قرب المدرسة فرقة اخرى في المعمل .

— لقد وصل الحاكم .

— أصحيح ذلك ؟

— لقد رأيته بأم عيني .

واطلق احدهم بعض الشتائم بمرح ، وقال :

— ومع ذلك فقد بدأوا يخشوننا ، نحن الآخرين . انهم يرسلون الينا الجند والحاكم ..

وكانت هذه الكلمات تخفق في صدر الام : إيه يا صغاري الأعزاء .

غير ان اولئك الذين يضطربون حولها كانوا فاقدي الحيوية باردي الأعصاب ، فغذت من خطاها ، لتبتعد عنهم ، عن رفاق الصدفة ، ولم تجد أي عنـاء ؛ في تخطي زحفهم البطيء الكسول .

وفجأة بدت طليعة الموكب كأنها تصطدم بعقبة ما ، فتردد الحشد الطويل في سيره دون ان يتوقف ، وانتظمه صخب قلق ، واضطرب النشيد قليـلاً ، ولكنه لم يلبث ان انطلق أقوى من ذي قبل واسرع نغماً ، ومن جديد انخفضت موجة الاصداء الكثيفة ، وانكفأت الى الوراء ، ثم خرست الاصوات واحداً بعد آخر ، وتعالت هتافات من هنا وهناك لتعيد الى الجوقة كال روعتهـا ، ولتدفعها الى الامام :

« أيها المعذبون في الارض هبوا »

« يا ضحايا الجوع هبوا .. »

ولم يكن في هذا النداء ، ذلك الجرس نفسه المليء باعتداد الرجولة ، بل لقد بدأت تحس فيه ، على كل حال ، ارتعاشة القلق .

وكانت الأم لا ترى شيئاً ولا تعرف ماذا يجري في الطليعة ، لذلك راحت تخترق الجموع ، وتشق بسرعة لنفسها طريقاً ، وكان الناس ينكفئون عنها ، فتنحني رؤوس ، وتعبس وجوه ، ويبتسم البعض بارتباك ، ويصفر آخرون ساخرين ، وكانت هي تتفحص الوجوه مغمومة ؛ وفي عينيها سؤال وتوسل ونداء ..

وتعالى صوت بول :

— أيها الرفاق . ان الجنود بشر مثلنا . انهم لن يعتدوا علينا بالضرب. علامَ يفعلو ذلك ؟ ألأننا نحمل الحقيقة التي يحتاجها كل الناس ؟ والتي يحتاجونها هم أنفسهم ؟ إنهم لم يدركوها حتى الآن ، ولكنه لم يعد بعيداً ذلك اليوم الذي يقفون فيه ، هم ايضاً الى جانبنا ، ويسيرون ، لا تحت راية النهب والقتل ، بل تحت رايتنا نحن ، راية الحرية . ولكي يدركوا سريعاً حقيقتنا ، ينبغي ان نكون في الطليعة .. فإلى الأمام يا رفاقنا .. الى الامام دوماً .

وكان صوت بول حازماً ، وكانت كلماته تدوي في الفضاء واضحة جلية ، ولكن الحشد كان يتفرق ويتبدد ذات اليمين وذات الشمال ، وكان افراده يعدون جماعة بعد اخرى ، نحو المنازل ؛ وهم يحتمون بظل الاسوار .

ولم يبق من الموكب الا شكل زاوية كان بول طرفها ، وكان علم الطبقة الكادحة يرف فوق رأسه احمر قانياً ، وكان الحشد كطائر أسود ينشر جناحيه واسعين ويقف متربصاً متأهباً للارتفاع والتحليق ؛ وكان بول هو منقر ذلك الطائر .

-٢٨-

ووقع بصر الام في طرف الشارع ، على جدار يكفكف من طول الساحة ، جدار اغبر من رجال لا وجوه لهم ، رجال موحدي الزي تلمع فوق منكب كل منهم شفار حربة ماضية الحد . ومن هذا الجدار الصامت الجامد خيل للأم ان ريحاً صرصراً كانت تهب على العمال ، وتجتاح قلبها .

وتغلغلت في الصفوف لتنضم الى اولئك الذين كانت تعرفهم : لقد كانوا في المقدمة بالقرب من العلم ، ينصهرون في الجمع الذي تجهل ناسه ، كأنهم إنما يلتمسون في هؤلاء المجهولين سنداً لهم ، والقت نفسها امام رجل امرد فارع القامة ، راحت ترحمه ، وكان صاحبنا اعوراً ، فأدار رأسه بحركة سريعة ليحدق فيها ويسألها :

— ماذا تريدين ؟ ومن أنت ؟

وأجابت : «اني والدة بول فلاسوف» . واحست بساقيها ترتعشان وبشفتها تتدلى بحركة لا ارادية .

وقال الاعور : حسناً .. ولم يزد .

واستأنف بول كلامه : ان الحياة ايها الرفاق ، الحياة كلها أمامكم ، وليس لنا من طريق سوى هذا الطريق ..

.. وخيم صمت متربص ، ثم ارتفع العلم ورفرف ، وخفق بهدوء فوق الرؤوس ، ومضى دون تلكؤ نحو الجدار الأغبر ، جدار الجند .

وعرت الأم رجفة فأغمضت عينيها ، واطلقت زفرة ، وكان بول واندريه وساموالوف ومازين وحدهم ينفصلون عن الحشد .

وتعالى صوت مازين صافياً هادئاً : «لقد كنتم الضحايا» ..

وردد وراءه صوتان خفيضان ، اصمان كزفرتين عميقتين :

— «الضحايا لعراك مشؤوم . »

واستأنفت الجموع سيرها وهي تركل الارض بخطى موزونة ، وارتفع ثانية نشيد جديد حازم النبرات ساحر ، ورنم ثيو بصوته العذب المدوي :

— «ولقد وهبتمونا كل شيء» .

وردد الرفاق وراءه في جوقة : وهبتمونا الحرية .

وصرخ احدهم بخبث : اوه ، اوه ، لقد بدأتم تنشدون نشيد الموتى يا ابناء الكلاب ؟

ودوّت صيحة مسعورة : اقتلوه ، اقتلوه .

وشدت الأم بيديها على صدرها ، وتلفتت فيما حولها ، فرأت الحشد الذي كان يملأ الشارع بكتلته المتراصة ، يستمر في مكانه حائراً ، ويتطلع الى حملة العلم الذين انفصلوا عنه .

وكانت بضع عشرات من الرجال فقط تسير وراء هؤلاء ، وعند كل خطوة يخطونها الى الأمام ينفصل عنهم واحد ، فيقفز الى الرصيف كما لو كان بلاط الشارع يتأجج ناراً يحرق لظاها النعال .

وبشر التشيد على شفتي ثيو :

— والطغيان سينهار .

ورددت وراءه جوقة الاصوات القوية الواثقة المتوعدة :

— وسينهض الشعب .

ومن خلال أنغام النشيد ارتفعت كلمات باردة :

— تحت إمرتي

ثم جلجلت صيحة وحشية : شرّعوا الحراب .

ورسمت الحراب في الفضاء خطاً محدودباً ، ثم نُكست ، وامتدت باتجاه العلم هازئة متحدية .

— الى الامام سر .

وقال الرجل الاعور وهو يدس يديه في جيوبه :

— ها هم الأولاد قد زحفوا .

ثم ابتعد بخطىً سريعة ، وكانت الأم ترنو جامدة العينين .

وثارت الموجة الغبراء ، موجة الجند تملأ عرض الشارع ، واندفعت الى الأمام بحركة آلية رتيبة ، وهي تدفع امامها مشطاً تتناثر فيه اسنان الفولاذ اللماعة .

وبخطىً سريعة اقتربت الأم من ابنها ، فرأت اندريه يتقدم ليقف امامه ويحميه بقامته المديدة .

وصاح بول بصوت خشن النبرة :

— عد الى جانبي يا رفيق .

وكان اندريه ينشد شامخ الرأس ، وهو يشبك يديه وراء ظهره ، ولكن بول دفعه من كتفه وصاح به ثانياً :

— عد الى جانبي فلا يجوز ان تتقدمني ، لأن العلم يجب ان يكون في الطليعة .

وبصوت شرس صرخ ضابط صغير تافه ، وهو يهز سيفه المسلول ..

— تف..رّ...ق...وا .

وكان يمشي رافعاً رجليه الى اعلى ، ودون ان يثني ركبتيه ؛ ويخطو فيمس الأرض بشكل مستفز . واستلفت بريق جزمته نظر الأم .

والى جانبه كان يدب بتثاقل ، رجل حليق الوجه ، مديد القامة ، كثيف الشاربين اغبرهما ، يرتدي معطفاً رمادي اللون ، يبطنه قماش أحمر ، وتزين بنطاله الواسع الرجلين شرائط صفراء ، وكانت يداه ، كالبيوروسي ، وراء ظهره ، وحاجباه الكثيفان الاغبران مرتفعين ، وكان يرنو الى بول .

وكان بصر الأم يمتد ، وفي صدرها تتجمد صرخة ، تظل على وشك الانفجار والانفلات مع كل زفرة ، وكانت هذه الصرخة تخنقها ، ولكنها كانت تمسكها فتشد صدرها بكلتا يديها : وكانت تترنح وهي تُدفع من كل جانب ، فلا تقف بل تستمر في تقدمها دونما تفكير أو وعي ، وكانت تشعر ان عدد الناس وراءها يتضاءل بلا انقطاع ، وان الموجة الجليدية تتقدم للقائهم وبعثرة صفوفهم .

وكان الشبان حملة العلم الاحمر ، والسلسلة الكثيفة من الرجال الغبر يتدانون باستمرار ، وكان من الممكن تبين وجوه الجند بوضوح ، هذه الوجوه التي كانت كأنها تتسع فتسد الشارع كله ، وتنبسط ممسوخة على شكل شريط ضيق من الصفرة القذرة ، ثبتت فيه ، ودونما ترتيب ، عيون مختلفة الالوان ، والتمعت من خلاله رؤوس الحراب الدقيقة بألق وحشي .

وكانت هذه الحراب المسددة الى الصدور تبعثر الحشد قبل ان تمسه وتفتته واحداً بعد واحد ..

وسمعت الأم وراءها خطى أولئك الذين كانوا يولون الادبار هاربين ، وتعالت اصوات كئيبة مخنوقة :

— ايها الشباب تفرقوا .

— انج بنفسك يا فلاسوف .

— الى الوراء يا بول .

وقال فيسوشيكوف متجهم الاسارير :

— ألق اليّ بالعلم يا بول ، اعطنيه لأخبئه .

وامسك بالسارية وشد العلم الى الوراء ؛ ولكن بول صاح به :

— دعــه .

وسحب نيقولا يده كأن جمرة لذعتهـا ، وكان النشيد قد خفت وانطفأ ، فتوقف الشبان واحاطوا ببول كسلسلة كثيفة ، ولكنه استطاع ان يخرق الحصار .

وفجأة ، خيم الصمت ، كأن سحابة شفافة لا منظورة هبطت فغطت المتظاهرين .

وتحت العلم كان يقف بصمود نحو من عشرين رجلا لا اكثر ، وقــد ساور الأم الجزع عليهم واحست برغبة غامضة في ان تقول لهم شيئاً ما .

وارتفع صوت رتيب هو صوت العجوز الفارع القامة :

— يا ملازم . آتني به .. هذا الشيء .

ومد يده يشير الى العلم .

وهرول الضابط الصغير نحو بول ، وأمسك بسارية العلم وصاح بصوت نفّاذ :

— اتركه .

واجابه بول بصوت قوي : انزل يديك .

ورف العلم في الفضاء أحمر قانياً ، وترنح ذات اليمين وذات الشمال ثم لم يلبث ان انتصب شامخاً من جديد ، وارتد الضابط الصغير الى الوراء ، ووقع أرضاً .

ومر فيسوشيكوف أمام الأم بسرعـــة لم تستطع معها أن تتميزه ، مر ممدود

الساعد ، مشدود القبضة .

وزمجر العجوز وهو يرفس الأرض بقدميه :

— أوقفوهم .

واندفع بعض الجنود ، وهز أحدهم عقب بندقيته ، فخفق العلم مرتعشاً ، ثم نُكس ، واختفى في زحمة الحشد الأغبر ، حشد الجنود .

وتعالت صيحة أسى وأطلقت الأم صرخــةً بل زأرة ، ولكن صوت بول الداوي ارتفع من بين الجند : الى اللقاء يا اماه ، الى اللقاء ايتها الأم الغالية .

وملأت هاتان الفكرتان قلبها : إنه ما زال حياً .. إنه يفكر بي .

وتطاولت على رؤوس قدميها ملوحة بيديها ، جاهدة في ان تراهما ، غير انها لم تر ، فوق رؤوس الجند ، إلا وجـــه أندريه المستدير ، فابتسمت له وحيته وصاحت :

— يا ولديّ الحبيبين ، اندريه ، بول .

— الى اللقاء ايها الرفاق .

وردت عليها اصداء متعددة ممزقة ... كانت تتناهى الى سمعها من النوافذ وسطوح المنازل .

— ٢٩ —

وارتطم احدهم بصدرها ؛ ومن خلال الضباب الذي كان يغشّي عينيها ، رأت الضابط الصغير ينتصب أمامها محتقن الوجه ، ويصرخ في وجهها :

— تنحّي أيتها الشمطاء .

وانزلق بصرها نحوه ، فأبصرت سارية العلم محطمة ، عند قدميه ، ومزقة من القماش الاحمر ما تزال معلقة بأحد جزئيها ؛ فانحنت والتقطتها ، ولكن الضابط الصغير ، انتزعها من يدها ، ورمى بها جانباً ، وهو يرفس الأرض بقدمه صائحاً :

— قلت لك ، أغربي من وجهي .

ومن بين الجنود تفجر النشيد ، وهمت نبراته :

— أيها المعذبون في الأرض هبوا .

واضطرب كل شيء كأنما لفته رعشة ودوار ، وملأ الفضاء طنين كطنين اسلاك البرق ، فقفز الضابط ونبح بضراوة :

— اسكتهم يا رقيب كرينوف .

واقتربت الأم وهي تترنح ، فالتقطت ثانية ، حطام السارية التي قذفها الضابط :

— أخرسهم يا كرينوف .

وغام النشيد ، واخذ يتناهى الى الاسماع متقطعاً ، ممزقاً ... ثم انطفأ .

وأمسك احد الجنود بكتفي الأم ، وشدها فاستدارت نصف استدارة ، ثم دفعها من خلف صائحاً : أغربي ، أغربي .

وصاح الضابط بجنوده : هيا ، نظفوا الشارع .

وأبصرت الأم على بعد خطوات منها ، حشداً يتكثف من جديد ، وسمعت الناس يزمجرون ويهمهمون ويصفرون ، وكانوا ، وهم ينكفئون ببطء نحو آخر الشارع ، ينتشرون في الساحات المجاورة .

وصرخ في اذنها جندي شاب ذو شاربين ، ودفعها الى الرصيف عندما حاذاها قائلاً :

— أغربي أيها الشيطان .

وانطلقت مقوسة الساقين تتوكأ على بقايا السارية ، وتستند بيدها الاخرى ، كيلا تسقط ، الى الجدران والاسوار .

وكان الناس أمامها يتراكضون ، وورائها وحولها يندفع الجند صائحين :

— تفرقوا ، تفرقوا .

وتخطاها الجند ، فتوقفت تدير بصرها فيما حولها :

كان عدد من الجنود يتمركزون في طرف الشارع على شكل سلسلة متباعدة الحلقات فيعزلون بذلك قسماً من الساحة كان مقفراً . وفي الأمام ... كانت الاشباح الرمادية الغبراء تتجه ببطء نحو الجماهير .

وأرادت ان تنكص على عقبيها ، ولكنها ، كانت ، دونما وعي منها ، تتقدم

باستمرار حتى اذا بلغت زقاقاً ضيقاً ، اقفر من الناس ، اندفعت فيه .

وتوقفت ثانية ، وزفرت بعمق ، ثم أصاخت بسمعها قليلاً ، فتناهت اليها اصوات تدندن في زاوية من زوايا الزقاق .

وكانت ما تزال تتوكأ على بقايا السارية ، فعادت الى المسير وهي تحرك حاجبيها . وفجأة تندّى جبينها ، وارتعشت شفتاها ، وتحركت يدها ، وتفجر في قلبها لهيب من الكلمات ، تجمّع ، فأجج فيها الرغبة الحارة الطاغية ، في ان تصرخ بهذه الكلمات عالياً .

وكان الزقاق ينعطف الى اليسار ، حيث ابصرت جماعة تستلفت النظر ، وكان صوت قوي النبرة يتعالى :

— أيها الفتيان لن نستطيع ان نتحدى الحراب بالطيش !

— أرأيتم ؟ لقد مشى الجند فوقهم ، مشوا فوقهم وهم لا يتحركون . ان فتياننا الاغرار هؤلاء لا يعرفون الخشية !.

— يا له من فتى ... بول فلاسوف ؟

— والبيوروسي ؟

— يداه وراء ظهره ، والبسمة على ثغره . لقد كان البهيم ..

وصاحت الأم وهي تشق طريقها بينهم ؟

— يا اصدقائي . ايها القوم الطيبون ...

وأفسحوا لها طريقاً ، ولكن واحداً من بينهم اخذ يضحك :

— انظروا ... إنها تحمل العلم . إنه في يدها .

وارتفع صوت فيه قسوة : إخرس .

وفتحت الأم ذراعيها واسعين :

— بحق يسوع اصغوا اليّ . إنكم جميعاً منا ، وكلكم من ذوي القلوب الطيبة ، افتحوا عيونكم وحدقوا دونما خوف فماذا ترون ؟ إن ابناءنا ، بل دمنا ، يهبّون في كل مكان من اجل الحقيقة ، من اجل الجميع . إنهم يسيرون في طريق الجلجلة من اجلكم جميعاً ، من اجل صغاركم . إنهم ينشدون النور ، ويهدفون الى حياة

اخرى في ظلال الحقيقة والعدالة . إنهم يبغون الخير للجميع .

وكان قلبها يتمزق وصدرها يضيق ، وحنجرتها جافة محمومة ؛ وفي اعماق اعماقها كانت تولد كلمات حب شامل ، يسع الاشياء كلها والكائنات كلها ، كلمات تحرق فمها وتزدحم على شفتيها وهي تتنامى قوة وسهولة .

وكانت ترى انهم يصغون اليها جميعاً صامتين ، وتدرك انهم كانوا يفكرون وهم يتألبون حولها ؛ وكانت تنمو فيها رغبة ، توضحت الآن جيداً في وعيها ، رغبة في ان تدفعهم الى هناك ، نحو ابنها ، نحو اندريه ، نحو اولئك الذين تركوا في ايد الجند ، وخُلّفوا وحدهم .

واستأنفت كلامها بهدوء وقوة ، وهي تنقل بصرها فوق الوجوه المتجهمة المتربصة :

– لقد انطلق ابناؤنا بالعالم نحو الفرحة ، يحدوهم الحب للجميع ، الحب للحقيقة ، حقيقة يسوع . إنهم يحاربون كل ما يستخدمه الاشرار فينا والخداعون والشرهون من وسائل ليبقونا سجناء ، ليثقلونا بالاغلال ، ليسحقونا . من اجل الشعب كله يا اصدقائي يثور شبابنا ، بل دمنا . من اجل العالم بأجمعه ، من أجل العمال جميعاً ينطلقون ، فلا تتخلوا عنهم ولا تتنكروا لهم . لا تدعوا ابناءكم يسيرون في طريقهم وحدهم . إرأفوا بأنفسكم . ثقوا بقلوب ابنائكم ، فهم يصنعون الحقيقة ، ومن أجلها يموتون . ثقوا بهم .

وخفت صوتها وترنحت خائرة القوى ، وامتدت يدٌ الى خصرها تسندها .

وصاح واحد من بين الجمع ، مقتنع النبرة منفعلاً :

– ان صوت الله هو الذي يتكلم ، صوت الله ايها القوم ، فأصغوا اليه .

وصاح آخر مشفقاً : لقد صمتت المسكينة .

– انها لم تصمت ... ولكنها تصفعنا نحن ، فيا لنا من سفلة ... أفهمت ؟

وتهادى فوق الجمع صوت مرتعش حاد النبرة .

– أيها المؤمنون .. ماذا فعل ابني متري ... هذه الروح النقية ؟... إنه تبع رفاقه ، رفاقه الاعزاء ...

– إنها تقول الحق ، فلِم نتخلى عن ابنائنا ؟ وأي اذى الحقوه بنا ؟

وقال سيزوف : عودي الى منزلك يا بيلاجي . اذهبي فأنت مرهقة .

وكانت شاحبة الوجه .

وكان هو ايضاً شاحب الوجه ، ترتعش لحيته المشعثة ، وفجأة ، قطب حاجبيه ، وحدج الجميع بنظرة قاسية ، ثم انتصب ، وقال بنبرة واضحة :

– لقد سحقت إحدى الآلات في المعمل ولدي ماثيو ، انتم تعلمون ذلك ، ولكنه لو كان على قيد الحياة ، لدفعته بنفسي الى صفوفهم ، ولأرسلته ليكون معهم ، ولكنت قلت له :

« انطلق انت ايضاً يا ماثيو ، إنها قضية عادلة . إنطلق وأدّ واجبك .

وتوقف عن الكلام ، أما مستمعوه فقد كانوا صامتين متجهمي الملامح ، يسيطر عليهم إحساس عظيم جديد ، لم يعد يرهبهم . ورفع سيزوف ذراعه ، ولوح به ثم أردف :

– إن من يخاطبكم رجل مسن . إنكم تعرفونني ، فأنا أعمل هنا منذ تسع وثلاثين عاماً ، وقد انسلخ من عمري في هذا العالم الدنيء ثلاث وخمسون . لقد قبضوا اليوم من جديد على حفيدي ، وهو فتى ذكي انيق كان يسير في الطليعة ، بجانب فلاسوف وراء العلم مباشرة .

ولوح بذراعه ثم انحنى فأمسك بيد الأم :

– هذه السيدة قالت الحقيقة .. إن أبناءنا ينشدون العيش الشريف الذي يرتضيه العقل . ولقد تخلينا نحن عنهم ، أجل... لقد هربنا... إذهبي يابيلاجي.

وقالت بيلاجي وهي ترنو الى الجمع بعينيها الغائمتين بالدمع :

– يا اصدقائي الطيبين . لقد أوجدت الحياة من أجل الأبناء ، والأرض من اجلهم صُنعت .

فقاطعها سيزوف وهو يناولها حطام السارية :

– خذي هذه العصا يا بيلاجي ، وهيا .

وكانوا يرمقون الأم بألم يمازجه الاحترام ، وتسير هي وقد أحيطت بجو من

التعاطف ، ويشق لها سيزوف ـ وهو صامت ـ طريقاً بينهم، فيفسحون الطريق دون ان تند عنهم كلمة ، ثم يسيرون وراءها على مهـل تدفعهم قوة سحرية ، ويتبادلون العبارات القصيرة بهمس .

وعند باب منزلها استدارت نحوهم وهي تتوكأ على جذع السارية ، فحيتهم وقالت لهم ممتنة : شكراً لكم .

وتذكرت الفكرة ، الفكرة الجديدة الحبيسة في صدرها فقالت :

ـ ما كان سيدنا المسيح ليكون لو لم يمت الناس في سبيل مجده .

وكان مشيعوها يحدقون بها صامتين ، فانحنت لهم ثانية ، ودخلت منزلها ، ودخل وراءها سيزوف محني القامة ، وظلوا في مكانهم يتبادلون الرأي ، ثم لم يلبثوا ان تفرقوا ببطء .

القسم الثاني

- ١ -

وعامت ، بقية نهارها ، في ضباب أرقطمن الذكريات ، في خضم من الاعياء الثقيل يرهق الجسد والروح معاً ، وكان الظل الأغبر ، ظل الضابط الصغير ، يتراقص أمام عينيها ، ووجه بول البرونزي يتألق ، وعينا أندريه تبتسمان .

وكانت تذرع الغرفة بخطاها ، ثم تجلس قرب النافذة ترنو الى الشارع ، ثم تعود الى المشي مقطبة الجبين ، وتطرح عينيها ، على ما حولها مضطربة كأنها تبحث ، وهي فارغة الرأس ، عن شيء لا تدري ما هو .

وشربت ... ولكن الماء لم يطفىء غلتها ، فهي لا تستطيع ان تخمد في صدرها تلك الجذوة المتأججة التي تذيبها ، جذوة القلق والشعور بالمهانة .

لقد انشطر نهارها الى شطرين ، كان للأول منها معنىً ومحتوى ، اما الثاني فقد جرد من كل معنى ... فالفراغ البائس يتثاءب في وجهها ، والسؤال الذي لا جواب له ينخرها : ماذا ستفعلين الآن ؟

وأقبلت عليها ماريا كورسونوف فتحدثت بانفعال ، وصرخت وبكت ، وهاجت ضاربة الأرض بقدميها ، واقترحت ، وعاهدت على ما لا تدري وهددت من لا تدري ، ولكن الأم ظلت ، رغم ذلك كله ، جامدة . وتعالى صوت ماريا صخاباً :

— أرأيت ...؟ لقد أقلقهم هذا ... لقد ثار المعمل ... ثار بكامله . وكانت بيلاجي ترد عليها بهدوء وهي تهز رأسها : « أجل ، أجل » وبصرها الجامد يستعيد ما استحال اليه الماضي ، وما انشطر منها ومضى مع بول واندريه .

وكانت لا تقوى على البكاء فقلبها مهصور لا دمع فيه ، وشفتاها أيضاً يابستان ، وفمها جاف من اللعاب ... وكانت يداها ترتجفان ، ورعشات خفيفة تجمد ظهرها.

وفي المساء جاء الجند ، فاستقبلتهم دونما دهشة او خوف ، دخلو بضوضاء وملامحهم تنطق بالبهجة والاكتفاء ، وقال لها الضابط الشاحب الوجه مدندناً :

— كيف حالك ؟ هذه هي المرة الثالثة التي نلتقي بها ، أليس كذلك ؟

ولاذت بالصمت وهي تمسح بلسانها الجاف شفتيها .

وثرثر الضابط كثيراً بلهجة اعتداد ، وشعرت انه كان يجد لذة كبرى في ان يصغي الى ما يقول ، ولم تكن كلماته تبلغ اذنها ، او تثير فيها الاضطراب ، ولكنها جمدت عند الباب حينما قال لها :

— إنك مجرمة ايتها الأم لأنك لم تعلمي ابنك احترام الله ... والقيصر .

— أجل ... ان ابناءنا هم قضاتنا ، وسيحاكموننا بعدل ، لأننا تخلينا عنهم في هذه الطريق ...

وصرخ الضابط : ماذا تقولين ؟ ارفعي صوتك قليلاً .

فرددت الام وهي تزفر : اقول ان قضاتنا هم ابناؤنا .

وراح الضابط يعظ بصوت سريع حانق ، ولكن إعصار كلامه لم يكن يلامس سمع الأم .

وكانت ماريا كورسونوف قد دُعيت كشاهدة . وكانت تقف الى جانب الأم دون ان تنظر اليها ، وكانت اذا ما وجه الضابط اليها سؤالاً انحنت بأفراط واجابت بصوت رتيب :

— لا ادري يا صاحب السعادة . انني امرأة جاهلة اهتم بتجارتي بالقدر الذي يسمح به غبائي . إني لا اعرف شيئاً ابداً .

وينهر الضابط وهو يحرك شاربه :

— حسناً ... اخرسي .

فتنحني وتوشوش في اذن بيلاجي وهي تهز انفها له .

وأمرها بتفتيش الأم فحملقت به بعينين زائغتين وقالت بلهجة مذعورة :

— لا اعرف كيف افتشها يا صاحب السعادة .

فركل الضابط الأرض بقدمه وراح يصرخ ، فأطرقت هي برأسها وقالت

للأم بهدوء :

ـ إذاً فكي ازرارك يا بيلاجي .

وفتشتها ، وتحسست ثيابها ، وتصاعد الدم الى وجهها فهمست :

ـ يا لهم من كلاب .. اليس كذلك ؟!

وصاح الضابط بحدة ، وهو يحدق حيث كانت يدها :

ـ بماذا تهمسين ؟

فغمغمت بجزع : إنها قضية نسائية يا صاحب السعادة .

وعندما امر الأم بتوقيع المحضر رسمت بيد غير حاذقة ، وبخط مطبعي أحرفاً ضخمة واضحة : « بيلاجي فلاسوف ، ارملة عامل . »

فصاح بها ، وعلى فمه ملامح الازدراء :

ـ ماذا كتبتِ ؟ ولماذا ؟

ثم غمغم : وحوش .

وانصرف الجند ، فجلست امام النافذة ويداها فوق صدرها ، وعيناها مسمرتان على اللاشيء ، ولبثت في مكانها هذا زمناً طويلاً وقد شال حاجباها وانطبقت شفتاها . لقد كانت تشد فكيها كما لو كانت تشكو ألماً شديداً في اسنانها ، ولم يكن في المصباح زيت ، فراح يخبو محشرجاً ، فنهضت اليه ونفخت ذبالته ، وغرقت في الظلام .

وملأ صدرها ، كالسحابة القاتمة ، تبلد مغموم ضيّق عليها انفاسها ، وظلت على هذه الحال ، حتى دب الأعياء في ساقيها وعينيها .

وسمعت ماريا تناديها وهي تحت النافذة بصوت مخمور :

ـ اتنامين يا بيلاجي ؟ نامي يا شهيدتي المسكينة .

وتمددت فوق سريرها دون ان تنضو عنها ثيابها ، وسرعان ما غرقت في سبات عميق كأنما قد لفها اعصار .

ورأت في المنام هضبة الرمل الصفراء ، على طريق المدينة ، عبر المستنقع ، وفي اعلى المنحدر الذي يؤدي الى حفائر الرمل كان يقف بول ، وينشد بتؤدة ،

ويشاركه في الانشاد صوت اندريه :

ـ أيها المعذبون في الارض هبوا .

وكانت تعبر امام الاكمة ، وترنو الى ابنها ، ويدها فوق جبهتها . وكان ظل الفتى يتراءى واضحاً في زرقة السماء الغامقة ، فتخجل ان تقترب منه ، لأنها كانت حاملاً ، وعلى ذراعيها طفل آخر .

وتابعت طريقها فرأت في الحقول اولاداً يلعبون الكرة . لقد كانوا كثراً وكانت كرتهم حمراء ، ومد الطفل الذي كانت تحمله ذراعيه نحوهم ، وراح يبكي بعنف ، فألقمته ثديها ، ونكصت على عقبيها ، فاذا الهضبة تمور بالجند وقد شرعوا حرابهم في وجهها ، فاسرعت تعدو نحو كنيسة تقوم في وسط الحقول ، كنيسة بيضاء خفيفة كأنها إنما صنعت من غمام ، سامقة بلا تساوق . وكان هناك مأتم ، والنعش أسود كبير مسمر الغطاء ، وكان الكاهن وشماسه يطوفان بالكنيسة وهما يرتديان الملابس البيضاء ويرتلان :

« وبُعث يسوع من بين الاموات »

وهوّم الشماس بالمبخرة وحياها ثم خرج . لقد كان ذا شعر أشقر متألق ، ووجه طلق المحيا كوجه ساموالوف . ومن أعلى القبة كانت أشعة الشمس تنهمر عريضة كالمناديل ، واطفال على جانبي الجوقة يرتلون بعذوبة :

« وبُعث يسوع من بين الاموات »

وفجأة صاح الكاهن وهو يتوقف في وسط الكنيسة :

ـ اقبضوا عليهم .

واختفى وجه الكهنوتي ، ونبت في وجهه شاربان رهيبان وخطهما الشيب ، فولى الجميع الادبار ، حتى الشماس الذي رمى المبخرة في احدى الزوايا واحتضن رأسه بيديه كما يفعل البيوروسي ، وألقت الأم طفلها تحت اقدام المؤمنين ، ولكنهم كانوا يتحاشون ان يطأوه وهم يتراكضون ، وكانوا يلقون على الجسد الصغير العاري نظرات مذعورة ، في حين كانت تركع وتتوسل اليهم :

ـ لا تتركوا الطفل ... خذوه معكم .

وينشد البيوروسي باسماً ويداه وراء ظهره :

« وبعث يسوع من بين الاموات »

وتنحني هي فتلتقط الطفل ، وتضعه في عربة من خشب ، ويسير نيقولا الى جانبها ببطء ويقول ضاحكاً :

— لقد كُلفتُ بعمل شاق .

وكان الشارع موحلاً ، والناس يطلون من النوافذ فيصفرون ويصرخون ويؤشرون ، والنهار يبدو صافياً ، وشمس ملتهبة تتأجج في السماء ، ولم يكن هناك اي ظل ... وكان البيوروسي يقول :

— غنيّ ايتها الأم الصغيرة ، فهذه هي الحياة .

وكان هو يغني فيطغى صوتـــه على كل ضجيج ، وكانت هي تسير في اثره ، فزلت بها القدم ، فجأة ، وهوت إلى حفرة لا قرار لها ؛ وكانت هذه الهوة تعوي كلما اقتربت منها .

وأفاقت من حلمها تزلزلها رجفة ، كأن يداً ثقيلة غليظة قد اطبقت على قلبها فعصرته بتؤدة في لعبة قاسية . وكانت صافرة العمل تزعق باصرار ، فعرفت انها كانت تزعق زعقتها الثانية . وكانت الكتب في غرفتهـــا تثوي متناثرة بشكل فوضوي ؛ وكل شيء مبعثراً مكدساً ، وارض الغرفة متسخة من اقدام الجنود .

ونهضت تعيد الى الغرفة نظامها دون ان تستحم او تؤدي صلاتها ، فوقعت عينها في المطبخ على سارية العلم والمزقة الحمراء من القماش القطني ، فتناولتها بحنق ، وهمت بأن تطرحها تحت الموقد ، ولكنها انتزعت المزقة الباقية من العلم ، انتزعتها زافرة وطوتها بعناية ، ثم دستها في جيبها ؛ وحطمت بقايا السارية على ركبتها ، والقت نثارها في صندوق الحطب ؛ وغسلت بعد ذلك النافذة وارض الغرفة بماء دافق ، واشعلت النار لاعداد الشاي ، ثم ارتدت ثيابها وجلست في المطبخ امام النافذة ، ومثل امامها من جديد ، سؤال السهرة بالامس :

— والآن ... ماذا افعل ؟

وتذكرت انها لم تصلي بعد ، فلبثت منتصبة امام الايقونات بضع لحظات ثم

جلست وقلبها مليء بالفراغ .

وفي الخارج كان يخيم هدوء غريب كأن الناس الذين اسرفوا عند العشية في الصراخ بالشوارع يختبئون الآن في منازلهم ، ويفكرون بصمت في نهارهم العجيب .

وتذكرت فجأة منظراً كانت قد شاهدته في أحد أيام طفولتها :

ففي الحديقة القديمة التي يملكهـــا آل زاوو سايلوف كانت تمتد بحيرة تغطيها أزهار النيلوفر . وصدف ان مرت هي من هناك في يوم ربيعي أغبش ، فأبصرت في وسط البحيرة زورقاً . وكانت البحيرة هادئة الصفحة مربدة ؛ تشد الزورق الى مائها الأسود بزينته الكئيبة من الاوراق المصفرة . وكانت دفقة من أسى عميق وحزن مجهول تنثال منه ، من هـــذا الزورق الذي لا مجاديف له ولا مجدف ، والذي تسمّر فوق الماء الكثيف بين الأوراق الميتة .

واطالت بيلاجي الوقوف هنا ، وكانت تتساءل عمن استطاع ان يقذف الزورق بعيداً عن الضفة ، وعن الغاية من ذلك .

وفي مساء ذلك اليوم شاع بأن زوجة وكيل القصر قد غرقت في البحيرة وهي سيدة صغيرة ذات مشية متعجلة وشعر فاحم دائم التشعث .

... وفركت الأم عينيهـــا ؛ وانزلقت الى ذهنها ذكرى احداث العشية واجتاحت هذه الأحداث تفكيرها ، فجمدت طويلاً في مقعدها ، وعيناها مثبتتان على قدح الشاي الذي كان قد برد ، وفي داخلها تضطرم الرغبة في ان ترى انساناً ساذجاً وذكياً ، وان تسأله كثيراً من الأمور .

وكأن نيقولا ايفانوفيتش الذي جاء بعد الظهيرة ، إنما جاء ليحقق لها أمنيتها . ولكنها ما كادت تراه حتى تملكتها الكآبة بغتة ، ودون ان ترد تحيته قالت له بصوت خفيض :

— لقد اخطأت يا عزيزي بمجيئك الى هنـــا . إنه تهور منك ، فسيقتلونك حتماً إذا ما رأوك .

وشد على يدها بقوة ، وركز نظارتيه جيـداً ثم قال لها بكلمات قليلة عجلى وهو يدني وجهه من وجهها :

- لقد اتفقنا ، بول واندريه وأنا ، ان آتي في الغد ، إذا ما أوقفا ، لأهيىء لك الاقامة في المدينة .

وكان يتكلم بصوت ودود مشتت ، ولكنه لم يلبث ان عاد فسألها :

- هل جاؤوا للتفتيش ؟

- اجل ، وبحثوا في كل مكان وفتشوني . هؤلاء القوم لا حيــاء عندهم ولا ضمير .

وقال نيقولا وهو يهز كتفيه :

- ولماذا يكون عندهم حياء او ضمير ؟

ثم اخذ يشرح لها الاسباب التي لمن اجلها يجب ان تنتقل الى المدينة . وكانت هي تصغي بمودة الى صوته المفعم بالتوسل ، وترنو اليه وعلى ثغرها ابتسامة باهتة . صحيح . إنها لم تكن تفهم جيداً حجته ، ولكن ما كان يدهشها هو تلك الثقة التي يوحي بها الى نفسها .

- عندما يريد بول ، واذا لم يكن في ذلك إزعاج لك .

- لا تقلقي لذلك ، فأنا أعيش وحدي ، وليس هناك إلا شقيقتي التي لا تأتي إلا لماماً .

- ولكنني أريد ان اكسب عيشي ؟

- سيهيأ لك عمل إذا شئت .

وكانت فكرة العمل ، مرتبطة بالنسبة لها ، ارتباطاً وثيقاً لا انفصام له بنوع النشاط الذي يبديه ابنها واندريه ورفاقهما ، فاقتربت من نيقـولا وسألته وهي تحدق في عينيه .

- هل سيهيأ لي عمل ؟

- ان مشاغلي المنزلية ضئيلة فهي مشاغل أعزب .

- لست اقصد هذا النوع من العمل .

ثم أطلقت زفرة تأثر لأنه لم يفهمها ، أما هو فقد ابتسمت عيناه الحسيرتان وقال حالماً :

- حبذا لو استطعت ان تحصلي من بول ، عندما تقابلينه ، على عنوان اولئك المزارعين الذين طلبوا جريدة .

وصاحت بفرح :

- إني اعرفهم ، وسأعثر عليهم ، وسأعمل كل ما تكلفونني به . من سيفكر أني أنقل نشرات ممنوعة ؟ ... الله وحده يعلم كم حملت منها الى المعمل .

واشتهت ان تنطلق ، لا تدرى الى أين ، عبر المسالك الواسعة والغـابات والقرى ، وجرابها في كتفها ، وعصاها في يمينها ؛ ثم قالت .

- أتوسل إليك أيها الصديق العزيز ان تكلفوني بهذه المهمة ، فسأنطلق أنـّى تشاؤون ، وسأهتدي الى الطريق في المقاطعات كلها . سأمشي دون ملل صيفاً وشتاءً الى ان الاقي حتفي كحاجٍ في طريقه الى كعبته . أليس مثل هذا المصير شيئاً احسد عليه ؟

... ولفّتها سحابة من الغم عندما تخيّلت نفسها دون منزل ، شريدة تطلب الصدقة باسم يسوع تحت نوافذ الأكواخ الخشبية .

وتناول نيقولا يدها بلطف وداعبهـا بأنامله الحارة ثم قال وهو يتطلـع الى ساعته :

- سنتحدث عن هذا فيما بعد ،

- يا صديقي الطيب إن أبناءنا الذين يحتلون في قلوبنا المقام الأعلى يضحون بحريتهم وحياتهم : إنهم يقضون نحبهم دون ان يتحسروا على أنفسهم فهـل، أتوانى أنا كأم ، هل أتوانى عن عمل مهما كان ؟

وشحب وجه نيقولا ، وقال همساً وهو يرنو إليها باهتمام وملاطفة :

- هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها كلاماً من هذا النوع .

ورددت وهي تهز رأسها بأسى :

- ماذا أستطيع أن أقــول ؟

ثم أرخت ذراعيها في حركة إعياء وأردفت :

- ليت لي الألفاظ التي أستطيع ان اعبر بها عما في قلبي كأم .

ونهضت مدفوعة بقوة كانت تتنامى في صدرهـــا ، وتسكرها بفيض من القول الحانق :

– هناك كثير من الناس سيبكون ؛ حتى اللئام، حتى الكائنات التي لاضمير لها.

ونهض نيقولا بدوره ، ونظر الى ساعته ثانية :

– لقد قضي الأمر ... ستأتين للإقامة معي .

وهزت رأسها بسكون .

– متى ؟ في اقرب وقت ممكن .

ثم أضاف برقة : في الحقيقة ، سأكون قلقاً من اجلك .

ورمقته بدهشة وتساءلت : اية خدمة يطمع في ان تؤديها له ؟ .. وكان هو يقف امامها مطأطىء الرأس محدودباً حاسر البصر ، وعلى شفتيه بسمة ارتباك ؛ وكان يرتدي سترة سوداء متواضعة ، ويبدو كل ما يرتديه مستعاراً .

وسألها بجبن :

– هل معك دراهم ؟

– كلا .

وأخرج محفظته من جيبه بسرعة ، وفتحها ثم قدمها إليهـــا :

– خذي ، إذا شئت .

وارتسمت على شفتيها إبتسامة طاغية وقالت :

– لقد تغير كل شيء ولم يعد للمال قيمة في نظركم . إن الكثيرين يزهقـــون ارواحهم في سبيله اما انتم فإنه بالنسبة لكم شيء غـير ذي بال ، ويقال انكم لا تحتفظون به إلا لتساعدوا الآخرين ...

وضحك نيقولا بهدوء :

– يا له من هنة كثيرة الإزعاج ، مثيرة للاشمئزاز ، احتواؤها يضايــق ، وبذلها كذلك .

ثم اخذ يدها وضغطها بقـــوة وردد :

– ستأتين في اقرب وقت ممكن .. أليس كذلك ؟

ومضى بهدوء كعادته ، وفكرت وهي تشيعه :

– إنه رجل شديد الطيبة ... ولكنه لم يشفق علينا .

ولم تستطع ان تميز ما إذا كان ذلك باعثاً على اشمئزازها ... ام انها لم تحس به إلا لفرط دهشتها ؟

– ٢ –

.. ورحلت في اليوم الرابع بعد زيارة نيقولا ، وعندما خرجت العربة التي كانت تقلها وحقيبتها ، عندما خرجت من الضاحية الى رحابة الريف ،تلفتت ، وأحست فجأة انها كانت تهجر الى الأبد هذه الربوع حيث تصرمت أقتم فترة من حياتها وأحفلها بالألم ، وأن حياة اخرى قد بدأت ، وعهداً مليئـــاً بأحزان جديدة قد بدأ يلتهم الأيام بسرعة .

وكعنكبوت ضخم غامق الحمرة كان المعمل ينشلح على الأرض التي سودّها الهباب، شامخاً بمداخنه نحو السماء ، ومن حوله كانت تزدحم المنازل العماليـــة الصغيرة ذات الطبقة الواحدة .

لقد كانت هذه المنازل كمداء مستطيلة ، تنتشر متكاثفة على ضفة المستنقع ، ويرنو بعضها الى بعض باشفاق عبر النوافذ الصغيرة الباهتة :وفوقها كانت تنتصب الكنيسة حمراء غامقة اللون كالمعمل تماماً ، إلا ان قبة جرسهـــا كانت دون مداخنه علواً .

وزفرت الأم ، وحلت قبة قميصها التي كانت تضغط على عنقها ، ودنـــدن سائق العربة وهو يلسع بالأعنة ظهر الجـــواد :

– هيا ... تقدم .

وكان هذا السائق أعوج الساقين نادر الشعر ناصله ، لا يمكن تحديد عمـره ، وليس لعينيه أي لون ؛ وكان يسير وهو يحلج الى جانب العربة ، فيخيل لمـن يراه ان هدف الرحلة لم يكن ليعنيه في شيء ابداً .

– هيـــا .

وكان يلفظها بصوت ابيض ، وهو يمط ، بشكل مضحك ، ساقيه المعقوفين اللذين ينتعلان حذاءين ثقيلين تغطيهما طبقة من الوحل الجاف . . ألقت الأم نظرة خاطفة على ما حولها ، فإذا الحقول خاوية كنفسها .

وكان الجواد يحرك رأسه بشكل محزن ، وهو يغرز حوافره بتثاقل في الرمل الكثيف الذي ألهبته الشمس والذي كان يصرخ ، وكانت العربة المخلعة السيئة التشحيم تصر ، وكانت هذه الضوضاء كلها تثور مع الغبار وراء السيدة المسافرة.

وفي طرف المدينة ، في شارع مقفر بالقرب من سرادق اخضر كان نيقولا ايفانوفيتش يقيم في منزل مؤلف من طابقين : منزل كالح عتيق مشرف على الأنهيار . وكانت تنبسط امام هذا المنزل حديقة صغيرة ظليلة ، وكانت اغصان الليلك والطلح وأوراق الحور الطرية الفضية ، تلقي نظراتها الحنون من نوافـــذ الحجرات الثلاث لهذا المسكن .

وكانت الحجرات صامتة نظيفة ، والظلال المسننـــة تتراقص خرساء على الأرض ، وعلى الجدران كانت تمتد رفوف مثقلة بالكتب ، تحت صور لشخصيات قاسية الملامح .

وسأل نيقولا الأم : أيطيب لك المقام هنا ؟

سألها ذلك ، وهو يقودها الى غرفة صغيرة ، تطل إحـــدى نوافذها على الحديقة وتطل الثانية على الساحة حيث يتنامى العشب خصباً ، وكانت جدران هذه الغرفة ايضاً مليئة بالمرايا والرفوف المثقلة بالكتب .

وقالت الأم : يعجبني المطبخ اكثر فهو نظيف ومشرق !

وبدا لها كأن نيقولا يتخوف من شيء ما ، ولكنه عندما حاول ، بارتباك ، ان يصرف اهتمامها عن المطبخ ونجح في ذلك ، استعاد مرحه فجأة .

وكان يشيع في الحجرات الثلاث جوّ خاص يشعر المرء معه بأنه يستنشق هواء خفيفاً عذباً ، ولكن الصوت فيه يتضاءل ويخفت بصورة لا إرادية ، فلا تراودك الرغبة في ان تتحدث عاليـــاً ، أو ان تعكر صفو التأمل ، تأمـــل الشخصيات التي ترمقك من اعلى الجدران وهي منقبضة الملامح .

وقالت الأم بعد أن جست تراب الأصص في النوافـــذ :

— يجب ان تسقى هذه الأزهار .

ورد رب المنزل ، وفي ملامحه سيماء المذنب :

— أجل ، أجل . أنت تعلمين إني احب الأزهار ، ولكن ليس لدي متسع من الوقت للاهتمام بها .

ولاحظت بيلاجي ان نيقولا كان يسير حتى في منزله الرغيد ، بحذر وشرود ، كأنه غريب عن كل ما يحيط به ، وكان وهو يركز نظارتيه بأنامل يده اليمنى الدقيقة ، يدني وجهه من الأشياء التي يراها ، ويرنو اليها بطرف عينه ، ثم يحمد بصره ، في استنطاق اخرس ، على ما كان يثير اهتمامه منها .

وكان احياناً يأخذ هذا الشيء بين يديه ويدنيه من وجهه ويتحسسه بعينيه في عناية ، حتى ليخيل لمن يراه انه يدخل منزله لأول مرة كالأم ؛ وأن كل ما في الحجرة غريب عنه ؛ وأنه مثلها ، لم يتعوده من قبل ، وكانت هي تسير وراءه محاولة ان تحدد في ذهنها مكان كل شيء ؛ وتسأله عن اسلوب حياتـــه فيجيبهـــا بلهجة رجل لن يلتمس الغفران لأنه لم يتصرف كما يجب ان يتصرف ، بل لأنه لا يعرف ان يتصرف خلاف ذلك .

وسقت الأزاهير وجمعت دفاتر الموسيقى التي كانت مبعثرة على البيـــانو ، جمعتها في ترتيب بديع ، ثم تطلعت الى ابريق الشاي وقالت :

— ينبغي ان انظفه .

ومسح بيده المعدن الباهت ، ثم تفحصه بتعالٍ وهو يدنيه من انفه ، امـــا الأم فقد كانت تبتسم ابتسامة سماح .

وعندما اضطجعت واستعرضت نهارها رفعت رأسها عن الوسادة مذعورة . لقد كانت تجد نفسها للمرة الأولى في حياتها تحت سقفٍ أجنبي دون ان يضايقها ذلك .

وفكرت في نيقولا بكثير من الاهتمام ، وسيطرت عليها رغبة في ان تفعل كل ما تستطيع لتساعده ، ولتدخل الى حياته قليلاً من دفء العاطفة . وكانت شديدة التأثر ببساطة مضيفها ، وسوء تدبيره المضحك ، وبعده عن كل ماهو تنظيم

عملي ، كما كانت شديدة التأثر بعينيه الصافيتين المعبرتين اللتين تمتزج فيهما الطفولة والأتزان معاً ، ثم وثب تفكيرها الى ابنها ، واستعادت من جديد يوم أول أيار الذي بدا لها ملفعاً بأصداءٍ جديدة ، ومعنىً جديد . وكان أسى هذا النهار ، بنوع خاص كالنهار ذاته لا يحني الهام نحو الأرض كالصفعة التي تنهك المصفوع وترميه بالبله ، بل كان يثخن القلب بألف وخزة ، ويثير فيه غضباً هادئاً يقوّم الظهر المقوس .

— لقد خرج أبناؤنا الى العالم .

هكذا كانت تفكر، وهي تصغي الى ضوضاء الحياة الليلية في المدينة ، تلك الضوضاء المختلطة التي تتزلق من نافذتها المشرّعة ، متلاعبة بأوراق الأشجار في الحديقة . لقد كانت تأتي من بعيد منهكة ضعيفة ، لتموت بهدوء في احضان الحجرة .

وفي الغد نهضت مبكرة فنظفت ابريق الشاي ، وأشعلت النار ورتبت أواني المطبخ دونما ضجيج ، ثم جلست في المطبخ تنتظر ان يستيقظ نيقولا ؛ وسمعت سعاله ، ثم خرج بعد قليل وهو يحمل نظارتيه باحدى يديه ، ويقبض بالثانية حنجرته . وبعد ان رد على تحية الصباح حملت الشاي الى غرفته ، في حين كان هو يغسل وجهه ، فيتطاير رذاذ الماء على الارض ، وتتدحرج صابونته وفرشاة أسنانه وهو يدمدم ساخطاً على نفسه .

وخلال الفطور راح نيقولا يقص عليها :

— لقد كنت امارس عملاً حزيناً في المديرية الاقليمية ، فأراقب كيف يسير مزارعونا الى الدمار .

وابتسم ابتسامة المذنب ثم اردف :

— هؤلاء المساكين الذين انهكهم جوع مزمن ، يهصرهم الموت قبل الأوان . إن اطفالهم يولدون ضعاف البنية ، ويموتون كما يموت البعوض في الخريف. لقد كنا نعرف ذلك ، ونعرف أسباب هذه الكارثة ، ولكن كل ماكنا نفعله ، في الحقيقة ، عندما نتفحص جيداً هذه الأسباب ... ان نقبض رواتبنا .

وسألته مقاطعة :

— وما هي مهنتك ؟ هل انت طالب ؟

— كلا .. فأنا معلم مدرسة . ان والدي مدير مصنع في « فيانكا » اما انا فقد اصبحت مدرساً . لقد اخذت اوزع الكتب على القرويين ، فزججت في السجن وبعد خروجي منه عملت مستخدماً في مكتبة ، ولكنني لم اك حذراً اثناء عملي فيها ، فأوقفت ثانية ، وأرسلت الى « آر كانجل » ، وكانت لي مع الحاكم هناك ايضاً مضايقات ، فأبعدت الى مزرعة على شاطىء البحر الابيض حيث لبثت خمس سنوات .

وكان صوته يرن هادئاً متزناً في الغرفة المشرقة التي يغرقها نور الشمس .

لطالما سمعت الأم قصصاً من هذا النوع، ولكنها لم تك تدرك لِمَ كان اصدقاء بول يروونها بكثير من الهدوء كما لو كان الآمر يتعلق باحداث محتومة لا يمكن تجنبها.

وقال نيقولا : ستصل اليوم شقيقتي .

هل هي متزوجة ؟

— إنها أرملة . لقد نُفي زوجها الى سيبيريا، ولكنه هرب من منفاه، ومات في الخارج منذ عامين ، مات مصدوراً .

— اهي اصغر منك سناً ؟

— انها تكبرني بست سنوات ، وأنا مدين لها بالكثير. ستسمعين غداً عزفها، فهذا البيانو ملك لها كالكثير من الموجودات هنا ، اما الكتب فهي لي ...

— وأين تقيم ؟

وأجاب باسما : في كل مكان. في كل مكان يحتاج الناس فيه الى مخلوقة جريئة..

— وهل تهتم هي ايضاً بالقضية ؟

— هذا أمر لا ريب فيه .

وانصرف الى مكتبه في حين راحت الأم تفكر في « تلك القضية » التي يساندها الناس يوماً بعد يوم ، بعنادٍ ووعي ، وتشعر هي امامهم كأنها امام جبل في قلب الليل .

وعند الظهيرة أقبلت سيدة رشيقة مديدة القامة ترتدي ثوباً اسوداً وما كادت

الأم تفتح لها الباب حتى ألقت الزائرة الى الأرض بحقيبتها الصغيرة الصفراء ، وراحت تحتضن بحرارة يد بيلاجي وهي تسألها :

– إنك والدة بول ... أليس كذلك ؟

وأجابت وقد ادهشتها الأناقة في مظهر السيدة :

– أجـل .

وقالت السيدة وهي تنزع قبعتها امام المرآة :

– إنك تماماً كما تخيلتك فلقد كتب اليّ اخي بأنك ستأتين للإقامة معه . إنني وبول صديقان منذ امد بعيد ، وكثيراً ما كان يحدثني عنك .

وكان صوتها أصم ، وكانت تتكلم ببطء ، ولكن حركاتها كانت تفيض حيوية ونشاطاً ، وكانت تلوح في عينيها الواسعتين بسمة فتية صريحة ، وعلى صدغيها تنداح تجاعيد صغيرة ، وفوق اذنيها الدقيقتين تلمع كالفضة خصلٌ من الشعر الأشهب .

وقالت : اني جائعة .. وبودي لو احتسي فنجان قهوة ...

وردت الأم : سأعده لك في الحال .

وفيما كانت تخرج المغلاة من الخزانة سألت بصوت خفيض :

– أصحيح ان بول يتحدث عني ؟

– كثيراً ...

وسحبت السيدة علبة من جلد ، فأخذت منها سيجارة اشعلتها ، ثم سألت الأم وهي تذرع ارض الحجرة جيئة وذهاباً :

– أ أنت شديدة القلق عليه ؟

... وكانت الأم تبتسم وهي تتبع ببصرها لهب المصباح الكحولي الأزرق الذي كان يتراقص تحت المغلاة ؛ تبتسم وقد تلاشى قلقها امام هذه السيدة ، وغار في اعماق نشوتها .

– إذاً فابني الشجاع يتحدث عني ؟

ثم أردفت ببطء :

– إن الأمر لعسير بلا شك ، ولكنه كان من قبل اكثر سوءاً . أما الآن...

فأعلم أنه ليس وحده .

وسألت وهي تركز بصرها في وجه الزائرة :

– وما هو اسمك ؟

– صوفيـا .

وكانت الأم تتأملها بدقة ، فلقد كان فيها شيء من التطرف والجرأة الشديدة والاندفاع ... وكانت تتكلم بوثوق :

– المهم ، ألا يمكثوا في السجن طويلاً .. إنهم سيحالون الى المحاكمة سريعاً ، وعندما يصبح بول في المنفى فإننا سنمهد له السبيل الى الهرب ، لإننا لا نستطيع ان نعمل هنا بدونه .

وحدّقت الأم بصوفيا وهي لا تصدق ما تسمع ، في حين كانت هذه تبحث عن مكان تلقي فيه عقب سيجارتها ، فاهتدت أخيراً الى أصيص أزهار ، طمرته في ترابه .

واعترضت الأم بصورة عفـوية :

– إنك بذلك تؤذين الأزهار ...

فاعتذرت صوفيا : المعذرة . إن نيقولا يقول لي ذلك دائماً ...

ثم التقطت عقب السيجارة ، وقذفته من النافذة .

وشعرت الأم بالحرج ، فحدقت في عينيها وقالت لها بلهجة الخاطىء :

– اعذريني ، فلقد قلت ما قلت دونما تفكير . أ من شأني أنا ان اوجه إليك الملاحظات ؟

فأجابت صوفيا وهي تهز كتفيها :

– و لِمَ لا ما دمت انا شديدة الاهمال ؟ هل القهوة جاهزة ؟ شكراً . ولكن لِمَ أعددت قدحاً واحداً ... ألن تشربي ؟

وأمسكت الأم من كتفيها فجأة ، وجذبتها إليها ، وسألتها بدهشة وهي تحدق بها بإمعان :

– هل تشعرين بالضيق ؟

وأجابت بيلاجي باسمة :

ـ أوجه إليك الملاحظات ... ثم تسألينني هذا السؤال؟

وبدون ان تخفي دهشتها ، استأنفت ، كأنها إنما تخاطب نفسها :

ـ لقد حللت البارحة في منزلكم ... ومع ذلك فإني اتصرف كما لو كنت في منزلي . لا أخاف شيئاً ... وأقول ما اريد .

ـ يجب ان يكون الأمر كذلك .

واستطردت الأم :

ـ لا أدري أين هو مكان رأسي ، ولا أكاد اعرف نفسي . لقد كان عليّ في الماضي ان ادور طويلاً حول الناس ، لأقول لهم شيئاً ما دونما مواربة ... اما الآن ... فإني افتح صدري في الحال ، وأبوح دفعة واحدة باشياء لم افكر بها من قبل ...

وأشعلت صوفيا لفافة اخرى ، وكانت عيناها الرماديتان تلقيان على الأم نظرة مشرقة حنوناً .

وطرحت الأم هذا السؤال الذي كان يعذبها :

ـ أقلت أنكم ستعدون العدة لفرار بول ؟ ولكن كيف سيعيش بعد ذلك ؟

وأجابتها صوفيا وهي تصب المزيد من القهوة .

ـ إنها لعبة صبيانية . سيعيش كما يعيش عشرات الفارين . لقد التقيت بواحد منهم ، وأنا في طريقي الى هنا . إنه رجل نشعر بالحاجة الماسة إليه ، وقد حكم عليه بالنفي خمس سنوات ، ولكنه لم يقض منها هناك سوى ثلاثة اشهر ونصف فقط .

وحدقت بها الأم باسمة ، وقالت بصوت خفيض وهي تهز رأسها :

ـ آه ... أنه ذلك النهار ، اول أيار ، الذي سبب لي الاضطراب ... فأنا اشعر اني لست على ما يرام ، كما لو كنت اسلك طريقين مختلفين في آن واحد : تارة يخيل اليّ اني أدرك كل شيء ، وتارة اجد نفسي فجأة كأني اغرق في الضباب ، فأنت مثلاً حين انظر إليك الآن ، سيدة تنهمكين في العمل من اجل القضية ،

إنك تعرفين بول ، وتقدرينه ، واني لاشكرك على ذلك ..

وقاطعتها صوفيا ضاحكة :

ـ إنك أنت التي تستحقين الشكر .

فأجابت الأم وهي تتنهد :

ـ ولِمَ ... فأنا لم اعلمه كل هذا ...

ووضعت صوفيا لفافتها في طبق الفنجان ، وهزت رأسها ، فانتثر شعرها الذهبي فوق كتفيها في خصل كثيفة ، وخرجت من الغرفة وهي تقول :

ـ حسناً . . اعتقد انه قد آن لي ان أخلع ثيابي وأن أنضو عني كل هذه الأبهة .

- ٣ -

... وعاد نيقولا في المساء ، وتناولوا العشاء جميعاً ، وقصت صوفيا خلال ذلك ضاحكة ، قصة الشريد الذي التقته وخبأته . لقد كانت تخشى الجواسيس ، وتراهم في كل مكان ، وكان الرفيق الهارب مضحكاً حقاً . ولمست الأم في لهجة صوفيا شيئاً يذكرها بتبجح العامل الذي انجز عمله الصعب باتقان ، فملأه السرور لذلك .

وكانت صوفيا ساعتئذ ترتدي ثوباً خفيفاً فضفاضاً ، اشهباً فضي اللون ، وكانت تبدو به اطول قامة ، كما تبدو عيناها اكثر تجهماً وحركاتها اكثر هدوءاً .

وقال نيقولا بعد العشاء :

ـ سيكون هناك مهمة جديدة تنتظرك يا صوفيا ؛ فأنت تعلمين اننا قررنا إصدار صحيفة خاصة بالريف ، ولكننا فقدنا بسبب الاعتقالات الأخيرة ، الصلة المباشرة ، وليس بمقدور أحد سوى بيلاجي ان يعثر لنا على الشخص الذي سيتولى مهمة التغلغل في الريف . وعليك أنت يا صوفيا ان ترافقيها ؛ وليكن ذلك في اقرب وقت ممكن .

وقالت صوفيا وهي تمج سيجارتها :

ـ حسناً ، سوف نذهب .. أليس كذلك يا بيلاجي ؟

- لِمَ لا ؟
هل المكان بعيد ؟
- انه يبعد نحو اربعة وعشرين كيلو متراً تقريباً .
- هذا حسن . والآن اود ان اعزف قليلاً فهل تتحملين سماع قليل من الموسيقى يا بيلاجي ؟

وأجابت الأم وهي تجلس في زاوية من المقعد :
- لا تسأليني رأيي ، بل تصرفي كأنني لست موجودة .

وكانت تلاحظ ان الاخ وأخته يحاولان — دون ان يظهر عليهما انهما يعيرانها اي اهتمام — يحاولان ان يشركاها دائماً في حديثهما .
- اسمع يا نيقولا ، هذه المعزوفة لفرييج ... لقد حملتها معي اليوم ... اقفل النوافذ .

وفتحت دفتر الموسيقى ، ونقرت أنامل يسراها برقة أصابع العاج ، فتحركت الأوتار في رنين ناعم كثيف ، وانطلقت في بادىء الأمر زفرة عميقة ثم تلاها نغم آخر غني الرنة ، وتعالت من تحت أنامل يمناها ، في رقة كئيبة ، صرخات غريبة الشفافية ، ودّومت الأنغام الواضحة ، واصطفقت اجنحتها فوق جهامة الأنغام الخنيفة ، اصطفاق اجنحة العصافير المذعورة .

ولم تحرك هذه الموسيقى الأم ، في بادىء الأمر ، فقد كانت لا ترى في هذا التتابع النغمي إلا خليطاً من الأصوات المتنافرة ، وكانت اذنها لا تستطيع ان تحس اللحن المناسب في الذبذبة المعقدة ، ذبذبة ذلك الفيض من الأنغام ، بل كانت ترنو ، وهي نصف نائمة الى نيقولا الذي كان يجلس على الطرف الآخر من المقعد الواسع ، وقد طوى ساقيه تحته ، وتتأمل وجه صوفيا الصارم ورأسها الذي تغطيه نتفٌ كثيفة من شعرها الأشقر .

لقد كان خيطٌ دافىء من شعاع الشمس يشعل هذا الرأس ، وينحدر الى كتفها ، ثم يترامى على العاج ، ويرف تحت انامل العازفة ، ويغمرها ، وكانت الموسيقى تملأ الغرفة شيئاً فشيئاً ، وقلب الأم يستيقظ على اللحن دون ان تشعر .

وفجأة استيقظت من اعماق أمسها المظلم ذكرى مهانة كان النسيان قدعفى عليها منذ امد طويل ، وانبعثت الآن بوضوحها القاسي ؛ ففي ذات ليلة عاد زوجها في ساعة متأخرة يتعتعه السكر ، فأمسكها من ذراعها وألقى بها تحت السرير وهو يركلها برجله قائلاً :
— اغربي من وجهي ايتها الجيفة فلقد سئمتك .

ولكي تتقي ضرباته ، انتزعت طفلها بعنف ، وكان في الثانية من عمره ، وركعت تحتمي بالجسد الضاوي وتجعله مجنّها الواقي . وكان بول يبكي ، وينتفض جسده العاري الذي ادفأه الرعب ، وكان ميشال يزمجر :
— اغربي من وجهي ... اغربي من وجهي .

وتركض نحو المطبخ فتطرح ثوباً على كتفيها وتلف الطفل بشالٍ ، ودونما صراخ او شكوى ، تنطلق في الشارع حافية القدمين .

كان ذلك في ايار ، وجو الليل رطب ، والغبار البارد يلتصق بقدميها ويتراكم بين اصابعها ، والطفل يبكي وينتفض ، وتكشف هي عن صدرها ، وتشد ابنها إليه ، وتسير يطاردها الخوف ، وهي تهدهده وتدندن ..
— او .. او .. او .. او ..

... ويقبل النهار ويتملكها الرعب والخجل من ان يراها الناس نصف عارية ، فتنحدر نحو ضفة المستنقع ، وتجلس على الارض تحت اكمة كثيفة من شجيرات الحور ، وتمكث هناك طويلا وقد لفها الليل ، وتسمرت عيناها المتسعتان على الظلمات ، وتهدهد طفلها بجزع كسيرة القلب :
— او .. او .. او .. او ..

وفجأة يتحرك فوقها طائر اسود ، يتحرك بصمت ، ثم يطير نحو البعيد ، فيطرد الكرى من عينيها ، فتنهض ، وتتجه وهي ترتعد برداً ، نحو المنزل ، ليستقبلها فيه الرعب الذي تعودت ، والضرب وسيل جديد من الشتائم . وزفر ، للمرة الأخيرة ، نغمٌ فاترٌ بارد ... ثم خمد .

واستدارت صوفيا ، وسألت اخاها بصوت خفيض :

- هل اعجبتك المقطوعة ؟

فأجاب وهو ينتفض كمن أيقظته المفاجأة :

- جداً ... جداً .

وكان صدى الذكريات يضج في صدر الأم ويرتعش ، وكانت هناك فكرة تملأ خاطرها :

« هؤلاء قوم يعيشون بهدوء وانسجام رائع ، لا يتشاجرون ولا يثملون ولا يتخاصمون من اجل لا شيء ؛ كما هو حال الطبقة الدنيا من الشعب » .

وكانت صوفيا تدخن بكثرة وبلا انقطاع تقريباً ، وقالت وهي تعب الدخان بعمق ، وتعزف من جديد لحناً خفيفاً حزيناً :

- لقد كانت المقطوعة التي عزفتها هي المفضلة لدى « كوستيا » المسكين، لكم كنت أحب ان اعزفها له فهو ناعم ، شديد الحساسية ، منفتح الذهن .

وقالت الأم في سرها : « لا شك انها تفكر بزوجها » . ثم ابتسمت .

وتابعت صوفيا بصوت خفيض والألحان الخفيفة تواكب افكارها :

- اية سعادة منحتيها ، ولكم كان يعرف كيف يعيش !

وقال نيقولا وهو يمسد لحيته :

- اجل .. لقد كانت روحه تغني .

وقذفت صوفيا اللفافة التي كانت قد اشعلتها ، واستدارت نحو الأم تسألها :

- هل يضايقك عزفي ؟

وأجابت الأم بشيء من الانفعال الذي لم تستطع إخفاءه :

- لا تسأليني ، فأنا لا أفقه شيئاً مما تعزفين ، ولست هنا إلا لأسمع ولأجترّ الخواطر ...

وردت صوفيا : بلى ... يجب ان تفهميها ... فلا يمكن لأمرأة إلا ان تفهم الموسيقى لا سيما إذا كانت معذبة .

ونقرت الأصابع العاجية بقوة ، فتعالت صرخة مرنان كصرخة من تلقى نبأ مريعاً اصابه في الصميم ، وانتزع من صدره الأنين الموجع ؛ وتفجرت اصوات

اخرى فتية مذعورة ثم تبددت سريعاً ، وارتفع من جديد صوت هادر مسعور طغى على ما عداه ، صوت تسمع حين تسمعه ان سوءاً ما قد نزل ، ولكنه سوء يثير الحقد ، ولا يثير الشكوى . ثم تبعه صوت آخر قوي حنون راح يتغنى بأغنية بسيطة حلوة ؛ اغنية جذابة معبرة .

وأفعمت قلب الأم رغبة في ان تقول لمضيفيها كلمة طيبة ، وكانت تبتسم منتشية بالموسيقى ، وتحس انها تستطيع ان تكون بالنسبة إليهما شيئاً مفيداً .

وأدارت عينيها تفتش عما تستطيع ان تقوم به من عمل . ثم انسلت الى المطبخ لتعد الشاي ؛ ولكن رغبتها في ان تكون « شيئاً مفيداً » لم تتلاش .

وكانت وهي منهمكة في اعداد الشاي ، تتكلم وعلى شفتيها ابتسامة غامضة ، كأنها تود ان تعزي قلبها بكلمات يفيض منها الحنان الدافىء ، كلمات كانت توجهها الى نفسها و الى رفيقيها .

- إننا نحن ابناء الشعب ، نحس كل شيء ؛ ولكننا نعاني صعوبة في التعبير عن احساسنا . إننا نخجل لإننا ندرك ، ولكننا لا نستطيع ان نبوح بذلك ؛ وكثيراً ما نثور بسبب هذا الضيق، ضد افكارنا. إن الحياة نفسها تصفعنا وتثخننا جراحاً من كل جانب ، ونحن نود ان ننعم بالراحة، ولكن افكارنا تحرّمها علينا .

وكان نيقولا يصغي وهو يمسح نظارتيه ، وكانت صوفيا ترنو إليها وعيناها الكبيرتان مشدوهتان ؛ لقد نسيت لفافتها المنطفئة فلم تشعلها ، وكانت هي لا تزال امام البيانو، تتجه إليه بنصف كتلتها ، وكانت تمر بين الفينة والفينة، اصابع يمناها الطوال الناعمة على اصابع العاج ، فيمتزج النغم ، حذراً ، بكلمات الأم التي كانت تسارع فتكسو مشاعرها كلاماً بسيطاً مخلصاً .

- وها انذا الآن قد بدأت اقوى على الكلام عن نفسي وعن الاخرين مهما كان هذا الكلام نزراً ؛ لاني بدأت افهم ، ولاني اصبحت قادرة على المقارنة .. اما قبل الان فلم يكن عندي ما اقارنه . فالناس الذين يعيشون في ظروفنا يحبون الحياة نفسها ، ولكنني الان ارى كيف يعيش الاخرون فأتذكر كيف كنت اعيش انا نفسي .. وفي هذا قسوة ومرارة .

وأردفت وهي تخفض من صوتها :

ـ ربما كنت اقول اشياء ليست كما يجب ان تكون ، وقد لا يكون في ذلك اي ضير لانكما تعرفان كل شيء .

وكانت الدموع تدس الرعشة في نبرات صوتها ، وكانت ترنو إليهما وفي عينيها بسمة طيبة .

ـ ولكنني اود ان اشرّع لكما قلبي .. لتريا اني لا أضمر لكما إلا الخير ..

وأجاب نيقولا برقة : إننا نعرف ذلك .

ولم تك بيلاجي بمستطيعة ان تشبع رغبتها في الحديث ، فحدثتهما ايضاً عما كانت تراه جديداً بالنسبة إليها ، وعما كان يبدو لها ذا قيمة لاتقدّر، وراحت تقص عليهما قصة حياتها ، حياة المهانة والعذابات المستسلمة ، تقصها بلا حقد ، وبسمة الأشفاق تفوّف شفتيها ؛ وكانت تستعرض الشريط القاتم لأيامها الحزينة وتحصي ما تلقته من ضربات زوجها ، متأثرة من تفاهة الأسباب الدافعة الى هذا الضرب ، دهشة لعجزها عن تفاديه .

وكانا يستمعان إليها بصمت ، يجتاحها تأثر عميق بهذه القصة الساذجة لانسانة عوملت ، زمناً طويلاً ، كالحيوان ؛ دون ان تند عنها اية شكوى ، حتى تملكها الإحساس بأنها حقاً كذلك ، وكان يخيل إليها ان آلاف الناس ينطقون في لسانها . لقد كان كل شيء في وجودها تافهاً بسيطاً ، ولكن هذه التفاهة وتلك البساطة كانتا الطابع الذي تتميز به حياة عدد لا يحصى من الناس على وجه الأرض ، ولم يكن لقصتها هي إلا قيمة الرمز .

وكان نيقولا جامداً يسند رأسه براحتيه ، ومرفقه الى الطاولة ، ويرنو الى الأم من وراء نظارتيه ، بعينين تلمع فيهما اليقظة ، اما صوفيا فكانت تستلقي على متكأ المقعد ، وتجتاحها بين الفينة والفينة رعشة ، وتهز رأسها مستنكرة .

وكان وجهها يبدو اكثر نحولاً وأشد اصفراراً ، ولم تكن تدخن .

وقالت صوفيا بصوت خفيض :

ـ لقد اعتقدت يوماً بأني شقية ، وخيل اليّ ان حياتي ضرب من الحمى ...

وكان ذلك الشعور ينتابني وانا في المنفى ، في قرية صغيرة بائسة من قرى الاقليم حيث لا عمل يشغلني ولا تفكير لي إلا نفسي . وبوحي البطالة رحت احصي مصائبي كلها واستعرضها :

لقد كان بيني وبين والدي الذي احبه خصام ، وكنت قد طردت من المدرسة ، وألحقت بي المهانة ، ثم ذقت السجن بعد ذلك والخيانة ، خيانة صديق كان عزيزاً عليّ ، ثم اوقف زوجي ، ثم دخلت السجن من جديد ونفيت ، ثم لم يلبث ان قضى زوجي نحبه ، وكنت أحسب عندئذٍ ان أشقى مخلوق على وجه الارض هو انا .. غير ان مصائبي كلها ، حتى ولو كانت عشرة اضعافها ، لا توازي شهراً واحداً من حياتك يا بيلاجي ... إذ أنىّ للناس القدرة على تحمل ذلك التعذيب اليومي طوال سنوات مديدة ؟!

وتنهدت الأم : انهم يعتادون ذلك .

وقال نيقولا وهو مطرق :

ـ اعتقد اني خبرت الحياة . لم يحدثني عنها كتاب ، ولا انطباعاتي المتناثرة ، بل اعرفها وجهاً لوجه . انها رهيبة . بتفاصيلها ، بتفاهاتها .. وحتى بتلك اللحظات التي تتكون منها الاعوام .

وكان الحديث يتشعب ويمتد ، ويعنف كاشفاً ملامح هذه الدنيا الجاحدة كلها ، وكانت الأم ، وهي غارقة في الذكريات ، تستخرج من ظلمات امسها ، المخازي اليومية وترسم اللوحة القاتمة ، لوحة الهول الصامت حيث كان يغرق شبابها .

وثابت اخيراً الى نفسها فقالت :

ـ أوه .. لقد اثقلت عليكما بثرثرتي ، وقد آن لكما ان ترتاحا ؛ فلن يستطيع المرء في قليل من الوقت ، ان يروي كل شيء .

واستأذناها بصمت ، ولاحظت ان نيقولا قد انحنى امامها اكثر من المعتاد وشد على يدها بحرارة اكثر ، ورافقتها صوفيا الى حجرتها ، وقالت لها برقة وهي على العتبة :

ـ ارتاحي ... وتصبحين على خير .

وكان صوتها دافئاً ، ونظرتها الدكناء تداعب وجه الأم .
واخذت الأم يد صوفيا في راحتيها واجابت وهي تضغط عليها :
ـ شكراً لك .

ـ ٤ ـ

وبعد ايام قليلة رأى نيقولا الأم وصوفيا تظهران وقد ارتدتا اثواباً عتيقة رثة ، هندية الزي ، وفي كتف كل منهما كيس ، وفي يدها عصا ، وكان هذا الزي يظهر صوفيا أصغر سناً ، ويضفي على وجهها شحوباً وصرامة .

وحين ودع نيقولا شقيقته شد يدها بحرارة ، ورأت الأم مرة اخرى ان الود القائم بينهما تعسر إقامة الدليل عليه ، فلقد كانا لا يغدقان القبل ، ولا يتبادلان الالفاظ العاطفية ، ومع ذلك فقد كانا شديدي الوفاء ، يهتم احدهما بالآخر اهتماماً فائقاً ، اما هناك ، حيث كانت تعيش ، فان الناس يتمانقون كثيراً ، ويتبادلون غالباً الكلمات الناعمة الرقيقة ، ولكن ذلك لا يمنعهم من ان يتناهشوا كالكلاب الجائعة .

وعبرت السيدتان المدينة بصمت ، وبلغتا الريف ، واندفعتا جنباً الى جنب، في الطريق الواسع الممهد الممتد بين صفين من اشجار الحور العتيقة .
وسألت الأم صوفيا : أما آن لكِ أن تتعبي ؟
ـ انك تفكرين بأني لم اعتد المشي ... انا اعرف ذلك .

وراحت صوفيا تحدث الأم بمرح عن نشاطها الثوري كأنها تباهي بنزوات طفولتها . لقد كان عليها ان تعيش بأسم مستعار ، وان تستخدم هوية مزورة ، وان تتنكر لتفلت من رقابة الجواسيس ، ولتحمل الى مدن مختلفة عشرات الكيلو غرامات من الكتب الممنوعة ولتنظم فرار الرفاق من المنفى ، ولتؤمن لهم اجتياز الحدود .. ولقد كان في مسكنها هناك مطبعة سرية ، وعندما كان الجند الذين يبلغهم النبأ ، يأتون للتفتيش ، كانت تجد متسعاً من الوقت لترتدي قبل وصولهم بلحظات ، زي خادمة ، ثم تخرج فتلتقي « بضيوفها » عند

مدخل البناية : وتمضي في قر الشتاء القاسي تجوب المدينة من اقصاها الى اقصاها، يدثرها معطفها ، ويغطي رأسها منديل حريري صغير ، وفي يدها مصباح بترول.

وفي احدى المرات وصلت الى مدينة مجهولة لتحل في ضيافة اصدقاء لها ، وكانت تتسلق سلم المنزل عندما لاحظت ان تفتيشاً يجري في منزلهم ، ولم يبق لديها متسع من الوقت لتنكفيء الى الوراء ، فطرقت بشجاعة باب المنزل الذي تحته وراحت ، وهي تدخل مع حقيبتها بيت جماعة لا تعرفهم ،راحت تشرح لهم بصراحة ، حقيقة الأمر وتقول بوثوق :
ـ انكم تستطيعون تسليمي للبوليس إذا شئتم .. ولكنني اعتقد انكم لن تفعلوا ذلك ابداً .

ولم ينم القوم ليلتئذ فقد ملأهم الرعب ، وكانوا يتوقعون في كل لحظة ان يُطرق بابهم ، ولكنهم لم يقرروا ابداً تسليمها الى الجند ، بل شاركوها السخرية منهم في صباح اليوم التالي .

وفي مرة اخرى كانت تستقل ،وهي متنكرة في ثياب راهبة ، نفس القطار ـ بل انها كانت تجلس في نفس المقعد ، الذي يشغله مراقب أوكل اليه امر القبض عليها ، وكان يباهي بحذقه وهو يحدثها كيف اعد العدة لاصطيادها ، وكان واثقاً من وجودها في القطار ، وفي مقاصير الدرجة الثانية ، لذلك كان يخرج عند كل محطة للتفتيش عنها وعندما يعود يقول لها :
ـ لم ارها ابداً ؛ لا شك انها نائمة . إنهم يتعبون مثلنا ايضاً لأن حياتهم قاسية كحياتنا ...

كانت الأم تضحك وهي تصغي الى احاديث صوفيا ، وترنو اليها بعينين يفيض منهما الود ، وكانت صوفيا ، وهي مديدة القامة هزيلة ،تسير بخطى ثابتة رشيقة، وفي خطوها حين تخطو ، وفي كلماتها ورنة صوتها الخفيض الجريء ، وفي قوامها الأهيف كله ، عافية معنوية جميلة ، وجرأة طروب . لقد كانت تلقي على كل شيء تراه نظرة فيها جدة وفتوة ، وتقع انى تلفتت على تفاصيل تثير فيها مرح الصبا.
ـ انظري ... ما اجمل شجرة الشربين هذه ؟

واشارت الى احدى الأشجار فتوقفت الام ، ترنو اليها . إنها لم تكن تتميز عن سواها بعلوها ولا بكثافة ظلها ... ومع ذلك فقد وافقت :

ـ اجل . إنها لشجرة جميلة .

ثم راحت تنظر كيف يعبث الهواء بشعر صوفيا الاشهب المتهدل فوق اذنيها.

ـ اسمعي .. إنه صوت قبرة .

ولمع في عيني صوفيا الرماديتين ضياء الحنـــان ، وبدت كأنها تسبق بكل كيانها الغناء الصافي ، غناء القبرة الضائعة في السماء المتألقة ؛ وكانت تنحني احياناً فتقتطف زهرة من ازهار الحقول ، وتداعب بمحبة اوراقها المرتعشة ، تداعبهـا بلمسة خفيفة من اصابعها الناعمة اللطيفة ، وهي تدندن باحدى الاغنيات الحلوة.

لقد كان ذلك كله يجتذب الأم الى هذه المرأة المشرقة العينين ، ويدنيها اليها فتقترب منها بعفوية ، حتى لتكاد تزحم طريقها، وهي تحاول ان تنسجم معها حتى في خطوها . غير ان كلمات صوفيا كانت تتسم أحياناً ، وبصورة مفاجئة بطابع الحدة والعنف ، فتبدو في نظر الأم هذراً لا طائل تحته ، وتوقظ في ذهنها هذا الخاطر الحزين :

ـ إنها لن تعجب ميشال !

غير ان صوفيا تعود بعد لحظة الى التحدث ببساطة وصميمية ، فترنو اليها الأم بحنو وابتسام وتهمس : إنك ما تزالين شابة ...

وتجيبها صوفيا : أوه ولكنني تجاوزت الثانية والثلاثين .

فتبتسم بيلاجي :

ـ ليس هذا ما عنيته ، فإن من يراك يقدر انك تجاوزت هذه السن ، ولكنه عندما ينظر الى عينيكِ ويصغي اليك ، تأخذه الدهشة إذ تبدين له فتاة صغيرة. إن حياتك مضطربة ، شاقة ، خطرة ومع ذلك فقلبك دائم الافترار .

ـ انا لا اعتبر حياتي شاقة ؛ ولا استطيع ان اتخيل حياة افضل منها واشد إمتاعاً . سأدعوكِ منذ الآن بأسم عائلتك فإن اسم بيلاجي لا يلائمك .

وترد الأم مطرقة :

ـ نادني بما تشائين ، فأنا اراك وأصغي اليك وافكر، وإنه ليسرني ان اجدك تعرفين الطريق الى قلوب الناس ، فتنفتح أمامك دونما تردد او خوف ، وتتدثر النفس بذاتها وتمضي للقائك . إني افكر بكم جميعـــاً ، واقول في نفسي : انهم سيدحرون الشر ، سيدحرونه حتماً .

وقالت صوفيا بقوة وثقة :

ـ سيكون النصر لنا لأننا مع الكادحين . لقد قرر الشعب ، وهو حين يقرر يجعل كل شيء ممكناً ، وعلينا نحن ان نوقظ وجدانه فقط ، هذا الوجدان الذي ليس له حرية التطور والنمو .

وكانت هذه الكلمات توقظ في الأم شعوراً معقداً . لقد كانت صوفيا تثـير شفقتها ، دون ان تدري لماذا ، ولكن هذه الشفقة كانت وليدة الصداقة لذلك فهي لا تجرح . وكانت تود ان تسمع منها شيئاً آخر ، ان تسمع منها كلمـــات اكثر بساطة .

وسألتها بهدوء وكآبة :

ـ من ذا الذي سيكافئكم على جهودكم ؟

فأجابت صوفيا بلهجة تعبق بالزهو :

ـ لقد كوفئنا. ربحنا حياة تحقق لنا الاكتفاء، حياة نستطيع فيها ان نظهر قوانا الروحية ... فماذا نبغي اكثر من ذلك ؟

ورمقتها الأم بنظرة خاطفة وطأطأت رأسها ثم راحت تغرق في التفكير من جديد:

ـ انها لن تعجب ميشال .

وكانتا لا تسيران مسرعتين ، بل بخطى واثقة وهما تتنشقان الهواء الرطب بملء رئتيهما ؛ وكانت الأم تشعر كأنها في الطريق الى الحج ؛ وكانت تستعيد ذكرى طفولتها ، والفرحة التي استبدت بها ، يوم غادرت قريتها بمناسبة احـد الاعياد لتحط الرحال في دير بعيد ، عند ايقونة عجائبية .

وكانت صوفيا تغني احياناً بصوت غير قوي ولكنه عذب ، اغنيات جديدة تتحدث عن السماء والحب ، أو تشرع في انشاد بعض الأشعار التي تتغنى بحقول

الفولغا وغاباته ، وكانت الأم تبتسم وتصغي ، وتهز رأسهـــا بحركة لا شعورية ايقاعية ، تنسجم مع انغام القصائد التي سحرتها موسيقاها.

وكان قلبها يغرق في الدفء والهدوء والحلم ، كمن اكتنفته في احدى امسيات الصيف ، حديقة صغيرة عتيقة..

- ٥ -

وفي اليوم الثالث بلغتا احدى القرى ، فسألت الأم فلاحـــاً كان يعمل في احد الحقول ، سألته عن معمل القار اين يقع ؛ وانحدرتا في ممر ضيق متعرج في الغاب، حيث كانت جذور الأشجار بارزة كدرجات السلالم، وافضى بهما الطريق الى فسحة صغيرة من الأرض جرداء مستديرة، مملوءة بالفحم ، وشرائح الخشب، وبقع القار ، وقالت الأم وهي تتفحص المكان بكآبة :

- ها نحن اولاء قد وصلنا .

وبالقرب من كوخ مبـني من القصب واغصان الاشجار ، وحول مائـــدة مصنوعة من ثلاثة الواح خشبية غير مصقولة ، قائمة فوق اوتاد مثبتة في الارض، كان يجلس ريبين وقـد لطخه السواد ، وانحسر قميصه عن صدره ، وكان يجلس معه ايفيم وشابان آخران ، وكانوا جميعاً يهمون بتناول غدائهم . وكان ريبين هو اول من وقع بصره عليهما فراح ينتظر وصولهما صامتاً، ويده تحجب نور الشمس عن عينيه .

وصاحت الأم من بعيد :

- طاب يومك ايها الصديق ميشال !

فنهض وتقدم رويداً لأستقبالهما ، وعندما عرف بيلاجي توقف ، وابتسم ، وراح يداعب لحيته بأصابعه السوداء .

وقالت الأم وهي تدنو :

- إننا في الطريق الى الحج ، وقد قالت لي نفسي : لنزره في طريقنا . هـذه هي صديقتي ، انها تدعى « آنا » .

ورنت بطرف عينها مزهوة ببراعتها ، رنت الى صوفيا التي كانت صارمة الوجه قاسية الملامح .

ورد ريبين وهو يبتسم ابتسامة كدراء :

- طاب يومك ..

وشد يدها ، ثم حيا صوفيا ، واردف :

- إن الكذب هنا لا يفيد ، فنحن لسنا في المدينة، ولا حاجة لنا بالاكاذيب لان الجميع هنا من جماعتنا .

وكان ايفيم الجالس الى المائدة يتفحص السيدتين بيقظة ، ثم يوشوش رفاقه .

وعندما اقتربتا نهض وسلم عليهما بصمت، أما رفيقاه الآخران فلبثا في مكانهما لا يتحركان كأنهما لم ينتبها لوجود السيدتين .

وقال ريبين وهو يربت على كتف الام :

- إننا نعيش هنا كالرهبان . لا يأتي لرؤيتنا احد . ان رب العمل غائب عن القرية ، وزوجته في المستشفى ، وأنا بمثابة الوكيل . فهلاّ جلستما ؟ هل لكما ببعض القهوة ؟ أتتناولان شيئاً من الطعام ؟ آتنا يا ايفيم بشيء من اللبن .

وانطلق ايفيم نحو الكوخ على مهل ، وانزلت المسافرتان متاعهما، ونهض احد الشابين ، وهو طويل هزيل ، ليساعدهما على ذلك ، أما الآخر ، وكان مربوع القامة ، رث الثياب ، فقد لبث في مكانه يسند مرفقه الى المائـدة ، وينظر اليهما بسهوم ، وهو يهرش رأسه ، ويدندن بأغنية .

وكانت رائحة القار الثقيلة تمتزج بنتن الاوراق المتعفنة ، فتملأ الرأس بمـا يشبه الدوار .

وقال ريبين وهو يشير الى الشاب المديد القامة :

- هذا هو جاك ...

واشار الى الآخر قائلاً :

- وذلك هو انياس ... حسناً ... كيف حال ابنك ؟

فزفرت الام :

— إنه في السجن .
وصاح ريبين : مرة أخرى ؟ إن السجن يعجبه على ما اعتقد .
وانقطع انياس عن الغناء وتناول جاك عكاز الأم وقال :
— استريحي .
ووجه ريبين الكلام لصوفيا : وانت ايضاً تفضلي بالجلوس .
وجلست فوق جـذع شجرة دون ان تنبس بكلمة ، وراحت تتأمـل محدثها بحذر .
وسأل ريبين وهو يجلس قبالة الأم :
— ومتى قبض عليه ؟
ثم صاح وهو يهز رأسه :
— إنك غير محظوظة يا بيلاجي .
— لا ضير في ذلك .
— إذن ، هل تعودت ذلك ؟
— كلا ، لم اتعوده ، ولكنني لا اجد هناك وسيلة اخرى .
وقال ريبين : إنه لكذلك .. حسناً ، قصي عليّ القصة .
واحضر وعاءً من اللبن ، وتناول كأساً عن المائدة ، وغسله ، ثم مـلأه ، ووضعه أمام صوفيا ، وهو يصغي بانتباه شديد لما ترويه الأم . لقد كان يتحرك ويقوم بعمله دونما ضجيج . وعندما انهت الأم قصتها ظلوا جميعاً غارقـين في الصمت ، لا يتبادلون حتى النظرات . وكان انيـاس يرسم بظفره على خشب الطاولة ، وايفيم يتكىء على كتف ريبين لإنه كان يقف وراءه ، وكان جـاك الذي يسند ظهره الى جذع شجرة ، كان يشبك يديه فوق صـدره ، ويطرق برأسه الى الارض ، وكانت صوفيا ترقب القرويين بطرف عينها .
وقال ريبين بلهجة متساحبة حادة :
— إذن ... فهم يتصرفون هكذا ... على المكشوف .
فرد أيفيم ببسمة متجهمة :

— لو اقمنا هنا مثل هذه المظاهرة لضربنا الفلاحون حتى الموت .
وأكـد انياس وهو يهز رأسه :
— أجل ؛ ولذلك فإني سأذهب الى المعمل ، فالحياة هناك افضل ..
وسأل ريبين :
— هل سيحكمون على بول ؟ ماذا تعتقدين ؟.. واذا أدانوه فماذا سيكون عقابه ؟ هل قيل لك ماذا سيكون عقابه ؟
فأجابت بصوت خفيض :
— السجن .. او النفي الى سيبيريا .
وتطلع اليها الشبان الثلاثة ، اما ريبين فقد طأطأ رأسه وتابع :
— وهو ... هل كان يعرف ماذا ينتظره عندما أقدم على ذلك العمل ؟
وقالت صوفيا بحزم :
— أجل ... لقد كان يعرف .
وصمت الجميع ، ولبثوا بلا حراك كأن فكرة واحـدة سيطرت عليهم فجمّدتهم في امكنتهم .
واستأنف ريبين الكلام بقسوة واتزان :
— أجل ... وانا أيضاً اعتقد انه كان يعرف ، فهو رجل جاد ، ولو لم يقس عمق الحفرة لما اقدم على القفز : هكذا يكون الفتيان ايها الشبان . إنه فتى كان يدرك انهم قد يغمدون الحربة في صدره ، وان المنفى مهيأ له .. ومع ذلك فقد مشى . وقد يمر على جثة امه .. قد يمر على جثتك يا بيلاجي ..
وقالت وهي ترتعد :
— أجل ...
وحدقت في الوجوه حولهـا ، واطلقت زفرة ، ولكن صوفيا داعبت يدها بصمت ، ونظرت الى ريبين ، حدقت في بياض عينيه مقطبة الحاجب ، وقالت بصوت خفيض :
— هذا رجل ..

وتفرست عيناها الكئيبتان بوجوه رفاقه ، فاذا هم جميعاً يلزمون الصمت .

وكانت خيوط الشمس الناعمة تتدلى في الفضاء كشرائط من ذهب ، ومن احدى الجهات كان غراب يطلق نعيبـــه اليائس ، وكانت الأم تتلفت حولها ، وتهزها ذكريات اول ايار ، وحنينها الملتاع لأبنها ولأندريه .

وكانت براميل القار الفارغة تجثم في الفسحة الصغيرة الضيقة ، وجذوع الاشجار تشرئب في جوانبها ، وكانت اشجار الحور والسنديان تكتظ حولهـا وتقتحم اطرافها من كل جانب ، وكانت هذه الاشجار التي يجمع بينها الصمت ، تلقي على الارض ظلالاً متجهمة دافئة .

وابتعد جاك فجأة عن الجذع الذي كان يسند اليه ظهره ، وتنحّى قليلاً ، ثم توقف وسأل بصوت قوي جاف ، وهو يهز رأسه :

ــ أضد أناس كهؤلاء سيرسلوننا ، اذا ما جُندت انا وايفيم ؟

واجابه ريبين مقطب الوجه :

ــ وضد من تعتقد اذن يا صاح؟ إنهم يخنقوننا بأيدينا نحن. هذه هي لعبتهم.

وقال ايفيم بعناد :

ــ ورغم ذلك فليس هناك ما يمنعني أن اكون جندياً .

وقال له انياس : ومن ذا الذي يمنعك ؟. إذهب .

ثم حدق في عيني ايفيم وقال ضاحكاً :

ــ ولكنك عندما تطلق النار عليّ ، صوّب رصاصك الى رأسي ، لا تتركني رجلاً ذا عاهة ... بل اجهز عليّ في الحال .

وصاح ايفيم بخشونة :

ــ لقد قلت لي ذلك من قبل .

وعاد ريبين الى الكلام ، فقال ، وهو ينظر الى الفتيان ويرفع ذراعه بحركة بطيئة :

ــ مهلاً ايها الفتيان ، وانظروا الى هـــذه المرأة (واشار الى الأم) ان ابنها قد قضي عليه بكل تأكيد ..

وسألته الأم بصوت أسيان خفيض :

ــ ولِمَ تقول ذلك ؟

ــ يجب ان اقوله ، فلا بد ان يكون شعرك قد ابيض لسبب مـــا . حسناً هل قتلوها بما فعلوه بابنها ؟ .. بيلاجي .. هل حملت الينا نشرات ؟

فرمقته الأم بنظرة خاطفة ، واجابت بعد فترة من الصمت :

ــ اجل ، لقد حملت .

فقال وهو يضرب الطاولة بقبضته :

ــ لقد ادركت ذلك فور ان رأيتك ، إذ لماذا تأتين الى هنا إذا لم يكن مجيئك من اجل ذلك ؟ اترون ؟ لقد انتزعوا الابن من الصفوف فحلت الأم مكانه.

ولوّح بقبضته المهددة ، وراح يقذف سيلاً من الشتائم .

وداخل الام رعب ، وهي تنظر اليه فترى ان وجهه قد تغير كثيراً . لقد اصبح اكثر نحولاً ، واتخذت لحيته شكلاً غير سوي ، شكلاً نمرت معـه عظام وجنتيه . وكانت تظهر في مآقي عينه المزرقة أوردة حمراء كأنه لم يذق منذ امد طويل ، طعم الكرى. وكان أنفه عظيماً أعقف كمنقار الكاسر وكانت قبة قميصه المفتوحة ، هذا القميص الذي لطخه القار ، فأحال لونه الاحمر الى اسود ، كانت هذه القبة تنفرج عن عظام حنجرته ، وعن شعر صدره الاسود الكثيف ، لقد كان في جماع منظره شيء كثير الغموض ، كثير الأسى ، وكان ألق عينيه المشتعلتين يؤجج وجهه الكالح بنار النقمة .

وكانت صوفيا ، وقد اشتد شحوبها ، صامتة لا تستطيع ان تحول بصرهـا عن الفلاحين ، وكان انياس يهز رأسه مقطب الجبين ، في حين كان جاك واقفـاً بالقرب من الكوخ ، ينتزع باظافره مسعوراً قشور الاوتاد . اما ايفيم فقد كان يتنقل بخطى بطيئة وراء الأم .

وتابـع ريبين :

ــ بالأمس استدعاني مدير الناحية وسألني : ماذا رويت للكاهن ايها السافل؟ وقلت له : لِمَ تدعونى بالسافل ، وانا أكدّ لأكسب خبزي ، ولم أسيء الى احد.

ولكنه راح يعربد، وصفعني بقبضة يده على وجهي، ثم القاني في السجن ثلاثة ايام.

ـ أهكذا ؟ أبمثل هذا الاسلوب تخاطبون الناس ؟ لا تنتظر مني سماحاً أيها الشيطان . فإذا لم اثأر انا بنفسي للاهانة التي الحقتها بي ، فسيثأر لها آخر.. واذا لم تكن انت هدف هذا الثأر ، فسيكونه ابناؤك ، تذكر هذا جيداً. لقد حرثتم احشاء الشعب ببراثنكم ، براثن الفولاذ ، وغرستموها حقداً ، فلا تنتظروا الرحمة يا من حلت عليكم اللعنة .

وكان ريبين يغلي انفعالاً ، وكانت النبرات المرتعشة في صوته تثير رعب الأم.

وتابع كلامه بهدوء :

ـ وماذا قلت للكاهن ؟ لقد كان في الشارع يحدث الفلاحين بعد احد الاجتماعات ؟ ويقول لهم : إن الجمهور قطيع ، وهو بحاجة ابداً الى راع . وقلت انا مازحاً : « اذا نصبنا الثعلب سيداً للغابة فسيكون هناك ريش لا طيور » فنظر الي شزراً ، وأذن لنفسه بالكلام ، فقرر ان على الشعب ان يصبر ، وان يستسلم ، وان يصلي لله ليمنحه القدرة على الاحتمال .. اما انا فقد اجبت هكذا : قلت بأن الشعب قد صلى كثيراً ، ولكن الامر الذي لا شك فيه هو انه ليس لدى الله متسع من الوقت ليسمع .

وسألني : أية صلوات اتلو . فأجبته : بأني لم إتعلم في حياتي سوى صلاة واحدة ، هي صلاة الشعب بأجمعه : يا إلهي علمني ان أجر القرميد الى القصر ، وأن آكل الحجارة ، وان ابصق الاخشاب . »

ولم يدعني اكمل .

وتوقف ريبين فجأة ليسأل صوفيا :

ـ هل انت من النبلاء ؟

فأجابته وقد اعترتها رعشة المفاجأة .

ـ وما الذي جعلك تعتقد ذلك ؟

فرد ضاحكاً .

ـ لان ذلك هو حظك ... لقد وُلدت هكذا ... اتعتقدين انه يمكن للمرء

ان يغطي خطيئة النبل، بمجرد ان يغطي رأسه بوشاح قطني؟ من الممكن يا سيدتي معرفة الكاهن .. دون ان يكون في قفطانه . لقد وضعتِ مرفقك على الطاولة المبللة فانتفضتِ كالمذعورة ، وارتسمت على وجهك ملامح السخرية .. وفضلاً عن ذلك ، فان ظهرك اكثر استقامة من ظهر اية امرأة .

وخشيت الأم ان يكون في صوته الخشن وسخريته وكلامه ما يهين صوفيا فتدخلت بحدة وقسوة :

ـ انها صديقتي يا ميشال. انها إنسانة طيبة، لقد شاب شعرها وهي تعمل من اجل قضيتنا .. فيجب الا ..

ـ هل تلفظت بما يهين ؟

فرمقته صوفيا وسألته بلهجة جافه : هل تود ان تقول لي شيئا ؟

ـ أنا ؟ أجل، منذ وقت قصير جاء الى هنا فتىً آخر ، إنه ابن عم لجاك وهو مريض بالسل . هل نستطيع ان نرسل في طلبه ؟

ـ أجل .. ادعه .

ونظر اليها ريبين وهو يطوي اجفانه ، ثم قال بصوت خافت :

ـ إذهب يا ايفيم ، وادعه ، قل له أن يأتي في السهره .

واعتمر ايفيم قبعته ، وتوارى في الغابة بطيء الخطى ، ودون ان ينبس بكلمة ، او ينظر الى احد ، وأومأ اليه ريبين بحركة من رأسه ثم قال :

ـ انه يتعذب. سيُجند عما قريب هو وجاك. إن جاك يقول: أنا لا استطيع ان اكون جندياً . والآخر ايضاً لا يستطيع ، ولكنه يرغب في ذلك ، فهو يعتقد انه بالامكان احداث حركة بين الجنود ... أما انا فأعتقد انه لا يمكن لأمرىء ان يخرق الجدار بجبهته. إنهم يضعون الحراب بين ايديهم... فينطلقون. نعم .. إن ايفيم يتألم وأنياس يعيد السكين الى جرحه ... فما الجدوى ؟

وقال انياس متجهم الملامح ودون ان يلتفت الى ريبين :

ـ إن في ذلك جدوى بلا شك . انهم سيشغلونه في الفرقة ، وسيطلق النار على العمال بمهارة تفوق مهارة الآخرين .

واجاب ريبين مطرقاً :

– أنا لا اعتقد ذلك ، ولكن من الأكيد أنه يحسن صنعاً لو تجنبه . إن روسيا واسعة الارجاء ، فأنـّى لهم ان يعثروا فيها على رجل ؟ وما عليه إلا ان يستحصل على بطاقة هوية مزورة ، وان يطوف القرى ...

وقال ايناس وهو يضرب فخذه بقطعة خشبية :

– هذا ما سأفعله أنا ايضاً ؛ ففي الوقت الذي يتقرر فيه خوض المعركة لا يكون هناك مجالٌ للتردد .

واقفل الحديث ، وكانت اسراب النحل والزنابير تحوّم منهمكة ، وكان طنينها يعلن سيطرة الصمت ، وكانت العصافير تغرد ، واغنية آتية من بعيد ، تهيم على وجهها في الفضاء . وبعد لحظة استأنف ريبين :

– حسناً ، علينا ان نعمل . وقد تكونان انتما بحاجة الى الراحة وفي الكوخ أسرّة ، فأجمع لهما يا جاكِ قليلاً من الاوراق اليابسة ... وانت ايتها الأم هاتي ما تحملين من كتب .

وفتحت الأم وصوفيا كيسها ، واكبّ ريبين ينظر الى ما فيه ، ثم قال بارتياح :

– حسناً .. إنكما تحملان رزمة كبيرة منها !

والتفت الى صوفيا يسألها :

– أمنذ وقت طويل تهتمين بمثل هذا العمل ؟ ما هو اسمك ؟

– ان اسمي منذ اثني عشرة سنة هو آنا ايفانوفا ... فماذا تريد بعد؟

– لا شيء ... هل كنت في السجن ؟ ربما ؟

– نعم ، كنت في السجن .

وقالت الأم برقة وفي لهجتها شيء من التأنيب :

– أرأيت ؟... ومع ذلك فقد كنت فظاً في حضرتها ...

وصمت لحظة ، ثم حمل رزمة من الكتب على ذراعه ، وقال وهو يكشر عن اسنانه :

– تغضبي مني ، فالفلاح والسيد كالصمغ والماء لا يلتئمان ابداً لانهما ضدان .

وأجابت صوفيا بابتسامة عذبة :

– ولكني لست سيدة ... بل كائناً بشرياً .

– هذا ممكن ... يقال ان الكلب كان من قبل ذئباً ... عفواً ... سأذهب لأخبىء هذه الكتب .

واقترب انياس وجاك منه ، وقال انياس :

– اعطنا بعضاً منها .

وسأل ريبين صوفيا : هل هذه الكتب كلها نسخة واحدة ؟

– كلا ... فهناك ايضاً صحيفة .

– آه ؟

واسرع الرجال الثلاثة جميعاً الى الكوخ ؛ وقالت الام بصوت شديد الخفوت وهي تتتبعهم بنظرها الساهم : ريبين هذا الفلاح .. إنه يلتهب ...

وغمغمت صوفيا : اجـل .. فأنا لم أر حتى الآن وجهاً كوجهه ... إنه كوجه الشهيد . هيا بنا نحن ايضاً الى الكوخ ، فأنا اريد ان القي عليهم نظرة خاطفة .

وهمست الام : لا تغضبي منه .. فهو قاس .

وابتسمت صوفيا : ما اطيب قلبك يا نيلوفنا .

وعندما بلغت السيدتان عتبة الكوخ ، رفع انياس رأسه ثم انكب ثانية على الصحيفة المنشورة فوق ركبتيه ، وهو يدس يده في شعره الجدول ، اما ريبين فقد وقف بالصحيفة تحت شعاع من اشعة الشمس كان يتسلل الى الكوخ من شقٍ في السقف ، وكان يحركها ، بين الفينة والفينة ، لينسكب النور على الاسطر وكان يقرأ فيحرك شفتيه . اما جاك ، فكان يسند صدره ، وهو راكع ، الى حافة السرير الخشبي ويقرأ .

وجلست الام في زاوية من زوايا الكوخ ، وطوقت صوفيا منكبيها بذراعيها وراحت تراقب الرفاق بصمت .

وقال جاك بصوت خافت ودون ان يتلفت :
— انهم يشتموننا يا عم ميشال ، يشتموننا نحن الفلاحين .
واجاب ريبين باسماً : يشتموننا لانهم يحبوننا .
ونفخ انياس ، ورفع رأسه :
— انهم يقولون : « لم يعد الفلاح انساناً » وهذا صحيح.. انه لم يعد كذلك .
وانزلق على وجهه الساذج المفتوح ظل المهانة ثم اردف :
— تعال ايها العالِم اللعين .. ضع نفسك مكاني ، وتحرك في داخلك ، لنرَ بعد ذلك كيف تكون .
وقالت الام لصوفيا هامسة :
— سأستلقي قليلاً فأنا متعبة بعض الشيء ، وهذه الرائحة تسبب لي دواراً.. وانت ، ألن تستلقي ؟
— كلا ...
واضطجعت الام على السرير الخشبي ، واستسلمت للكرى بعد قليل ؛ وظلت صوفيا بجانبها تراقب الرجال الذين كانوا منهمكين في القراءة . وعندما كانت نحلة تحوّم فوق الأم او زنبور تسارع هي الى طرده بالحاح ، وكانت الام تلاحظ ذلك وهي مطبقة العينين نصف إطباقة ، فتشعرها هذه العناية بشيء من اللذة والارتياح .
واقترب ريبين ووشوش بصوته الخشن :
— هل نامت ؟
— نعم ...
وصمت لحظة ، وحدق في الام ، ثم اطلق زفرة وقال بهدوء :
— لعلها أول امرأة تتبعت خطى ابنها في الطريق ... اول امرأة .
فقالت صوفيا : لندعها نائمة فلا نزعجها ، هيا بنا من هنا .
— أجل .. يجب علينا ان نعود الى العمل . لقد كنت أحب ان نتحدث ، ولكنني افضل إرجاء ذلك الى المساء . هيا بنا يا فتيان .
ومضى الرجال الثلاثة ، بعد ان تركوا صوفيا بالقرب من الكوخ ، امـا

الأم فقد كان يدور في رأسها هذا الخاطر :
— حسناً إن الامور ستسير على ما يرام ... وشكراً لله فقد اتفقوا ...
وعادت الى النوم مطمئنة ، وهي تستنشق الهواء المضمخ برائحة الغاب .. والقار.

— ٦ —

وعاد الفحامون جذلين بتصرّم نهارهم ، وايقظت اصواتهم الأم فخرجت من الكوخ متثائبة باسمة ؛ وقالت وهي ترنو اليهم بحنان :
— لقد كدحتم أنتم ، ونمت انا كسيدة !
فأجابها ريبين : إننا نغفر لك ذلك .
وكان كثير الهدوء ، فلقد استنفد التعب انفعاله الشديد . وتلفت الى انياس قائلاً :
— تحرك يا انياس لإعداد الغداء .
ثم تابع : إننا هنا نتناوب الخدمة ، واليوم هو دور انياس في اعداد الطعام.
وأجاب انياس وهو يصيخ بسمعه الى الحديث :
— ليتني أجد من يبادلني نوبتي .
ثم راح يجمع الخشب والاغصان اليابسة لإشعال النار .
وقال ايفيم وهو يجلس الى جانب صوفيا :
— في الزيارات فوائد للجميع .
وقال جاك : سأقوم بمساعدتك في عملك يا انياس .
ومضى الى الكوخ فأحضر قطعة من الخبز فقطعها ثم وضعها على المائدة .
وقال ايفيم بهدوء : اصغ . انه يسعل .
وأصغى ريبين : — نعم .. انه قادم .
ثم مال على صوفيا يوضح لها :
— سترين شاهداً. اتمنى لو أستطيع أن أعرضه في المدن والساحات ليستمع اليه الناس . إنه يردد دائماً الكلام نفسه ، ولكن يجب ان يسمعه الناس جميعاً .

وكان الظلام والسكون يزدادان عمقاً ؛ فتزداد الاصوات معهما رقة ، وكانت صوفيا والأم ترقبان القوم : لقد كانوا جميعاً يتحركون ببطء وتثاقل ، يشوبها نوع من الحذر الغريب . وكان هؤلاء بدورهم يرقبون حركات المرأتين.

وبرز من الغاب رجل فارع الطول محدودب الظهر ، يمشي ببطء متوكئاً على عصاه بقوة ؛ وكان تنفسه الخشن يُسمع من بعيد .

ـ ها انذا .

قال ذلك ثم راح يسعل.

وكان يرتدي معطفاً خلقاً يغمره حتى كاحليه ، وكان شعره الأشقر المجدول، يتفلت من تحت قبعته المستديرة الرثة في خصل هزيلة قاسية ؛ وتغطي وجهه الشاحب البارز العظام لحية وضاءة . وكان فمه نصف فاغر ، وفي محجريه الغائرين تلمع عيناه محمومتين كما لو كانتا تومضان من اعماق الكهوف المظلمة .

وسأل صوفيا عندما قدمه ريبين اليها :

ـ لقد حملتِ الينا كتباً على ما يبدو ؟

ـ نعم .

ـ شكراً لك بالنيابة عن الشعب . هـذا الشعب الذي لم يستطع حتى الآن ان يدرك الحقيقة بنفسه . أما واني قد ادركتها ؛ فاني اشكرك نيابة عنه .

وكان يتنفس بسرعة ويعب الهواء في جرعات نهمة ، وكان صوته متقطعاً وأصابعه الضاوية تنزلق منهكة على صدره محاولا ان يبكل ازرار معطفه .

وقالت صوفيا :

ان مرورك في الغاب ، وفي ساعة متأخرة يؤذي صحتك ، فالأوراق ؛ في مثل هذا الوقت ، رطبة ، ورطوبتها تعلق بحنجرتك .

فأجابها وهو يلهث :

ـ لم يعد هناك شيء صحي بالنسبة لي أبـداً . إن الشيء الوحيد الذي يريحني حقاً هو الموت .

وكان الاصغاء اليه يبعث الألم ، ومظهره يثير الشفقة ، تلك الشفقة التي لا

طائل تحتها ، والتي ترغم على الاعتراف بعجزه ، وتولد في النفس نوعاً من الحنق المستسلم .

وجلس فوق برميل، وطوى ركبتيه بحذر كأنه يخشى على ساقيه ان يتحطما ثم مسح جبينه المتصبب عرقاً ، وكان شعره جافاً لا حياة فيه .

وتأججت النار وتراقصت حولها الأشياء وارتعشت ، وترامت الظلال التي كان يلعقها اللهب ، ترامت نحو الغاب مذعورة ، وظهر فوق النار ، للحظة قصيرة ، وجه انياس المستدير ، منتفخ الاوداج ، ثم خمد الألق ، وفحت رائحة الدخان وسيطر على الساحة من جديد الصمت والضباب . وكان الجميع يصغون للكلمات المبحوحة ، كلمات المريض :

ـ .. ولكنني استطيع ان اكون مفيداً للشعب .. كشاهد على الجريمة . ها انذا فانظروا إلي . اني في الثامنة والعشرين ، ومع ذلك اني اموت. منذ عشر سنوات كنت ارفع على منكبي ، وبدون اي جهد ، ما يقارب المائتي كيلو غراماً ، وكنت اقول لنفسي : بمثل هذه العافية سأتخطى السبعين دون ان اكبو. ولكنني عشت من السبعين عشراً فقط . ولم أعد استطيع المضي بعيداً . لقد استنزفني الاسياد ، سرقوا اربعين عاماً من عمري ، اربعين عاماً .

وهمس ريبين : تلك هي معزوفته .

وتألقت دفقة من اللهب اشد قوة وضراماً من ذي قبل ، وتراكضت الظلال نحو الغابة من جديد ، في رفات خاطفة ؛ ثم كرت ثانية نحو النار ، وحامت حول جذوتها في رقص صامت حاقد . وكانت الاغصان الرمادية تفرقع في الجذوة وتئن . وأوراق الاشجار تتهامس وتضج ، وقد اثارتها نفحة من الهواء الحار . وكانت ألسنة النار تعلو وتتعانق نشيطة جذلى ، وتتصاعد في الفضاء حمراء وصفراء ، لتزرعه شرراً ؛ وفي السماء كانت النجوم تبسم للشر كأنها تدعوه الى الاعالي .

وقال المريض : انها ليست معزوفتي وحدي . ان آلاف الناس يرددونها دون ان يدركوا ان حياتهم البائسة هي امثولة خلاص للشعب

وكثيرون هم الذين يموتون جوعاً بعد ان استنفد الكدح قوامهم او اورثهم العاهة .

وراح يسعل وهو يرتعش وينطوي على نفسه ، كأنه إنما حطم الى جزئين .

ووضع جاك على المائدة وعاءً من «الكفاس» وألقى الى جانبه حزمة من البصل الابيض وقال للمريض :

– تعالى يا سافولي .. لقد احضرت لك بعض اللبن .

فهز رأسه علامة الرفض ، ولكن جاك اخذه من ذراعه ، وجره الى الطاولة .

وقالت صوفيا لريبين بصوت خافت ولهجة عاتبة :

– لِمَ ارسلتم في طلبه ؟ إنه قد يموت بين لحظة واخرى .

وقال ريبين موافقاً :

– هذا ممكن وبانتظار ذلك ليس لنا إلا ان ندعه يتكلم . لقد دمر صحته من أجل لا شيء ، ويمكنه أن يتعذب قليلاً في سبيل الناس ، فليس هذا بالأمر الخطير .

وصاحت صوفيا :

– سيقال عنكم انكم تتلذذون بما لا ادري ..

ورشقها ريبين بنظرة خاطفة ، ثم أجاب مقطب الجبين :

– إن «الاسياد» هم الذين يتلذذون برؤية المسيح وهو يئن على صليبه ، اما نحن ، فإننا نريد من الانسان أماثيل ، ونريدكم انتم ان تحملوا بذرتها .

وقالت له الأم مذعورة :

– يكفيك هذا .

واستأنف المريض ، وهو يجلس الى المائدة :

– أسألكم لماذا يدمرون الانسان بالكدح ؟ لماذا ينهبون عمره ؟ إن رب عملنا – لقد صرفت عمري في مصنع نيفدوف – إن رب عملنا هذا أهدى إحدى المغنيات حوضاً من الذهب لتستحم به ، كما اهداها «مقعدة ليلية» من ذهب ايضاً ؛ ولقد كانت حياتي كلها وقوتي في هذا الذهب ؛ انها هدرت في هذا

السبيل ؛ لقد قتلني الرجل ، قتلني كداً وجهداً ليدخل البهجة الى قلب عشيقته وقدم لها من دمي إناء منزلياً من ذهب .

وقال ايفيم مبتسماً :

– لقد خلق الانسان على صورة الله ومثاله فانظروا فيمَ يستخدم ؟

وصاح ريبين وهو يضرب الطاولة بقبضته :

– يجب أن ترفع صوتك بالشكوى .

وأضاف جاك بصوت خافت : يجب الا تتحمل ذلك .

أما إنياس فقد افتر ثغره عن ابتسامة .

ولاحظت الام ان الفتيان الثلاثة كانوا يصغون بانتباه ، وبشَرَه النفوس الغرثى ، وانهم كانوا يتطلعون الى ريبين ، باهتمام كلما تحدث ، ويراقبونه بدقة .

وأثارت كلمات سافولي بسمة غريبة ارتسمت بنزق على شفاههم ، فلم يعودوا يستشعرون معها شيئاً من العطف على المريض .

ومالت الأم نحو صوفيا تسألها همساً :

– هل ان ما قاله صحيح ؟

– نعم . إنه صحيح ، فلقد تحدثت الصحف عن هذه الهدية ، وقد حصل ذلك في موسكو .

وقال ريبين :

– ولم ينل هذا الرجل عقابه ؟ يجب أن يُقاصص . ان يجر إلى ساحة عامة فيقطع إرباً ؛ ويلقى بلحمه النتن الى الكلاب . ان الشعب هو الذي سيوقع القصاص الاكبر عندما ينهض من كبوته . إنه سيسفك كثيراً من الدم ليغسل مهانته ، فهذا الدم هو دمه الذي امتص من عروقه .. لذلك فهو سيده وصاحبه .

وقال المريض : لقد برد الطقس .

وساعده جاك على النهوض ، والاقتراب من النار .

وكانت النار تشتعل متألقة ، وكانت الظلال المشوشة تتراقص حولها وترنو بدهشة إلى ألسنة اللهب اللعوب . وجلس سافولي على أحد الجذوع ، ومد نحو

الدفء يديه الشفافتين الجافتين . وأشار ريبين اليه بهزة من رأسه وقال لصوفيا :

ـ إن هذا أبلغ من الكتب بكثير ؛ فعندما تنتزع الآلة ذراع عامل او تصرعه يقال بأن ذلك كان نتيجة لخطأه هو .. ولكنهم عندما يُمتص دم انسان ثم يُطرح بعد ذلك كالجيفة ، لا يجدون لذلك تفسيراً أبداً . أنا افهم ان يقع حادث قتل، قتل مهما كان نوعه، ولكنني لا أفهم أن يعذب انسان لمجرد اللذة فحسب.

علامَ يقتلون الشعب ؟ علامَ يعذبوننا نحن الآخرين ؟ إنهم يفعلون ذلك ليمزحوا ويمجنوا ، ويمتعوا انفسهم على هذه الارض ، ليشتروا بدمنا كل شيء ، ليشتروا مغنيةً ، وجياداً ، وآنية مزفضة ، وصحافاً من ذهب ، ودمىً لأطفالهم غالية الثمن .

ويقول لك رب العمل : إكدح أنت ، اكدح ما استطعت لأكدس انا الثروة من جهدك فأقدمها لعشيقتي إناءً من ذهب .

وكانت الأم تصغي وترنو ، فيتوضح لها ، مرة اخرى، الطريق الذي اختاره بول ورفاقه جميعاً وتراه يتألق في الظلمات ، ويتلوى في شريط وضاء .

.. وفرغوا من طعامهم ، واقتعدوا جميعهم حول النار التي كانت تشتعل وتلتهم الحطب اليابس بسرعة ونهم. وكانت وراءهم ترقد الظلمات ، وتغمر السماء والغاب ، وكان المريض يرنو الى اللهب بعينين جاحظتين ، ويسعل بلا انقطاع ، فتهزه الرعشات بعنف ، حتى لتحسب ان بقايا الحياة فيه ، تهجر صدره وقد عيل صبرها ، وتتعجل الرحيل من جسده الذي نخره الداء ؛ وكانت انعكاسات اللهب تتراقص فوق وجهه فلا تفلح في أذكاء الحياة في ذلك الجلد الميت ، غير ان عينيه فقط كانتا تشتعلان بنار لا تخمد ابداً .

ومال اليه جاك يسأله : ربما كنت تود الذهاب الى الكوخ يا سافولي ؟

فأجاب بجهد :

ـ ولمَ ؟ إنني اود البقاء هنا فلن يطول مكثي بين الناس .

وتصفحت نظراته بسرعة وجوه الرفاق ، وبعد فترة من الصمت ، تابع كلامه ، وعلى شفتيه تنطرح بسمة شاحبة :

ـ إنني أشعر براحة وانا بينكم . اتصفح وجوهكم فأقول في نفسي : ربما كنتم إنتم الذين ستثأرون لكل ما سُلب منا ، لكل الناس الذين قتلهم شره الآخرين ..

ولم يجبه احد ، وغلبه النعاس فتدلى رأسه على صدره ، ونظر اليه ريبين ثم قال بصوت خافت :

ـ إنه يأتي الينا فيجلس ويقص علينا دائماً نفس القصة . دائماً قصته كإنسان مُهان ، فيفرغ فيها كل روحه ، كأن تلك المهزلة القذرة وحدها قد غطت على عينيه فلا يرى سواها ابداً .

وقالت الأم وهي تطرق :

ـ ماذا عساه أن يفعل اكثر من ذلك ؟ اذا كان الآلاف من الناس يموتون إرهاقاً ، ويوماً بعد يوم ، لكي يتاح للسيد ان يبدد المال في مباذل ونزوات كهذه ؟

ماذا عساه أن يفعل أكثر من ذلك ؟

وهمس انياس :

ـ إن الإصغاء اليه شيء ممل . إن قصته لا يمكن ان تُنسى حتى ولو سُمعت مرة واحدة .. ولكنه هو لا ينفك يرددها .

وأجابه ريبين بحدة :

ـ إنها بالنسبة له ، تحتوي كل شيء ، حياته كلها .. يجب ان تفهم ذلك . لقد استمعت اليه عشرات المرات وهو يروي مصيره ، أما أنت فكم من مرة خامرتك الشكوك . إن في الحياة لحظات طيبة تود معها الا تؤمن بقذارة الانسان وجنونه ؛ لحظات ، تأخذك فيها الشفقة على الناس جميعاً ، غنيهم وفقيرهم . إن الغني أيضاً يضل الطريق ؛ إن أحدهما يعميه الجوع ، والآخر يعميه الذهب . فيا أيها الناس ، يا أيها الاخوة ، احنوا الرؤوس قليلاً ، وفكروا ، ولا يخيفنكم ان تفكروا .

.. وانتفض المريض مرتعشاً ، وفتح عينيه ، ثم انطرح على الارض ، فنهض

جاك بهدوء ، وتوجه الى الكوخ ، فأحضر غطاءً من الفرو ، وغطى به سافولي ثم عاد فجلس الى جانب صوفيا .

وكانت الجذوة ذات الوجه الوردي والبسمة المثيرة، ما تزال تلقي نورها على الاشباح السوداء التي كانت تحيط بها ، وكانت اصوات الرفاق تختلط بالفرقعة الحلوة ووشوشة اللهب .

وراحت صوفيا تتحدث عن معركة الشعوب في العالم كله من اجل حق الحياة؛ عن المعارك القديمة التي خاضها الفلاحون في المانيا ، عـن بؤس الايرلنديين ، وانتصارات العمال الفرنسيين الباهرة في كفاحهم المستمر من أجل الحرية .

وفي الغابة المتدثرة بمعطف الليل المخملي ، وفي الفسحة الصغيرة بين الأشجار، وتحت سقف السماء القاتمة ، وأمام الجذوة الضاحكة ، في قلب دائرة من الظلال المندهشة الحاقدة .. كانت تُبعث من جديد ، الاحداث التي زلزلت عالم المتخمين والطماعين ، وتُستعرض شعوب الارض وهي دامية الجراح ، تنهكها المعارك ، وتتردد اسماء المناضلين من أجل الحرية والحقيقة .

وكان صوت صوفيا الذي تشوبه بحة خفيفة يرن بعذوبة ، لقد كان كأنه آت من الماضي لينعش الآمال ويوقظ الثقة ، وكان المستمعون يصغون بصمت إلى حكاية إخوانهم بالروح ؛ ويحدقون في الوجه الشاحب الهزيل ، وجه صوفيا .

وكان ضياء ساطع ينير لهم القضية المقدسة ، قضية شعوب الدنيا كلها، قضية النضال الذي لا ينتهي من أجل الحرية ؛ وكان كل واحـد منهم يجد أمانيـه وأفكاره في الماضي السحيق ، الملفع بنقاب دام قاتم ، يجدها في الماضي السحيق لشعوب اخرى مجهولة ، ويشارك في الكون عقلاً وقلباً ؛ ويلتقي فيه بأصدقاء صمموا منذ أمد بعيد ، وبكثير من الحـزم ونكران الذات ، على ان يقيموا العدالة في الارض ، أصدقاء عمدوا تصميمهم هذا بالآلام التي لا تحصى، وسفكوا الانهار من دمائهم من اجل انتصار حياة جديدة ، حياة صافية سعيدة . وكان شعور القربى الفكرية التي تربطه بالناس جميعاً ، كان هذا الشعور يشمخ في قلبه ويتنامى ؛ انه قلب جديد هو ذاك الذي كان يولد على الارض ، قلب يملأه التوق

الحار الى ان يفهم كل شيء ، ويتحد بكل شيء .

وقالت صوفيا بصوت واثق :

— سيأتي اليوم الذي يرفع فيه الكادحون في شتى أقطار الارض رؤوسهم ؛ ليقولوا بحزم : كفى .. إننا لا نريد هذه الحياة ابداً .. عندئذ تنهار تلك القوة الخداعة ، قوة اولئك الذين ليسوا اقوياء إلا بشرهم ؛ وستميد الارض تحت اقدامهم ، فلا يجدون ما يتشبثون به

وقال ريبين وهو يحني رأسه :

— هذا ما سيحدث، اننا نستطيع إذا ما اهتممنا بأمر انفسنا، ان نذلل كل عقبة.

وكانت الأم تصغي مشرئبة الحاجب ، وبسمة الدهشة المرحـة تتسمر على شفتيها ، وكانت تلاحظ ان كل ما كان يعتمل في صدر صوفيا من عنف وحدة ، قد تلاشى الآن على ما يبدو ، وانصهر في السياق العارم السوي لقصتها . وكان سكون الليل وارتعاش النار ووجه صوفيا ، واصغاء القرويين الشديد .. فوق ذلك كله، يبعث الارتياح في نفسها .

ولبثوا جامدين بلا حراك ، جاهدين ألا يعكروا تدفق حديثها الهادىء ، وألا يقطعوا ذلك الخيط الوضاء الذي يصلهم بالعالم . وكان واحـدٌ من بينهم فقط ، يلقي الى النار ، احياناً ، بقطعة من الحطب ، يلقيها باحتراس ، حتى اذا تعالى الدخان وتطايرت زمر الشرر راح يذبها عن السيدتين بكفيه .

وبعد قليل نهض جاك وقال :

— انتظروا قليلاً .

ثم راح يعدو الى الكوخ ، فأحضر بعض الملابس التي أخذ انياس يدثر بهـا جنوب الضيفتين واكتافهما . واستأنفت صوفيا الكلام، وكانت تصف يوم النصر وتبعث في الحضور الايمان بقواهم ، وتوقظ فيهم حس الاتصال الوجداني بأولئك الذين يكرسون حياتهم للكد التافه العقيم، في سبيل الترفيه السخيف عن المتخمين.

ولم تكن هذه الكلمات لتثير قلق الام ، ولكن إحساسها بشيء ما عظيم ، أثاره حديث صوفيا وتغلغل في نفس الجميع ، هذا الاحساس كان يملأ نفسها بعرفـان

الجميل ، والتقديس لأولئك الذين اجتازوا المخاطر ، اجتازوها الى قوم كبلتهم سلاسل الكدح ، فحملوا إليهم عطايا عقولهم وإخلاصهم وحبهم للحقيقة .

وكانت تتمتم وهي تغمض عينيها

ـ ساعدهم يا رب .

وصمتت صوفيا عند الفجر تعبى ، ورنت ناسمة الى الوجوه الساهمة الطلقة التي كانت تحيط بها .

وقالت الأم : لقد آن لنا ان نرحل .

وردت صوفيا باعياء : اجل لقد آن ذلك .

وتنهد أحد الفتيان بصوت مسموع ،وتعالى صوت ريبين في رقة غير معتادة :

ـ يؤسفنا جداً أن ترحلا ، انكما تحسنان الكلام ، وإنه لشيء عظيم أن تعملا على إقامة اواصر القربى فيما بين الناس. إن المرء ليشعر ان قلبه أضحى أفضل من ذي قبل ، عندما يعلم ان الملايين تتوق إلى نفس ما تتوق اليه نحن الآخرين . ... والطيبة ، قوة عظيمة .

وغمغم ايفيم وهو ينهض بخفة :

ـ إنك حين تحدثهم عن طيبة القلب ، يردون عليك بالمذراة يجب أن ترحل السيدتان ، يا عم ميشال ، قبل أن يراهما احد ؛ فستوزع النشرات وستنطلق السلطات للبحث عن مصدرها ، وقد يكون هناك واحد يتذكر : لقد مرت امرأتان من هنا .

وقاطعه ريبين :

ـ حسناً . وشكراً أيتها الام على ما تحملته من مشقة . إنني عندما أراك افكر طول الوقت ببول . لقد سلكت طريق الخير .

وارتسمت على شفتيه بسمة طيبة عريضة ، وكان موفور النشاط يرتدي قميصاً يكشف عن صدره . وتأملت الأم قامته الضخمة ونصحته بود :

ـ يجب أن تضع شيئاً عليك فالطقس بارد .

فأجابها : اني اشتعل دفئاً في الداخل .

وكان الفتيان الثلاثة يتبادلون الحديث بصوت خفيض ، وهم وقوف بالقرب من النار ، في حين كان المريض يرقد عند اقدامهم وقد دثره رداء من الفرو . وكانت السماء تشحب ، والظلال تنصهر ، والاوراق ترتعش بانتظار بزوغ الشمس.

وقال ريبين وهو يشدّ يد صوفيا :

ـ وداعاً إذن .. كيف نهتدي اليك إذا أحببنا أن نراك في المدينة ؟

فأجابت الأم :

ـ ليس لك إلا أن تعثر عليّ أنا

واقترب الفتيان الثلاثة من صوفيا بتؤدة ، وشدوا يدها واحداً بعد واحد بارتباك ودود ، ودون ان ينبسوا بكلمة : وكان جلياً ان كلا منهم يستشعر في قرارة نفسه ، شعور العرفان بالجميل ، شعور الصداقة نحوها ، وكان هذا الشعور يربكهم ، بلا شك ، بما فيه من جدة لم يتعودوها ، وكانوا يرنون إليها بصمت ، والبسمة في عيونهم ، هذه العيون التي يشيع فيها شحوب السهاد .

وسأل جاك :

ـ هل لكما بقليل من اللبن قبل ان ترحلا ؟

فقال ايفيم : ولكن هل بقي عندنا لبن ؟

وأجاب انياس وهو يمر بيده على شعره بارتباك :

ـ كلا .. فلقد عثرت بالاناء فاندلق .

وغرق الثلاثة في ضحك طويل .

لقد كانوا يتحدثون عن اللبن . ولكن الأم شعرت بأنهم كانوا يفكرون بأمر آخر ، كانوا يتمنون لها ولصوفيا الخير كل الخير ، دون ان يفصحوا ، ولقد اثر ذلك في نفس صوفيا ، وأثار فيها الاضطراب والتواضع الحيي ؛ فلم تقو معهما على التفوه بأكثر من هذه الكلمة الهزيلة :

ـ شكراً أيها الرفاق .

وتبادلوا النظرات ، وبدا كأن هذه الكلمة قد أثملتهم فراحوا يترنحون بهدوء . وتعالى من جديد سعال المريض الخشن ، وكان الفحم يخبو في الموقد ،

والقرويون يرددون : وداعاً .

وتشيع هذه الكلمة الكئيبة السيدتين ، وتواكبها خلال فترة طويلة .

وسارتا على مهـل ، في طريق حرجي ، وسط غبش الفجر ، وكانت الأم تقول وهي تسير وراء صوفيا :

— لقد مر كل شيء كالحلم .. وكانت الامور على ما يرام .انهم يودون معرفة الحقيقة ، يودون ذلك يا عزيزتي . لقد كان ذلك أشبه بما يجري في الكنيسة قبل قداس الصباح في يوم عيد عظيم . الكاهن لم يصل بعد ؛ والجو قاتم ، وكل شيء يسوده الهدوء . ويستولي الخوف عليك ، ثم يقبل الناس ، وتضاء هنا شمعة أمام الأيقونة ، وتضاء اخرى هناك ، وتطرد الظلمة شيئاًفشيئاً ،ويملأ النور بيت الله .

وأجابت صوفيا بمرح :

— هذا صحيح ، ولكن بيت الله هنا هو الارض بأسرها .

ورددت الأم وهي تهز رأسها مفكرة :

— الارض بأسرها .. ذلك جميل جداً ، وان كان يصعب تصديقه ! ولقد أجدت يا عزيزتي صوفيا في حديثك ، أجدت الاجادة كلها ، وقد كنت أخشى ألا تعجبيهم .

وأجابت صوفيا بعد قليل ، وبصوت خفيض لا بهجة فيه :

— ان المرء ليزداد بساطة حين يكون بينهم .

وتحدثتا طوال الطريق عن ريبين ، والمريض ، والفتيان الذين كانوا يصغون بكثير من الاهتمام والذين عبّروا عن صداقتهم الشاكرة تعبيراً بليغاً بما أحاطوهما به من لطف العناية ؛ وبلغتا الحقول الواسعة ، ،كانت الشمس تستيقظ أمامها ، ولم تك بعد قد برزت من افقها ، بل كانت تنشر في السماء مروحة شفافة من شعاعها الوردي ،وكانت حبات الطل تتلألأ فوق العشب كومضات متعددة الالوان من فرحة ربيعية مزهوة ، وكانت العصافير تستفيق ، فتبعث الحيوية في الصباح بأغاريدها المرحة ، والغربان الكبيرة ترسل نعيبها المغموم ؛ وتطير ،وهي تنفض أجنحتها بتثاقل ، وكان كناري يطلق من مكان ما لحنه ، في الفضاء ، وكانت

الابعاد تنحسر ، وتخلع عن الذرى ظلال الليل ، لتواجه الشمس .

وقالت الأم حالمة :

— في بعض الاحيان يحدثك احد الناس ، يحدثك فلا تفهمينه ، الى ان يتفوه بكلمة ما لا تدرين ما هي ، كلمة بسيطة ، ومع ذلك ، لا شيء سوى هذه الكلمة يوضح لك فجأة كل شيء . ذلك هو حال ذلك المريض . لقد سمعت كثيراً ،وانا ايضاً اعرف بنفسي كيف يُرهق العمال في المصنع ، وفي كل مكان ، ولكن المرء يتعود ذلك فلا يهزه ولا يحركه . لقد قال شيئاً فيه كثير من المهانـة ، وكثير مما يخجل .

يا إلهي : أيمكن أن يسلخ الناس حياتهم كلهـا في الكدح ؛ ليتيحوا لأرباب عملهم مثل هذه المهازل ؟ ان ذلك لا يمكن تبريره .

وتوقف تفكير الام عند قصته التي رواها ، والتي اوضحت لها ، بما فيها من بلاهة وصفاقة ، كثيراً من الغرائب التي وقفت عليها من قبل ، ثم نسيتها .

— إنهم يتخمون لدرجة يصابون معها بمرض القلب . لقد كان هنـاك مدير ناحية يرغم الفلاحين على تأدية التحية لجواده حين يخرج به لنزهة في البلدة ، ومن لا يفعل ، فالسجن عقابه . ترى ما حاجته الى مثل هذا العمل ؟ ابـداً . لم يتوصل احد إلى فهم السبب وراحت صوفيا تغني أغنية نشيطة،منتصرة كالصباح.

— ٧ —

وكانت حياة الأم تنساب بهدوء عجيب،وكان هذا الهدوء يثير دهشتها أحياناً. لقد كان ابنها في السجن ، وكانت تعلم ان عقاباً قاسياً ينتظره ، ولكنها كانت كلما فكرت بذلك يمثل في ذاكرتها ، رغم إرادتها ، وجه اندريه ، وثيو ، وكثيرين غيرهما . وكانت صورة ابنها ، وهي تذكرها بكل اولئـك الذين يشاطرونه مصيره ، تتضخم في عينيها،وتحملها الى جو من التأمل يحول دون تركز افكارها على بول ، بل تشتتها في كل اتجاه ؛ وكانت هذه الأفـكار تتشعب ، وتتفرع الى شعاعات دقيقة غير متساوية ، فتلامس كل شيء ، وتحاول ان تلقي النور على كل

شيء ، وان تجمع كل شيء في لوحة واحدة ، وتحول بينها وبين التوقف عن احدى التفاصيل المعينة ، وتلهيها عن حزنها ، وعن ذلك الرعب الذي كان يبعثه في نفسها مصير ابنها .

وكانت صوفيا قد بكرت في الرحيل ، ولكنها لم تلبث ان عادت الى الظهور بعد خمسة ايام او ستة : عادت مرحة موفورة النشاط لتختفي من جديد بعد ساعات قليلة ثم انها لم تشاهد بعد ذلك الا بعد اسبوعين ؛ حتى لكأنها تنطلق في الحياة في دوائر واسعة ، فلا تلج منزل أخيها إلا وهي عابرة ، لتملأ هذا المنزل مرحاً وموسيقى .

وكانت الأم قد أخذت تتذوق هذه الموسيقى . لقد كانت تشعر وهي تصغي اليها ، كأن مويجات دافئة تلطم صدرها ، وتتسلل إلى قلبها فينتظم نبضه أكثر من ذي قبل . وكما تبرعم البذور المغروسة في تربة جيدة الحرث . منتظمة الري ، هكذا كانت تولد في رأسها الافكار الجريئة العنيفة ، وتزهو التعابير الخفيفة الرشيقة التي توقظها قوة الالحان .

وكانت تجد عنتاً في الصبر على فوضوية صوفيا التي كانت تبعثر في كل زاوية ، أشغالها ، وأعقاب سجائرها ، ورماد هذه السجائر ؛ كما تجد مثل ذلك العنت في مجاراتها بطريقة كلامها الشديدة الجرأة ، والتي تختلف اختلافاً بيناً عن هدوء نيقولا وصفاته ، وروعة الفاظه العذبة ، تلك الروعة التي لا يفسدها شيء ابداً . لقد كانت صوفيا في نظرها مراهقة تتعجل الوصول الى ان تكون شخصية مرموقة ، وتعتبر الناس كدمى فضولية . كانت تتحدث كثيراً عن قداسة العمل ، ولكنها باهمالها البليد تزيد من مشاغل الأم ؛ وكانت تخطب عن الحرية ، ولكن الأم ترى انها كانت تضايق الآخرين برعونتها الجارحة ، ومجادلاتها التي لا تنتهي . وكانت ترى فيها كثيراً من المتناقضات فتعاملها بحذر ناعم وانتباه يقظ ، ولا تحس معها ، مثل ذلك الدفء الذي يغمر قلبها ، ويثيره فيها نيقولا .

وكان هذا ، وهو المنهمك ابداً ، يحيا يوماً بعد يوم ، حياة رتيبة منتظمة .

يتناول طعام الفطور في الثامنة ، ثم يقرأ الصحيفة ، ويفضي بما تحمله من أنباء إلى الأم ، وكانت وهي تصغي اليه ، تتبين بوضوح مدهش كيف تسحق عجلة الحياة الثقيلة ، الناس دونما رحمة ، لتحيلهم الى مال ؛ وكانت تكتشف فيه مزايا يشترك بها مع اندريه ، فهو مثله يتحدث عن الناس دونما حقد ، ويعتبرهم جميعاً مسؤولين عن التنظيم الاجتماعي السيىء ، ولكن ايمانه بحياة جديدة لم يكن أكثر حرارة ولا إشراقاً . وكان يتكلم دائماً بهدوء ، وبلهجة قاض نزيه صارم ، وكانت البسمة الوادعة العذبة لا تفارق شفتيه ، حتى ولو كان الحديث يتعلق بأشياء رهيبة ، ولكن عينيه ، في مثل هذه الحال ، كانتا تلتمعان بألق بارد قاس . وعندما كانت الأم ترى هذه النظرة تدرك ان هذا الرجل لا يمكن أن يغفر شيئاً لأحد ، وانه لا يستطيع الغفران ، وكانت تشعر ان هذه القسوة تؤلمه فترثي له ، له هو الذي كان حبها له يزداد على الدوام .

وفي التاسعة كان يمضي الى مكتبه ، فتنصرف هي الى ترتيب المنزل ، وتعد الطعام وتستحم ، ثم ترتدي ثوباً نظيفاً ، وتجلس في غرفتها تتأمل صور الكتب ، وكانت قد اصبحت تحسن القراءة ، الا ان القراءة كانت تقتضيها الجهد ، وتتعبها بسرعة ، فلا تستطيع أن تدرك الترابط بين الكلمات ، اما الصور ، فقد كانت على العكس ؛ تسليها كطفل ، وتكشف لها عن عالم يكاد يكون ملموساً ، عالم جديد رائع يمكن فهمه . لقد كانت ترى أمامها مدناً واسعة تفجأها ، وبنايات رائعة ، وآلات ، وبواخر ، وآثاراً . كانت ترى الثروات التي لا تحصى ، والتي أبدعها الناس ، وترى بدائع الطبيعة التي تدهش عقلها بتنوعها ، وكانت الحياة تتسع أمامها حتى اللانهاية ، وتطلع عليها كل يوم بأشياء ضخمة ، لم تسمع بها ، جنية الملامح ، وكانت بوفرة غناها ولا نهاية جمالاتها ، تثير روحها الغرثى التي كانت تتفتح ، وكانت تحب بشكل خاص ، تصفح كتاب مصور في علم الحيوان ، وبالرغم من ان هذا الكتاب كان بلغة اجنبية ، فانه كان يضع بين يديها أوضح صورة عن جمال الارض ، وثروتها ، واتساعها .

وكانت تقول لنيقولا : ما أكبر الارض .

وكانت الحشرات تستهويها أكثر من كل شيء ، وعلى الأخص ، الفراش ، فتتأمل صورها بدهشة وتقول :

— يا لجمالها . أليس كذلك يا نيقولا ؟ كم يوجد من هذه الأشياء الجميلة الغالية في كل مكان ، ولكنها جميعها تتخفى فلا تبدو لأعيننا . انها تمر أمامنا بسرعة عجيبة فلا تراها أبداً . ان الناس يتحركون فلا يعرفون شيئاً ، ولا يستطيعون ان يروا شيئا ، وان يعجبوا بـه ، إذ لا وقت لديهم لذلك ولا رغبة . لكم باستطاعتهم أن يغنموا من مباهج ، لو عرفوا كم هي غنية أرضنا ؛ وكم من أشياء مدهشة يجدون على ظهرها . ان هذه الأشياء كلها هي للجميع .. وكل واحد هو لهذه الأشياء جميعاً . أليس كذلك ؟

ويجيب نيقولا باسماً :

— تماماً

ويقدم اليها كتباً اخرى مصورة .

وفي المساء ، تكون الزيارات غالباً . ومن بين الزائرين الذين يترددون : الكسي فاسيليف ، وهو رجل وسيم وقور صموت ، شاحب الوجه ، اسود اللحية ؛ ورومان بيتروف وهو ذو وجه نحاسي ، ورأس شديد الاستدارة ، تصطك شفتاه دائماً في حركة مشفقة ؛ وجان دانيلوف وهو صغير هزيل ، مدبب اللحية ، وذو صوت نحيف صخاب مثير ، حادٍ كأنه المخرز ، وايغور ، الذي يسخر من نفسه ، ومن رفاقه ، ومن شقائه الذي يتعاظم بلا انقطاع . وآخرون غيرهم كانوا يقبلون من المدن النائية ، فيعقد نيقولا معهم أحاديث طويلة ، تدور دائماً حول موضوع واحد : الطبقة العاملة في العالم كله . وكانوا يتجادلون ، ويتحمسون ، ويكثرون من الحركات ، ويشربون كثيراً من الشاي ؛ وفي غمرة النقاش ، يدبج نيقولا النداءات ، فيتلوها على الرفاق الذين يسارعون الى نسخها اثناء الجلسة ، في حين تنصرف الام الى جمع نتف المسودات الممزقة وحرقها .

وكانت وهي تقدم الشاي لهم ، تدهش لتلك الحماسة التي تسيطر عليهم وحين يتحدثون عن حياة العمال ومصيرهم ، وعن افضل الطرق وأسرعها لنشر الحقيقة في

صفوفهم ، ورفع روحهم المعنوية ، وكثيراً ما كانت الآراء تتضارب ، فيغضبون ويتبادلون التهم ، ويظهر الغم في وجوه البعض ، ولكنهم لا يلبثون ان يستأنفوا نقاشهم من جديد .

وكانت الأم تحس انها تعرف حياة العمال اكثر مما يعرفونها هم ، ويتراءى لها انها تدرك بوضوح اكثر ، جسامة المهمة التي تصدوا لها ، وهذا ما يحملها على ان تعاملهم معاملة فيها بعض التنازل الكئيب ، كتنازل رجل ناضج ، يشارك اطفالاً يلعبون لعبة الزوج والزوجة ، دون ان يدركوا ما فيها من معنى المأساة .

وكانت ، دون ان تتعمد ذلك ، تحاول ان تقارن بين اقوالهم ، وأقوال ابنها وأندريه ، فتلمس الفارق الذي كان يفوتها في البدء ان تلمسه . وكان يتملكها ، بعض الأحيان ، شعور بان الأصوات ترفع هنا ، اكثر مما ترفع هناك في الضاحية ؛ فتعلل ذلك بقولها :

— إنهم يعرفون اكثر منهم لذلك فهم يتكلمون بصوت اقوى . ولكنها كانت تلاحظ في اغلب الأحيان ان هؤلاء القوم إنما يتحمسون وفقاً لخطة ، وأن انفعالهم ليس إلا انفعالاً مصطنعاً ، وان كلا منهم يود ان يثبت لرفاقه ان الحقيقة هي اغلى عليه ، وأقرب اليه من الاخرين ؛ وهذا ما يجرحهم ، فينهدوا ، لكي يثبتوا معرفتهم لهذه الحقيقة ، الى استئناف الجدال ، بضراوة وقسوة . لقد كان كل منهم يود ان يقفز اكثر من الاخر ، وكان الحزن الكئيب يستولي على الأم بسبب ذلك ، فتحرك حاجبيها ، وهي تنظر إليهم بعينين متوسلتين ، وتفكر :

— لقد نسوا صغيري بول ورفاقه .

كانت تصغي وهي حاضرة الدهن ، الى مناقشاتهم التي لم تك طبعاً تفهمها .

وكانت تحاول أن تغربل الكلمات لتقف على المشاعر . في الضاحية عندما يتكلمون عن الخير يتناولونه بمجموعه ككل ، اما هنا فكل شيء يجزأ الى جزئيات صغيرة دقيقة . إن المشاعر هناك اعمق وأقوى ، اما هنا فالسيطرة للافكار التافهة التي تفتت كل شيء . هنا كانوا يتكلمون عن تهديم النظام القديم ، في حين كانوا يحلمون بالنظام الجديد ، ومن اجل ذلك كانت أحاديث ابنها واندريه أيسر فهماً بالنسبة لها ، وأقرب تناولاً .

وكانت تلاحظ ان نيقولا يغدو ، حين يأتي احد العمال ، اكثر انطلاقاً وحرية معه ، وأن تعبيراً فيه عذوبة يرتسم على ملامحه ، فيتغير اسلوبه في الحديث تغيراً كلياً ، واذا كان هذا الحديث لا يغدو اكثر خشونة ، فانه ليغدو على الأقل ، اكثر عفوية !

وكان هذا الخاطر يدور في رأسها :

« انه يجتهد في ان يفهم » .

ولكن ذلك لم يكن ليعزيها ، وكانت ترى ان الزائر يستشعر الضيق ، ويحس بكبت داخلي ، ولا يستطيع ان يتكلم بسهولة وطلاقة إلا معها ، معها هي ، ابنة الشعب .

وفي احد الأيام ، وكان نيقولا قد خرج من المنزل ، سألت احدهم :

— لِمَ تشعر بالضيق ؟ إنك لست صبياً يؤدي امتحاناً .. ؟

وابتسم الفتى ابتسامة عريضة :

— ان السراطين نفسها تحمر خجلاً عندما تحمل على غير عادتها .. ثم انه، على كل حال ، ليس هنا .

وكانت ساندرين تأتي احياناً ، ولكنها لا تمكث طويلاً . وكانت تتكلم دائماً بانهاك ولا تضحك ابداً ؛ وفي كل مرة كانت تسأل الأم قبل انصرافها :

— و بول ؟ كيف حاله ؟ لعله غير مريض ؟

— شكراً لله ، ان صحته حسنة ، وهو مغتبط .

وتقول الفتاة : ابلغيه تحياتي.

ثم تتوارى .

وكانت الأم تشكو لها بأن سجن بول قد طال كثيراً دون ان يحدد موعد لمحاكمته فيتجهم وجه ساندرين ، وتصمت ، في حين تضطرب اصابعها بعصبية .

وكانت تتأكلها الرغبة في ان تقول لها :

— يا عزيزتي الصغيرة . انا اعلم جيداً انك تحبينه .

ولكنها لم تك تفعل ، لأن ملامح الفتاة القاسية ، وشفتيها المزمومتين بشدة ،

ولهجتها الجافة المغمومة ، كانت تنبىء بأنها لا تحتمل الدعاب ، فتصعّد الأم زفرة وهي تشد صامتة ، اليد التي تمدها الفتاة اليها ، ثم تهمس في سرها :

— إنك لشديدة التعاسة يا ابنتي المسكينة .

وفي احد الأيام اقبلت ناتاشا ، وسُرّت كثيراً لرؤية الأم . لقد عانقتها وأسرت اليها فجأة بهذا النبأ ، في جملة ما حملته اليها من انباء :

— لقد توفيت امي .. توفيت المسكينة .

وأحنت رأسها ، وكفكفت دموعها بحركة سريعة .

— لقد آلمني ذلك أشد الايلام ، فهي لم تتجاوز الخمسين من عمرها ، وكان من الممكن ان تعيش اكثر . ولكنني من جهة اخرى اقول بأن الموت ، كان بلا ريب ، اخف وطأة عليها من الحياة ، لقد كانت دوماً وحيدة ، غريبة عن الناس ، لا يحتاجها احد . وكانت تعيش في خوف دائم من ثورات والدي ... فهل تراها كانت تعيش حقاً ؟ ان المرء ليعيش الحياة وهو يرجو ان تحمل اليه الخير .. اما هي فلم تكن لترجو من حياتها شيئاً ؛ لم تكن تنتظر منها الا المهانة.

وقالت الأم بعد لحظة تفكير :

— هذا صحيح يا ناتاشا ان المرء ليعيش الحياة عندما يرجو شيئاً فيها خيّراً ، اما اذا تلاشى هذا الرجاء ، فأي معنى يبقى للحياة بعد ؟

ثم اردفت وهي تتحسس يد الفتاة بحنان :

— والآن .. هل انت وحيدة ؟

وأجابت ناتاشا برفق : نعم

وصمتت الأم ثم قالت وهي تبتسم :

— لا بأس فالطيب لا يعيش وحيداً ابداً ، وهناك كثيرون تشدهم إليك اواصر ...

— ٨ —

وُعينت ناتاشا مدّرسة في مقاطع قريبة من مصنع للنسيج ؛ وأخذت بيلاجي

تزودها بالكتب الممنوعة ، والنداءات والصحف ، حتى اضحى هذا شغلها الشاغل وكانت تجوب المقاطعة ، عدة مرات في الشهر ، وهي تتنكر بثياب راهبة ، او بائعة دانتيلا او خرضوات ، او بثياب بورجوازية ثرية ، او زي حاجّة ، تجوبها سيراً على الأقدام ، او في القطار ، او في عربة . وفي يدها حقيبـة ، وفوق منكبها كيس .

وكانت تتصرف بهدوء اعصاب وبساطة سواء كانت في القاطرة او على ظهر الزورق ، او في الفنادق ،وتتحدث مع اشخاص لاتعرفهم ،وتبادلهم هي بالحديث ، وكانت تستلفت الانتباه ، دونما خوف ، بما تدير من احاديث ودية واجتماعية ، وبوثوقها بنفسها كامرأة رأت الكثير ، واستوعبت الكثير .

وكانت تحب التحدث الى الناس والأصغاء اليهم وهم يسردون حيواتهم وشكاياتهم ، وهمومهم ، وكان قلبها يفيض بالغبطة كلما انست من محدثها تلك النقمة العنيفة التي تفتش بالحاح ، رغم انها منصبة على ضربات الحظ ، عن اجوبة لأسئلة يعج بها رأسه ؛ وكانت تنبسط امامها دوماً لوحة الحياة وهي اكثر اتساعاً وتلوناً ، وتمر عليها حياة الناس ومشاغلهم كلها ومتاعبهم من اجل الرغيف ؛ وكانت تلمس أنّى اتجهت ، الجشع بعريه الوقح ، الجشع الذي يعمل على خداع الناس وسلبهم ، على ابتزازهم وامتصاص دمائهم .

وكانت ترى الخيرات موفورة على الأرض ، وترى الشعب مع ذلك يعيش في العوز والحرمان . انه نصف جائع الى جانب ثروات هائلة لا يمكن حصرها . وفي المدن تقوم معابد تعج بالذهب والفضة ، ويحار الله ماذا يفعل بهذه الكنوز ، في حين يحتشد البؤساء في ساحات هذه المعابد وهم يرتجفون ، وينتظرون ان تدس في اكفهم الممدودة سحاتيت الاحسان .

وكانت قد رأت من قبل هذا المشهد ، رأت الكنائس وحلل الكهنة الموشاة بالذهب ، وأكواخ المعدمين ، وأسمالهم المخزية ، ولكن ذلك كان يبدو لها امراً طبيعياً . اما الآن فإنها تجد هذا الوضع شيئاً مهيناً لا يطاق ، ولا يرتضيه الفقراء الذين يحبون الكنيسة ، على ما تعلم ، اكثر مما يحبها الأغنياء ، ويرونها ضرورية لهم

اكثر من اولئك .

وكانت تعرف من الصور التي رأتها للمسيح ، والقصص التي سمعتها عنه ، انه كان صديقاً للفقراء . لقد كان يلبس ببساطة ... ولكنها تراه في الكنائس التي يقبل عليها الفقراء ليلتمسوا العزاء ، تراه راسفاً في سلاسل من ذهب بطر ، اسير حرير يهفهف بازدراء حين يبصر البائسين . وكانت كلمات ريبين تقفز الى ذاكرتها :

- لقد استخدموا حتى الله لكي يخدعونا !

ودون ان يخامرها شك بذلك اخذت تقلل من صلواتها ، وتكثر من التفكير بالمسيح ، وبأولئك الذين كانوا يعيشون ، كما يبدو لها ، وفق تعاليمه ، وإن توانوا عن ذكر اسمه ، او تظاهروا بعدم معرفته ، اولئك الذين كانوا مثله يعتبرون الأرض مملكة للفقراء ، ويبغون ان توزع بين الناس بالعدل ، ثروات العالم كلها . وكانت تفكر في هذا كثيراً ، فتنمو هذه الخاطرة في نفسها ، وكانت هي بدورها تعمقها ، وتقيم نوعاً من الترابط بينها وبين كل ما تقع عينها عليه . وكانت هذه الأفكار تنمو ، وتتخذ شكلاً وضاءً لصلاة تسبغ نورها على العالم العبوس ، على الحياة كلها ، والمخلوقات كلها . وكان يخيل للأم ان يسوع ، الذي احبته من قبل حبا غامضا ، وبعاطفة معقدة يختلط فيها الأمل بالرهبة ، والحنان بالأسى ، كان يخيل اليها ان يسوع هذا هو الآن اقرب اليها من ذي قبل ، وأنه قد تغير فأمسى اكثر سمواً ووضوحاً ، حتى لكأنه قد بعث حقاً بعد ان غسله ،وملأه حياة ، ذلك الدم الحار الذي يسفحه بسخاء من اجله ، من اجل هذا الصديق البائس للناس ، اولئك الذين يمنعهم الحذر من التلفظ باسمه .

وكانت الأم تعود من رحلاتها هذه سعيدة متأثرة بما رأت وسمعت خلال الطريق ، ويبعث فيها الشجاعة وحسن الرضى ، شعورها بانها قد قامت بعملها على خير وجه . وفي المساء كانت تقول لنيقولا :

- جميل ان يسافر المرء الى كل مكان ، وأن يرى كثيراً من الأشياء إنه بذلك يدرك كنه الحياة . لقد عزل الشعب ونحّي جانباً ، فأقعى مهاناً ، ولكنه لم يتقبل ذلك مختاراً ، فهو يسائل نفسه ، لم يراد لي ان اظل معزولاً ؟ لم اجوع

والخير دافق؟ لِمَ انا بهم جاهل؟ في حين تنتشر المعرفة في كل مكان؟ اين هو الله الرحيم الذي لا فقراء، في عرفه، ولا اغنياء، بل الناس جميعاً بالنسبة له، ابناء اعزاء؟ لقد بدأ الشعب يثور شيئاً فشيئاً على الحياة التي يحياها؛ انه يشعر ان الجور سيخنقه إذا لم يأخذ هو بنفسه قضيته بين يديه.

وكانت تستشعر رغبة طاغية متنامية في ان تتحدث الى الناس بلغتها، ان تحدثهم عن مظالم الحياة، وكان من العسير عليها احياناً ان تلجم هذه الرغبة.

وكان نيقولا يفاجئها وهي تتملّى الصور، فيبتسم، ويقص عليها قصصاً كانت ترميها دائماً بالذهول.

وكانت تسأله وقد جبهتها قسوة المشاكل التي يطرحها الناس، تسأله بلهجة متشككة:

— ولكن هل هذا ممكن؟

وكان يصور لها بصبرٍ، وايمانٍ لا يتزعزع بصدق نبوءته، يصور لها الغد كحكاية من حكايا الجن وعيناه الطيبتان ترنوان اليها من خلال نظارتيه:

— إن رغبات الانسان لا حدود لها، وقوته لا تنفد ابداً، ولكن العالم لا يغتني بالفكر إلا ببطء شديد، فكل انسان مجبرٌ لكي يتحرر، ان يكدس المال، بدلاً من المعرفة، ولكن عندما يقضي الناس على شرهم، عندما يتحررون من عبودية العمل الأجباري...

وقلما كانت بيلاجي تفهم معنى اقواله هذه، إلا ان حس الايمان الصافي الذي يلهب هذه الأقوال، كان يقربها دوماً من فهمها. لقد كان يقول:

— ان الأحرار على هذه الأرض قلة ضئيلة جداً، وهذا هو سر شقائها.

وكانت تفهم هذا، فهي تعرف كثيرين تحرروا من الجشع والخبث، وتعتقد انه لو زاد عدد هؤلاء الناس، فإن وجه الحياة الرهيب العبوس سيغدو اجمل وأكثر بشاشة وإشراقاً وبساطة.

وكان نيقولا يجيب بأسى:

— إنما يرغم الإنسان على القسوة.

وتهز هي رأسها موافقة. وتتذكر كلمات البيورومي.

— ٩ —

وفي احد الأيام رجع نيقولا، وهو المعروف بدقة مواعيده، رجع من مكتبه متأخراً على غير عادته، وقبل ان يخلع معطفه، قال بعنف وهو يفرك يديه بانفعال:

— هل عرفت؟ لقد هرب احد رفاقنا اليوم من السجن. ولكن من هو هذا الذي هرب؟ هذا ما لم اوفق الى معرفته.

فترنحت الأم، وقد سيطر عليها الأنفعال، ثم جلست وسألت مغمغمة:

— أيمكن ان يكون الهارب بول؟؟

وهز نيقولا كتفيه قائلاً:

— هذا ممكن.. ولكن كيف يمكن ان نساعده على الاختفاء؟ وأين نستطيع العثور عليه؟ لقد جبت الشوارع علني ألتقي به... فكان ذلك بلاهة مني، ولكننا على كل حال يجب ان نفعل شيئاً... وها أنذا أخرج ثانية.

وصاحت الأم: وأنا ايضاً.

واقترح نيقولا: اذهبي إذن الى ايغور، وتسقطي لنا الأخبار...

ثم توارى سريعاً.

وألقت على رأسها غطاءً، ثم خرجت في اسره يحدوها الأمل وتسير مضطربة، وقلبها يخفق بسرعة وعنف، حتى لتكاد تنطلق عدواً. لقد كانت تسير لتواجه المحتمل مطأطئة الرأس لا ترى شيئاً مما حولها؛ وكان هذا الأمل الوامض يدفعها الى الأمام:

— سوف أصل، وأجده هناك.

وكان الجو حاراً، وكانت هي تلهث من التعب. وعندما وصلت الى اسفل السلم المؤدي الى منزل ايغور توقفت وقد خانتها قواها فلم تعد تستطيع التقدم؛ وارتدت الى الوراء، وندت عنها صرخة دهشة مكبوتة، ثم اغمضت عينيها لحظة فخيل اليها انها ترى نيقولا فيسوشيكوف قرب الباب، ويداه في جيبه؛ ولكنها عندما فتحتها لم ترى احداً، فقالت في نفسها:

— لقد كان ذلك مجرد رؤيا !

وصعدت السلم وهي تصيخ بسمعها ، وفي الساحة تحتها تعالى وقعُ اخـرس لخطى بطيئة فتوقفت ، وانحنت تنظر ، فإذا بها تبصر من جديد ، الوجه المجدور يبسم لها ، فصاحت ، وهي تنحدر للقائه ، في حين كان قلبها ينقبض خيبة :

— نيقولا ... نيقولا .

وقال لها بصوت خفيض وهو يشير بيده :

— كلا ... اصعدي ... اصعدي .

وتسلقت السلم بسرعة ، ودخلت على ايغور ، فرأتـه متمدداً على مقعدٍ ، فغمغمت وهي تلهث :

— لقد هرب نيقولا من السجن .

وسأل ايغور بصوته الصافر ، وهو يرفع رأسه عن الوسادة :

— ايها ... فهناك اثنان يحملان هذا الأمم .

— فيسوشيكوف . لقد جاء الى هنا .

— عظـيم .

وكان فيسوشيكوف قد دخل ، وأقفل مزلاج الباب ، ونزع قبعته ، وراح يضحك بهدوء ، ويمسد شعره ؛ فاتكأ ايغور على مرفقيه ، وسعل وهو يهز رأسه :

— مرحباً بك .

وتقدم فيسوشيكوف من الأم ، وعلى شفتيه ابتسامة عريضة ثم اخذ يدها :

— لو لم اراك لكان عليّ ان اعود الى السجن ، فأنا لا اعرف احداً في المدينة ولو عدت الى الضاحية لقبض عليّ حالاً . لقد قلت لنفسي وأنا اهيم على وجهي : أيها الخبيث .. لِمَ اقدمت على الهرب ؟ وفجأة لمحت بيلاجي تسير مسرعة ... فلحقت بك .

وسألته الأم :

— كيف استطعت الهرب ؟

فجلس بلا مبالاة على حافة المقعد ، وقال وهو يشقل كتفيه محرَجاً :

— لقد كانت مناسبة ... كنت اتمشى في باحة السجن ، فإذا بالسجناء ينهالون على الحارس ضرباً . إنه دركي قديم طُرد من وظيفته من اجل سرقة ارتكبها . وكان يتجسس ، ويحيل حيوات الناس الى جحيم ... لقد طرحوه ارضاً وجلسوا فوقه ... ياله من خليط عجيب ، وخاف الحراس فتراكضوا وهم يصفرون ، ورأيت انا الباب الحديدي مشرعاً ، وورائه الساحة والمدينة ، فخرجت على مهل. كأني في حلم ... وعندما ابتعدت قليلاً اخذت اسائـل نفسي : اين اذهب ؟ وتلفت نحو السجن ، فإذا ابوابه قد اقفلت .

وهمهم ايغور :

— هم هم ... حسناً يا سيد . لقد كان عليك ان تعود فتطرق البـاب بأدب وتتوسل إليهم ليسمحوا لك بالدخول ، وتقول لهم : المعذرة ... لقد كنت شارد الفكر قليلاً ...

وابتسم فيسوشيكوف وأردف :

— نعم ... إنها لحماقة ، خصوصاً وقد اسأت التصرف مع الرفاق ، اذ كان عليّ ان اقول لهم شيئاً قبل خروجي .... وعلى كل حـال .. فلقد ابصرت في الطريق جنازة لطفل ، فسرت وراء النعش مع المشيعين ، وطأطأت رأسي ، ولم اتلفت حولي ابداً ؛ ولبثت بعض الوقت في المقبرة ، فأتاح لي مكثي القصير هناك ان اتنشق الهواء ... ثم جاءتني فكرة ...

وقال ايغور : فكرة واحدة فقط ؟

ثم أضاف باسماً : أعتقد ان هذه الفكرة لم تكن في حرج ...

ولم يغضب فيسوشيكوف بل راح يضحك :

— اوه ... إن رأسي لم يكن فارغاً كما كان من قبل ... وأنت يا ايغـور اتظل مريضا ابداً ؟

وأجاب ايغور وهو يسعل سعالاً لزجاً :

— كلّ يعمل ما في طاقته ان يعمل . اكمل .

– وبعد ذلك ... ذهبت الى المتحف، وطفت فيه على غير هدى، وتفرّجت، وكنت افكر طوال الوقت : اين سأذهب الآن ؟ ونقمت على نفسي ، وكنت اعاني اشد الجوع فخرجت ، وسرت وأنا اشعر بالأنفعال يهزني . ولاحظت ان رجال الشرطة كانوا يراقبون الناس جميعاً ، فقلت في نفسي : اني بمثل هذه السحنة اسهل لهم التعرف عليّ وسأقع سريعاً بين «قوائم» القضاة ، وفجأة ابصرت بيلاجي وهي ترقى السلم ، فابتعدت قليلاً ثم لحقت بها وهذا هو كل شيء .

وقالت الأم وعلى وجهها سيماء الخاطىء :

– وأنا التي لم انتبه لك ؟

وكانت تتفحص فيسوشيكوف ، فيخيل اليها انه امسى اقل غفلة من ذي قبل .

وقال نيقولا وهو يهرش رأسه :

– حقاً ... إن الرفاق لن يطمئن لهم بال .

وسأله ايغور :

– والجند ؟ الا ترثي لهم ؟ إنهم بلا ريب سينزعجون !

وفغر فاه وراح يحرك شفتيه كأنه يمضغ الهواء ، وتابع :

– يكفي مراحاً ، وعلينا الآن ان نخبئك .. : إنها مهمة لذيذة ولكنها ليست باليسيرة . ليتني استطيع النهوض .

وأخذته نوبة ضيق في التنفس ، فرفع يديه الى صدره ، وراح يدلكه بعناء .

وقال نيقولا ان مرضك لشديد يا ايغور ...

ثم طأطأ رأسه .

وزفرت الأم وأجالت بصرها الكئيب في جوانب الغرفة الضيقة ، ورد ايغور : ذلك من شأني انا ... إسأليه ، يا أماه عن بول ولا تتغابي .

وابتسم فيسوشيكوف ابتسامة عريضة حتى اذنيه :

– اما من ناحية بول فهو يتمتع بصحة جيدة . إنه رئيسنا الى حد ما ، وهو الذي يناقش الإدارة ، وبصورة عامة هو الذي يصدر الأوامر ؛ ويحظى باحترام الجميع .

وكانت الأم تلتهم كلمات الشاب ، وتحدق بشرود في وجه ايغور المنتفخ المزرق ، وتبدو جامدة كالقناع ، كأن وجهها قد تجرد من كل تعبير ؛ وكانت عيناها وحدهما ، تومضان بألق النشاط والغبطة .

وصاح نيقولا فجأة :

– ليتكما تعطيانني شيئاً آكله ، فأنا جد جائع .

– اماه ، يوجد على الرف خبز ، وبعد ذلك ... سيري في المشى واقرعي الباب الثاني الذي تجدينه على يسارك ، وستفتح لك امرأة ، فاطلبي إليها ان تأتي الى هنا ، وأن تحمل معها كل ما لديها من طعام .

واعترض نيقولا :

– ولِمَ تحمل كل ما لديها ؟

– لا تهيج كبدك ... فإن ما عندها ليس بالشيء الكثير .

وخرجت الأم وقرعت الباب المعين ، وأصاخت بسمعها وهي تفكر حزينة:

– إنه يموت ...

وارتفع صوت من الداخل :

– من الطارق ؟

وأجابت الأم بصوت خفيض :

– إني آتية من قبل ايغور .. وهو يرجوك ان تذهبي اليه .

وجاء الجواب دون ان يفتح الباب :

– سآتي حالاً .

وانتظرت لحظة ، ثم طرقت الباب ثانية ، فانفتح الباب حالاً ، وظهرت على العتبة امرأة فارعة تلبس نظارتين وسألت بلهجة جافة وهي تسوّي بعنف كمها المجعد :

– ماذا تريدين ؟

– إني آتية من قبل ايغور .

– آه . آه ... هيا بنا . لقد عرفتك فمرحباً .. إن الظلام هنا كثيف ..

ورمقتها بيلاجي ، وتذكرت انها كانت تراها احيانا في منزل نيقولا ، فغمغمت :
ـ دائماً من جماعتنا .
وطلبت الى بيلاجي ان تسير امامها ، ثم سألتها :
ـ هل حالته سيئة ؟
ـ نعم ... إنه في سريره ، وهو يرجوك انّ تحملي معك شيئاً من الطعام .
ـ اوه ... لافائدة من ذلك .
وعندما دخلتا منزل ايغور ، قال هذا والحشرجات تخنق صوته :
ـ إني منطلق للقاء اجدادي يا صديقتي العزيزة لوميلا ، وهذا الفتى خرج من السجن ـ يا للوقاحة ـ دون اذن من السلطات . . فاعطه بادىء ذي بـــدء ما يأكله ، وخبئيه بعد ذلك في مكان ما .
وهزت لوميلا رأسها ؛ وقالت بقسوة وهي تتفرس وجه المريض :
ـ كان عليك يا ايغور ان ترسل في طلبي حال وصولها ... فماذا يعني هـــذا الأهمال ؟ تعال معي يا رفيق وسنعود حالاً لنقل ايغور الى المستشفى .
وسأل ايغور :
ـ هل انت مصرة على نقلي ؟
ـ اجل وسأذهب معك .
ـ الى هناك ايضاً ؟ آه يارب .
ـ لا تتباله .
وسوّت الشابة ، وهي تتكلم ، الغطاء على صدر ايغور ، ونظرت بامعان الى وجه نيقولا ، وقاست بعينها كمية الدواء المتبقية في الزجاجــة ، وكانت تتكلم بصوت متزن خافت ، وكانت حركاتها لطيفة ، وفي وجههـــا الشاحب يـــكاد حاجباها الأسودان يلتقيان عند اعلى انفها .
ولم يعجب الأم شكلها ، فقد حكمت عليها من خلاله ، بأنها شديدة الصلف ، ولم تك عيناها تومضان ببسمة او ألق ؛ وكانت تتكلم بلهجة الآمر :
ـ هيا بنا ، وسأعود بعد قليل ... جرّعي ايغـــور ملعقة من هـــذه

الزجاجة ، وامنعيه عن الكلام .
ثم خرجت وهي تأخذ بيد فيسوشيكوف .
وقال ايغور وهو يصعّد زفرة :
ـ إنها امرأة مدهشة .. وانسانة رائعة ،وكان من الواجب ان تقيمي عندها يا أماه .. فهي تجهد كثيراً .
وقالت الأم برقة :
ـ لا تتكلم .. وخذ ، اشرب .
وجرع الدواء ، واستأنف الكلام وهو يغمض إحدى عينيه :
ـ كان من الأفضل ألا أتكلم ، ولكني ميت على كل حال ..
ورنا بعينه الأخرى اليها ، وافترت شفتاه ببطء عن ابتسامة ، فأطرقت الأم برأسها ، وأهاج الاشفاق الدمع في عينيها :
ـ هذا لا يجدي فتيلا ... إنه امر طبيعي ، فالشبع من الحياة يجر وراءه ضرورة الموت .
ووضعت الأم يدها على رأسه وهمست ثانية :
ـ لا تتكلم ...
وأغمض عينيه كأنه يصغي الى الحشرجات في صدره ،ثم عاد الى الكلام بعناد :
ـ من البلاهة ان اصمت ... وماذا يجديني الصمت ؟ بضع ثوان اخرى من النزع .. ثم افقد بعد ذلك لذة الثرثرة مع امرأة طيبة . وأنا اعتقد انه ليس في العالم الآخر قوم طيبون كناس هذا العالم .
ـ لقد اوشكت السيدة ان تعود ، وسوف تقرّعني لانني سمحت لك بالكلام .
ـ انها ليست سيدة ، بل ثائرة . انها رفيقة .انها روح مثير للاعجاب ..واما انها ستقرعك فذلك مما لا شك فيه ، فهي تقرع الجميع دائماً ...
وراح ايغور وهو يحرك شفتيه باجهاد وبطء راح يقص عليها حياة جارته ، وكانت عيناه تبتسمان ، وكانت الأم تلاحظ انه يتعمد مضايقتها ، فترنوا الى

وجهه الذي يخضله طل ازرق اللون ، وتفكر بضيق :
– إنه يموت .
وعادت لوميلا وأوصدت الباب وراءها برفق ، ثم خاطبت بيلاجي :
– على صديقك ان يستبدل ثيابه ، وأن يترك هذا المكان بأسرع ما يمكن . وعليك الآن ان تدبري له هذه الثياب حالاً ، وأن تأتي بها الى هنا . من سوء الحظ الا تكون صوفيا هنا ... فاخفاء الناس يدخل في اختصاصها .
وقالت الأم وهي تطرح شالها على كتفيها :
– انها ستصل غداً .
وكانت الأم كلما كلفت بمهمة تحس برغبة طاغية في ان تؤديها بسرعة واتقان، وكانت لا تستطيع ان تتحول بتفكيرها الى شيء آخر غير واجبها، لذلك سألت، وهي مقطبة الجبين ، مغمومة الملامح ، بادية الاهتمام :
– ماذا ترتأين ان البسه ؟
– لا اهمية لذلك ، فسيخرج من المدينة ليلا .
– ذلك اسوأ مما لو خرج في النهار إذ يقل مرور الناس في الشوارع ويسهل تتبعهم ... ثم إنه ليس بارعاً ...
وضحك ايغور ضحكة مبحوحة ، فسألته الأم :
– هل تسمح لي بزيارتك في المستشفى ؟
فهز رأسه وهو يسعل ، ورنت لوميلا الى الأم بعينيها السوداوين واقترحت :
– ما رأيك في ان نسهر على راحته بالتناوب ؟ اتوافقين ؟ حسناً اما الان .. فأسرعي لتنفيذ مهمتك .
وأمسكت الأم من ذراعها بحركة ودودة ، ولكنها آمرة ، وسارت بها نحو الباب وهمست في اذنها وهما وراءه :
– لايغضبنك اخراجي لك ، فالكلام يضره كثيراً ، وأنا ما زال لدي بعض امل ...
وضغطت على يديها وفرقعت اصابعها في حين كانت احفانها المنهكة تنسدل

على عينيها بإعياء .
وأزعج هذا التدبير الأم فغمغمت :
– ماذا تقولين ؟
وأوصتها ، بصوت خافت :
– احذري الجواسيس ...
ثم راحت تفرك صدغيها بأناملها ، وكانت شفتاها ترتعشان ، وملامحها ترق .
وأجابت الأم بشيء من الزهو .
– اعرف ذلك .
وعندما اجتازت مدخل البناية توقفت قليلاً فسوّت نقابها، وأجالت فيما حولها نظرة خاطفة مختلسة ، ولكنها حذرة ، فلقد كانت على مثل اليقين بأنها تستطيع ان تميز اي جاسوس من بين الناس ، فهي تعرف الخطو اللامبالي ، وسهولة الحركات المفتعلة ، وأثار التعب والضيق المرتسم في الملامح ، وانسدال الجفون الوجل المرتبك ... فوق عيون نفاذة مغمومة .
ولم تلحظ هذه المرة ، ذلك الشبح الذي تعرف ، فاندفعت في الشارع على مهل ، ثم استقلت عربة ، وأمرت سائقها ان يتوجه بها الى السوق . واشترت ثياباً لنيقولا ، وساومت باسراف ، وهي تغرق زوجها السكير بسيل من الشتائم ، هذا الزوج الذي يجب ان يستبدل ثيابه كلها ، باخرى جديدة ؛ وفي كل شهر تقريباً . ولكن هذه « الأسطورة » التي اخترعتها لم تحرك حس الباعة مطلقاً ، بل شعرت هي معها بنشوة عارمة ؛ وكانت تحدث نفسها ، وهي في الطريق ، بأن رجال البوليس يعرفون – بلا شك – ان نيقولا سيتنكر ، وأنهم قد اوفدوا عيونهم الى السوق ، ليراقبوا .
وبعد ان اتخذت احتياطاتها الساذجة عادت الى منزل ايغور ؛ وكان عليها ان ترافق نيقولا حتى طرف المدينة ، وأن يسير كل منها على رصيف ، وكانت بيلاجي تضحك ، ويبهجها ان ترى نيقولا وهو يسير بتثاقل مطأطىء الرأس ، يتعثر بأذيال معطفه الرمادي ، ويرفع قبعته التي لا تنفك تنحدر على انفه . وفي احد

الشوارع المقفرة جاءت ساندرين للقائها ، ثم قفلت الأم راجعة الى المنزل .بعدان حيت فيسوشيكوف باشارة من رأسها .

وكانت تحدث نفسها :

ـ وبول مازال هناك ... وكذلك اندريه .

ـ ١٠ ـ

واستقبلها نيقولا ايفانوفيتش باضطراب :

ـ إن حالة ايغور في غاية السوء . لقد نُقل الى المستشفى وجاءت لوميلا وهي ترجوك اللحاق بها .

ـ الى المستشفى ؟

وركز نظارتيه بحركة عصبية . وساعد بيلاجي على ارتداء معطفها . ثم قال لها بصوت متهدج وهو يشد على يدها بأصابعه الخشنة الحارة :

ـ خذي هذه الرزمة معك ... هل دُبر أمر فيسوشيكوف ؟

ـ نعم ... فكلّ شيء على ما يرام .

ـ سوف اذهب انا ايضاً لرؤية ايغور .

وكانت الأم منهمكة ، لدرجة ان رأسها كان يدور . ثم جاءت لهجة نيقولا الكئيبة فأشعرتها بدنو الفاجعة :

« إنه سيموت » .

وكانت هذه الفكرة القاتمة تطرق رأسها بعنف . ولكنها عندما ولجت الغرفة الصغيرة المشرقة النظيفة ، في المستشفى ، ورأت ايغور جالساً في كومة بيضاء من الوسائد . وبسمته الخشنة تطوف على شفتيه ؛ هدأ روعها في الحال . وتوقفت عند العتبة باسمة . فسمعت المريض يقول لطبيبه :

ـ الدواء ضرب من الإصلاح ..

ويصيح به الطبيب بصوت نحيل قلق :

ـ لا تتصنع الدجل يا ايغور .

ـ وانا ثوري أمقت الاصلاحات .

واخذ الطبيب يد ايغور بحذر (ووضعها على ركبته ثم نهض وهو يمسد لحيته ساهم الملامح ، وجس باصبعه التورمات في وجه المريض .

وكانت الام تعرف الطبيب جيداً ، فهو من اخلص اصدقاء نيقولا ، ويدعى ايفان دانيلوفيتش . ودنت من ايغور الذي مد لها لسانه ، امـا الطبيب فالتفت اليها قائلاً :

ـ اوه نيلوفنا ... صباح الخير . ماذا تحملين في يدك ؟

ـ كتباً بلا ريب .

وقال الطبيب الصغير :

ـ يجب الا يقرأ ابداً .

واحتج ايغور : إنه يريد أن يجعل مني إنساناً غبياً .

وندت من صدره زفرات بسيطة أليمة ، رافقتها حشرجة بلغمية خشنة ، وكان وجهه يكتسي بقطرات صغيرة من العرق ؛ ويداه ترتفعان ببطء ثقيلتين عصيتين ، ليمسح بهما جبهته . وكان الجمود الغريب الذي يرين على وجنتيه المتورمتين يشوه وجه العريض الوسيم ، فلقد توارت ملامحه كلها تحت قناع ميت ، وظلت عيناه الغارقتان في الورم ، تبتسمان بسماح ، وتنبعث منها إرناءة وضاءة .

وسأل طبيبه :

ـ هيه يا رجل العلم .. إني تعب فهل استطيع ان اتمدد ؟

واجاب الطبيب بايجاز :

ـ كلا ...

ـ حسناً ، سأتمدد عندما تذهب .

ـ لا تسمحي له بذلك . إرفعي له الوسائد ، وارجو الا تتحدثي معه ، فالكلام يؤذيه .

وهزت الأم رأسها بالايجاب ، ومضى الطبيب بخطى سريعة قصيرة ، وألقى

ايغور رأسه الى الوراء ، واغمض عينيه ، وظل بلا حراك ، وكانت أناملهوحدها ترتعش برفق .

وكانت جدران الغرفة الصغيرة البيضاء تبعث في الجو نسمات من البرودة الجافة والحزن الكئيب ، واغصان الزيزفون السامقة الظليلة تحدق في الداخل ، من النافذة الواسعة ، وعلى الأوراق القاتمة المغبرّة ، تلتمع بقع صفراء وضاءة هي البواكير الباردة للخريف الوليد .

وغمغم ايغور دون ان يتحرك او يفتح عينيه :

— إن الموت يقترب مني ببطء وهو آسف . ويبدو انه يشفق عليّ بعض الاشفاق ، فلقد كنت فتىً اجتماعياً .

وتوسلت اليه الأم وهي تداعب يده بلطف :

— يجب ألا تتكلم يا ايغور .

— مهلاً ، فعما قليل سأصمت .

وتابع ، وهو يلهث ، ويلفظ الكلمات بجهد ، ويخرجها مقاطع مقاطع :

— انه لجميل ان تكوني معنا ، وحسن ان نرى وجهك . لقد ساءلت نفسي حين رأيتك : تُرى ماذا سيكون مصيرها ؟ وانه لمحزن ان أفكر ... بأن السجن وشتى ضروب العنت هي التي تنتظرك ، تنتظرك أنت كما تنتظر الجميع . ألا ترهبين السجن ؟

واجابت ببساطة :

— كلا .

— هذا اكيد ، ومع ذلك فالسجن شيء رهيب ، إنه هو الذي هدّ كياني . واذا اردت الصراحة ، فانا لا اود ان أموت .

واحبت ان تقول له : « قد لا تموت » ولكن نظرة خاطفة الى وجهه ألجأتها الى الصمت .

— لقد كان باستطاعتي ايضاً ان اعمل . ولكن اذا لم يك ذلك مستطاعاً فلِمَ العيش ؟ إن هذا لمنتهى الغباء .

ولمعت في ذاكرتها ، بلا وعي ، عبارات اندرية ؛ فزفرت بألم :

« هذا صحيح ... ولكنه ليس عزاء . »

وكانت قد سلخت نهاراً منهكاً ، وعضها الجوع ، وكانت حشرجة المريض الرتيبة البلغمية ، تملأ الحجرة ، وتنزلق مجهدة على الجدران الملساء ؛ وكانت ذرى اغصان الزيزفون تلوح وراء النافذة ، كغيوم انحدرت نحو الأرض ، وحومت منخفضة ، وراحت تفجأ العين بلونها الحزين القاتم ؛ وكان كل شيء يسيطر عليه الجمود المظلم بشكل غريب ، بانتظار الليل .

وقال ايغور : لكم أشعر بسوء حالي !

واغمض عينيه ، وصمت .

ونصحته الأم : نم ، فلعل ذلك يحمل اليك بعض الراحة .

ثم راحت تصغي الى انفاسه ، وتتلفت حواليها ، وظلت على هذه الحال ، بضع دقائق دون ان تتحرك ، يتأكلها حزن كالح ، الى ان استولى عليها النعاس ؛ ولكن جلبة مكبوتة عند الباب أجفلتها ، فتطلعت ، فاذا ايغور ما زال مفتوح العينين .

وقالت له همساً :

— لقد استولى علي النعاس فسامحني .

واجابها برقة : وأنتِ ايضاً سامحيني .

وعند النافذة كان المساء يهبط ، وقلق بارد يعصر الأعين فيبهت كل شيء بشكل غريب ، ويتجهم وجه المريض .

وسُمع حفيف ، ثم تبعه صوت لوميلا :

— انهما يجلسان في الظلام ويتوشوشان ؛ فأين مفتاح النور ؟

وفجأة غمر الحجرة نور أبيض كريه ؛ واذا بلوميلا امامها فارعة منتصبة ، يجللها السواد .

وسرت الرعشة في كيان ايغور كله ، ورفع يده الى صدره ، وصاحت لوميلا ، وهي تعدو نحوه :

— ماذا أصابه ؟

وكان يرنو الى الأم بعينين جامدتين تبدوان واسعتين متألقتين ، ورفع رأسه وهو فاغر الفم ، ومد يده الى الامام ؛ فأخذتها الأم برقة ، وحدقت به ، وهو يسلم انفاسه ، وبحركة تشنجية ، ألقى برأسه الى الوراء ، وقال بصوت مرتفع :

— لا استطيع ..... لقد قضي الأمر ...

وتشنج جسده قليلاً : وتدلى رأسه برفق على كتفه ، وانعكس الضوء البارد، ضوء المصباح المعلق فوق السرير ، في عينيه المفتوحتين على اتساعها ، وانبعث منهما بريقاً ميتاً .

وغمغمت الأم :

— ايغور ، يا صغيري ..

وابتعدت لوميلا عن السرير ببطء ، ووقفت بالقرب من النافذة ، وقد ضاع بصرها في المجهول ؛ وصرخت بصوت قوي هائل لم تألفه بيلاجي من قبل :

— لقد مات .

وانحنت فأسندت مرفقيها الى النافذة ، ثم هوت راكعة الى الارض وقد هدها الإعياء ، كأن ضربة شديدة نزلت على رأسها ،وغمرت وجهها بكفيها، وراحت تنتحب بصمت .

وشبكت الأم ذراعي ايغور المتثاقلتين فوق صدره ، ورفعت الى الوسادة رأسه الشديد الثقل، ثم دنت من لوميلا وهي تكفكف دموعها ، وانكبت عليها تمسح شعرها الكثيف بلطف ، فأدارت المرأة الشابة نحو الأم ببطء ، عينيها الخابيتين المتسعتي المآقي ، ثم نهضت وتمتمت بين شفتيها المرتعشتين :

— لقد كنا معاً في المنفى ، وعشنا فيه معاً . وضمتنا معاً نفس السجون وكان ذلك سمجاً ، فوق الاحتمال احياناً ، وكان الكثيرون يفقدون شجاعتهم ....

وشدت الغصة الجافة حنجرتها ، ولكنها تمالكت نفسها بجهد،وأدنت من الأم وجهها الوديع الهادىء ، وقد ارتسمت على ملامحه مسحة حنان وألم ؛ واستأنفت بغمغمة عجلى ، وزفرات لا تواكبها الدموع :

— وكان هو دائم المرح لا يعتور مرحه وناء . وكان يمزح ويضحك فيخفي بذلك آلامه . وكان يجهد نفسه ليرد على الضعفاء شجاعتهم ، وكان كثير الطيبة شديد الحساسية .

وهناك في سيبيريا، كانت البطالة تفسد الناس، وتبعث فيهم غالباً الاحاسيس المنحطة ... أما هو فكان يعرف كيف يحارب هذه الاحاسيس . لو عرفته ، لعرفت اي رفيق كان . لقد كانت حياته الخاصة شقية أليمة ، ولكن احداً لم يسمعه ابداً يضج بالشكوى. لم يسمعه احد ابداً. لقد كنت صديقة حميمة له، وإني لمدينة له بالشيء الكثير . فلقد وهبني من عقله كل ما استطاع ان يهب . وكان وحيداً متعباً ، ولكنه لم يطلب اليّ يوماً مقابل ما اعطى ، لم يطلب اليّ ابداً أن أبادله اهتماماً بأهتمام ، وعاطفة بعاطفة .

واقتربت من ايغور ، وانحنت تقبل يده ، وتقول بصوت خافت حزين :

— يا رفيق، يا رفيقي الغالي الحبيب . شكراً لك. شكراً لك من كل قلبي ، ووداعاً .. سأعمل كما عملت أنت ، دونما كلل ، وبأيمان لا يتزعزع ... سأعمل طوال حياتي ... فوداعاً .

وهدتها الزفرات وخنقتها، فألقت برأسها على السرير عند اقدام ايغور وكانت الأم تسفح دموعها الغزيرة بصمت ، وتحاول ان تكفكفها لسبب لا تدريه ؛ وودت ان تسبغ على لوميلا من حنانها، وان تبرهن لها عن عاطفة خاصة عميقة ؛ وان تحدثها عن ايغور بعبارات تفيض محبة وأسى ؛ وكانت ترنو من خلال عبراتها الى وجه الميت المتورم ، الى عينيه اللتين تبدوان كأنهما تغفوان تحت اهدابه المسبلة ، الى شفتيه القاتمتين اللتين تجمدت فوقهما بسمة خفيفة. وكان كل شيء يلفه الصمت ، تحت نور المصباح ، هذا النور الذي يشيع الضجر والسأم ..

... ودخل الطبيب بخطواته العجلى كعادته ، ولكنه توقف فجأة في وسط الحجرة ، وبحركة سريعة دس يديه في جيوبه وسأل بصوت نزق صارخ :

— أمنذ وقت طويل ؟

ولم يتلق جواباً ، فترنح قليلاً ، ودنا من ايغور وهو يمسح جبهته ، ثم اخذ

يده ، فضغط عليها وارتد الى الوراء .

ـ ليس ذلك بمستغرب .. فلقد كان قلبه تعباً ، وكان هذا المصير منتظراً منذ ستة اشهر على الأقل .

وفجأة خفت صوته الحاد ، المضطرب الرنة ، وراح ، وقد اسند ظهره الى الجدار ، يمسد لحيته بأصابعه المضطربة ، ويرنو الى السيدتين الجاثمتين قرب السرير واجفانه ترتعش باستمرار . وقال بهدوء :

ـ وهذا رفيق آخر نفتقده !

ونهضت لوميلا ، ودنت من النافذة فشرّعتها ، وبعد لحظة كان الثلاثة قد اكتظوا أمامها يحدقون في وجه الليل الخريفي المظلم ، وكانت النجوم تتلألأ فوق ذري الاشجار السوداء ثم تغيب في اللانهاية ، في المدى البعيد للسماوات .

وأمسكت لوميلا بخصر الأم ، واستندت الى كتفها دون ان تتفوه بكلمة ، وكان الطبيب يمسح نظارتيه بمنديله وهو مطرق ، وكان ضجيج المدينة الليلي يتنهد ، والنسيم البارد يتنفس في وجهه ، ويداعب شعره . واعترت لوميلا الرعشات ، وانسابت على خدها دمعة ، وفي ردهة المستشفى كانت تهيم اصوات مشوشة وجلة ، ويسمع وقع خطى مسرعة ، ونحيب ووشوشة حزينة . وكان الرفاق الثلاثة جامدين امام النافذة ، يحدقون في الظلمات صامتين .

وشعرت الأم بان وجودها غير ضروري فسحبت ذراعها بلطف من يد لوميلا ، وتوجهت نحو الباب ، وانحنت امام ايغور .

وسألها الطبيب بصوت خافت ، دون ان يلتفت اليها :

ـ أأنت ذاهبة ؟

ـ نعم .

وفكرت وهي في الشارع بلوميلا وذكرت دموعها الشحيحة :

ـ إنها لا تعرف ... حتى كيف تبكي .

واطلقت الكلمات الأخيرة التي لفظها ايغور العنان لزفراتها ، وتخيلت وهي تسير بخطى بطيئة ، عينيه المشتعلتين ، واستعادت في ذاكرتها مزاحه واحاديثه .

ـ ان حياة الرجل الطيب أليمة ، وموته يسير ... فكيف ستراني أموت ؟

ثم تخيلت لوميلا والطبيب منتصبين بالقرب من النافذة ، في الحجرة البيضاء التي يغمرها الضياء وعينا ايغور الخامدتان وراءهما ، فأجتاحها إشفاق مرهق ، أطلق من صدرها زفرة عميقة ، ثم انطلقت مسرعة ، يدفعها إحساس قاتم لا تعرف كنهه .

وتمتمت وهي تستكين لقوة داخلية يمتزج فيها الأسى باليأس :

ـ يجب ان أعد نفسي .

ـ ١١ ـ

وقضت الأم يومها التالي منهمكة باعداد الترتيبات اللازمة لتشييع ايغور ، وفي المساء ، بينما كانت تتناول الشاي مع نيقولا وصوفيا ، أقبلت ساندرين نشيطة صخابة بشكل مثير للدهشة ، وكانت ملتهبة الوجنتين يبرق النشاط في عينيها ؛ وبدت للأم كأن هناك رجاءً فرحاً يفعمها ، ولم يلبث مزاجها اللطيف ان شن هجوماً ضارياً ضاجاً على جو الأسى الذي تملأه ذكرى الراحل ؛ فأربكته ساندرين ، ولم تنغمس فيه ؛ وطرفته كالشعلة حين تتلألأ فجأة في قلب الظلمات .

وقال نيقولا وهو ينقر على الطاولة ساهماً :

ـ لست اليوم كعادتك يا ساندرين .

واجابت : صحيح ؟ ربما .

ثم أطلقت ضحكة فرحة .

ونظرت اليها الأم نظرة توبيخ صامت ، ونبهتها صوفيا بنبرة ذات مغزى :

ـ كنا نتحدث عن ايغور ...

واندفعت ساندرين :

ـ يا له من رجل مدهش ... أليس كذلك ؟ انا لم أره مطلقاً إلا والبسمة على شفتيه او المزحة . ويا لله كم كان يعمل . لقد كان فنان الثورة ، يعي النظرية

الثورية كمعلم عظيم . وبأية بساطةوقوة كان يرسم لوحة الكذب والكبت والجور.
وكانت تتكلم بصوت خافت ، وفي عينيها بسمة حالمة لم تطفىء في نظرتها لهب البهجة ... هذه البهجة التي كان الجميع يقرأونها، دون ان يفهمها احد منهم.
وكان الحزن يسيطر عليهم، فلم يستسلموا للبهجة التي حملتها ساندرين ، وكانوا بصورة لا واعية ، يدافعون عن حقهم المرير في التغذي من ألمهم ، ويحاولون لا شعورياً ان يجروا الفتاة لتشاركهم مزاجهم الحزين .
وقالت صوفيا وهي تتطلع الى ساندرين بيقظة :
— وها هو ذا قد مات .
فأجالت ساندرين في وجوه الرفاق نظرة متسائلة، وقطبت حاجبيها وطأطأت رأسها بصمت، ثم ردت شعرها المتهدل الى الوراء بحركة بطيئة ، ورددت بصوت مرتفع ، بعد لحظة صمت :
— لقد مات .
ومن جديد راح بصرها المستغفر يطوف بالحاضرين :
— وماذا يعني ذلك؟ لقد مات. وما الذي مات ؟ هل مات تقديري لايغور؟ هل مات شعوري نحوه ؟ نحو الرفيق ؟ هل ماتت ذكرى صنيع افكاره ؟ هل مات هذا الصنيع نفسه ؟ هل انطفأت تلك المشاعر التي ايقظها فيّ ؟ هل امحت تلك الصورة التي رسمتها له في ذهني ؟ صورة الانسان الباسل الشريف ؟ هل مات هذا كله ؟.. كلا ان ذلك ، في نظري ، لا يموت ابداً . اعرف ذلك ، ويبدو لي اننا نتسرع كثيراً حين نقول عن انسان ما ، انه مات . لقد ماتت شفتاه ، ولكن كلماته ما برحت حية ، وستظل الى الأبد ، حية في قلوب الاحياء .
وعادت فجلست ، وقد سيطر عليها الانفعال الشديد ، واسندت مرفقها الى الطاولة ، ثم تابعت مبتسمة ، وهي اكثر هدوءاً وسهوماً ،تابعت،وهي تلقي على رفاقها نظرة غائمة :
— ربما كان ما قلته مجرد حماقات؛ ولكنني أؤمن أيها الرفاق بخلود الشرفاء ، بخلود اولئك الذين وهبوني السعادة في ان احيا حياتي الرائعة ، هذه الحياة التي

تمنحني الفرح ، وتسكرني بتعقدها المدهش ، وتنوع ظواهرها ، وتقدم الافكار الغالية على قلبي . ربما كنا جميعاً شديدي الحرص على مشاعرنا ، نخفيها ونعيش بالفكر ونسرف ، وهذا ما افسدنا بعض الشيء ، إذ إننا نفكر بدلاً من ان نحس .
وسألتها صوفيا باسمة :
— هل وقع لك حادث سعيد ؟
وضحكت ساندرين ، واجابت بهزة من رأسها :
— نعم ... حادث سعيد جداً ؛ كما اعتقد . لقد تحدثت طوال الليل مع فيسوشيكوف وكنت من قبل ، لا احبه ، إذ كنت أحسبه بدائياً فظاً ، ولقد كان كذلك بالفعل . لقد كان يحقد على الدنيا حقداً قاتماً ، لا يتزعزع ، ويضع نفسه دائماً في نقطة المركز من كل قضية ، وبطريقة مؤلمة مثيرة للسخط . وكان يتبجح : أنا ، أنا ، أنا ...
وما هذا إلا إحساس برجوازي حقير مثير للكراهية .
وابتسمت ثم أجالت فيما حولها نظرة مشعة :
— اما الآن فهو يتحدث عن « رفاقه » . وحبذا لو تسمعونه كيف يلفظ هذه الكلمة بانفعال ورقة وود ، لا يمكن ان يعبر عنها بالكلمات . لقد اضحى بسيطاً كل البساطة ، مخلصاً ، تفعمه الرغبة في ان يتقن عمله . لقد وجد نفسه، وتبين قوته وعرف ماذا ينقصه .ويكفي ان يكون شعور الزمالة ، على الأخص، قد ولد فيه .
وكانت بيلاجي تصغي الى ساندرين ، ويسعدها ان ترى الفتاة القاسية رقيقة فرحة ، ولكن فكرة غيوراً كانت في الوقت نفسه تولد في اعماق نفسها :
— وبول ؟ أين هو من كل هذا ؟
واستأنفت ساندرين كلامها :
— ان همه الوحيد الآن ينحصر في رفاقه . افتدرون بماذا اقنعني ؟ لقداقنعني

بأن انظم حركة فرارهم ... نعم ... وقال ان ذلك بسيط جداً وسهل .

ورفعت صوفيا رأسها ، وقالت بلهجة قوية :

— وانت ماذا تقولين في ذلك يا ساندرين ؟ انه أمر يستلزم التفكير .

وراح قدح القهوة يرتعش في يد الأم ، واكمد وجه ساندرين وحاولت ان تخفي انفعالها ، وبعد ان صمتت لحظة ، تابعت بلهجة مغيظة وهي مرتبكة ، إلا ان بسمة الاغتباط كانت رغم ذلك ، تلوح على شفتيها :

— اجل ... كل شيء هو كما قال في الواقع . ويجب ان نحاول . هـذا هو واجبنا .

وتضرج وجهها ثم سكتت .

وغمغمت الأم باسمة : يا عزيزتي ، يا عزيزتي .

وابتسمت صوفيا بدورها ، واطلق نيقولا ضحكة خفيفة ، وراح يتأمل الفتاة برقة ، اما هي فقد رفعت رأسها ، ورنت اليهم بقسوة ، وقالت بصوت غاضب ، وهي شاحبة اللون متألقة العينين :

— انكم تضحكون ، وانا افهمكم .. انكم تعتقدون ان هناك دافعاً شخصياً يدفعني !

ونهضت صوفيا ، ودنت منها ، وسألتها بخبث :

— ولِمَ يا ساندرين ؟

ورأت الأم في السؤال تحدياً لساندرين واهانة لها ، فزفرت ، وتطلعت الى صوفيا ، وفي ملامحها تقريع .

وصاحت ساندرين :

— إني ارفض ، ارفض النقاش في هذا الموضوع إذا شئتم بحثه .

وقال نيقولا بهدوء :

— كفى يا ساندرين .

ودنت الأم منها وراحت تداعب شعرها برقة ، فامسكت ساندرين يدها ، ورنت اليها بارتباك ، وهي ترفع نحوها وجهها المتضرج . وابتسمت بيلاجي لها ،

ثم تنهدت بأسى بعدما أعياها أن تجد ما تقوله ؛ وجلست صوفيا الى جانب ساندرين وطوقت عنقها بذراعها ، وقالت لها وهي تحدق بها ، وتبتسم بفضول :

— لكم انت غريبة .

— أجل ... فأنا اعتقد اني تفوهت بحماقات كثيرة ..

وتابعت صوفيا :

— كيف استطعت ان تفكري ...

ولكن نيقولا قاطعها قائلاً بلهجة فيها وقار واهتمام :

— إذا كان الفرار ممكناً فيجب أن ننظمه ، ولا مجال للتردد . ولكن علينا قبل كل شيء ان نعرف ما إذا كان الرفاق السجناء يوافقون على ذلك .

واطرقت ساندرين ، وتطلعت صوفيا التي كانت تشعل لفافتها ، الى اخيها ثم قذفت بعود الثقاب الى زاوية من زوايا الحجرة .

وزفرت الأم :

— ولِمَ لا يوافقون ؟ أما انا فلا اعتقد ان الفرار ممكن .

وصمتوا جميعاً ، وكانت بيلاجي ترجوا أن تسمع صوتاً واحداً يؤكد لها إمكانية الفرار .

وقالت صوفيا : يجب ان اقابل فيسوشيكوف .

وردت ساندرين : سأخبرك غداً متى وأين تستطيعين مقابلته .

وسألت صوفيا وهي تذرع أرض الغرفة :

— ماذا يود أن يفعل ؟

— لقد تقرر الاحتفاظ به كعامل لصف الاحرف في المطبعة الجديدة؛ وسيقيم بانتظار ذلك ، في منزل أحد حراس الغابات .

وتجهم وجه ساندرين ، واستعادت ملامح هـذا الوجه قسوتها ، واسترد صوتها جفافه ، واقترب نيقولا من الأم التي كانت تغسل الأقداح وقال لها :

— ستذهبين الى السجن بعد غد ، فمن الضروري أن توصلي لبول قصاصة من الورق .. أفهمت ؟ يجب معرفة ..

واجابت الأم بحماسة :

— لقد فهمت ... لقد فهمت ... وساوصلها اليه .

واعلنت ساندرين :

— إني منصرفة الآن .

وخرجت منتصبة القامة ، مقطبة ، وسارت بخطى ثابتة بعد ان صافحتهم جميعاً واحداً بعد واحد .

ووضعت صوفيا يدها على كتف الأم وسألتها باسمة :

— هل تحبين أن يكون لك فتاة مثلها ؟

فهتفت الأم وهي تكاد تبكي :

— يا إلهي ... ليتني استطيع ان أراهما معاً ... ولو ليوم واحد .

وعلق نيقولا :

— نعم ... ان القليل من السعادة كافٍ لكل إنسان ، ولكن ليس هناك من يتمنى هذا القليل . واذا كانت السعادة كبيرة ، فأنها تصبح رخيصة..

وجلست صوفيا الى البيانو ، وراحت تعزف لحناً كئيباً .

— ١٢ —

وفي صباح اليوم التالي كان بضع عشرات من الرجال والنساء يقفون عند باب المستشفى ينتظرون أن يُخرج جثمان رفيقهم ، وكان عددٌ من رجال الأمن يدورون حولهم بحذر وقد ارتدوا الثياب المدنية ، ونشروا آذانهم لتلقف كل نأمة ، واطلقوا عيونهم تتفحص الوجوه وتحصي الحركات، في حين كانت ترابط، في الناحية الثانية من الشارع ، ثلة من رجال الشرطة ، مسلحة بالمسدسات .

وكانت وقاحة الجواسيس والبسمات الساخرة على شفاه رجال البوليس المستعدين لعرض قوتهم ، كان ذلك كله يثير حنق الجمهور فيلجأ بعضهم الى المزاح ، يخفون به غضبهم ، ويُطرق البعض الآخر ، مقطبين ، كيلا تقع اعينهم على ذلك المشهد المهين ، ويطلق آخرون غيرهم العنان لثورتهم ، فيهزأون بالسلطات التي

تخشى قوماً لا سلاح لهم إلا الكلام . وكانت سماء خريفية زرقاء شاحبة تسكب ضوءها على الشارع الذي تبلطه أحجارٌ داكنة مستديرة، تتناثر فوقها اوراق ميتة ، كان الهواء يتلاعب بها ، ويطرحها تحت الاقدام .

وكانت الأم في وسط الحشد تفكر بأسى وهي تطالع الوجوه التي ألفتها :

« إنكم قلة ، ويكاد ألا يكون بينكم عمال . »

وشرعت الأبواب ؛ وظهر في الشارع غطاء النعش تزينه الاكاليل ذات الشرائط الحمر ، وبحركة واحدة، نزل الرجال جميعاً قبعاتهم فبدت فوق رؤوسهم كسرب من الطيور السوداء ، واخترق الجمع ، بقوة ، ضابط شرطي ؛ مديد القامة ، كثيف الشاربين متورد الوجه ؛ ومشى رجاله وراءه يدفعون الناس بفظاظة ؛ ويركلون ارض الشارع بأحذيتهم الثقيلة .

وقال الضابط بصوت فظ ولهجة آمرة :

— ارجوكم ان تنزعوا الشرائط .

واحاطوا به رجالاً ونساءً ، في حلقة متراصة ؛ وراحوا يخاطبونه كلهم في وقت واحد ، غاضبين ملوحين بأيديهم ، يريدون ان يمروا واحداً بعد آخر .

وتراقصت أمام عيني الأم الغائمتين وجوهٌ شاحبة مُستفزة ، مرتعشة الشفاه ، وكرجت على وجنتي امرأة دموع المذلة .

وتعالى صوتٌ فتيٌّ ، ضاع وحيداً في ضجيج الجدل .

— ليسقط العنف .

وشعرت الإم ايضاً بالمرارة في قلبها ، فخاطبت جارها بحنق ، وكان شاباً رث الثياب :

— هذا فظيع . انهم لا يسمحون حتى بدفن رجل ... كما يريد رفاقه !

وتنامى الحقد ، وتهادى غطاء النعش فوق الرؤوس ، وكان الهواء يداعب الشرائط ويغلف الوجوه ، وكان حفيف الحرير يُسمع جافاً متوتراً .

وخشيت الأم أن ينشب العراك ، فقالت بصوت سريع خافت لمن كان حولها :

– اذا كان الأمر كذلك ، فليس لهم إلا ان يطيعوا ، وان ينزعوا الشرائط؛ فماذا ترون ؟

وهدر صوت جهوري قاس ، فطغى على الجلبة :

– إننا نطلب ان نُترك بسلام لنشيع الى المثوى الاخير رفيقاً سممته العذاب ...

وصاح احدهم بصوت نحيف حاد :

« سندخل المعترك » .

– أرجوكم ان تنزعوا الشرائط . اقطعها يا جا كوفليف .

وسُمع صليل حسام يُسَلّ من غمده ، واغمضت الأم عينيها تتوقع صرخة ، ولكن الضجيج هدأ وتعالت دمدمة الناس ، وكشروا عن اسنانهم كالذئاب الجائعة ، ثم ساروا بصمت ، مطرقي الرؤوس ، يملأون الشارع بصدى خطاهم .

وكان غطاء النعش المعرّى ، يتموج في الطليعة مع حطام الاكاليل ، وكان رجال البوليس يسيرون وراءه وهم يترنحون على وقع سنابك خيولهم ، وكانت الام تمشي على الرصيف ، ولا تستطيع رؤية النعش لكثرة المزدحمين حوله ، وكان الحشد يتعاظم ، ويتعاظم رويداً رويداً فيملأ عرض الشارع كله .

ووراء الحشد كانت تنتصب الاشباح الرمادية ، أشباح فرسان البوليس ، ويكتنف الجمهور من كل جانب ، المشاة منهم ، ويسيرون وايديهم على قبضات سيوفهم ، وفي كل مكان كانت تتراقص عيون نفاذة لجواسيس تعرفهم الام ، عيون تتفحص ملامح الناس بدقة وحذر .

وارتفع صوتان عذبان ينشدان بأسى :

– وداعاً ، رفيقنا ، وداعاً .

وصاح واحد من بين الجميع :

– يجب ألا ننشد ، ولنصمت يا سادة .

وتميزت هذه الصرخة بشيء فيه قسوة واتزان ، فأنقطع الانشاد الكئيب ، وخفتت ضجة الاصوات ، وظل وقع الخطى الحازم وحده يملأ الشارع بضجيج

اخرس رتيب ، ثم يرتفع فوق الرؤوس ، ويحلق في السماء الشفافة ، فيزلزل الفضاء كرجع الزمجرة الاولى لعاصفة ما تزال بعيدة . وكانت الريح الباردة الحاقدة تزداد عنفاً : تقذف وجوه الناس بالغبار والقذى ، وتعصف بثيابهم وشعورهم ، وتطرف أعينهم ، وتدق صدورهم ، وتزوبع بين ارجلهم .

وكان هذا المأتم الصامت الذي لا كهنة فيه ولا تراتيل مؤثرة ، وهذه الوجوه المنقبضة الباسرة ، تثير في الأم إحساساً حزيناً ، فيدور تفكيرها ببطء ، ويسدل على انطباعاتها قناعاً من الأفكار الكئيبة .

إنكم لقلة ... انتم الذين تناضلون من اجل الحقيقة .

وكانت تتقدم مطأطئة الرأس ، ويخيل إليها انه ليس هو ايغور الذي يُحتفل بدفنه ، وانما شيء آخر يختلف عنه ، شيء كانت قد ألفته وكان قريباً منها ، ضرورياً بالنسبة اليها ، وكانت من اجل ذلك حزينة ، تعبى ، يفعم قلبها شعور عنيف ، يقض مضجعها : فهي ليست منسجمة في التفكير مع هؤلاء الذين يشيعون إيغور ، لقد كانت تفكر :

– لا شك ان ايغور لم يكن يؤمن بالله ، وان هؤلاء جميعاً لا يؤمنون به كذلك .

ولكنها كانت لا تود الاسترسال في التفكير بهذا الموضوع ، فتتأوه ، لتطرح ذلك الحمل الذي يبهظ روحها :

– يا إلـهي ... يا يسوع ... أيمكن ان اكون انا ايضاً كذلك ......

وبلغوا المقبرة ، وداروا دورات طويلة في معابر ضيقة بين القبور حتى انتهوا الى مكان خاوٍ غُرست فيه بعمق صلبان بيضاء ؛ فتجمعوا حول حفرة هناك ، ثم ساد الصمت . وكان هذا الصمت العبوس الذي ران على الاحياء بين القبور ، ينبىء بشيء رهيب ارتعش له قلب الأم وجد يترقبه . وكانت الريح تنفخ بين الصلبان وتعوي ، والازهار المتناثرة ترتعش ، اسيانة ، فوق النعش .

وكان رجال البوليس على استعداد تام ، يسمّرون ابصارهم على قائدهم .

وانتصب فوق القبر شابٌ فارع ، شاحب الوجه حاسر الرأس ، طويل الشعر ،

ـود الحاجبين .

وفي اللحظة نفسها ، ارتفع صوت خشن ، صوت ضابط البوليس :

ــ ايها السادة .

وصاح الشاب بصوت جهور :

ــ ايها الرفاق .

وصرخ الضابط : انتبهوا ، إني لا استطيع السماح بالقاء الخطب .

وقال الشاب بهدوء :

ــ لن اقول إلا بضع كلمات فقط . ايها الرفـاق : لنقسم على ضريح معلمنا ورفيقنا الا ننسى تعاليمه ابداً ، لنقسم على ان كلاً منا سيعمل طوال حياته ، دونما كلل ، للقضاء على ينبوع آلام وطننا كلها ، وعلى ان نحفر قبر القوة الشريرة التي تضطهد هذا الوطن ، قبر الاوتوقراطية .

وصاح الضابط :

ــ اقبضوا عليه .

ولكن صوته ضاع في دوي الصيحات العاتية التي ارتفعت :

ــ لتسقط الاوتوقراطية .

واندفع رجال البوليس نحو الخطيب وهم يشقون طريقهم اليه بين الجمـــع ، ولكنه ، وقد احاط به الناس من كل جانب ، كان يصيح وهو يلوح بيده :

ــ عاشت الحرية .

وألقي بالأم جانباً ، فأستندت في غمرة رعبها الى احد الصلبان ، ثم اطبقت عينيها كأنها تتوقع ضربة ما ، واصمت أذنيها عاصفة صاخبة من الاصوات المتنافرة ، ومادت الارض تحت قدميها ومنعها الخـــوف والريح من ان تتنفس ، وكانت صفارات البوليس تمزق الفضاء ، وصوت فظ آمر يلعلع ، ونساء يطلقن صرخاتهن الهستيرية ، وكان خشب الاسوار يطقطق ، وخطو الناس الثقيل على الارض الصلبة ، يرسل صداه الاخرس . واستمر ذلك وقتـاً طويلاً ولم تستطع الام ان تظل مطبقة العينين ، وكان رعبها قد ربا ، حتى اصبح لا يحتمل .

وفتحت عينيها ، وأطلقت صرخـــة ، ثم اندفعت الى الامام وهي باسطة ذراعيها ، وبالقرب منهـا ، وفي أحد المسالك الضيقـة بين القبور ، كان رجال البوليس ، قد أحاطوا بالشاب ذي الشعر الطويل ، وراحوا يردون عنهم الجمهور الذي كان يهاجم من كل صوب ؛ وكانت السيوف المشرعة تبرق في الفضاء بألق ناصع بارد ، وترتفع فوق الرؤوس ثم تتهاوى بسرعة . وكانت العصي وشظايا الأسوار تتطاير . انها عاصفة ،انها رقصة من الأصوات مجنونة ؛وفوق الحشد الثائر كان وجه الشاب الشاحب ينتصب ، وصوته القوي يهدر فوق العاصفة ، عاصفة الأحقاد المتفلتة من أغلالها .

ــ ايها الرفاق . يجب ألا نبدد قوانا .

وأطاعوه ، فأخذوا يلقون عصيهم واحداً بعد آخر ، ويبتعدون بسرعة عن ساحة المعركة وكانت الأم تشق طريقها أبداً الى الامام مدفوعة بقوة غير منظورة ، وكانت ترى نيقولا يدفع المتظاهرين الذين أثملهم الحقد ، وقبعته معلقة في عنقه ، وتسمع صوته مشحوناً بالتأنيب :

ــ يا لكم من مجانين . الهدوء . الهدوء .

وبدا لها أن احدى يديه كانت مضرجة بالدم ، فصاحت وهي تندفع نحوه :

ــ نيقولا ... انصرف من هنا .

ــ الى أين تذهبين ؟ إنك تتعرضين للضرب .

وأمسكت بكتفها يد ، واذا هي صوفيا . وكانت حاسرة الرأس منفوشة الشعر ، تسند فتىً يكاد يكون طفلاً ،وكان الفتى يمسح بيده وجهه المتورم المدمى ، وشفتاه المرتعشتان تغمغمان :

ــ دعوني .. فالجرح بسيط ليس بذي بال .

وقالت صوفيا بسرعه وهي تضع يد الفتى في يد الأم :

ــ اهتمي بأمره ، وخذيه الى منزلنا وهذا منديل فاعصبي به وجهه .

ثم ولت الأدبار وهي تقول :

ــ إذهبا بأسرع ما يمكن . . انهم يعتقلون ...

وكان الناس يتفرقون في كل اتجاه ، ورجال البوليس يسيرون بتثاقل بين القبور ، ويتعثرون بأذيال معاطفهم ، ويشتمون ويلوحون بسيوفهم ، وكان الفتى الصغير يتتبعهم بنظرة ذئبية .

وصاحت به الأم بفتور وهي تمسح وجهه :

— هيا بنا بسرعة .

فغمغم وهو يبصق دماً :

— لا تقلقي . فليس بي من أذى . لقد ضربني بقبضة سيفه، ولكنني سددت له بدوري ضربة من هذه العصا ... فراح يعوي .

ثم طوى قبضته المضرجة وقال بصوت متقطع :

— انتظري . لم ينته الأمر بعد . وسنسحقهم دونما ضجيج ، عندما نثور نحن العمال .

واستعجلته الأم :

— هيا بنا .

ثم اتجهت مسرعة نحو باب صغير في سور المقبرة ، وكان يخيل اليها ان رجال البوليس قد كمنوا وراء السور، في أحد الحقول ، ينتظرونها ، وانهم، سيقبضون عليها عند خروجها فيقتلونها ؛ ولكنها فتحت الباب الصغير بحذر، وألقت نظرة خاطفة على الحقول التي ارتدت حلة رمادية من غبش الخريف، فهدأ من روعها ، فجأة ، ما كان يخيم على هذه الحقول من وحدة وصمت .

وقالت للفتى :

— مهلا ... دعني أعصب جرحك .

— لا حاجة لذلك فهو لا يخجلني. لقد أصبت بجرح وأصيب هو بمثله فتساوينا.

وضمدت الأم الجرح على عجل، فملأها منظر الدم شفقة، وعندما أحست أناملها رطوبته الفاترة اعترتها رعشة رعب ، فقادت الجريح بسرعة عبر الحقول وهي تجره من ذراعه، صامتة؛ ولكن الفتى أزاح الضمادة عن فمه، وقال، وفي صوته ضحكة صغيرة :

— الى أين تقودينني يا رفيقة ! إني استطيع السير وحدي .

ولكنها كانت تحس انه يترنح ، وان خطواته لم تكن ثابتة ، وان ذراعه ترتعش ، وكان يتكلم بصوت متهافت ، ويسألها دون ان ينتظر جواباً :

— إني أدعى جان، ومهنتي سمكري.. وأنت ؟.... لقد كنا في حفلة ايغور ثلاثة، ثلاثة سمكريين . وكان مجموع الحلقة أحد عشر عضواً . وكنا نحبه كثيراً، رحمة الله عليه ... وإن كنت لا أومن بالله .

وعندما بلغوا أحد الشوارع استأجرت الأم عربة ، فأجلست جان فيها ووشوشته :

— الآن .. عليك ان تلزم الصمت .

ثم عصبت بالمنديل فمه ثانية، فرفع يده ليزيحه، وعندما أعياه ان يحرر شفتيه، هوت يده باعياء ، واستقرت فوق ركبتيه ؛ رغم ذلك فقد ظل يغمغم من خلال العصابة :

— هذه الضربات سأقيدها لكم على الحساب، يا أعزائي الطيبين ...وقبل ايغور كان ثمة تيتوفيتش ... وهو طالب كان يعلمنا الاقتصاد السياسي.. ثم أوقفوه.

وأحاطت الأم جان بذراعها ، وأسندت رأسه الى صدرها ، واذا به يثقل فجأة ويصمت . وراحت وقد جمدها الرعب، تطلق نظراتها الوجلى في كل ناحية، ويخيل اليها أن رجال البوليس سيتواثبون من كل زاوية من زوايا الشارع عندما يرون رأس جان المعصوب ؛ يتواثبون ليقبضوا عليه ويقتلوه .

وتلفت الحوذي من على مقعده وسأل بابتسامة لطيفة :

— لعله شرب ؟

فزفرت الأم :

— اجل .. ولقد اسرف كثيراً ، وهذا ما ينهكه .

— هل هو ابنك ؟

— نعم ... وهو اسكافي ... أما انا فطاهية .

— مهنة شاقة ... نعم ...

وألهب ظهر جواده بلسعة من سوطه ثم تلفت ثانية وتابع بصوت أشد خفوتاً :

— يظهر انه كان هناك بعض الضوضاء في المقبرة ، لأنهم كانوا يدفنون واحداً من أولئك الذين يشتغلون بالسياسة ، والذين هم ضـــد السلطات . اما الذين كانوا يقومون بدفنه فهم رفاق له بلا ريب ، وكانوا يهتفون : لتسقط السلطات فهي التي تجلب الخراب للشعب . وهاجمهم رجال البوليس بالسيوف ، واسكتوهم ويقال ان هناك قتلى ؛ وانه قد وقع بين رجال البوليس ايضاً بعض الاصابات .

وصمت ، وهز رأسه بأسى ، ثم استطرد يقول بصوت غريب :

— يضايقون الموتى ، ويوقظون الراحلين ...

وكانت العربة تقفز بضجيج فوق بلاط الشارع ، ورأس جان يتمايل على صدر الأم والحوذي يستدير نحوها نصف استدارة ويغمغم مطرقاً :

— الشعب في هياج ، والفوضى تنبع من الارض . نعم ... ففي هذه الليلة اقتحم الدرك بيت الجيران ، ولا ادري مـاذا « فبركوا » طوال الليل ... ثم انهم قبضوا على حداد وساقوه معهم ، ويشاع انهم سيقتادونه ، في احدى الليالي ، الى ضفاف النهر ويغرقونه سراً ، رغم ان هذا الحداد كان نموذجاً للرجل الطيب.

وسألته الأم :

— وماذا يدعى ؟

— من ؟ الحداد ؟ انه يدعى « سافيل » وانه ما زال صغير السن ، ولكنه يدرك اموراً كثيرة ... اما ما كان يدركه فهو محرّم على ما يبـدو . لقد كان يأتينا دائماً فيسأل : أية حياة تحيونها انتم الحوذيين؟ فنقول له ان حياتنا ، في الواقع ، أسوأ من حياة الكلاب .

وقالت الأم فجأة :

— قف هنا .

وايقظ التوقف المفاجيء جان ، فراح يئن باعياء .

وعلق الحوذي :

— لقد صُدم الفتى ... مسكين ... شارب الفودكا .

وكان جان يجتاز الساحة مترنحاً لا يكاد يستوي على رجليه ، ويقول :

— انه أمر غير ذي بال ... اني استطيع ان امشي ...

— ١٣ —

وكانت صوفيا قد عادت منهمكة منفعلة ، فاستقبلت الام ، وسيجارتها في فمها ثم مددت الجريح على اريكة ، وراحت ، وهي توزع اوامرها ، تفك بمهـــارة الضمادة التي تعصب رأسه ، وكان دخان سيجارتها المتصاعد يحملها على إغمـاض احدى عينيها .

— لقد وصلا يا دكتور . أأنت متعبة يا نيلوفنا ؟ لقد استولى عليك الخوف اليس كذلك ؟ حسناً ... استريحي . اعطها كأساً من الشراب يا نيقولا .

وكانت الأم وقد أذهلتها التجارب التي مرت بها ، تتنفس بصعوبة ، وتحس بألم في جنبها ؛ وتغمغم :

— لا تزعجوا أنفسكم من أجلي .

ولكن كيانها كله ، كيانها المتوتر كان يستدعي الاهتمام والعطف والمؤاسي .

وخرج نيقولا من الغرفة المجاورة معصوب اليد ، وتبعـه الطبيب الذي كان شعره منفوشاً كشعر القنفذ ، واقترب هذا من جان بسرعة ، وانحنى فوقه :

— آتوني بماء ، بكثير من الماء ، وبعض الخرق النظيفة والقطن . وتوجهت الام نحو المطبخ ، ولكن نيقولا امسكها من ذراعها ، وقال لها بود وهو يجرها الى غرفة الطعام :

— انه لا يطلب ذلك منك بل من صوفيا . لقد تحملت كثيراً من الانفعالات ايتها الصديقة العزيزة .. اليس كذلك ؟

والتقت نظراتها بنظراته اليقظة الحادبة ، ولم تستطع ان تكبت زفرتهـــا فاندفعت :

— لقد كان ذلك رهيباً يا نيقولا . لقد كانوا يحصدون النـــاس بسيوفهم ..

وقال نيقولا وهو يهز رأسه ، ويصب لها كأساً من النبيذ :

— لقد رأيت ذلك. كلاهما خرج عن أطواره بعض الشيء ؛ولكن هدئي من روعك ، فلقد كانوا يضربون بعرض سيوفهم ، ولم يصب بجراح خطـيرة إلا شخص واحد ، رأيته يتلقى الضربات فسارعت الى سحبه من ساحة العراك .

وكانت ملامح نيقولا وصوته،والدفء الذي يشيع في الغرفة ، والنور الذي يغمرها، كان ذلك كله يهدىء من اعصاب بيلاجي،فرمقته بنظرة شاكرةوسألته:

— وأنت ، هل أصبت أيضاً بضرباتهم ؟

— لقد حملت الجريح وحدي ، وجرحت يدي على غير انتباه ، وانكشط جلدها . خذي اشربي هذا القدح من الشاي ، فالجو بارد ، وثيابك خفيفة .

ومدت يدها الى القدح فأبصرت الدم المتجمد يصبغ اناملهـا ؛ وبحركة لا إرادية تهاوت يدها الى ركبتها، وكان ثوبها مبللاً . وكانت تنظر الى اصابعها، وعيناها جاحظتان، وحاجبها مرتفع،وكان رأسها يدور،وخاطرة تطرق رأسها:

— قد يعاملون بول هكذا ... وانهم لقادرون .

ودخل الطبيب وقد خلع سترته وشمر عن ساعديه ؛ وأجاب بصوته النحيل على سؤال نيقولا الصامت :

— إن جرح الوجه سطحي" ، إلا ان هناك كسراً في الجمجمة ؛ وهو ليس بخطر لأن بنية الفتى قوية ، ومع ذلك فقد نزف منه كثـير من الدم ، وسنقوم بإرساله الى المستشفى ."

ورد نيقولا :

— لماذا ؟ ليبقَ هنا .

— هذا ممكن اليوم وغداً ايضاً...أما بعد غد فلا... اذ لا يبقى لدي متسع من الوقت لزيارته . هل ستضع بياناً عن حادث المقبرة ؟

— طبعاً .

ونهضت الام بسكون ، واتجهت نحو المطبخ ، فسألها نيقولا بكـآبة وهو يستوقفها :

— الى أين يا نيلوفنا ؟ ستقوم صوفيا بالعمل وحدها .

ورنت اليه ، وأجابته مرتعشة وعلى شفتيها ابتسامة غريبة :

— اني ملطخة بالدم .

وابدلت ملابسها في غرفتها وراحت تفكر مرة أخرى بهدوء ، تفكر بهؤلاء القوم،وبموهبتهم في التغلب السريـع على الهول فيأي موقف. وأعادها هذاالتفكير الى نفسها ، فطردت الوجل من قلبها ، وعندمـا رجعت الى الحجرة حيث كان الجريح وجدت صوفيا تقول له ، وهي تنحني فوقه :

— انك تتفوه بالحماقات يا رفيق .

فأجابها بصوت ناحل ضعيف :

— ولكنني سأسبب لكم الازعاج .

— اسكت إذن ... فذلك أفضل .

ووقفت الأم وراء صوفيا ، ووضعت يدها على كتفها ، وحدقت باسمة في وجه المريض الشاحب،وراحت تقص الأشياء التي هذى بها وهوفي العربة،وتصف الرعب الذي استحوذ عليها من جراء كلامه المتهور ، وكان يصغي وعيناه تلمعان من الحمى ، وأسنانه تصطك ولسانه يردد بارتباك :

— أوه ... لكم انا غبي .

وقالت صوفيا بعد ان سوّت غطاءه :

— حسناً ، سنتركك الآن ، فاسترح .

وانتقلت السيدتان الى غرفة الطعام حيث تحدثتا طويلاً، مع نيقولا والطبيب عن احداث النهار . لقد كانوا يبحثون المأساة كأنها شيء من المـاضي السحيق ، وينظرون الى المستقبل بصفاء ، ويتناقشون في عمل الغد ؛ واذا كانت ملامحهم تنم عن الانهاك فإن افكارهم كانت تملأها العافية ؛ وعندما كان أحدهم يتحدث عما يشغله كان يعلن عدم رضاه عن نفسه . وكان الطبيب يتململ في مقعده بعصبية ، ويقول مجتهداً في أن يسبغ على صوته النحيف الحاد وقاراً أكثر .

— الدعاوة ، الدعاوة ... إنها ليست كافية الآن. إن الشبيبة الكادحة محقة، ويجب أن تتحرك وفق مخطط أوسع .. العمال محقون ... هذا ما أقوله لكم ..

وأجاب نيقولا بلهجة قاتمة :

— إن الشكوى تتعالى لعدم توفر الكتب، ومع ذلك فلا تتوفر لنا دائماً مطبعة جيدة . إن لوميلا منهكة ، وستقع فريسة المرض اذا لم نوفر لها مساعدين .

وسألت صوفيا :

— وفيسوشيكوف ؟

— إنه لا يستطيع الإقامة في المدينة . ولن يباشر العمل إلا في المطبعة الجديدة ، ولكننا من اجل ذلك بحاجة ايضاً الى شخص آخر .

وقالت الأم بهدوء :

— ألا أصلح أنا لذلك ؟

وهتفت صوفيا : انها فكرة طيبة .

ورد نيقولا بجفاف :

— كلا ، فالعمل مرهق بالنسبة اليك يا بيلاجي .. ثم انه يقتضيك العيش خارج المدينة حيث لا تتاح لك رؤية بول .

وقاطعته وهي تتنهد :

— ليس في ذلك بالنسبة لبول حرمان كبير، أما بالنسبة إلي ، فهذه الزيارات تهصر قلبي . اننا لا نستطيع ان نقول شيئاً . اني اقبع كالحيوان امام ابني ، ويركزون هم ابصارهم على فمك ، ليروا ما اذا كنت ستتمادى في الحديث ..

لقد استنفدت أحداث الأيام الاخيرة قواها ، والان ، ها هي الفرصة تسنح لها لتعيش بعيداً عن مآسي المدينة ، وانها لترغب في ذلك أشد الرغبة .

وغيّر نيقولا مجرى الحديث فسأل الطبيب :

— بماذا تفكر ؟

فرفع هذا رأسه وأجاب متجهماً :

— إننا قلة ؛ هذا ما أفكر فيه . وعلينا ان نعمل بحيوية أكثر ، وان نقنع اندرية وبول بضرورة الفرار ، فكلاهما اثمن من ان يظل عاطلاً عن العمل .

وزوّى نيقولا ما بين عينيه وهز رأسه مرتاباً ، وهو يلقي على الأم نظرة خاطفة،

أودركت هي انهم لا يستطيعون التحدث بحرية عن ابنها بحضورها فانسحبت الى غرفتها ، وفي قلبها بعض الحقد عليهم ، عليهم هم الذين لم يعيروا رغبتها الا القليل من اهتمامهم .

وتمددت في سريرها وهي مفتوحة العينين ، يهدهدها همس اصواتهم ، ثم لم تلبث ان استسلمت لهمومها ، وكان النهار الذي ولّى ، يبدو لعينيها متجهماً مستعصياً على الفهم ، طافحاً بالرؤى الحزينة ، وكان يؤلمها ان تفكر فية ، لذلك راحت وهي تطرد من ذهنها انطباعاته الكئيبة ، تركز تفكيرها ببول .

لقد كانت تود ان تراه حراً ، وفي الوقت نفسه كانت هذه الرغبة تخيفها، فهي تحس حولها توتراً ، واصطدامات قلسية وشيكة الوقوع ! لقد تلاشى استسلام الناس الصامت ، وحل مكانه التيقظ ، وتنامت النقمة بشكل محسوس، وراحت المناقشات الحادة تدوّي ، وفي كل مكان تنفخ ريح هياج جديد .

وكان كل منشور يثير الجدل العنيف في السوق والحوانيت ، بين الخدم والحرفيين ، وكل اعتقال يترك صدى خائفاً قلقاً ، ويولّد ، في بعض الأحيان ، وبصورة لا شعورية ، شعوراً من التعاطف مع تلك التعليلات التي كان الثوريون يقدمونها للكشف عن دوافع هذا كله . وكانت بيلاجي غالباً ما تسمع من أفواه الناس البسطاء كلمات كانت من قبل تبعث رعبها : تمرد ، اشتراكيون ، سياسة . وكانوا يرددون هذه الكلمات بسخرية ، إلا ان هذه السخرية كانت لا تفلح في إخفاء نهمهم الى المعرفة ، وكانوا يرددونها بتفكير ، ولكن هذا التفكير كانت تشوبه ملامح من الرجاء والوعيد .

وأخذ الاضطراب ينتشر ببطء ، ولكن في دوائر واسعة ، تنتظم الحياة الراكدة الكالحة ؛ وكان الفكر الخدر يستفيق ، والاستسلام الهادىء المألوف الذي واجه به الناس احداث يومهم ، يفقد سلطانه .

لقد كانت بيلاجي تميز ذلك بوضوح اكثر من رفاقها، لأنها كانت تعرف وجه الحياة الحزين اكثر مما يعرفونه ؛ هذا الوجه الذي ترى الآن فيه ، تغضّنات التفكير والسخط ، فتستشعر الغبطة والخوف في آن واحد . أما الغبطة فلأنها

كانت تعتبر أن ذلك من صنع ابنها، وأما الخوف، فلأنها كانت تعلم انه سينطلق اذا ما خرج من السجن ، على رأس رفاقه جميعاً ، سينطلق بهم الى النقطة الاشد خطراً ، وسيهلك .

وكانت صورة ابنها ، تأخذ في عينها ، احياناً ، تقاطيع بطل من ابطال الاسطورة ، بطل يتحد في شخصه كل ما سمعته من قول حق ، جريء ، وكل ما أحبت من كائنات، وكل ما كانت تعرف من بسالة وصفاء، وكانت تمجدهذا البطل بحماسة وزهو وحنان ، وتقول في نفسها ، والآمال تغمرها :

— سيسير كل شيء على ما يرام ... كل شيء .

وكان حبها ، حبها كأم ، يزداد ضراماً . ويهصر قلبها حتى ليكاد يحملها على الصراخ ، وكان ، بن ثم، يحول دون نمو حبها للانسانية ،بل يستغرق هذا الحب كله ، فلا يظل مكان هذا الشعور العظيم ،إلا فكرة حزينة تنبض بوجل في الرماد الداكن ، رماد القلق :

— سيلقى حتفه ... سيهلك .

— ١٤ —

وعند الظهيرة كانت أمام حاجز السجن ، تجلس تجاه بول ،وتتفرس في وجهه الملتحي ، بعينين غائمتين ، وتترقب اللحظة التي تتمكن فيها من تسليمه القصاصة التي كانت تشد عليها بين أصابعها

وقال لها بول بصوت خافت :

— ان صحتي جيدة ، وكذلك رفاقي ، فكيف حالك أنت ؟

وأجابته بآلية :

— لا بأس .... ولكن ايغور قد مات .

ورذ عليها :

— آه ... نعم ؟

ثم أطرق برأسه الى الارض .

وتابعت هي ببساطة :

— وعند الدفن ، حصلت مشادة مع رجال الشرطة ، وأوقف احدالاشخاص وسقسق معاون مدير السجن منفعلاً ودمدم وهو يقفز من مقعده :

— هذا ممنوع . يجب ان تفهما ذلك بالحسنى. فلايجوز التحدث هنا في السياسة.

ووقفت الأم وقالت محتجة :

— انا لا اتحدث في السياسة ، بل عن الخلاف الذي حصل ، والواقع انهم اشتبكوا في عراك ، حتى ان أحدهم أصيب بشج في رأسه .

— هذا سواء عندي . لذلك ارجوك ان تكفي . يعني أنك لا تستطيعين الكلام إلا فيا يتعلق بك ، بك شخصياً وبعائلتك ، وبيتك .

وعندما شعر انه سيقع في الارتباك ، جلس الى طاولته ، وأضاف بلهجة خافتة كئيبة ، وهو يرتب أوراقه :

— إني مسؤول ... نعم ...

وحدجته الأم بنظرة ، ثم دست القصاصة في يد بول وتأوهت بارتياح :

— إننا لا ندري ما الذي يريد ان نتحدث عنه .

وابتسم بول :

— وأنا كذلك لا أدري .

وأضاف المعاون بانفعال :

— إذاً لا داعي للزيارات .لا شيء لديكم تقولونه...ثم تأتون مع ذلك لازعاج الناس جميعاً .

وسألت الأم بعد فترة من الصمت :

— هل سيكون موعد المحاكمة قريباً ؟

— لقد جاء النائب العام الى هنا مؤخراً ، وقال ان الموعد سيكون قريباً .

وتبادلا أحاديث لا معنى لها ، أحاديث لا فائدة فيها لكليهما ، وكانت الأم تلاحظ أن بصر بول يستقر عليها بعذوبة وحنو .

إنه لم يتغير ، إنه ما زال هادىء الطبع متزناً ، غير ان لحيته الخصبة النمو ، كانت تجعله يبدو طاعناً في السن ، وكانت يداه أشد بضاضة من ذي قبل وساورتها رغبة في ان تدخل النشوة الى قلبه، ان تحدثه عن فيسوشيكوف بنفس

الصوت وبنفس اللهجة ، التي تتحدث بها عن أشياء لا جدوى فيها ، فقالت :

— لقد رأيت ابنك بالعماد ... (فليونك)

فرمقها بول بنظرة متسائلة ، ولكي تذكّره بوجه فيسوشيكوف الجدور ، راحت تنقر على وجهها باصبعها وتقول :

— إنه على ما يرام . وهو فتى قوي فشّار ، وسيلتحق عما قريب بعمل .

وفهم بول ، ورد عليها باشارة من رأسه حيئة ، وبسمة في عينيه مرحة :

— هذا جميل .

— حسناً ... هذا ما عندي .

وكانت راضية عن نفسها كل الرضى ، متأثرة بالبهجة البادية في ملامح ابنها ، وعندما ودعته ، شد يدها بحرارة :

— شكراً يا اماه .

وكنشوة المخمور تصاعد الاحساس بالفرحة الى رأسها ، فرحة الاحساس بان قلب ابنها قريب كل القرب من قلبها ، ولم تقو على ان ترد عليه بالكلمات ، فردت فقط بضغطة صامتة على يده .

ولدى عودتها وجدت ساندرين عندها ، فلقد تعودت الفتاة ان تأتي في الأيام التى تذهب فيها الأم الى السجن ، كما تعودت الا تسألها ابداً عن بول ، فإذا اعتصمت الأم بالصمت ، ولم تتحدث عنه من تلقاء ذاتها ، اكتفت ساندرين بان تقرأ في عينيها ما تريد ان تعلم . ولكنها ، هذه المرة ، استقبلتها بسؤال قلق :

— حسناً ! ماذا يفعل ؟

— إنه بخير .

— هل سلمته القصاصة ؟

— بكل تأكيد ، ولقد فعلت ذلك بمهارة فائقة لدرجة ...

— وهل قرأها ؟

— اين يستطيع ان يفعل ؟

واستدركت الفتاة فقالت ببطء :

— هذا صحيح . لقد نسيت . لننتظر اسبوعاً آخر ... اسبوعاً آخر . هل تعتقدين انه سيوافق ؟

وتجهم وجهها ولم يبارح بصرها عيني الأم التي أجابت وهي تفكر :

— لا أدري ... ولكن لِمَ لا يوافق إذا لم يكن في الأمر مخاطر ؟

وهزت ساندرين رأسها ، وخففت من اهتمامها وسألتها ببرود :

— الا تعرفين ماذا يجب ان نطعم المريض ؟ إنه يطلب طعاماً .

— نستطيع ان نطعمه كل شيء ، كل شيء ... سأذهب الى ...

ودخلت المطبخ فتبعتها ساندرين بتثاقل :

— هل لي ان اساعدك ؟

— شكراً . لا ضرورة لذلك .

وكانت الأم تنحني فوق الموقد ، تتناول طنجرة ، عندما دنت الفتاة منها وقالت لها بصوت خفيض :

— مهلاً .

وشحب لونها ، وكانت عيناها المفتوحتان على اتساعها تقطران كآبة ، وشفتاها المرتعشتان تتمتمان بجهد ، ولكن بغير حرارة :

— وددت ان اسألك ... ولكني اعلم انه لن يوافق . فاقنعيه ، قولي له بأننا نحتاج اليه من أجل قضيتنا ، وبأننا لا نستطيع الاستغناء عنه ، وبأنني أخشى عليه من المرض ... ألا ترين ؟ إن موعد المحاكمة لم يحدد بعد .

ولقد كان واضحاً انها تجد في الكلام عنتاً ، وكان الجهد يوتر اعصابها ، وصوتها ينساب متقطعاً ، وكانت وهي تسبل أجفانها التعبى ، تقضم شفتيها ، وتضغط على أناملها بشدة .

وهزت هذه الثورة العاطفية الأم هزاً عنيفاً ، ولكنها أدركت دوافعها ، فاحتضنت الفتاة وقد ملأها الاضطراب والأسى ، وأجابتها بصوت خافت :

— إنه لا يستمع لأحد ، يا صغيرتي الغالية ... لا لأحد إلا لنفسه .

وظلتا كلتاهما صامتتين ، وهما تتعانقان بحرارة ، ثم تفلتت ساندرين بلطف ،

وقالت وهي ترتعش :

— نعم ... إنك على حق، وما تفوهتُ به مجرد حماقات...إن أعصابي ...

... ولكنها استعادت هدوءها فجأة فتابعت ببساطة :

— لنحمل الى الجريح إذن ما يأكله .

وجلست عند رأس جان ، وسألته بكثير من الاهتمام والعطف :

— أيؤلمك رأسك كثيراً ؟

وأجاب جان وهو يشد الغطاء بارتباك ، ويرفعه حتى ذقنه :

— كلا ... ولكنني أشعر بدوار ، وبأني خائر القوى .

وكانت أجفانه ترتعش بلا انقطاع كأن النور يطرفها،ولاحظت ساندرين انه لن يتناول طعامه بحضورها ، فنهضت وخرجت .

وجلس جان في سريره ، وتتبعها ببصره ، وقال وهو يغمز بعينيه :

— فتاة رائعة .

وكانت عيناه الصافيتين جذلتين ، وأسنانه صغيرة متراصة ، وصوته لاترن فيه نبرات الرجولة .

وسألته الأم مطرقة :

— كم عمرك ؟

— سبعة عشر عاماً .

— أين هم أهلك ؟

— إنهم في الريف . أما أنا فاني هنا منذ سبع سنوات .. أي منـذ انهيت دراستي . وأنت ... ما اسمك يا رفيقة ؟

وكان يبهج الأم ويعزيها دائماًان يتوجه اليهاأحدٌ بالحديث ،لذلك أجابته باسمة :

— لمَ تريد ان تعرف اسمي ؟

وأوضح الفتى بارتباك ، وبعد لحظة من الصمت :

— لأنه كان في حلقتنا طالب ... أقصد ... طالبٌ كان يدرس معنا ، وقد حدثنا عن والدة بول فلاسوف العامل ... أتعلمين انه في احتفال أول أيار ...؟

... وهزت الأم رأسها ، وأصاخت بسمعها فأضاف الفتى بزهو لاقى وقعه الحسن في نفسها :

— لقد كان هو اول من رفع علم حزبنا عالياً . ولم أك أنا موجوداً . وكنا نفكر بأن نقيم هنا احتفالاً خاصاً بنا ، ولكننا لم ننجح . لقد كان عددنا قليلاً في ذلك الحين ، أما هذه السنة ، فسيكون ذلك ممكناً بلا ريب ... سترين .

وأخذ التأثر منه كل مأخذ وهو يتذوق مسبقاً أحداث المستقبل ، ثم تابع ، وهو يحرك ملعقته :

— وإذن ... فإن ام فلاسوف التي حدثتك عنها ، قد انخرطت هي ايضاً في الحزب ... انخرطت فيما بعد ... ويقال إنها امرأة مدهشة .

وابتسمت الأم ابتسامة عريضة ، فلقد كان يلذ لها ان تسمع ثناء الفتى الحار، وكادت تقول له : « اني انا ... أم فلاسوف » ولكنها احجمت،وقالت فينفسها بحزن يمازجه بعض السخرية :

— آه ... يا لي من عجوز حمقاء .

والتفتت اليه فجأة ، وقالت بتأثر وهي تميل نحوه :

— هيا ... كُلْ أكثر ... واستعد صحتكبسرعة منأجل قضيتنا الخيرة .

وفُتح الباب ، وسبقت صوفيا نفحة من برودة الخريف الرطبة ، ودخلت هذه بادية المرح ، متوردة الخدين :

— أقسم بشرفي أن الجواسيس يلاحقونني كما يلاحق العرسان وارثة ثرية ... يجب أن أرحل من هنا .

وكانت وهي تشعل لفافتها ، تطرح الأسئلة دون ان تنتظر الجواب عليها :

— وجان كيف حاله؟هل هو بخير ؟ وأخبار بول يانيلوفنا؟هل ساندرين هنا؟

وكانت عيناها الرماديتان تلفان الأم والشاب بنظرة ناعمة لطيفة ، وكانت الأم تتأملها ، وتبتسم فيما بينها وبين نفسها ، وتفكر :

— ها أنذا قد اصبحت ايضاً شخصاً ذا قيمة .

ومالت من جديد نحو جان لتقول له :

- هيا ، إشفَ سريعاً يا صغيري .

وتوجهت نحو غرفة الطعام حيث كانت صوفيا تحدث ساندرين :

- لقد أعددْتُ حتى الآن ثلاثمائة نسخة ، وهي تكاد تقتل نفسها في هـذا العمل . إنها لبطولة حقاً . افتدرين يا ساندرين انه لمن السعادة الكبرى ان يعيش المرء بين قوم كهؤلاء ، وأن يكون رفيقاً لهم ، وأن يعمل معهم . ؟

وأجابت الفتاة بصوت خفيض :

- نعم .

وفي المساء قالت صوفيا للأم :

- ينبغي ان تذهبي ثانية الى الريف يا نيلوفنا .

- حسناً . اني موافقة ... فمتى يكون ذلك ؟

- خلال يومين او ثلاثة ... هل هذا ممكن ؟

- أجـل .

ونصحها نيقولا :

- لا تذهبي مشياً على الأقدام بل استأجري جياد بريد ، واسلكي طريقاً آخر عبر مقاطعة « نيكولسكواي » .

وصمت ، وتجهم وجهه ، وطفت على ملامحه الهادئة ابداً ، مسحة من الغرابة والدمامة .

وردت الأم :

- إنه طريق طويل ، ثم ان الجياد تكلف غالياً .

وتابع نيقولا :

- اسمعي ... اني في الواقع لا اوافق على هذه الرحلة لأن الاضطراب يشمل تلك الناحية ، وقد أعتقل عدد من الناس ، بينهم على التدقيق ، معلم مدرسة . يجب ان نكون اكثر حذراً ، ومن الأفضل ان ننتظر قليلا ...

وعلقت صوفيا على هذا الكلام وهي تنقر على الطاولة باصبعها :

- المهم ان يستمر توزيع النشرات بلا انقطاع .

ثم وجهت الكلام فجأة الى الأم :

— الا تخشين الذهاب الى تلك المنطقة يا نيلوفنا ؟

وآلم ذلك الام فقالت :

— ومتى كنت اخاف ؟ إنني في المرة الاولى نفسها لم أشعر بأي خوف، والآن.

وطأطأت رأسها دون ان تكمل جملتها ، ففي كل مرة كانوا يسألونها عما اذا كانت تخاف وعما اذا كان هذا الامر يوافقها ، وعما اذا كانت تستطيع أن تفعل هذا الشيء أو ذاك ، وكانت ترى في هذه الاسئلة توسلاً، ويخيل اليها انهم يعزلونها، ويعاملونها بشكل مغاير لما يعاملون به بعضهم بعضاً .

وعادت الى الكلام متنهدة :

— عبثاً تسألونني عما اذا كنت اخاف . أنكم لا تطرحون هـذا السؤال على بعضكم بعضاً .

ونزع نيقولا نظاريته بحدة ، ثم اعادهما، وحدج اخته . وهز السكون الجائر الذي جاء في اعقاب ذلك ، هز بيلاجي ، فنهضت ، منزعجة الملامح ، وبودها أن تقول شيئاً ، ولكن صوفيا لمست يدها برفق ، وقالت لها بصوت خافت كل الخفوت :

— سامحيني ، لن اعود لمثل ذلك ابداً .

واضحك هذا القول الأم ، وبعد لحظات قليلة انهمك الثلاثة ، بكثير من الاهتمام ، في حديث ودي عن تفاصيل الرحلة الى الريف .

- ١٥ -

وعند الفجر كانت الام تتمدد في العربة التي تطفر فوق الطريق المبلل بمطر الخريف ، وكان الهواء الرطب يهب عليها ، والوحل يتطاير حولها ، في حين كان الحوذي يستدير نحوها ، وهو في مقعده ، نصف استدارة ، ويشكو اليها بصوت ناحب أخن :

— وقلت له ... اعني لأخي ، حسناً ، لنقتسم ، وبدأنا إجراء القسمة .

ولسع بسوطه فجأة ، الجواد الايسر ، وصرخ بصوت خانق :

— ديه ... هيا ، اسرع يا ابن الساحرة .

وكان غربان الخريف الفارهة تسير مغمومة فوق اثــلام الحقول ، والهواء البارد يعصف بها نافخاً ، فتدير جنوبها لهبّاته التي تعبث بريشها وتفقدهــا توازنها، فلا ترى بداً من الرضوخ للقوة،إذ لا تلبث ان تحرك اجنحتها الكسلى. وتنطلق لترتاح في مكانٍ آخر .

وتابع الحوذي :

— ثم غلبني ... فرأيت انه قد أسقط في يدي ...

وكانت الام تتلقف كلماته كأنها في حلم ، وكانت ذاكرتها تستعرض امامها سلسلة الاحداث الطويلة التي عاشتها في سنواتها الاخيرة . لقد كانت الحياة ، من قبل ، تبدو لها خارجية نائية ، لا يدري احدٌ من صنعها ، ولمــاذا صنعها ؟ اما الآن فإن كثيراً من الاشياء تتكون تحت سمعها وبصرهــا ، وبموآزرتها ؛ وكان هذا يوقظ فيها إحساساً مشوشاً يمتزج فيه الشك بشعور الرضى عن الذات، والحيرة بالحزن الهادىء .

وكان كل شيء حولها يتذبذب في تحرك بطيء ، وفي السماء تهيم الغيوم الرمادية وهي تتطارد بتثاقل ، وعلى جانبي الطريق تتراكض الاشجار البليلة وتهتز ذراها العارية ؛ وكانت الحقول تنأى في حركة دائرية ، وترتفع هضــاب ثم لا تلبث ان تغيب .

وكان صوت الحوذي الاخن ، ورنين الجلاجل ، ونفح الريح الرطبــة وضجيجها ، كان ذلك كله ينصهر في جدولٍ متئنٌ ، نابض ، يتدفق فوق الحقول بقوةٍ رتيبة لا تتغير .

وأكمل الحوذي وهو يجرجر كلماته ويترنح فوق مقعده :

— وحتى في الجنة نفسها يعيش الثري في ضيق...هكذا...ثم أخذ يعتصرني فلقد كان على صلة طيبة بالسلطات .

وعندما وصلا الى محطة البريد اوقف جواده وقال للأم بصوت لا أمل فيه :

— ليتك تعطينني قطعة نقدية صغيرة لأشرب كأساً ؟

واعطته خمسة « كوبيكات » فخشخش بها في يده واعلن باللهجة نفسها :

— ثلاثة للفودكا ... واثنان للخبز .

وبعد الظهر بلغت بيلاجي قرية كبيرة تدعى «Nikolshié» وهي منهكة القوى ترتعش من البرد ؛ فدخلت فندق المحطة ، وطلبت قدحــاً من الشاي، وجلست قرب النافذة بعد ان وضعت حقيبتها الثقيلة تحت المقعد ؛ كانت النافذة تطل على ساحة صغيرة يغطيها بساطٌ من العشب المصفر، وعلى مبنى مديرية المقاطعة وهو ذو لون رمادي غامق ، وسقف كثير التثني ، وكان ثمة على سلم المبنى ، قروي اصلع طويل اللحية ، يرتدي قميصاً فقط ، ويدخن غليونه . وكان هناك خنزير يسير فوق العشب ، ويحفر الأرض بخرطومه ، محركاً رأسه واذنيــه ، وملامحه تنم عن عدم الرضا .

وكانت الغيوم تتراكض في كتل متجهمة ، ويتداخل بعضها ببعض ، وكان الجو قاتماً هادئاً حزيناً، يخيل للمرء معه ان الحياة قد توارت، وامسكت انفاسها.

وفجأة ، وصل جاويش قوزاقي مسرعاً ، فأوقف جواده الأشقر امام سلم المديرية وصرخ ببعض الكلمات في وجه القروي وهو يهز كرباجه ، وكانت صيحاته ترتطم بزجاج النافــذة ، ولكن الأم لم تكن تسمع ما يقول . ووقف القروي ومد ذراعه يشير نحو الافق ، فترجل الجاويش ، ودار على عقبيــه كالحائر ، ثم القى الرجل بأعنــة جواده ، وامسك بحــاجز السلم وراح يرتقي درجاته بتثاقل الى ان اختفى في البناء .

وخيم الهدوء من جديد ، وضرب الجواد الارض الرخوة بحوافره ضربتين ، ودخلت الى الغرفة التي كانت بيلاجي فيها ، فتاة صغيرة تنسدل على عنقها ضفيرة قصيرة صفراء، وتلمع في وجهها المستدير عينان ملاطفتان. وكانت تحمل فوق ذراعيها الممدودين وهي تعض شفتيها ، طبقاً متآكل الحوافي ، مثقلاً بالأواني المطبخية .

وحيّت الأم بهزات متتابعة من رأسها ؛ فقالت لها الأم بود :

— صباح الخير ايتها الصغيرة الشاطرة .

— صباح الخير .

ووضعت الصغيرة الاكواب والاطباق على الطاولة وفجأة اعلنت بحيوية :

— لقد ألقوا القبض على لص ، وسيأتون به الى هنا .

— من هو هذا اللص ؟

— لا ادري .

— وماذا فعل ؟

— لا ادري . لقد سمعت فقط انهم قبضوا عليه ، وان حارس المديرية قد اسرع لإحضار مفوض الشرطة .

ومدت الأم بصرها من النافذة ، فرأت رهطاً من الفلاحين يقتربون ؛ بعضهم يسيرون ببطء وتثاقل ، وبعضهم الآخر يتقدمون ، وهم يزررون على عجل ، معاطفهم المصنوعة من الفرو... وتوقفوا عند سلم البناية، وتوجهت ابصارهم نحو الجهة الشمالية .

وألقت الفتاة الصغيرة ايضاً نظرة عجلى على الشارع ثم خرجت بسرعة وصفقت الباب وراءها. وارتعشت الأم، ودفعت حقيبتها الى الوراء تحت المقعد، ما وسعها ذلك ، ثم توجهت مسرعة نحو الباب وهي تطرح نقابها على رأسها ، وتغالب رغبة مفاجئة معقدة ، رغبة في أن تسرع الخطى ، في ان تركض .

وعندما اصبحت على سلم الفندق، واجهتها نفحة باردة لسعت صدرها وعينيها فشعرت بالخدر في ساقيها ، وبأنها تكاد تختنق. وفي وسط الساحة ابصرت ريبين يسير ويداه مكبلتان وراء ظهره ، ويحف به حارسان يضربان الأرض بعصاهما ضربات موزونة ، وكان بقرب سلم المديرية حشدٌ من الناس ينتظر بصمت .

وتولاها الذهول فلم تحول بصرها عن ريبين ؛ وكان ريبين يتكلم وكانت هي تسمع صوته ، ولكن كلماته كانت تحلق بلا صدى في فراغ قلبها المظلم المرتعد .

وعادت الى نفسها، واستردت انفاسها وكان هناك فلاح وضاء اللحية عريضها يقف قرب السلم ويحدجها بعينيه الزرقاوين . وسعلت ، وامرّت على حنجرتها يديها اللتين اوهنهما الرعب ، وسألت بأعياء :

— ماذا حدث ؟

وأجابها الفلاح :

— هاكي .. انظري .

ثم تحول عنها ، واقترب منها فلاح آخر ووقف إلى جانبها .

وتوقف الحارسان أمام الجمع الذي كان يتضخم بلا انقطاع وهو محتفظ بصمته وارتفع فجأة صوت ريبين الممتلىء :

— ايها المسيحيون . سمعتم بتلك الاوراق التي رُويت فيها الحقيقة عن حياتنا كفلاحين ؟ انهم من أجل هذه الاوراق يضطهدونني لأنني انا الذي وزعتها على الشعب .

وضيّق الناس حلقتهم حول ريبين، وكان صوته يهدر بهدوء واتزان، فيهدىء من اضطراب الأم .

وبصوت خفيض سأل احد الفلاحين الرجل ذي العينين الزرقاوين ، وهو يلكزه بمرفقه :

— أتسمع ؟

ورفع هذا رأسه دون أن يجيب ، وراح يرنو الى الأم من جديد ؛ فحذا الفلاح الآخر حذوه وكان اصغر منه سناً ، اسود اللحية خفيفها ، نحيل الوجه تتناثر في وجهه هذا بقعٌ من النمش، ثم لم يلبثا ان ابتعدا كلاهما عن السلم، فقالت الأم لنفسها :

— لقد تملكهما الخوف .

وتضاعف اهتمامها ، وكانت ترى من اعلى السلم، بوضوح ، وجه ريبين الأسود المنتفخ ونظرته الملتهبة ؛ وتود لو يراها هو ايضاً ، فتقف ، من اجل ذلك ، على رؤوس أصابعها متطاولة ، مادة عنقها نحوه .

وكان الناس يحدقون اليه مرتابين ، متجهمي الوجوه ، لا ينبسون بكلمة ، وفي الصفوف الاخيرة من الحشد فقط كان يُسمع صوت صدى مخنوق .

وقال ريبين بصوت ممتلىء حازم :

ـ أيها الفلاحون : ثقوا بما تقوله هذه الأوراق ، فقد يقتلونني بسببها . لقد ضربوني وعذبوني ، وأرادوا ان يرغموني على البوح بمصدرهـا ، سيضربونني مرة اخرى وسأتحمل كل شيء لأن الحقيقة قد سُطرت في هذه الاوراق ، والحقيقة يجب ان تكون أغلى بالنسبة لنا من الخبز هذه هي القضية .

وقال أحد الفلاحين بصوت خفيض :

ـ ولمَ يقول هذا القول ؟

ورد عليه ذو العينين الزرقاوين ببطء :

ـ لا أهمية لذلك الآن ، فالمرء لا يموت مرتين ، ولكنه على كل حال، يجب أن يتذوق الموت مرة .

وكان الناس ما يزالون هناك صامتين يتسارقون النظر وهم كاسفو الوجوه ، ويبدو عليهم جميعاً أنهم ينوؤون تحت عبء غير منظور ، ولكنه شديدالوطأة.

وظهر الجاويش على السلم ، وعوى بصوت مخمور ، مترنحاً :

ـ من الذي يتكلم ؟

وتدحرج فجأة على درجات السلم ، فأخذ ريبين من شعره ، وشد رأسه إلى الأمام ، ثم دفعه صائحاً :

ـ أهذا انت الذي يتكلم يا ابن الـكلبة ..؟ أهذا أنت ؟

وماج الحشد وتلاطم ، وأطرقت الأم وقد عصف بها غم عـاجز ، ودوى صوت ريبين من جديد :

انظروا أيها الناس الطيبون ..

ـ إخرس .

ولطمه الجاويش لطمة على اذنه ، فترنح وشقل كتفيه :

ـ إنهم يوثقون يديْ المرء . ويعذبونه كما يشتهون ...

ـ أيها الحرس ، خذوه .. وانتم الآخرين .. هيا تفرقوا

وكان الجاويش يضرب ريبين بقبضته ، يضربه في وجهه وصدره وبطنه ، وينط أمامه كالـكلب المربوط أمام قطعة من اللحم .

وصاح واحدٌ من بين الجمع :

ـ لا تضربه .

وسانده صوت آخر :

وعلام تضربه ؟

وأشار الفلاح ذو العينين الزرقاوين بإيماءة من رأسه ، وقال لرفاقه :

ـ هيا بنا .

وتقدما على مهل نحو مسرح الحـــادث ، وكانت الأم تتبعها بنظرة عطف ومحبة ، وتتنفس الصعداء ، وعاد الجاويش فتسلق السلم بتثاقل ، وزمجر بجنون وهو يهدد بقبضته :

ـ اقول لـكم جروه الى هنا !

وأجاب صوت قوي من بين الجميع :

ـ لن نسمح بذلك . لا تدعوهم يفعلون ايها الفتيان . إنهم اذا ما اقتادوه إلى هناك فسيضربونه حتى الموت ، وسيقولون بعد ذلك اننا نحن الذين قتلناه . فلا تسمحوا لهم بأن يفعلوا .

وعرفت الأم ان هـــذا الصوت لم يكن سوى صوت الفـــلاح ذي العينين الزرقاوين .

وصاح ريبين :

ـ أيها الفلاحون : الا ترون كيف تعيشون ؟ ألا تعرفون انهم يسرقونـــكم ويخدعونكم ويمتصون دماءكم ؟ إن كل شيء يتوقف عليكم ؛ فأنتم القوة الرئيسية على الارض ، ومع ذلك ما هي الحقوق التي تملكونها ؟ إن حقكم الوحيد الذي تملكونه هو أن تنفلقوا من الجوع !

وفجأة علا صراخ الفلاّحين واختلطت اصواتهم :

ـ إنه يقول حقاً .

ـ نادوا المفوض ، أين هو المفوض ؟

ـ لقد ذهب الجاويش لإحضاره .

— ولكنه ثمل .

— ليس من شأننا نحن أن نستدعي السلطات .

وكان الضجيج يزداد باستمرار ، ويتعالى أكثر فأكثر :

— تكلم فلن ندعهم يضربونك .

— فكّوا وثاق يديه .

— حذار أن يصاب بمكروه .

وقال ريبين وهو يسيطر على الضجيج بصوته الجهور المتزن :

— ان يديّ تؤلمانني ، ولن أهرب أبداً أيها الفتيان . ليس لي أن أختبىء من وجه حقيقتي ، فحقيقتي تعيش فيّ .

وانفصل بعض الأشخاص عن الحشد ببطء ، وابتعدوا وهم يتحدثون بصوت منخفض ويهزون رؤوسهم ، ولكن جماعات اخرى مهتاجة كانت تتراكض وقد ارتدت ثيابها الرثة على عجل ، لتنضم الى الجمع ، وكانوا يغلون حول ريبين كالزبد القاتم في حين كان هو يشبك ذراعيه فوق رأسه ككنيسة في الغابة ويصيح :

— شكراً لكم ايها القوم الطيبون شكراً لكم . ان واجبنا أن نتعاون هكذا لنحرر أيدينا من الاغلال ، والا فمن الذي سيساعدنا إذا لم نفعل نحن ؟

ومسح لحيته ثم رفع من جديد يده المضرجة بالدم :

— انظروا الى دمي .. انه يسيل من أجل الحقيقة .

وهبطت الأم عن السلم ، ولكنها ، وهي على الارض ، لم تعد ترى ريبين الذي يزحمه الناس ، فعادت تتسلق درجات السلم ، تلهب صدرها الحرارة ، وتحس في قلبها خفقة الفرح .

— ايها الفلاحون . فتشوا عن تلك الاوراق واقرأوها . لا تصدقوا السلطات والكهنة حين يقولون لكم ان اولئك الذين يحملون لنا الحقيقة ليسوا سوى كفرة عصاة ، إن الحقيقة تتسرب الى العالم كله خفية ، وتبحث عن أعشاش لها في ضمير الشعب . انها بالنسبة للسلطات كالسكين ، كالنار ، إنهم لا يتقبلونها لأنها ستذبحهم وتحرقهم . إن الحقيقة بالنسبة لكم خير صديق ، ولكنها بالنسبة لهم عدوّ اشر ..

وهي من اجل ذلك تتخفى .

وعادت صيحات الاستحسان تتعالى من جديد بين الحشد :

— اصغوا إليّ أيها المسيحيون .

— هيه ايها الأخ إنك تهلك نفسك .

— من الذي خانك . فسلمك اليهم ؟

وقال احد الحراس :

— إنه الكاهن ..

وأطلق الفلاحان بضراوة سيلاً من الشتائم .

ودوى صوت محذّر :

— انتبهوا أيها الفتيان .

- ١٦ -

وأقبل مفوض الشرطة الريفية ، وكان رجلاً فارع القامة ، قوي البنية ، مستدير الوجه ، تتكىء قبعته على اذنه ، ويشرئب احد شاربيه إلى أعلى ، ويتدلى الآخر نحو الأرض ، فيبدو وجهه معوجاً ، تشوهه بسمة ميتة بلهاء . وكان يمتشق سيفه بيسراه ، ويلوح في الفضاء بيمناه ، وكانت خطاه ثقيلة واثقة .

وانكفأ الحشد أمامه ، وارتسم على الوجوه تعبير كالح منهك ، وهدأ الضجيج ، وخفت ، كأنه إنما غار في الأرض . وشعرت الأم بجلد جبهتها يرتعش وبحرارة تشتعل في عينيها ، وعاودتها الرغبة في ان تختلط بالحشد من جديد ، ولكنها انحنت إلى الامام ، وجمدت في ترقب مغموم .

وسأل المفوض وهو يقف أمام ريبين ويقيسه بنظراته :

— ما هذا ؟ لِمَ لم تُوثق يداه ؟ اربطوه يا حراس .

وكان صوته جهوراً مرتفعاً ، ولكنه لا لون له .

وأجاب أحد الحراس :

— لقد كانتا موثقتين ولكن الشعب فك وثاقهما .

ماذا ؟ الشعب ؟ وأي شعب ؟

وتطلع المفوض الى الحشد الذي كان يحيط به على شكل نصف دائرة ، وتابع بنفس الصوت الابيض ، الرتيب الجرس ، ودون ان يرفع من هـذا الصوت أو يخفض :

— ومن هو الشعب ؟

وسدد ضربة من قبضة حسامه الى صدر الفلاح ذي العينين الزرقاوين :

— أأنت هو الشعب يا تشوماكوف ! ومن أيضاً ؟ أأنت يا ميشين ؟

وشد بيمناه لحية فلاح آخر وصاح :

— هيا تفرقوا أيها الاوباش ، وإلا فسأريكم من أنا !

ولم يكن في صوته وملامحه امارة غضب او تهديد ، فلقد كان يتكلم بهدوء ، ويضرب الناس بحركات متساوية ، كما لو كانت يداه الطويلتان القويتان قد تعودتا ذلك . وكان الحضور يتراجعون الى الوراء إذا ما اقترب منهم ، ويطأطئون رؤوسهم ويشيحون بوجوههم :

وتلفت الى الحرس وقال لهم :

— حسناً ... وماذا تنتظرون ؟ هيا اوثقوه .

وبعد أن أطلق سرباً من الشتائم ، تلفت الى ريبين وصاح به :

— وأنت ... ضع يديك وراء ظهرك .

وقال ريبين :

— أنا لا اريد أن يوثقوني . إني لن أهرب ، ولن اقاوم ، فعلامَ إذن يشدون وثاقي ؟

وسأله المفوض وهو يدنو منه خطوة :

— ماذا ؟

وتابع ريبين وهو يرفع من صوته :

— لقد عذبتم الشعب بما فيه الكفاية أيها الوحوش الشقر ، وعما قريب سيأتي اليوم الأحمر ، يومكم ايضاً .

وكان المفوض يحدق به جامداً وشارباه يتراقصان ، ثم انكفأ الى الوراء خطوة ، وقال بصوت تسيطر عليه الدهشة :

— آه . آه . آه . يا ابن الكلب . ما هذا ؟ ماذا تعني بهذه الكلمات ؟

وفاجأه بصفعة قوية خاطفة على وجهه .

وصاح ريبين وهو يتقدم نحوه :

— إنك لن تقضي على الحرية بضربات قبضتك ؛ ثم انه ليس من حقك ان تضربني أيها الكلب القذر .

وهمر المفوض وهو يساحب كلماته :

— أأنا .. لا اجرؤ ؟ أنا ؟

ورفع ذراعه ثانية ليهوي بها على رأس ريبين ، ولكن هذا انحنى قليلا فلم تصبه الضربة ؛ وكاد المفوض وقد عصف بـه الغضب ، أن يهوي إلى الأرض ، وقهقه احدهم من بين الجميع ، بصخب ، وراح صوت ريبين الرهيب يدوي من جديد :

— لا اسمح لك بضربي أيها الشيطان .

وتلفت المفوض حواليه فإذا الفلاحون قد اقتربوا صامتين كالحي الوجوه ، وضربوا حوله حلقة كثيفة قاتمة ؛ فهتف وعيناه تبحثان عن احدهم :

— نيكيتا .. هيه ، يا نيكيتا .

وبرز من الحشد فلاح صغير مربوع القامة ، يرتدي سترة قصيرة من فرو الغنم ويحدق في الارض مطأطئاً رأسه الضخم الأشعث الشعر

وقال المفوض بتؤدة وهو يمسد شاربيه :

— إصفعه يا نيكيتا صفعة قوية على اذنه .

وتقدم الفلاح خطوة ، ثم وقف أمام ريبين ورفع رأسه ، ولكن ريبين صعقه بهذه الكلمات المثقلة بالحقيقة :

— انظروا ايها الناس الطيبون ، كيف يخنقكم هؤلاء الأشرار بـأيديكم انظروا وتبصروا !

ورفع الفلاح ذراعه ببطء ، وضرب ريبين على رأسه ضربة خفيفة ، ولكن المفوض صاح به غاضباً :

— ليس هكذا الضرب أيها الوغد .

وارتفع صوت من بين الجمع :

— هه يا نيكيتا .. اتق الله .

وصرخ المفوض وهو يدفعه آخذاً بخناقه :

— اضرب .. أنا أقول لك اضرب .

ولكن الفلاح طأطأ رأسه وتنحى وهو يقول بلهجة كئيبة :

— لن أفعل ذلك أبداً .

— ماذا ؟

وانقبضت ملامح المفوض ، ولبط الارض بقدميه من الغيظ ، ثم هجم على ريبين شاتماً . ورن صدى صفعة خرساء ، ترنح لها ريبين ، ولوح بذراعه في الفضاء . وفي الهجوم التالي طرحه المفوض ارضاً وقفز فوقه ، وراح وهو يزمجر ، يوسعه ركلا برجليه ، على رأسه وصدره وأضلاعه .

وتعالى الصخب الحاقد من الجمع المتموج ، الذي اندفع نحو المفوض ، ولكن هذا احتاط للأمر فقفز جانباً ، واستل سيفه من غمده ، وتهدج صوته ، واعترته بحة ، فبدا كالمحطم :

— آه ، أهكذا ؟ إنكم تتمردون اليس كذلك ؟ أجل ..

وخارت قواه ، كما تلاشى صوته من قبل ، وغار رأسه بين كتفيه ، واحدودب ظهره ، فانكفأ الى الوراء وهو يدير عينيه الخاويتين في كل اتجاه ، ويتحسس الارض بقدميه حذراً ، ثم صرخ ، وهو ينسحب ، بصوت كئيب أبح :

— حسناً ، خذوه . ها أنذا ذاهب . ها ؟ ألا تعلمون ايها الانذال الملعونون انه مجرم سياسي يعمل ضد قيصرنا ، ويحرض على الشغب ؟ أتعرفون ذلك ثم تدافعون عنه ؟ آه .. آه .. انكم إذن لمتمردون .

وكانت الأم جامدة ، لا يطرف لها جفن ، وترزح تحت وطأة الرعب والاشفاق ، خائرة القوى ، خامدة الفكر كأنها تعاني عذاب كابوس ثقيل .

وكانت أصوات الاستنكار الحانقة الكالحة المنذرة بالشر ، تضج في رأسها كطنين

النحل ، وكان صوت المفوض يتهدج ، والهمس يتعالى :

— إذا كان مذنباً فليس لهم إلا أن يحاكموه .

— إصفح عنه .

— حقاً إنك تتصرف كما لو لم يكن هناك قانون

— أهذا ممكن ؟ إلى م يؤدي هذا إذا أخذوا يضربون الناس هكذا ؟

وكان الفلاحون قد انشطروا الى فريقين ، أحاط بعضهم بالمفوض وراحوا يجادلون ويضجون أما الآخرون وهم أقل عدداً ، فانهم ظلوا حول الجريح ، يتعالى صخبهم الأصم . وانهضه بعضهم ، واراد الحرس أن يوثقوا يديه من جديد ولكن صوتاً هدر يقول :

— إصبروا إذن أيها الشياطين ..

ومسح ميشال الدم والوحل عن وجهه ، وتلفت حواليه بصمت فوقعت عينه على الأم ، وارتعشت هذه ، وتطاولت نحوه ، وهزت يدها حركة غريزية ، فأشاح ميشال بوجهه عنها ، غير ان عينيه عادتا بعد لحظات لتستقر عليها ، وخيل لبيلاجي انه ينتصب ويرفع رأسه ، وان وجنتيه الداميتين ترتعدان :

— لقد عرفني .. أهذا ممكن ؟

وأومأت له برأسها ، وقد هزتها غبطة تفعمها الكآبة الموجعة ، ولكنها سرعان ما لاحظت ان الفلاح الازرق العينين الذي يقف الى جانبه ، كان يحدق بها أيضاً ؛ مما أثار في نفسها الإحساس بخطر ما .

— ماذا افعل ؟ لسوف يقبضون عليّ أيضاً بلا ريب .

... وصب الفلاح بضع كلمات في اذن ريبين فهز هذا رأسه وراح يتحدث بصوت محطم ولكنه واضح جريء :

— لا بأس في ذلك ، فلست وحدي على الارض . إنهم لن يسجنوا الحقيقة كلها ، وسيذكرني الناس في كل مكان مررت به . لقد تهدّم العش ولم يعد الاصدقاء والرفاق فيه .

ودار في خاطر الأم : إنه يوجه هذا الكلام اليّ .

– ولكن سيأتي اليوم الذي تحلق فيه النسور بحرية ، اليوم الذي يتحرر فيه الشعب .

وحملت احدى النسوة سطلا من الماء وراحت تغسل وجه ريبين وهي تعول وتنتحب ساخطة ، وكان صوتها النحيل الشاكي يختلط بكلمات ميشال فلا يتيح للأم أن تفهمها وتقدم رهطٌ من الفلاحين ، على رأسهم المفوض ، وصاح واحدٌ من بينهم :

– آتونا بعربة تحمل السجين من منكم يقوم بهذه المهمة ؟

ثم دوى صوت المفوض الشديد التغيّر كالمختنق :

– أنا أستطيع أن أضربك أيها النذل ، أما أنت فلا ، لأن ذلك ليس من حقك .

وصاح ريبين :

– نعم . وأنت .. من أنت ؟ أأنت إله الناس ؟

وطغى على صوته دويّ مخنوق لا انسجام فيه ، دويّ صراخات :

– لا تجادله يا صديق ، إنه ممثل السلطة .

– لا تحنق فهو لا يعي نفسه .

– إخرس أيها الفتى المضحك .

– إنهم سيأخذونك تواً إلى المدينة .

– إنهم هناك يحترمون القانون أكثر .

وكانت أصوات القوم تتعالى ، وفيها استعطاف ونصح ، وتختلط في ضوضاء شاكية مرتبكة ، لا تند منها نفحة أمل . وأمسك الحرس بريبين من إبطه ، وتسلقوا به السلم ، ودخلوا معه المنزل فاختفوا عن الأنظار .

وأخذ الفلاحون يتفرقون ببطء ، ورأت الأم الرجل الأزرق العينين يتجه نحوها ، وينظر اليها خلسة ، فأخذت ركبتاها تصطكان ، وشد على قلبها بالوهن ، ورغبة بالتقيؤ ، وقالت في نفسها :

– يجب ألا انصرف .. يجب ألا انصرف .

ولبثت عند أسفل السلم تنتظر .

وكان المفوضُ على سلم المديرية يتكلم ويكثر من اشارات يديه ، وكانت الشتائم تنصهر في صوته الذي غدا أبيض لا حياة فيه :

– يا لكم من حمقى يا أبناء الكلاب ! إنكم لا تفهمون شيئاً . إنكم تدسون انوفكم في هذه القضية ... في قضية تتعلق بالدولة . وعليكم ايها البهائم اللعينة ان تنحنوا أمامي حتى الاذقان ، وان تتوجهوا اليّ بالشكر ، جزاء طيبتي ، لأنني لو شئت ، لكنتم في السجن جميعاً .

وكانوا نحواً من عشرين فلاحاً يصغون اليه حاسري الرؤوس ، وكان المساء يهبط بظلامه ، والغيوم تهيم على وجهها وتنخفض حتى تكاد تلامس الارض . واقترب الفلاح الازرق العينين من الأم وقال لها متأوهاً :

– هذا ما يجري عندنا ..

وقالت الأم بهدوء :

– أجـل .

فحدق بها وهو صريح الملامح وسألها :

– ماذا تفعلين هنا ؟

– اشتري المطرزات من الفلاحات .. والنسيج أيضاً .

فمسد لحيته ببطء ، ثم رنا الى البناء المقابل ، وقد بدا عليه الضيق .

– ولكن ذلك لا تجدينه هنا .

وتأملته الأم وراحت تنتظر الفرصة السانحة لتعود الى الفندق ، وكان هو ساهم النظرات وسيماً ، كئيب العينين ، عريض المنكبين ، يرتدي صدرية كثيرة الرقع ، وقميصاً نظيفاً من الكتان الهندي ، وبنطالاً اصهب من الجوخ الريفي ، وينتعل حذاءين باليين دون ان يكون في قدميه جوارب .

وتنفست الأم الصعداء دون ان تدري سبباً لذلك ، ثم استسلمت فجأة لحدس كان يسبق تفكيرها المضطرب ، وراحت تطرح على الفلاح سؤالاً فوجئت به هي نفسها :

– هل استطيع ان اقضي هذه الليلة في ضيافتك ؟

وتقلصت بشدة عضلاتها ، وعظامها ، وكيانها كله ، ثم آنتصبت ، وسمرت بصرها على الفلاح ، وراحت الخواطر المزعجة تتراقص في رأسها :

« ... سأكون سبباً في هلاك نيقولا .. لن ارى بول أبداً .. خلال وقت طويل .. انهم سيفتكون بي .. »

وأجابها الفلاح بتؤدة ، وهو يرنو الى الأرض ، ويشد صدريتـه ليغطي بها صدره :

– تقضين الليل عندي ؟ هـذا ممكن .. ولِمَ لا ؟.. ولكن منزلي ليس فخماً ..

وردت عليه لا واعية :

– ولكنني لست ابنة نعمة مدللة .

وأجابها وهو يقيسها بنظرة متفحصة :

– هذا ممكن .

وكان الظلام قد خيّم ، وكانت عينا الفلاح تلتمعان بألق بارد ، ووجهه يبدو شديد الشحوب . وقالت بيلاجي بصوت خفيض وقد خالجها شعور كشعور من يتدحرج من الهاوية :

– حسناً ، سآتي معك حالاً ، وستحمل لي حقيبتي .

– حسناً .

وهزت كتفيها ارتعاشة ، وشد الفلاح ثانية صدريته ، وقال بصوت خافت :

– هي ذي العربة ..

وظهر ريبين على سلم المديرية ، موثوق اليدين من جديد ، تعصب رأسه ووجهه هنة رمادية اللون ، وتعالى صوته في الغسق البارد :

– وداعاً ايها الطيبون ، فتشوا عن الحقيقة ، واحرصوا عليها ، وثقوا بمن يحمل اليكم الكلم الطيب ، ولا تضنوا بقوا كم من اجل الدفاع عن الحقيقة .

وصاح المفوض :

– اخرس ايها الكلب . وانت ايها الحارس النذل ، أطلق الجياد .

لا شيء يمكن ان تأسفوا عليه ... يا لها من حياة ، حياتكم ؟

وتحركت العربة ، وتابع ريبين وهو يجلس بين الحارسين :

– لِمَ تدعون انفسكم تموتون جوعاً ؟ إعملوا من اجل الحرية ، فستهبكم الحرية الخبز والحقيقة . وداعاً ايها الطيبون .

وطغى صخب العجلات ، ووقع الحوافر وصوت المفوض ، طغت جميعها على صوته ، وتضافرت فخنقت هذا الصوت .

وقال القروي وهو يهز رأسه :

– لقد انتهى كل شيء .

ثم استدار نحو بيلاجي واستأنف :

– ابقي هنا قليلاً فسأعود حالاً .

... وعادت الى فندقها ، فجلست الى المائدة قرب الموقد ، وتناولت قطعة من الخبز ، فحدقت بها ، ثم وضعتها بهدوء في الصحن . إنها لم تكن جائعـة ، ولكنها كانت تحس من جديد اضطراباً في اعماق معدتها ، وحرارة أليمة تنهكها وتوقف حرارة دمها ، وتسبب لهـا الدوار . وكان الفلاح ذو العينين الزرقاوين ينتصب امامها بوجهه الغريب الذي لا يوحي الثقة والذي يبـدو كأنه ناقص الخلق ، وكانت لا تود ان تقول لنفسها بصراحة : « سيخونني » .

ولكن هذه الفكرة كانت قد ولدت في رأسها ، وجثمت ثقيلة على قلبها ...

– لقد راقبني ... راقبني واستنتج أن ...

ولم يذهب تفكيرها إلى أبعد من ذلك ، بلى غرق في وهن أليم ، واحساس لزج بالغثيان .

واعقب الضجيج صمت جبان ، كان ينبسط وراء النافذة ، ويشيع في القرية ضرباً من الخوف والعياء ، ويزيد شعور الأم بالوحدة ، ويمـلأ نفسها بظلمات كدراء ، رخوة كالرماد .

ودخلت عليها فتاة الفندق ، وتوقفت عند الباب تسألها :

– هل آتيك بطبق من العجة ؟

— كلا ، لا رغبة لي في ذلك ... لقد ارعبتني هذه الاصوات ...

واقتربت الصغيرة وراحت تقص ، بحرارة ، ولكن بصوت خفيض :

— لكم صفعه المفوض ... لقد كنت جد قريبة ، وشاهدت كل شيء . لقد حطم له اسنانه كلها ، فبصق دماً كثيفاً ، كثيفاً ، اسود اللون ، وحتى عيناه كان الدم يسيل منهما . إنه يعمل في القار ... والجاويش عندنا ، انه ثمل لا يستطيع ان ينهض ومع ذلك فأنه يطلب دائماً المزيد من الخمر . ويقول إنهم كانوا عصابة كاملة ، وان الملتحي ذاك هو رئيسهم . لقد قُبض على ثلاثة منهم ... وهناك واحد استطاع النجاة ، كما القي القبض ايضاً على معلم مدرسة كان معهم . إنهم لا يؤمنون بالله ، وهم يوصون الناس بأن سلب الكنائس واجب ... فتأملي أي قوم هم . هناك بعض الفلاحين داخلتهم الشفقة على ذاك ... وآخرون كانوا يقولون : يجب الاجهاز عليه . آوه ... لكم بين فلاحينا من اشرار ...

وكانت الأم تعير حديث الفتاة المتقطع السريع أذناً صاغية ، وتجهد نفسها للتغلب على قلقها، وتبديد غم الانتظار، وكانت الصبية، وقد اسعدها بلا شك أن تجد من يصغي اليها ، كانت تثرثر بلا انقطاع وبكثير من الاندفاع ، وتتابع وهي تبتلع كلماتها وتخفض من صوتها :

— يقول والدي ان سبب ذلك هو قحط الموسم . فهذه هي السنة الثانية التي تجدب فيها الارض ، والناس لا يستطيعون ان يفعلوا إزاء ذلك شيئاً . ولهذا السبب يوجد الآن فلاحون هكذا يعانون بؤساً حقيقياً ... إنهم يتصايحون في الاجتماعات ، ويتعاركون . وبالأمس عندما بيعت موجودات فاسيوكوف بسبب الضرائب المتراكمة عليه والتي لم يدفعها ، سدد ضربة من قبضته الى وجه المختار قائلاً : خذ هذه هي المتأخرات عليّ من ديوني ...

ورن صدى خطىً ثقيلة وراء الباب فأتكأت الأم الى المائدة ، لتنهض . ودخل الفلاح ذو العينين الزرقاوين ، وسأل دون ان ينزع قبعته :

— أين هي امتعتك ؟

ورفع الحقيبة في يده دون عناء ، ثم هزها قائلاً :

— إنها فارغة . يا ماريون رافقي المسافرة الى المنزل .

ثم خرج دون ان يلتفت الى احد .

وسألت فتاة الفندق الام :

— هل ستقضين الليلة في القرية ؟

— نعم فأنا أبحث عن مطرزات لأشتريها .

واوضحت الفتاة : إنهم لا يشتغلون منها عندنا ... انهم يشتغلونها في « تانكوف » و « دارينو » وليس هنا .

— سأذهب الى هناك غداً .

ودفعت ثمن الشاي ، ونفحت الصغيرة ثلاثة « كوبيكات » بهرتها ...

... وفي الشارع ، اقترحت هذه وهي تجرّر قدميها الحافيتين على الارض الرطبة :

— هل تريدين أن « اخطف رجلي » الى دارينو ، فاطلب الى نسائها ان يحملن إليك ما عندهن من مطرزات ؟ فلا تضطرين للذهاب الى هناك . ومع ذلك يوجد اثنا عشر كيلومتراً ...

وردت عليها الأم وهي تسير الى جانبها :

— لا جدوى في ذلك يا عزيزتي .

وانعشها الهواء البارد وكان هناك حلٌ يتكون ببطء في رأسها ، حلٌ ما زال قلقاً ، ولكنه حلٌ واعد يتنامى في داخلها . وكانت ، ولكي تستعجل تفتحه ، تسأل نفسها بالحاح :

— ما العمل ؟ هل اتصرف بصراحة ؟ هل اتصرف كما يوحي الضمير ؟

وكان الليل قد هبط بارداً رطباً ، والنوافذ تتلألأ بضوء أحمر جامد ، أكمد وفي قلب الصمت كانت الماشية تخور بلا مبالاة ،وتتعالى بعض الصيحات الخاطفة ثم تلف القرية كآبة ساحقة .

وقالت الصبية :

— من هنا الطريق . لقد اخترت منزلاً سيئاً ... فهذا الفلاح شديد الاملاق.

وتلمست الباب ففتحته ، ثم نادت منبهة :

ـ ايتها الام تاتيانا .

ثم ولت الادبار ، وجاء صوتها من قلب الظلمات .. خفيفاً :

ـ وداعاً .

- ١٧ -

ووقفت الام في العتبة ، وراحت تتفحص المنزل وهي تُظل عينيها بيدها ، وكان اول ما لاحظته انه ضيق ، ولكنه نظيف . واطلت امرأة شابة برأسها من وراء المدفأة ، وحيت بصمت ، ثم توارت . وكان هناك في احدى الزوايا مصباح يشتعل على طاولة :

وكان رب البيت يجلس في الداخل ، واصابعه تنقر طرف الطاولة ، وبصره يتسمر على الام . وبعد هنيهة قال :

ـ ادخلي ... اذهبي يا تاتيانا ونادي « بيير » ... هيا !

وخرجت المرأة بسرعة دون ان تلقي نظرة على الزائرة ، وجلست هذه على المقعد المواجه للفلاح ، تبحث ببصرها عن حقيبتها التي لم تكن تراها ، وران على الكوخ صمت ثقيل ، وكان لهب المصباح وحده يزفر زفرات خفيفة ، ووجه الفلاح المكفهر المغموم يتذبذب بغموض ، في عينيها ، فيشحن نظراتها باليأس .

وفجأة سألت بيلاجي بصوت قوي فاجأها هي نفسها :

ـ اين هي حقيبتي ؟

وهز الفلاح كتفيه واجاب ساهماً :

ـ إنها ليست ضائعة .

واكمل بصوت اكثر خفوتاً ، وهو متجهم الملامح :

ـ عندما قلتُ امام الصغيرة في الفندق انها فارغة ، قلت ذلك عمداً، في حين انها ليست كذلك... بل انها ثقيلة الوزن .

ـ ثقيلة جداً ؟ ومعنى ذلك ؟

ونهض ، واقترب منها ، ثم انحنى وسألها بصوت منخفض :

ـ وذلك الرجل ... هل تعرفينه ؟

وارتعشت الأم ، ولكنها اجابت بحزم :

ـ نعم .

ويبدو ان الكلمة الموجزة قد فجّرت الضياء فيها ، وغمرت بالنور كل شيء حولها ، فندت عنها زفرة عزاء ، ثم تقدمت ، فجلست على المقعد .

وارتسمت على شفتي الفلاح ابتسامة عريضة :

ـ لقد رأيتكما تتبادلان الاشارات فهمستُ في اذنه : ربما كنت تعرفها جيداً ... تلك التي تقف هناك على السلم !؟

وسألته الأم بحرارة :

ـ وماذا قال ؟

ـ هو ؟ لقد قال : « إنهم كثيرون .. نعم .. كثيرون » هذا ما قاله ...

ورشقها الرجل بنظرة متسائلة وتابع وهو يبتسم ثانية :

ـ هذا الرجل... قوة هائلة... إنه جريء ، يقول لهم دونما مواربة : «انا» ويضربونه هم ... ولكنه لا يرضخ .

وكان صوته الواهي المشكك ، ووجهه الصارم ، وعيناه الصافيتان الصريحتان ، كان ذلك كله يبعث الطمأنينة في قلب الأم شيئاً فشيئاً ، وكان القلق والاعياء يتقلصان من نفسها ، ليحل محلها الاشفاق على ريبين.. وهو اشفاق حادٌ أكّال.

وتملكها غضب مفاجيء مرير لم تستطع له كبتاً ، فصاحت بأعياء :

ـ يا لهم من لصوص ... يا لهم من غيلان .

واطلقت العنان لزفراتها .

ونأى الفلاح عنها ، وهو يهز رأسه ، حزين الملامح :

ـ ان السلطات تكتسب اصدقاء صغاراً طيبين ... نعم ...

ثم عاد ، فأقترب منها فجأة ، وقال لها بصوت خفيض :

ـ حسناً. اني اتكهن بأن حقيبتك تحتوي على الصحيفة .. أليس ذلك صحيحاً.

واجابت الأم ببساطة وهي تمسح دموعها :

ــ نعم ... لقد حملتها له .

وقطب حاجبيه، وجمع لحيته في قبضته، ثم لاذ بالصمت وهو ضائع النظرة .

ــ لقد جاء الى هنا ومعه ايضاً كتبٌ صغيرة . اننا نعرف هذا الرجل وكنا نراه احياناً ...

وتوقف عن الكلام وفكر قليلاً ثم سأل :

ــ والآن ماذا ستفعلين بهذه ؟ اعني الحقيبة ؟

فرنت اليه الأم وقالت بأندفاع المتحدي :

ــ سأتركها لكم .

ولم يُفاجأ بذلك ، ولم يعترض بل ردد .

ــ لنا نحن ...

وهز رأسه موافقاً ، وارتخت قبضته التي كانت تمسك لحيته ، ومشط هــذه اللحية بأصابعه ثم جلس .

وكان مشهد تعذيب ريبين يعود بألحــاح حاقد مزعج ، فيتراءى لعيني الام وكان ما تستشعره من اجل هذا الرجل ، من عـــذاب ومهانة ، يعفّي على كل مشاعرها الاخرى ، فلا تستطيع التفكير في الحقيبة، ولا في شيء آخر سواها، وكانت دموعها تنهمر بلا انقطاع، ولكن وجهها كان متجهماً، والرعشة لا تعتري صوتها وهي تقول :

ــ لتحل اللعنة عليهم ، انهم يسرقون النـــاس ، ويسحقونهم ، ويمرغونهم في الوحل .

وأجاب الفلاح بهدوء :

ــ إنهم اقوياء ... اقوياء بضراوة .

وتساءلت الأم بحقد :

ــ ومن اين استمدوا قوتهم ؟ إنهم يستمدون كل هذا منا نحن .. من الشعب

وكان هذا الفلاح يثيرها ، يثيرهـــا بوجهه الصريح ... الذي لا يمكن مع ذلك

حل لغزه .

وقال بصوت متساحب :

ــ نعـ ... سم ... صوت عجلة ...

واصاخ بسمعه وهو يميل برأسه نحو الباب ، ثم قال بصوتٍ كالهمس :

ــ لقد اقبلوا .

ــ مـــن ؟

ــ جماعتنا على ما اعتقد .

ودخلت زوجته ، وتبعها فلاح ما كاد يخطو الخطوة الاولى في الكوخ حتى قذف بقبعته الى احدى الزوايا ، واقترب بسرعة من رب البيت يسأله :

ــ واخـــيراً ؟

فأومأ الآخر برأسه إيماءة التأكيد .

وقالت المرأة وهي تقف بالقرب من المدفأة :

ــ ايتيين ... ربما كانت ضيفتنا تريد ان تأكل

واجابت الام :

ــ كلا ... اشكرك.. إنك لطيفة جداً .

ودنا القادم الجديد منها ، وراح يحدثها بصوت مبحوح :

ــ أتسمحين في ان نتعارف ؟ إنني ادعى « بيير رابينين» وألقب بـ «آلين» ؛ واعرف القليل من اعمالك . إني اعرف القراءة والكتابة ، ولست غبيـــاً إذا استطعنا القول ...

واخذ يد بيلاجي التي مدتها اليه فهزها ثم استدار نحو ايتيين :

ــ اترى يا ايتيين ؟ إن زوجـــة « معلمنا » سيدة طيبة ... لا شك في ذلك ، وهي تقول بأن هـــذا كله ليس إلا حماقات واحلاماً ... وبأن اولئك الذين يعكرون بالحماقة صفو العالم ليسوا سوى صبيان ازقة... وانواع شتى من الطلبة .

... ومع ذلك ... فلقد شاهدنا كلانا ، انهم قد اوقفوا منذ قليل، فلاحاً جاداً، كما يجب ، والآن ... هي ذي ، كما ترى ، سيـــدة ليست من الرعاع ، ولا يبدو

عليها انها زوجة سيد ! ... لا تغضبي ... الى اية عائلة تنتمين ؟
وكان يتكلم بسرعة ووضوح ، ودونما توقف ، وكانت لحيته الصغيرة المدببة تهتز بعصبية ، وعيناه المتغضنتان تتفحصان،على عجل، وجه بيلاجي ومظهرها.
وكان رث الثياب اشعث الشعر ، يخيل اليك انه آت لتوه من عراك ،وانه قد انتصر على قرنه ، وان حماس النصر الطروب يملأ اهابه .وأعجب الام مَرحه النشيط واستلامه منذ البدء مبادرة الحديث ببساطة ودونما مواربة واجابت على سؤاله وهي ترمقه بنظرة ودود ، فهز يدها ثانية بقوة ، وراح يضحك بهدوء ، وكانت ضحكته قصيرة جافة متقطعة .
— أرأيت يا ايتيين ؟ إنه عملٌ شريف وقضية رائعة.لقد قلت لك إن الشعب بدأ يتحرك من تلقاء ذاته ؛ وامرأة «معلمنا»لن تقول لك الحقيقة، لانهاستخطىء إن تفعل . انا احترمها ، ليس في ذلك جدال ، فهي انسان طيب يبغي لنا الخير ؛ بل لنقل ، قليلا جداً من الخير ، بشكل لا تخسر معه شيئاً . ولكن الشعب نفسه يريد أن يسير بعزم ، انه يخشى الخسران ، ولا يعرف أيان يتجه . إنه لا يسمع شيئاً حوله ، لا يسمع شيئاً سوى كلمة « قف » يُرشق بها من كل جانب .
وقال ايتيين وهو يهز رأسه :
— إني أرى ...
ثم أضاف على الفور :
— انها ليست مطمئنة بسبب متاعها .
وغمز بيلاجي بخبث ، ثم استأنف كلامه ، وهو يشير اليها بيده ليطمئنها :
— لا تقلقي ، فكل شيء قد نُظم . ان حقيبتك الصغيرة في منزلي ، لأنه عندما حدثني عنك، واخبرني بأنك تعملين حتماً في سبيل القضية، وبأنك تعرفين « الرجل » قلت له : حذار يا ايتيين، حذار ان تفتح فمك بكلمة ، فالأمر شديد الخطورة ، حسناً ... ولقد لاحظنا ، يا اماه ، عندما كنا نقف بالقرب منك ، انك انت ايضاً تملكين حاسة شمّ جيدة ، وهذا ما يميز انوف الناس الشرفاء ،

لأن هذه الانوف ، في الحقيقة ، لا تهيم في الشوارع طويلا وعلى غـير هدى ، اطمئني ... ان حقيبتك في منزلي .
وجلس الى جانبها وتابع وفي نظرته ضراعة :
— اذا شئت إفراغ محتواهـا ، فاننا نقدم لك المعونة بكل سرور ،فنحن بحاجة ماسة الى الكتب .
وعلق ايتيين :
— انها تريد ان تترك لنا هذه الكتب كلها .
— هذا رائع ... وسنعرف نحن كيف نتدبر الامر .
وقفز واقفاً على قدميه ، وانخرط في الضحك ، ثم قال مغتبطاً ، وهو يذرع الارض بخطىً واسعة :
— يمكن القول انها قصة مدهشة ، وانها مـع ذلك ، في منتهى البساطة . ان الامر يسوء في ناحية ، ويصلح في ناحية اخرى . وليس هذا بسيء . ان الصحيفة مفيدة جداً ، ولها اثرها . انها تفتح العيون، وهذا ما لا يروق للاسياد. اني اشتغل على بعد سبعة او ثمانية كيلومترات . في معمل للنجارة تملكه سيدة، يجب الاعتراف بانها فاضلة . انها تقدم لك كتباً من كل نوع ، وغالباً مـا نقرأ هذه الكتب ، فتعطينا كثيراً من الافـكار . وعلى هـذا فنحن مدينون لها ؛ ولكنني اطلعتُها يوماً على عدد من هذه الصحيفة ، فأغضبها ذلك قليلاً. وقالت لي : « اطرحها يا بيير . ان الذين يصدرونها صبيان ازقة لا عقل لهم . انهـا لا تملك الاّ ان تزيد عذابكم ، ولن تحمل لـكم الا السجن وسيبيريا .
وصمت فجأة يفكر ثم سأل :
- اخبريني ... هل هذا الرجل قريبٌ لك ؟
فأجابت الام :
— كلا ... فنحن غريبان .
وراح بيير يضحك بصمت دون ان يدري احدٌ سر اغتباطه ؛ وهز رأسه ، فأحست بيلاجي ان كلمة « غريب » لم تكن تليق بريبين ، وبأنها بالنسبة لها ،

لفظة مهينة فاستدركت :

— انه ليس من عائلتي ولكنني اعرفـــه منذ امدٍ بعيد ، واحترمه كأخي الحقيقي ، كأخي الاكبر .

وكانت لا تجـد اللفظة الضرورية للتعبير . فساءها ذلك ، ولم تقو على كبت زفرة صغيرة ندت عنهـا ، وران على الكوخ صمت انتظار كئيب : وكان بيير يبدو وهو منتصبٌ ورأسه يميل نحو كتفه ، كأنه انما يصغي الى شيء ما . اما زوجته فأسندت ظهرها الى المدفـأة في الظل ، وكانت الام تشعر بأن نظرها يستقر عليها فلا يريم . وكانت هي بدورها تحدق بين الفينة والفينة ، في وجهها الاسمر ذي الانف الاقنى ، والذقن الذي يشكل زاوية حادة . وكانت عيناها الخضراوان تلتمعان بألق الحذر واليقظة .

وقال بيير بهدوء :

— هو اذن صديق لكِ . انه خلوق ... نعم ؛ وشديد الزهو بنفسه ، كما يجب ان يكون . انه رجل ... أليس كذلك يا تاتيانا ؟ انكِ تقولين ...

وقاطعته تاتيانا وهي ترم بقوة شفتيها الرقيقتين :

— هل هو متزوج ؟

وأجابت الام بأسىً :

انه ارمل .

وقالت تاتيانا بصوت عميق يخرج من اعماق صدرها :

— هـذا هو سبب شجاعته ، فالرجل المتزوج لا يقدم على عملٍ كهذا .. إنه يخاف ..

وصاح بيير :

— انا متزوج ومع هذا ...

فاجابته وهي تقلب شفتيها ، ودون ان تنظر اليه :

— حسناً يا صـــاح .. ماذا دهاك ؟ انك لا تفعل شيئاً سوى الكلام . وفي بعض الاحيان تقرأ كتاباً صغيراً .. ان ذلك لا يفيد كثيراً اولئك الذين تتهامس

انت وايتيين عنهم في الزوايا .

ورد الفلاح محنقاً :

— هناك كثيرون يسمعونني ، فأنا هنا كالخميرة... لقـــد احسنت القول ..

ونظر ايتيين الى زوجته دون ان يتفوه بكلمة ثم طأطأ رأسه من جديد .

وسألت تاتيانا :

— وعلامَ يتزوج الفلاحون؟يقولون انهم بحاجة الى نساءٍ تعمل...تعمل بماذا؟

ورد ايتيين بهدوء :

— اليس لديك من العمل ما يكفيكِ ؟

— واي جدوى في هذا العمل ؟ اننا في كل الاحوال ، لا نأكل حين نجوع ، كما ان اولادنا يأتون الى الدنيا فلا نجد لدينا وقتاً للعناية بهم بسبب العمـل الذي لا يعطينا حتى الخبز .

ودنت من الام وجلست الى جانبها وتابعت باصرار . دون ان يبدو عليها الحزن او التشكي :

— لقد كان لي طفلان..احدهما احترق في الماء المغلي وهو في الثانية من عمره، اما الآخر فقد ولد ميتاً، وكان ذلك بسبب هذا العمل اللعين . فهل في ذلك بهجة لي ؟ انا اقول ان الفلاحين يفقدون عذابهم بالزواج . انهم يكبّلون به ايديهم .. وهذا كل شيء . اما اذا كانوا احراراً فإنهم سيعملون للحصول على كل مايلزمنا ، وسيسيرون جهاراً ، الى الحقيقة .. كهذا الرجل . اليس هذا صحيحاً ؟

وقالت الام :

— بلى ... إنه صحيح يا عزيزتي تاتيانا ، واذا لم يكن الامر كذلك ، فاننا لن نكون اسياد حياتنا .

— ألك زوج ؟

— لقد توفي ... ولي ابن واحد .

— واين هو ؟ هل يعيش معك ؟

— انه في السجن .

واحست بأن زهواً هادئاً ، يمتزج في قلبها ، بحزنها المعهود الذي تعودت هذه الكلمات دائماً دون ان تثيره .

ـ إنها المرة الثانية التي يُسجن فيها ، لا لشيء إلا لانه ادرك حقيقة الله وبشّر بها جهاراً . انه شاب وسيم ، ذكي ، وهو الذي تخيل فكرة الصحيفة ، وهو الذي دفع ميشال ريبين في طريق الحقيقة ، رغم ان ميشال هـذا يكبره بضعف سنه . والآن يهمون بمحاكمة ابني من اجل ذلك ، وسيدينونـه ، وسيهرب من سيبيريا ليعود من جديد الى العمل .

وكانت تتكلم وشعور الزهو الذي يتملكها يتنامى دائماً ، ويشد حنجرتها ، ويحملها على ان تتخير الكلمات لترسم صورةً لبطل : وكانت تستشعر حاجـة طاغية ، لأن ترفع لوحة من العقل والضياء ، مقابل المشهد القاتم الذي كانت وهي تنقاد بلا وعي لحكم سليقتها السليمة ، تبوتق كل ما رأته من صافٍ ونير ، في شعلة واحدة تطرف عينيها بألقها الصافي .

ـ لقد ولد كثير من اولئك الناس ، ويولد الكثير منهم ابـداً ، ولسوف يناضلون جميعاً حتى الموت ، من اجل الحرية ، من اجل الحقيقة .

وراحت ، وقد نسيت كل حذر ، تتحدث ، دون ان تتعرض لذكر الاسماء عما تعرفه عن العمل السري الذي يتم لتحرير الشعب من اغلال الشر ، وكانت وهي ترسم الصور الغالية على قلبها ، تصب في كلماتها كل قوتها ، وكل الحب الذي ايقظته فيها ، بعد فوات الأوان ، هموم الحيـاة وصدماتها ؛ وكانت هي نفسها تتحمس ، وبغبطة ، لأولئك الذين تستحضرهم في ذاكرتها ، وقد جملّتهم ، وأضفى النور عليهم ذلك الأحساس الذي كان يتملكها .

ـ إنه عملٌ تشترك فيه الارض كلها ، والمدائن كلها ، فالناس الطيبون قوة لم تُقدّر ، ولم يحسب لها حساب بعد ، وهي تنمو بأطراد ، وستظل تنمو الى ان تجيء ساعة انتصارنا .

وكان صوتها ينساب متزناً ، وكانت تجد سهولة في التعبير ، وتنضد كلماتها

كلآلىء بلورية متعددة الألوان ، تنضدها بيسر ، في خيط الرغبة المتين ، رغبتها في ان تطهر قلبها من دم نهارها ووحوله . وكانت تحس كأنما قد امتدت للفلاحين جذورٌ هناك ، في المكان الذي نقلهم اليه حديثها ، وانهم كانوا يرنون اليها ولا يبدون حراكاً . وكانت تسمع الانفاس المتقطعة ، انفـاس المرأة الجالسة الى جانبها ، فيقوي ذلك كله من إيمانها بما تقول ، وبما تعد به ..

ـ على كل اولئك الذين يحيون حياة أليمة ، والذين سحقهم البؤس وجُردوا من كل حق ، وأذلوا للأغنياء واجرائهم ؛ على هؤلاء جميعاً ، على ابناء الشعب كلهم ان يسيروا للقاء اولئك الذين يهلكون في السجون من اجلهم ؛ ويواجهون الموت والتعذيب .. إنهم يدلون الناس أين هي طريق السعادة ، سعادة الجميع ، دون ان يكون لهم في ذلك نفع شخصي ؛ ويعترفون بأخلاص انها طريق شاقة ؛ ولا يجرون احداً اليهم بالقوة ، ولكن إذا ما انتظم المرء في صفوفهم ، فإنه لن يخرج منها ابداً ؛ لأنه سيقتنع بأنهم على حق ، وبأن طريقهم هذا هو الطريق الخير ، ولا طريق آخر سواه .

وكان يُسرُّ الأم ان تحقق رغبتها في النهاية : أن تحدث الناس عن الحقيقة بنفسها .

ـ يستطيع الشعب ان يسير مع اصدقاء كهؤلاء ؛ اصدقاء لا يلقون السلاح مكتفين بمكاسب ضئيلة ، ولا يتوقفون عن الكفاح قبل ان يدحروا الخداعين ، والاشرار ، والطماعين جميعاً ؛ ولا تتشابك ايديهـم اذا لم يكن الشعب بأسره روحاً واحدة ، واذا لم يصح بصوت واحد : إني انا السيد ، وسأضـع بنفسي الشرائع العادلة للجميع .

وصمتت متعبة ، ورنت الى رفاقها ، وهي على يقين مطمئن بأن كلماتها لم تتلاشَ دون ان تترك آثاراً لها . وكان الفلاحون يسمّرون ابصارهم عليها ، وفي ملامحهم انهم ينتظرون منها المزيد . وكان بيير يشبك ذراعيه ، وكانت عيناه ترفان وعلى وجنتيه اللتين تغطيهما بقع الكلف ، ترتعش بسمة . وكان ايتيين ينحني مائلاً بكل ثقله الى الامام ، وهو يسند مرفقه الى الطاولة ، متطامن العنق كأنه ما زال يصغي .

وكان هناك ظلٌ ينعكس على وجهه ، فيضفي على ملامحه الكمال ، وكانت تاتيانا جالسة الى جانب الأم تسند مرفقيها الى ركبتيها، وتحدق في قدميها .

وغمغم بيير :

ـ هذا هو الحال .

ثم جلس بهدوء على المقعد ؛ وهو يهز رأسه .

ونهض ايتيين ببطء ، ورنا الى زوجته ، وفتح ذراعيه كأنه يود ان يعانق شيئاً ما . ثم قال بصوت خفيض متأمل :

ـ الحق انه إذا ما اردنا ان ننخرط في هذا العمل ، فعلينا ان نتفرغ له بكل قلوبنا .

وقاطعه بيير بأستيحاء :

ـ اجل ، ودونما تلفتٍ الى الوراء .

وتابع ايتيين :

إنه مشروع ضخم .

وأمل بيير : للأرض كلها .

-١٨-

وكانت الأم تصغي اليهم وهي تسند ظهرها الى الجدار وتلقي برأسها الى الوراء . ونهضت تاتيانا ، وتطلعت حولها، ثم عادت الى الجلوس، وكانت عيناها الخضراوان تلتمعان بألقٍ جاف ، وتصبان على الرجلين نظرات يختلط فيها الازدراء بعدم الارتياح .

وقالت للأم فجأة :

ـ يظهر انك قد قاسيت كثيراً من الأسى ؟

ـ نعم ... لقد قاسيت .

ـ إنك تحسنين الكلام ، واحاديثك تجذب السامع حتى ليقول في نفسه : يا الهي ... ليتني استطيع الا ارى إلا من خلال ناس كهؤلاء، وحياة كهذه.

كيف ترانا نعيش ؟ إننا نعيش كالخراف ... فأنا مثلاً اعرف القراءة والكتابة ، اطالع الكتب وافكر كثيراً ، وتخطر لي احياناً ، خلال الليل ، افكارٌ تمنع عني الكرى. واية فائدة في ذلك ؟ اذا لم افكر سببت لنفسي القلق بلا جدوى، واذا فكرت ففي سبيل اللاشيء ايضاً .

وكان في نظرتها سخرية ، وكانت تتوقف بين الفينة والفينة ، فتقطع بذلك مجرى حديثها ، على حين غرة ، كما تقطع خيطاً بين اسنانها . وكان الفلاحان صامتين ، والهواء يداعب زجاج النوافذ ، ويعبث بقش السقف ؛ ويزمجر في المدخنة بصوت منخفض . وكان هناك كلبٌ يهر ، وبعض قطرات من المطر تنقر البلاط ، على كره منها . وارتعش لهب المصباح وشحب لونه ، ولكنه عاد على الفور الى التألق بنشاط وثبات .

ـ لقد كنت أصغي الى ما تقولون : « هو ذا السبب الذي يحيا من اجله الناس » وبدا لي غريباً انني كنت اعرف كل هذا من قبل ، ولكنني لم أك اسمع به قبل ان اعرفكم ؛ ولم تراودني ابداً افكارٌ من هذا النوع .

وقال ايتيين بصوت بطيء كئيب :

ـ يجب ان نتناول العشاء يا تاتيانا، وان تطفيء المصباح ، فقد يلاحظ الناس ان النور ، في منزل آل تشوماكوف، قد ظل مضاءً الى وقت متأخر . إن ذلك لا اهمية له بالنسبة لنا نحن،ولكنه قد يكون بالنسبة لضيفتنا غير مناسبٍ.

ونهضت تاتيانا ، وربضت بالقرب من الفرن .

وقال بيير بصوت خفيض وهو يبتسم :

ـ نعم ... يا صاح ، يجب ان نكون على اتم الاستعداد ، وعندما تظهر الصحيفة ...

ـ انا لا اقول ذلك لمصلحتي ... لأنه لو ادّى الأمر الى اعتقالي ، فلن يكون في ذلك كارثة كبرى .

واقتربت زوجته من المائده وقالت :

ـ تنحّ قليلاً .

فنهض وابتعد ، ولكنه قال ، وهو يراها تضع غطاء المائدة :

ـ خمسة دراهم ثمن الحزمة ...هذا هو سعرنا ، وهيهات ان يصل الى هذه القيمة . وعندما تضم الحزمة مئة منا ...

وداخل الأم فجأة إشفاق عليه، ثم اخذت ترتاح اليه شيئاً فشيئاً وقد شعرت بعد أن اصغت الى كلماته ، انها قد تخففت من حمل النهار الثقيل القذر ، وكانت راضية عن نفسها ، تود ان تكون طيبة بالنسبة للجميع .

وقالت :

ـ ليس صحيحاً ما تقوله يا « معلم » . إن المرء غير ملزم بأن يرتضي الثمن الذي يحدده له اولئك الذين لا يبتغون منه شيئاً إلا دمه . وعليك ان تعرف انت نفسك قيمتك لا بالنسبة الى اعدائك ، بل بالنسبة الى اصدقائك .

وصاح الفلاح :

ـ أي اصدقاء لنا ؟ انهم يظلون اصدقاء .. حتى تلوح لهم عظمة يتنازعونها.

ـ بلى ... فللشعب اصدقاؤه .

ورد ايتيين ساهماً :

ـ حسناً ... يجب ان نوجد من هؤلاء الاصدقاء هنا .

واطرق ايتيين :

ـ اجل ... هذا ما يجب ان نفعله .

ودعتهم تاتيانا :

ـ تفضلوا الى الطعام .

وراح بيير خلال العشاء يتحدث بحيوية وقد بدا عليه ان كلمات الأم قد اثرت فيه وادهشته :

ـ عليك ان ترحلي من هنا في الصباح الباكر لكيلا تستثيري الانتباه ، استأجري عربة من المحطة التالية ، ولا تتوجهي الى المدينة .

وقال ايتيين :

لماذا ؟ سأوصلها بنفسي .

ـ لا حاجة لذلك . لانه اذا حدث شيء ما فانهم سيسألونك: هل قضت الليل عندك ؟ ـ نعم ... » ـ والى اين توجهت ؟ ـ لقد رافقتها .. اوه ، اوه لقد رافقتها ؟ تفضل اذن الى السجن .. مفهوم ؟ فهل انت مستعجل للذهاب الى السجن ؟ ولم العجلة ؟ فلكل شيء أوان ، وسيحين الوقت ، كما يقال ، ويموت القيصر . على انك اذا قلت ببساطة : ـ لقد نامت هنا ، ثم استأجرت عربة وذهبت .. فلن يؤذوك لان قريتنا معبر ، وهناك دائماً من يقضي ليله عند بيير او بول .

وسألته تاتيانا بسخرية :

ـ اين تعلمت الخوف يا بيير ؟

فصاح وهو يربت على ركبته :

ـ يجب ان يعرف المرء كل شيء يا عزيزتي . أن يعرف كيف يخاف ، وان يعرف كيف يكون شجاعاً . الا تتذكرين كيف اساء رئيس المقاطعة معاملة فاغانوف بسبب هذه الصحيفة ؟ والآن ... انك لن تستطيعي ان تحملي صاحبنا فاغانوف على ان يمسك بيده كتاباً ، مهما اغريته بالمال . انكم تستطيعون ان تصدقوني ، فأنا امرؤ عجيب استطيع ان احسن الحيلة ، والناس جميعاً يعرفون ذلك جيداً . سأبذر لكم الكراريس ، والوريقات الصغيرة ، كما يجب ، وبالكميات التي تشاؤون ، صحيح ان جماعاتنا ليسوا متعلمين ، وانهم قوم رعاديد ، ولكن زمننا هذا ، يحطم مع ذلك اضلاعهم لدرجة لا يستطيع احدهم معها الا ان يحملق بعينيه ، وان يتساءل ماذا يعني هذا ؟ عندئذ يجيبه الكراس الصغير ببساطة : خذ ، هذا ما يعنيه ، فكر ، وع . وهناك حالات يفهم فيها الأمي اكثر من المتعلم ، لا سيا إذا كان هذا المتعلم يأكل جيداً .. اني اعرف البلاد معرفة جيدة ، وارى كثيراً من الأشياء ، فلا يكفي القول بأننا نستطيع ان نعيش ، ولكننا بحاجة الى دماغ ... والى كثير من البراعة ، لكيلا نقع سريعاً في الفخ ، فالسلطات ، تشم هي ايضاً ما هنالك من جديد ، والفلاح يضربها ببرود ، ويبتسم قليلاً ، دون ان يكون في بسمته أية عذوبة .

وبالاختصار .. إنه يريد ان يستغني عن السلطات ..

بالامس جاؤوا الى « سموليا كوفو » وهي مزرعة ليست ببعيدة عنا ،جاؤوا لتحصيل ضرائبهم ، ولكن الفلاحين تمردوا ، وامتشقوا المذاري في وجوههم ، فخاطبهم المفوض بحزم : آه يا ابناء العاهرات .. إنكم اذاً تتمردون على القيصر؟ وكان هناك فلاحٌ اسمه « سبيكافين » تصدى لهم قائلاً : الجحيم لك ولقيصرك . فما هو هذا القيصر الذي يسلبنا آخر قميص على اجسادنا ؟ .. هذا ما وصلت اليه الحال ايتها الام .. ومن الاكيد ان سبيكافين قد اودع السجن ، ولكن كلمته يرددها حتى الصغار ، إنها تدوّي ، إنها دائماً حية .

وكان لا يأكل ، بل يتكلم ، ويتكلم بوشوشة متلاحقة سريعة ، وكانت عيناه السوداوان الماكرتان تبرقان بحيوية ،وكان يفرغ امام الام بسخاء ،ملاحظاته التي لا تحصى عن الحياة في الريف ، كأنه إنما يفرغ امامها كيساً من القطع النقدية الصغيرة .

ويقاطعه ايتيين مرتين قائلاً له :

ـ كُلْ إذن ..

فيتناول لقمةً ويحسو ملعقة من الطعام ، ثم يعود من جديد فيتدفق في الحديث كحسون صغير مستغرق في التغريد . واخيراً انتهى العشاء ، ووثب هو واقفاً على قدميه ثم اعلن :

ـ حسناً .. لقد آن لي ان اعود .

ووقف امام الأم يهز يدها :

ـ وداعاً ؛ فقد لا نلتقي ثانية ابداً ، وعليّ ان اقول لك بأن هذا كله جيد جداً ، وانه لجميل ان ألتقي بك ، وان استمع اليك. تُرى هل في حقيبتك شيء آخر غير الكتب والصحف ؟ شالٌ من صوف ؟ تماماً ... شالٌ من صوف ، تذكر ذلك يا ايتيين . سيأتيك بحقيبتك في الحال . هيا بنا يا ايتيين ... وداعاً ... وعوفيتم .

وعندما خرجا ، سُمع صراخ الصراصير ، وعبث الريح في السقف ، وغطيطها في المدفأة ، ونقرات المطر الخفيف الرتيبة على النافذة . وأعدّت تاتيانا فراشاً

للأم من بعض الملابس التي فرشتها على المقعد .

وقالت بيلاجي :

ـ إنه فتىً لبق .

ـ بل جرسٌ صغير يرن ، ويرن ، ولكنه لا يُسمع من بعيد.

ـ وزوجك ؟

ـ رجل طيب لا يشرب ابداً ، ونحن منسجمان اشد الانسجام ... إلا انه ضعيف الشكيمة .

وانتصبت ثم تابعت بعد صمت قصير :

ـ ماذا يجب ان نفعل الآن ؟ نثير الشعب ؟ هذا أكيد ، إن الناس جميعاً يفكرون بذلك .. ولكن .. كلٌ في زاويته الصغيرة ؛ ويقتضي ان نجهر به عالياً ، وان يكون هناك واحدٌ يوطد عزمه اولاً ..

وجلست على المقعد ثم سألت فجأة :

ـ لقد قلت ان هناك ايضاً فتيات صغيرات يهتممن بالأمر ، ويقمن بتعليم القراءة للعمال . أفلا يبعث ذلك ضجرهن وخوفهن ؟

وبعد ان استمعت بانتباه الى جواب الام ، اطلقت زفرة عميقة، ثم استأنفت الكلام وهي مطرقة :

ـ لقد قرأت مرةً في احد الكتب هذه الكلمات : « ان الحياة لا معنى لها »، وقد فهمت ذلك سريعاً ، لأنني كنت قد عرفت تلك الحياة . إننا نملك افكاراً، ولكنها غير مترابطة . إنها تهيم كالنعاج بدون راع ؛ وليس هناك ما يجمعها ولا من يجمعها . هذه هي الحياة التي لا معنى لها ، فليتني استطيع الهرب بعيداً عنها، دون ان اتلفت حتى الى الوراء . ألا ما اشد حزن المرء حين يكون على هذا المستوى من الفهم .

وكانت الأم تقرأ هذا الحزن في الألق الجاف الذي ينعكس من عينيها الخضراوين ، وفي وجهها الناحل ، وتسمعه في صوتها . فأرادت ان تسري عنها، وان تلاطفها :

— ولكنك يا عزيزتي تدركين ما يجب عمله ..!
وقاطعتها تاتيانا بهدوء :
— يجب ان نعرف .. إن سريرك جاهز .. فهيا الى الرقاد.
ومضت نحو المدفأة، ولبثت هناك صامتة منتصبة، قاسية الملامح منقبضة الصدر.
ونامت الأم دون ان تخلع ثيابها ، واستشعرت تعباً أليماً في عظامها .فأنّت بهدوء . واطفأت تاتيانا المصباح ، وعندما غمرت الظلمة الكثيفة الكوخ ، رنّ صوتها الخفيض الرتيب ، رن من جديد كأنه إنما يمسح شيئاً عن الوجه العريض ، وجه الظلمات الخانقة :
— أرى انك لا تصلين .. وانا ايضاً لا اعتقد بوجود الله ولا بالمعجزات .
وتقلبت الأم في مضجعها بقلق ، وكان الظلام الذي لا غور له ، يحدق اليها من النافذة ، وحفيف خفيف ، وضجيج لا يكاد يُسمع ، يزحفان في الصمت بعناد، وقالت برعبٍ كأنها إنما تهمس همساً :
— فيما يتعلق بالله لا اعرف شيئاً ، ولكنني اؤمن بالمسيح وكلماته : واحب جارك كما تحب نفسك » ... اجل .. إني اؤمن بهذا .
وصمتت تاتيانا، وكانت الأم ترى في العتمة الخطوط الغامضة لشبحها المنتصب الذي يبدو أكمد اللون فوق سواد المدفأة ، وظلت المرأة الشابة واقفة امامها جامدة . اما الام ، فقد اغمضت عينيها مغمومة .
وفجأة ارتفع صوت جليدي يقول :
— انا لا إستطيع أن اغفر لله والناس موت ابنائي ... لا استطيع ذلك ابداً.
ونهضت الام متأثرة ، وكانت تدرك عمق الالم الذي ألهم هذه الكلمات ، فقالت لتاتيانا بحنان :
— انك ما زلت شابة وسيكون لك اولاد آخرون .
— كلا ... اني بائسة ... فلقد قال لي الطبيب اني لن ارزق اطفالاً ابداً .
وركضت فوق ارض الغرفة فأرة ، ومزقت جمود الصمت ، كبرقٍ غير مرئي ، اصوات قرض جاف جهور ، وسُمع من جديد ، وبوضوح ، حفيف المطر

وصخبه ، وهو ينهمر على قش السقف الذي يبدو كأنما بعثرته اصابع دقيقة جبانة . وعلى الارض كانت قطرات الماء تتساقط كئيبة ، فتنغّم الانسياب البطيء لهذه الليلة من ليالي الخريف .
وسمعت الأم ، في سهدها الثقيل ، وقع خطىً في الشارع ثقيلة ثم فتح الباب بحذر ، وهتف صوت مخنوق :
— تاتيانا ، هل نمتِ ؟
— كلا .
— وهي ... هل نامت ؟
— بلا شك .
واندلع لهبٌ ارتعش قليلاً ثم غرق في الظلمة .واقترب الفلاح من سرير الأم، فسوّى الفراء الذي كان يلف ساقيها . واثرت هذه العناية في نفس بيلاجي ، فابتسمت وهي تطبق عينيها . ونضا ايتيين ثيابه بصمت، ثم صعد الى «التتخيتة» وهدأت بعد ذلك كل حركة .
ولبثت الأم جامدة لا تتحرك ، تصيخ بسمعها الى الذبذبات الكسول ، ذبذبات الصمت المسهد ، ويرتسم امامها في الظلمات وجه ريبين المضرج بالدم .
وتناهى اليها من « التتخيتة » همس :
— أترى ؟ .. انظر الى القوم الذين انخرطوا في العمل .. إنهم طعنوا في السن، وركبتهم آلاف الاحزان ، وجهدوا طويلاً ، وقد آن لهم ان يرتاحوا ... وانت يا ايتيين .. انت الشاب السليم المنطق .. هه ؟
ورد صوت الفلاح الخشن :
— لا يمكن التورط في امر كهذا ، قبل التفكير ..
— لقد سمعت هذا منك قبل الآن .
وخمدت الاصوات ، ثم عادت من جديد ، وغمغم ايتيين :
— يجب التصرف هكذا . التحدث معهم اولاً على حدة . خذي مثلاً الكسي ماكوف . إنه فتى ذكي متعلم تحتاجه السلطات ، وكورين ايضاً رجل راجح

العقل ، و« نيازر » فاضل وشجاع . وبعد ذلك سنرى . يجب ان اقابل اولئك الذين كانت تتحدث عنهم ، وسآخذ فأسي ، وأنط الى المدينة متظاهراً بأني أسعى لربح بعض الدريهات من تقطيع الحطب . يجب ان نكون حذرين. انها على حق حين تقول : إن قيمة الرجل هي عمله الشخصي ارأيتِ الى ذلك الفلاح الذي يدعى ريبين ؟ انه لن يخضع حتى لله ؛ لقد صمد للضربة ورجـــلاه ثابتتان في الارض. ونيكيتا ؟ لقد سيطر عليه الخجل . هذا فظيع .

ــ يضربون رجلاً امامكم ، وتظلون انتم مطبقي الافواه ؟

ــ مهلاً .. واشكري الله ، لأنهم لم يرغمونا نحن على ضربه .

ووشوش طويلاً ؛ تارة بصوت منخفض جداً لدرجة كانت الام معها لاتكاد تسمع كلماته ، وتارة اخرى كان يرفع من صوته فجأة ،فتضطر زوجته ان تنهره :

ــ على رسلك ... إنك توشك ان توقظها .

وغرقت الام في نوم عميق ، كأن غمامة ظليلة قد هبطت عليها فلفتها وحملتها.

وايقظت تاتيانا عندما كان الفجر الاغبش الذي مـــا زال اعشى، يطل من نوافذ الكوخ ، والانغام النحاسية ، انغـــام جرس الكنيسة ، تحوم وسنى فوق القرية ، ثم تموت في الصمت البارد

لقد هيأت الشاي ... فأشربي ، وإلا فإنك ستبردين في العربة ...

وسأل ايتيين الأم وهو يمشط لحيته الشعثاء ، سألها بلهجة عادية عن عنوانها في المدينة، فخيل اليها ان ملامحه قد نضجت، وانه اقرب الى القلب منه في السهرة.

وفيما كانوا يتناولون الشاي قال ايتيين ضاحكاً :

ــ ما اغرب الشيء الذي حدث .

وسألته تاتيانا :

ــ ماذا ؟

ــ تعارفنا . لقد كان بمنتهى البساطة .

وقالت الأم وهي ساهمة الملامح ، ولكنها مقتنعة :

ــ في هذه الأمور بساطة مدهشة في كل شيء .

واستأذناها ، ولم يفرطا في الكلام بل كانا بخيلـــين ، ولكنهما اغدقا عليها آلاف التوصيات والتنبيهات فيما يتعلق برحلتها .

وعندما جلست بيلاجي في العربة ، راحت تفكر في هذا الفلاح : لقـــد كان يقوم بواجبه بحذر ، ودونمـــا ضجيج او هوادة تماماً كالخلد . إن صوت زوجته الناقم سيرن ابداً في اذنها ، وستظل عيناها الخضراوان تلتمعان بالألق المشتعل ، ومهما عاشت ، فسيظل يعيش فيها ذلـك الألم الحاقد ، ألم الذئبة ، ألم الأم التي تبكي اولادها الراحلين .

وتذكرت ريبين . تذكرت دمه ووجهه وعينيه الملتهبتين ، وكلماته ، وعصر قلبها ذلك الاحساس المرتسم على وجهه ، الأحساس المر بعجزه امام الوحوش . وطوال الطريق ، وعلى اللوحة الباهتة ، لوحة النهار الاكمد ، كان شبح ميشال القوي ينتصب امـــام عينيها ، ينتصب بلحيته السوداء وقميصه الممزق ، ويديه الموثقتين وراء ظهره ، ورأسه المشعث ، ووجهـه الذي يضيئه الغضب والايمـان بالحقيقة . وكانت تفكر في القرى التي لا تحصى والتي تفترش الأرض خائفة ، وفي الناس الذين كانوا ينتظرون مقدم العدالة ، وفي آلاف الكائنات التي كانت تعمل صامتة ، بلا هدف ، طوال حياتها ، ودون ان تنتظر شيئاً .

وكانت الحياة تبدو لها كسهل وعر ، ينتظر الفلاحين بصمت وترقب ؛ كأنه يعِد الايدي الحرة الشريفة قائلاً :

ــ اخصبيني ببذور العقل والحقيقة ، اعدها اليك مئة ضعف .

وتذكرت النجاح الذي حالف رحلتها ، فأحست في اعماق قلبها بنبضة فرح حلوة ، ما لبثت ان كتبتها بخفر .

— ١٩ —

وفتح نيقولا لها الباب ، وهو منفوش الشعر ، وفي يده كتاب ، وصـــاح بفرح غامر :

ــ لقد عدتِ بسرعة !

وكانت عيناه اليقظتان تبرقان بود تحت نظارتيه . وساعدها على خلع معطفها وقال لها ، وهو ينظر اليها بابتسامة حميمة :

ـ هل عرفتِ ؟لقد جاؤوا ففتشوا، هذه الليلة... هنا... فساءلت نفسي عن السبب وخشيت انيكون قد حدث لك شيء ما .. إلا انهم لم يوقفوني.. ولكن من المؤكد انك لو كنت هنا لما أطلقوا سراحي ابداً .

وأدخلها الى غرفة الطعام وهو يتابع باندفاع :

ـ ومع ذلك فقد اطلقوني .. ان ذلك لا يحزنني ... ولكني سئمت احصاء الفلاحين الذين لا يملكون جياداً .

وكانت الغرفة تبدو كأن مارداً قد طرق من الخارج جدران المنزل ، طرقها في نوبة من نزاح بليد فزلزلها لدرجة انقلب معها ما في الداخل، فاذا عاليه سافله، وكانت اللوحات ملقاة على الأرض وطنافس الجدران منزوعة ، تتدلى خرقاً ، وركيزة النافذة مبتورة ، والرماد منتشراً بالقرب من المدفأة .

وهزت الأم رأسها عندما رأت المسكن المألوف لديها ، وتسمر بصرها على نيقولا الذي كانت تحس في منزله ، بشيء من الجدة .

وعلى الطاولة ، بالقرب من الموقد الخامد كانت بعض الاواني المطبخية الوسخة ، وقليلٌ من المقانق والجبن ، على ورقة بدلاً من صحن ، وفتات خبز مبعثرة وكتب ، وجمرات في الموقد منطفئة . وابتسمت الأم ، وابتسم نيقولا كذلك بسمة مرتبكة :

ـ اني انا الذي اكملت لوحة التخريب هـذه .. ولكن لا بأس في ذلك ، يا نيلوفنا لا بأس ؛ فأنهم كما اعتقد ، سيعودون ، ولهـذا تركت كل شيء على حاله .. حسناً .. وكيف كانت رحلتك ؟

وصعقها هذا السؤال ، وانتصبت امامها من جديد صورة ريبين ؛ وشعرت انها اخطأت لأنها لم تبدأ الحديث عنه في الحـال ، ودنت من نيقولا ، واخذت تقص عليه ما حدث ، وهي تجهد نفسها للاحتفاظ بهدوئهـا ، خشية ان تنسى شيئاً من التفاصيل :

ـ لقد قبضوا عليه ...

وارتعش نيقولا : وكيف ذلك ؟

وأوقفت الأم سؤاله بأشارة من يدها ، وأتمت حديثها كأنها انما تمثل العدالة متجسدة وقد جاءت تشكو اليها التعذيب الذي لقيـه إنسان ما ... واستلقى نيقولا على متكأ مقعده ، وراح يصغي وهو شاحب الوجـه ، ثم نزع ببطء نظارتيه، ووضعها على الطاولة ، ومسح وجهه بيديه ، كأنه انما يمسح عنه خيوط عنكبوت غير مرئي،وتصرمت ملامحه، ونفرت وجناته بشكل غريب وارتعشت فتحتا انفه ، وكانت هذه هي المرة الاولى التي تراه بيلاجي فيها بمثل هذه الحال، فداخلها من ذلك بعض الرعب .

وعندما انهت حديثها نهض ، وخطا ، صامتاً بضع خطوات وقبضتاه في اعماق جيوبه ، ثم لاك بين اسنانه هذه الكلمات :

ـ انه رجلٌ قادر ، وسيقاسي كثيراً في السجن ، لأن امثاله من الرجـال يستشعرون الضيق في غياهبه .

وأوغلت قبضتاه في جيوبه اكثر من السابق ، محـاولا اخفاء انفعالٍ كانت الأم ، رغم ذلـك ، تحسه ، وتشعر أنه ينتقل اليها ، وتقلصت عينـاه حتى غدتا كرأس سكين ، وقال بغضب وهو يستأنف سيره :

ـ يا للفظاعة . حفنة من الأغنيـاء ، يضربون ويخنقون ويسحقون ليحموا سلطانهم المشؤوم على الشعب. ان الوحشية تزداد، والقسوة تغدو شريعة الوجود فتأملي . ان بعضهم يضرب ، وينطلق من قيده كالوحوش مطمئناً الى فجوره . انهم مصابون بظمـأ الى التعذيب شهواني ، مصابون بذلك الداء الكريه ، داء العبيد الذين يُباح لهم أن يظهروا غرائزهم المنحطة ، وعاداتهم البهيمية ؛ بكل ما فيهم من قوة . أمـا الآخرون فشهوة الثأر تسممهم ، انهم يصبحون ، وقد أخبلتهم الضربات ، بكماً وعمياناً ، لقد أفسد الشعب ، الشعب بكامله .

وتوقف قليلا ، وصمت وهو يكز أسنانه ثم استأنف بهدوء :

ـ ان المرء ليغدو ، رغماً عنه ، ضارياً ... في هذه الحياة الضارية .

وسيطر على انفعاله ، واستعاد بعض هدوئه ، ولمعت عيناه ببريق حازم ، ثم رنا الى الأم والدموع الصامتة تتدحرج على مقلتيه :

ـ ليس لدينا وقت لنضيعه يا نيلوفنا، فلنتمالك انفسنا أيتها الرفيقة الغالية ..

واقترب منها، وعلى شفتيه ابتسامة حزينة ، ثم اخذ يدها وسألها :

ـ اين هي حقيبتك ؟

ـ انها في المطبخ .

ـ ان المنزل محاط بالعيون ، ولن تنجح في اخراج شيء من الاوراق دون ان نُرى ... لا ادري اين نخبىء هـذه المنشورات ، فأنا اعتقد انهم سيعودون الليلة ، ليفتشوا ... لنحرق إذن كل هذا ، لنحرقه مهما كلفنا الأمر .

وسألته الأم :

ـ نحرق ماذا ؟

كل ما في الحقيبة .

وأدركت ماذا يقصد ، ورغم ان حزنهـا كان عظيماً ، فإن الزهو الذي إستشعرته لكونها قد نجحت ، هذا الزهو طرح على شفتيها بسمة فقالت :

ـ لا يوجد شيء في الحقيبة ... حتى ولا قصاصة واحدة من الورق ...

وراحت وهي تزداد حيوية شيئـاً فشيئاً ، راحت تتحدث عن اجتماعها وأصغى نيقولا اليها بادىء الأمر ، وهو كئيب ، مقطب الحاجبين ، ولكنه مـا لبث ان صاح دهشاً ، وقاطعها :

ـ آه ... هذا رائع ... ان حظك مدهش .

وشدّ على يدها ، ثم قال بهدوء :

ـ ان ايمانك بالشعب أثرّ فيّ لدرجة ... في الحقيقة، اني احبك كأمي نفسها.

وكانت هي تتبعه ببصرها باسمة ، يدفعها الفضول ، فتحاول ان تدرك من اين فاض عليه هذا الألق ، وتلك الحيوية .

وقال وهو يفرك يديه ويضحك ضحكة صغيرة لطيفة :

ـ انه حقاً لرائع اتعلمين؟ لقد قضيت هذه الايام الأخيرة بطريقة مدهشة...

كنت طوال الوقت مع العمال ، اقرأ لهم ، وأحدثهم ، وانظر اليهم ... فتزودت بشيء من الصفاء والطهارة . يا لهم من قوم طيبـين يا نيلوفنا ... اعني العمال الشبان ... انهم اشداء ، حساسون ، يملأهم التعطش لفهم كل شيء . ان من يراهم لا يستطيع الا ان يقول في نفسه: ان روسيا ستكون اعظم بلدٍ ديموقراطي على وجه الأرض .

ورفع ذراعه في حركة تأكيدية كأنه انما يؤدي قسماً، ثم تابع بعد فترة من الصمت :

لقد كنت اعيش كالسجين ، واكتب و ... ، والى حدٍ ما يمكن القول اني تخثرت، وتعفنت على الأوراق التافهة والأرقام. ان عاماً من حياة كهذه هو نوع من المسخ .. لقد تعودت الحياة بين الكادحين ، لذلك فقد شعرت بشيء من عدم الارتياح عندما انتزعت نفسي من صميم تلك الحياة. والآن... استطيع ان اعيش من جديد بحرية ، استطيع ان اراهم.. ان اشغل وقتي معهم ، فأظل بذلك قريباً من مهد الافكار الناشئة ، قريباً من الفترة ، من الطاقة الخلاّقة . ان هذا لبسيط بشكل مدهش ، وجميل ومثير بشكل رهيب؛ إذ يغدو المرء فتياً صلب العود ، يحيا حياة ثراء ...

وأخذ يضحك بمرح يشوبه بعض الارتباك ، وكانت غبطتـه تنتقل الى الأم التي كانت تدرك سبب هذه الغبطة ... ثم اردف .

ـ ثم ... انك امرأة خارقة . ما ابرعك في وصف الناس بطريقة مؤثرة ... وما أشد فهمك لهم .

وجلس الى جانبها وهو يشيح بوجهه المغتبط ، ويمسد شعره ، ليخفي بذلك ارتباكه ، ولكنه ما لبث ان التفت اليها ، وراح يصغي بنهم الى بقية حديثها ، الذي كان ينساب ببساطة ووضوح .

وصاح فجأة :

ـ يا لطالعك المدهش. لقد كان حظك بالاعتقال يعادل نسبة تسعة على عشرة..
ثم تغير الوضع فجأة ... نعم ... اننا نشعر ان الفلاح قد بدأ يتحرك ، وهـذا

امر طبيعي ... هذه المرأة اراها جيداً ... اننا بحاجة الى ناس يهتمون ، على وجه الخصوص ، بالريف ، ناس ... ان هـؤلاء ينقصوننا ... والحياة تتطلب مئات السواعد .

وهمست الأم :

– ليت ولدي بول يسترد حريته هو واندريه !

ورمقها بنظرة ثم اطرق :

– اسمعي يا نيلوفنا . ان ما سأقوله سيؤلمك كثيراً، ولكني مع ذلك سأقوله: انا اعرف بول جيداً . انه لن يفر من السجن . انه يرغب في ان يُحاكم ... ان يبدو في اوج قوته ، ولن يتخلى عن ذلك ابداً . ويجب الا يفعل ... انه سيهرب من سيبيريا .

وزفرت الأم واجابت بهدوء :

– سيان عندي ... انه يعرف ما هو الافضل ...

وهمهم نيقولا ، بعد لحظة ، وهو يحدق بها من خلال نظارتيه :

– هم . ليت «صاحبك» الفلاح يتعجل المجيء لزيارتنا أرأيت؟ انه لضروري جداً ان نكتب منشوراً عن ريبين ، ونخصصه للريف . فلن يضيره ذلك اذا ما تصرف بشجاعة . وسأكتب المنشور اليوم ، وستطبعه ليوميلا بسرعة ، ولكن كيف نستطيع ايصاله الى هناك ؟ هنا المشكلة .

– سأحمله انا .

واجاب نيقولا بحدة :

– كلا ... شكراً ... ولكني افكر في الأمر وارى ان فيسوشيكوف جدير بهذه المهمة ... اليس كذلك ؟

– هل يجب ان نفاتحه بها ؟

– جربي ... وافهميه كيف يقوم بها .

– وانا ماذا افعل ؟

– طمني بالك .

وجلس ، ثم راح يكتب ، وكانت الام تنظر اليه وهي تنظف المائدة ، فترى قلمه الذي يرتعش في يده، ويغطي الورقة بكثير من الكلمات ، وكان عنقه يختلج احياناً ، فيرفع رأسه ، ويغمض عينيه ، وتهتز ذقنه ، فيؤثر ذلك في نفس بيلاجي .

قال وهو ينهض :

– هوذا المنشور جاهز . خبئي هذه الورقة في ثيابك ، ولا تنسي انه اذا ما جاء الدرك فانهم سيفتشونك انت ايضاً .

وقالت بهدوء :

– ليحملهم الشيطان .

وعند المساء جاء الطبيب ، وقال وهو يمشي في الحجرة بخطى محمومة :

– ما الذى اثار قلق السلطات فجأة ؟ لقد قاموا خلال هذه الليلة بسبع حملات تفتيشية ! .. اين هو مريضنا ؟

واجاب نيقولا :

– لقد رحل البارحة ... وهذا النهار هو نهار السبت ... الا تعلم انه لا يستطيع ان يتخلف عن جلسة القراءة ؟ ..

– انه لمن الحمق ان يفعل ذلك ورأسه منفلق !

– هذا ما اردت ان اقنعه به فلم اوفق .

وعلقت الام :

– لقد تملكته الرغبة في ان يتباهى قليلا امام الرفاق ، ان يقول : انظروا الي ؛ فلقد سفحت دمي ...

وقذفها الطبيب بنظرة عجلى ، وبدت في ملامحه الضراوة، ثم قال وهو يكز اسنانه :

– أوه ، أوه . انكم دمويون .

– حسناً ، يا عجوزي، ليس لك ما تفعله هنا، ونحن ننتظر ضيوفاً، فانصرف. اعطه الورقة يا نيلوفنا ! . .

ـ ورقة ايضاً ؟

ـ خذها واوصلها الى المطبعة .

ـ حسناً ، سأوصلها ... اهذا كل شيء ؟

ـ نعم .. هناك جاسوس عند الباب .

ـ لقد رأيته ... وعند بابي ايضاً جاسوس . والآن الى اللقاء ايتها المرأة الضارية ، اما انتم يا اصدقائي فاعلموا ان النزاع في المقبرة شيء حسن قطعاً ، والمدينة كلها تتحدث عنه . واما انت فمقالك كان جيداً ، وقد وصل في الوقت الملائم . لقد كنت اقول دائماً ان خصاماً طيباً خيرٌ من سلم رديء .

ـ إننا نوافق على ذلك .. فانصرف .

ـ إنك في الواقع لا تُحب .. هاتي يدك يا نيلوفنا، لقد تصرف الفتى بحمق .. فهل تعرفين أين يقيم ؟

واعطاه نيقولا العنوان .

ـ يجب ان امرّ غداً لأراه . إنه فتى طيب . أليس كذلك ؟

ـ بمنتهى الطيبة .

ورد الطبيب وهو ينصرف :

ـ يجب العناية به ، فهو ليس غبياً . هؤلاء الفتيان هم بالضبط الذين يؤلفون البروليتاريا الحقيقية ... المثقفة . إنهم هم الذين سيخلفوننا حين ننطلق الى حيث لا يوجد ، بلا شك ، صراع طبقات ...

ـ لقد غدوت ثرثاراً جداً ...

ـ ذلك لأني فرح ... إذن فأنت تنتظر السجن ؟ اتمنى لك ان تجد الراحة فيه :

ـ شكراً ... فأنا لست تعباً .

وكانت الأم تصغي اليهما ، سعيدة بأن تراهما شديدي الاهتمام بالعامل الفتى . وانصرف الطبيب وجلس نيقولا والأم الى المائدة بانتظار ضيوفهما الليليين . وتحدث نيقولا طويلاً عن رفاقه الذين كانوا يعيشون في المنفى ، وعن اولئك

الذين فروا منه ، واستأنفوا عملهم تحت اسماء مستعارة . وكانت جدران الحجرة العارية تعكس رنة صوته المخنوقة كأنها دَهِشة مرتابة لسماع هذه القصص، قصص الابطال المتواضعين ، المتجردين عن كل نفع ، والذين يكرسون قواهم كلها للعمل العظيم ، لإصلاح العالم .

وكانت ظلال ناعمة ودودة تكتنف الأم ، فتملأ قلبها عطفاً حاراً على هؤلاء المجهولين الذين كان خيالها يختزلهم جميعاً في كائنٍ واحد عملاق، لا تنفد قدرته ولا تغيض شجاعته . وكان هذا الكائن يرود الأرض ببطء ، ولكن بهمة لا تعرف الكلل ، فينتزع منها، بيديه المتلئتين حباً لعمله، ينتزع عفن الدجل الذي راكمته العصور ، ويكشف لأعين الناس الحقيقة البسيطة المتألقة، حقيقة الحياة . وكانت هذه الحقيقة الكبرى المتجددة، تدعو اليها الكائنات جميعاً، تدعوها بمحبة ودونما تمييز ، وتعدها كذلك بأن تحررها من الحسد والحقد والدجل ، من هذه الغيلان الثلاثة التي تسترقّ الأرض بقوتها الماجنة ، وتبعث فيها الرعب .

وكانت هذه الصورة تبعث في نفس الأم شعوراً كذاك الذي كانت تستشعره وهي راكعة امام الإيقونات، لتنهي ، بصلاة سعيدة شاكرة، يوماً كان يبدو لها اقل عذاباً من ايامها الأخر . اما الآن فقد نسيت تلك الأيام ، وتنامى الشعور الذي كانت توحيه ، فغدا اكثر وضوحاً ومرحاً ؛ وصارت له فيها جذورٌ بعيدة الغور فراح يعيش ابداً ويزداد اشتعالاً اكثر فأكثر .

واعلن نيقولا وهو يقطع حديثه فجأة :

ـ لن يأتي الدرك .

فنظرت اليه الأم وقالت بحنق :

ـ حسناً ... فليذهبوا الى الشيطان .

ـ صحيح ... ولكنه قد آن لك ان ترقدي يا نيلوفنا ، فقد تكونين منهكة اشد الانهاك ... ويجب الاعتراف انك شديدة الجلد لدرجة مدهشة؛ إذ ما اكثر ما تتعرضين له من انفعالات ، وهموم ، ولكنك تتحملين ذلك كله بسهولة ولم يشب فيك سريعاً سوى شعرك . هيا خذي قسطاً من الراحة ، هيا !

- ٢٠ -

واستيقظت الأم على باب المطبخ يُطرق طرقات عنيفة ، ويُقرع بلا انقطاع وبعناد صابر ، وكان الظلام والسكون ما زالا يخيمان ، وهذا الالحاح في الطرق يثير القلق . وارتدت الأم ثيابها على عجل ، وهرعت الى المطبخ ، وسألت من وراء الباب :

— من الطارق ؟

واجاب صوت مجهول :

— انـــا .

— من أنت ؟

ورد الصوت منخفضاً متوسلاً :

ـ افتحي .

وشدت الأم المزلاج ، ودفعت الباب بقدمها ، ودخل انياس ، وقال بفرح :

ـ آه ... لم اخطىء اذن ؟

وكان الوحل يغطيه حتى وسطه ، وكان وجهه أكمد اللون وعيناه تحيط بهما هالة سوداء ، وشعره المضفور يتلفت من تحت قبعته ليتناثر في كل اتجاه

وغمغم بعد ان أغلق الباب :

ـ لقد حاق بنا شر ...

ـ أعرف ذلك .

وبدت الدهشة في ملامحه :

— من اين عرفتِ ؟

وقصت عليه بسرعة وايجاز قصة لقائها .

ـ والآخران ... أعني رفيقيك ، هل قبض عليهما ؟

ـ لم يكونا موجودين ، بل كانا قد ذهبا الى مجلس التجنيد ، ولكنهم اعتقلوا خمسة بما فيهم الأب ميشال ...

ونشق انياس ثم قال باسماً :

ـ وبقيت أنا .. وهم بلا شك يبحثون عني .

ـ ولكن كيف استطعت الافلات ؟

وفُتح باب الحجرة بهدوء .

وصاح انياس وهو يجلس على احد المقاعد ويتطلع حواليه :

ـ أنا ؟ قبل وصول رجال الدرك بدقيقة ، أقبل حارس الغـــابات راكضا ، وقرع النافذة وقال : حذار ايها الفتيان .. لقد جاؤوا للقبض عليكم .

وأخذ يضحك بتؤدة ، ثم مسح وجهه بكم ردائه وتابع :

ـ ولم ييأس الأب ميشال بسهولة ، بل قال لي على الفور : انطلق الى المدينة يا انياس . تحرك . ألا تتذكر المرأة الهرمة ؟ وفي الوقت نفسه كتب عجـــالة وقال : «خذها» وانطلقت بأسرع ما يمكن وراء العليق . وسمعتهم ينخدرون . وكانوا ـ يا للأبالسة ـ كانوا يتحركون من كل صوب ، فاذا هم كالشبكة حول ورشتنا . وانطرحت ارضاً ، ومروا بجانبي ثم نهضت ، بعـــد ذلك ، ورحت أمشي وامشي ، ولبثت ليلتين ونهاراً طويلا على هذا المنوال دون ان ارتاح .

وكان يبدو عليه انه راضٍ عن نفسه ، وكانت البسمة تضيء عينيه السمراوين وشفتاه الضخمتان الحمراوان تختلجان .

وقالت الأم وهي تقترب من موقد الشاي :

ـ سأعد لك بعض الشاي حالاً .

ـ العجالة .. سأعطيك إياها .

ورفع ساقه بعناء شاتماً مجدفاً ، ووضع رجله على المقعد .

وظهر نيقولا على عتبة الباب وقال وهو يغمز بعينيه :

ـ صباح الخير يا رفيق . أتسمح لي بمساعدتك ؟

وانحنى يفك بسرعة العصائب الموحلة التي تلف ساق انياس .

وقال الفتى بهدوء وهو يسند فخذه بيده :

ـ حسناً .

وراح ينظر الى الأم بدهشة ، ولكن هذه قالت دون أن تلحظ ذلك :

ـ يجب أن تفرك قدميه بالكحول ..
وأجاب نيقولا : هـذا أكيد .
ونشق انياس بارتباك .
وعثر نيقولا على العجالة فمهدهـا بيده ، وقرأ وهو يُدني القصاصة الرمادية الرثة من عينيه :
«لا تتخلي عن المهمة أيتها الأم ، وقولي اذا أردت لتلك السيدة الكبيرة الا تنسى الكتابة عنا اكثر ؛ عنا نحن الآخرين . وداعاً . »

الامضاء : ريبين

وارخى نيقولا ببطء يده التي تمسك القصاصة وقال بصوتٍ واهٍ :
ـ رائع !
وكان انياس ينظر اليهما وهو يحرك بلين الأضابع القذرة ، اصابع قدمه الحافية .
ودنت الأم منه وهي تخفي وجهها المبلل بالدموع ، وتحمل اليه وعاء من الماء ، وجلست على الارض ومدت يدها الى ساقه ولكنه أبعدها بسرعة ، وخبأ رجله مذعوراً تحت المقعد :
ـ ماذا تريدين ؟
ـ هاتِ قدمك حالاً .
وقال نيقولا :
ـ سأحضر قليلاً من الكحول ..
ولكن الفتى دفع رجله تحت المقعد اكثر من ذي قبل ، وغمغم :
ـ لِمَ ذلك ؟ إننا لسنا في مستشفى .. ومع هذا ..
وأخذت الأم تفك ضمادات رجله الاخرى .
ونشق أنياس بصوت مسموع ، ولوى عنقه ، ثم انحدرت عينـاه نحو الأم وهو يمط شفتيه في حركة ساخرة .
واستأنفت هي الكلام وفي صوتها رجفة :
ـ هل تعلم ؟ لقد ضربوا ميشال ريبين .

وأجاب بوجـل : لا ؟
ـ بلى .. لقد اشبعوه ضرباً عندما اقتـادوه الى «نيكولسكواي» وهناك استأنف الشاويش والمفوض ضربـه على وجهه ، وركله بأرجلهما .. وكان مضرجاً بالدم !
وسرت في منكبيه رعشة فقال ، وهو يقطب حاجبيه :
ـ انهم يحسنون هذا العمل ؛ واني لأخافهم كما اخاف الشياطين . ترى ماذا كان موقف الفلاحين . اما ضربوه ؟
ـ لم يضربه منهم سوى واحد فقط بأمر من المفوض . ولكن الآخـرين لم يفعلوا شيئاً .. بل انهم تدخلوا صائحين : «يجب ألا تضربوه» .
ـ أجـل .. لقد بدأ الفـلاحون يدركون اين هم الذين يدافعون عنهم ، ولماذا يدافعون ؟
ـ ثم ان بينهم من يفكر تفكيراً سليماً .
ـ وأي مكان لا يوجد فيه امثال هؤلاء ؟ انهم في كل مـكان ، ولكن من الصعب العثور عليهم .
واحضر نيقولا زجاجة كحول ، ووضع قليلاً من الفحم في المدفأة ، ثم خرج .
وتتبعه انياس بنظرة فضولية ، وسأل الأم بصوت خفيض جداً :
ـ هل «المعلم» الذي هناك .. طبيب ؟
ـ لا معلم في هذه القضية ، بل كلنا رفاق .
وقال وهو يبتسم ابتسامة حائرة متشككة :
ـ إنه لأمر محير .
ـ ماذا إذن ؟
ـ جميل .. هكذا . في ناحية يطحنون عظامك ، وفي ناحية اخرى يغسلون قدميك .. فماذا يكون الحال في الوسط ؟
وفُتح باب الغرفة وظهر نيقولا على العتبة
ـ بين هذا وذاك قوم يلحسون ايدي اولئك الذين يطحنون عظام ضحاياهم

ويمتصون دماءها .
ورنا انياس اليه باحترام وقال بعد قليل من الصمت :
ــ هذه هي الحقيقة .
ونهض وهو يميل بثقله على قدمه اليمنى تارة ، وعلى اليسرى تارة اخرى ثم اردف :
ــ لقد اصبحتا الآن جديدتين ، فشكراً جزيلاً .
ومضوا الى غرفة الطعام لتناول الشاي ، وهناك راح انياس يروي لهم بصوت جاد :
ــ لقد كنت موزع الجريدة لأني جلود على المشي ..
وقاطعه نيقولا :
ــ هل يقرأها كثير من الناس ؟
ــ كل الذين يعرفون القراءة حتى الاغنياء منهم ، وهؤلاء لا يأخذونها بالطبع من أجلنا ، فهم يفهمون الامور على هذا الشكل : سيغسل الفلاحون بدمهم ارض النبلاء والاثرياء ، وهذا يعني انهم سيقتسمونها هم ، وسيكون الاقتسام بلا شك بطريقة لا يظل فيها ارباب عمل ولا شغيلة ، وإذا لم يكن الامر كذلك فعلامَ الخصام إذن ؟
وكان يبدو عليه الانفعال ، وينظر الى نيقولا نظرة فيها ريبة وتساؤل .
وكان هذا يبتسم بصمت :
ــ واذا تخاصموا اليوم في العالم كله ، فإن الامر سيعود سيرته الاولى غداً عندما ينتصرون : سيكون الواحد منهم ثرياً ، والآخر فقيراً ، وشكراً لكم . المعروف ان الثروة كالرمل لا تبقى جامدة ابداً في مكانها . انها ستسيل من جديد، وستوزع في كل اتجاه ، فما الفائدة إذن من ذلك ؟
وقاطعته الأم مازحة :
ــ لا تحنق .
وقال نيقولا وهو ساهم :

ــ ما العمل لإيصال المنشور ، عن توقيف ريبين ، باسرع ما يمكن من الوقت؟
ومد انياس اذنه :
ــ نعم
واقترح انياس وهو يفرك يديه :
ــ اعطني اياه لأوصله .
وضحكت الأم بهدوء دون ان تنظر اليه :
ــ ولكنك منهك وخائف ، وقد قلت ذلك أنت نفسك !
فأمرّ يده العريضة على شعره المضفور ، وأجاب بلهجة جادة هادئة :
ــ الخوف شيء ، ومهماتنا شيء آخر .. ان مهماتنا هي مهماتنا .. لماذا تسخرين مني ؟ انك حقاً لغريبة .
وصاحت به بغير ارادة منها :
ــ يا طفلي ..
ــ اسمعوا .. انا الآن طفل !
وقاطعه نيقولا الذي كان يتفحصه بعينين عطوفتين رفافتين :
ــ لن نذهب الى هناك ..
وسأله انياس بقلق :
ــ الى اين سأذهب اذن ؟
ــ سيذهب آخر سواك وستشرح له انت بتفصيل كيف يتصرف . هل يعجبك هذا الحل ؟
فأجاب ، مرغماً ، وبعد لحظة من التردد :
ــ حسناً .
ــ سنحصل لك على بطاقة هوية ، وسنعتبرك كمأمور احراش ..
فرفع رأسه فجأة وقد امتلأ غماً :
ــ وماذا أفعل اذا جاء الفلاحون ليحتطبوا أو لأمر غير ذلك ، هل انكل بهم ؟ ان ذلك لا يليق بي .

وأخذت الأم تضحك وكذلك نيقولا ، مما جعل الفتى يضطرب من جديد ويبتئس .

وطمأنه نيقولا :

– لا تكن سيىء المزاج . انك لن تتكل بالفلاحين .. فاطمئن .

وغمغم انياس :

– لقد اختلف الأمر الآن .

ثم ابتسم باغتباط وطمأنينة وقال :

– اود أن أذهب الى المعمل ، فهناك كما يقال ، قوم ذوو عقول رشيدة .

ونهضت الأم عن المائدة ورنت من النافذة وقالت وهي ساهمة :

– هذه هي الحياة . نضحك في النهار خمس مرات ونبكي مثلها .. والآن هل انتهيت يا انياس ؟ هيا الى النوم .

– ولكنني لا اريد .

– اذهب ، اذهب .

– انك قاسية . حسناً ، سأذهب . وشكراً لك على الشاي الذي قدمته والعناية البسيطة ..

وفيما كان يتمدد على سرير الأم ، كان يغمغم وهو يهرش رأسه :

– ان هذا سينشر رائحة القار في منزلك . هه ؟ لِمَ ذلك كله ؟ انا لست نعساناً ..

وغفا فجأة وتعالى شخيره ، وظل حاجباه مشقولين ، وفمه مفتوحاً نصف انفتاحة .

٢١

وفي المساء نفسه كان انياس يجلس وجهاً لوجه امام فيسوشيكوف ، في حجرة صغير ..بنى تحت الارض . ويقول له وهو يخفض من صوته ويقطب حاجبيه :

– اربع مرات على النافذة الوسطى .

ويردد فيسوشيكوف باهتمام :

– اربع مرات ؟

– ثلاث مرات اولاً هكذا .

وينقر الطاولة باصبعه المطوي وهو يعد :

– واحد ، اثنان ، ثلاثة .. وثم نقرة اخرى ايضاً .

– حسناً .

– وسيفتح لك رجل اصهب الوجه ويسألك : هل أتيت من أجل القابلة ؟ فتجيبه : نعم .. من قِبَل المعلم .. وهذا وحده يكفي ، لأنه سيفهم .

وكان احدهما يميل برأسه نحو الآخر ، وكلاهما صلبٌ قوي البنية ؛ ويتحدثان ، وهما يمسكان صوتيهما ، والأم ترنو اليهما وهي واقفة بالقرب من الطاولة مشبكة الذراعين ، وكانت تلك النقرات الغامضة ، والأسئلة والأجوبة المتفق عليها ، تحملها على الابتسام فيما بينها وبين نفسها ، كما تحملها على التفكير :

– انهم ما زالوا أطفالاً .

وكان هناك في الجدار مصباح يشتعل ، ناثراً ضوءه على بقع الرطوبة القاتمة ؛ وعلى صور مقتطفة من المجلات . وفي الارض دلاءٌ منبعجة ، وصفائح متساقطة من السقف ، وجو الحجرة يعبق برائحة الصدأ والعفن والدهان .

وكان انياس يرتدي معطفاً سميكاً من جوخ وبري يبدو انه معجب به كثيراً ، وكانت الأم تراه وهو يداعب كمه بحب ، ويمد عنقه الضخم يجهد ليتفحص مظهره ، فيفعم قلبها حنان حار وتهمس :

– يا اولادي الأعزاء ...

وقال انياس وهو ينهض :

– والآن تذكّر جيداً .. إسأل اولاً عن الجد في منزل آل موراتوف .

وأجاب فيسوشيكوف :

– لن انسى ذلك .

ولكن انياس لم يك ليصدقه على ما يبدو، اذ كرر له مرة اخرى كل الاشارات وكلمات المرور ؛ ثم مد يده اليه أخيراً وهو يقول :

ـ ابلغهم تحياتي ، انهم قوم طيبون ، سترى ...

ونظر الى نفسه نظرة اعجاب ، وتحسس بيده معطفه ، وسأل الأم :

ـ هل اذهب ؟

ـ هل تعرف الطريق ؟

ـ بالتأكيد ... الى اللقاء يا رفاق .

ومضى شامخ المنكبين ، منتفخ الصدر ، تتكىء قبعته الجديدة على احدى اذنيه ، وتغوص يداه في اعماق جيوبه ، وترتعش على صدغه ، بمرح ، خصل وضاءة .

وقال فيسوشيكوف وهويدنو بتؤدة من الأم ..

ـ حسناً .. هوذا انا في العمل ثانية . لقد انتابني الضجر من قبل .. وكنت أتساءل : لماذا هربت من السجن ؟. لا لشيء إلا لأختبيء . لقد تعلمت في السجن بعض الاشياء ، وكان بول يدخل في رؤوسنا ان السجن متعة ... والآن ماذا تقرر بشأن الفرار ؟

وأجابت الأم بزفرة لا شعورية :

ـ لا أدري .

وألقى يده على كتفها ؛ وأدنى وجهه من وجهها وقال :

ـ اشرحي لهم فيستمعون اليك . ان الفرار يسير جداً ، وباستطاعتك انت نفسك ان تتحققي من ذلك . اسمعي : للسجن جدار ، وإلى جانب هذا الجدار مصباح عاكس للنور ، وقبالته ارض موات . والى اليسار تقوم المقبرة ، والى اليمين الشارع ، اي المدينة . يأتي المولج بإيقاد المصباح لتنظيفه في وضح النهار فيسند سلمه الى الجدار ويتسلق ، ثم يثبت في اعلى الجدار خطاطيف سلم من حبال ويدليه الى باحة السجن ، ومن الامام . وفي هذا الوقت يكون الرفاق على علم بأية ساعة من النهار يجري ذلك ، فيوعزون الى السجناء باقتعال حادثة شغب ، أو انهم يقومون بذلك بانفسهم ، وفي اثناء ذلك يتسلق الذين اتفق عليهم السلم ،

وبلحظتين ... وثلاث حركات ينتهي الامر .

ولوّح بيده تحت انف الأم وهو يشرح خطتـــه ، وكان يرى ان كل شيء يجب أن يتم ببساطة ووضوح وبراعة . لقد عرفته من قبل بطيئاً متردداً ، تشع عيناه بالريبة ، وبمزاج غضوب متجهم ، أما الآن فهما على ما يبدو لها ، مختلفان. انهما تشعان بضياء رتيب دافىء ؛ فتسيطران عليها ، وتثيران قلقها .

ـ فكري... سيكون ذلك في النهار. في النهار .فمن من الناس يخطر في باله ان سجيناً يجرؤ على الفرار في وضح النهار ، وعلى مرأى ممن في السجن جميعاً ؟.

وقالت الأم وهي ترتعش :

ـ واذا أطلقوا النار عليهم وهم فوق !؟.

ـ من سيطلق النار؟.ليس هناك جنود .. والنظّار يستخدمون مسدساتهم في دق المسامير .

يكاد يكون ذلك يسيراً كل اليسر .

ـ سترين ان هذه هي الحقيقة . باحثي الآخرين بالخطة ، فلقــد اعددت كل شيء : سلم الحبال والخطاطيف ... ثم ان صاحب البيت الذي استأجره سيقوم بدور موقد المصباح .

وتحرك شخص وراء الباب وسعل ، وسمعت ضوضاء صفائح التنك . وقال فيسوشيكوف :

ـ هو ذا قد اقبل .

وظهر في اطار الباب حوض من صفيح ، ودمدم صوت مبحوح :

ـ ألن تمر بالعين ؟.

ثم بدا رأس مستدير رمادي الشعر أشعثه ، جاحظ العينين ، ولاح شارب في وجه كله دماثة .

وساعده نيقولا فيسوشيكوف على ادخال الحوض ، ودخل الرجل ، فــاذا هو فارع القامة محدودب الظهر ؛ ثم سعل نافخاً اوداجه الحليقة ، وبصق ثم قال بصوته المبحوح :

— مرحبا .
ونظر نيقولا الى الأم :
— هيا اسأليه .
— تسألني انا ؟ عماذا ؟
— بشأن الفرار .
فصاح الرجل وهو يمسح شاربه بأصابعه السوداء :
— آه .. آه...
أرأيت يا جاك ؟. انها لا تصدق ان ذلك سهل !
— هُمْ ... انها لا تصدق ؟. ذلك لأنها لا تريد ، اما نحن فنريده كلانا ومن اجل هذا فاننا نصدق .
قال ذلك بهدوء ، وانحنى فجأة كأنه انقسم الى شطرين ثم اخذ يسعل ، واستمرت نوبة سعاله طويلا ، وكان وهو يقف في منتصف الحجرة يدلك صدره متنشقاً ، ويرنو الى الأم بعينيه المتسعتين .
وقالت الأم :
— لبول ورفاقه أن يقرروا ...
وأطرق نيقولا فيسوشيكوف برأسه مفكراً .
وسأل المؤجر وهو يجلس :
— ومن هو بول ؟
— انه ابني .
— من أي عائلة ؟
— من عائلة فلاسوف .
فهز رأسه وأخرج كيس تبغه وغليونه ، فحشا الغليون وهو يقول بصوت متقطع :
— لقد سمعت هذا الاسم من قبل . ان ابن اخي ايفشنكو يعرفه .. فهو ايضاً في السجن ... فهل تعرفين ابن أخي ؟. اما أنا فادعى «غوبون» ان الشبان جميعاً سيكونون في السجن عما قريب ، وستطيب الحياة عندئذ لنا نحن

الشيوخ . لقد وعدني الدركي بارسال ابن اخي نفسه الى سيبيريا ، وسيبر الوغد بوعده .
وأخذ يدخن ، ويبصق بين الفينة والفينة على الارض ، ثم ما لبث ان استأنف موجهاً الحديث الى فيسوشيكوف :
— انها لا تريد ؟ . هذا شأنها ، وهي حرة . وانت اذا كنت قد تعبت من الجلوس فامش ، ألا تريد أن تمشي ؟ ابق اذن جالساً .. أيسرقونك ؟ إخرس . أيضربونك ؟ أستسلم . أيقتلونك ؟ أمكث هناك . اني اعرف ذلك ولكنني سأنتشل ابن أخي من هناك .. أجل سأنتشله .
وكانت عباراته القصيرة المتقطعة كالعواء ترمي الأم في احضان القلق ، الا ان كلماته الأخيرة أثارت فيها كوامن الحسد .
وفيما كانت تسير في الزقاق باتجاه معاكس لاتجاه المطر الذي حملته ريح باردة ، كانت تفكر بفيسوشيكوف :
— أترين كيف غدا ؟.
وتذكرت غوبون ، فقالت في نفسها كأنها تصلي :
— في الظاهر لست انا الوحيدة التي تحيا من جديد .
وشمخت في قلبها صورة ابنها فأكملت :
— ليته فقط يوافق على الخطة .

— ٢٢ —

ونهار الاحد ، فيما كانت تستأذن بول بالانصراف وهي في قاعة الاستقبال في السجن ، شعرت به يدس في كفها كرة صغيرة من الورق ؛ فارتعشت كأن تلك الكرة قد أحرقت كفها ، ورمقت ابنها بنظرة متسائلة متوسلة ، ولكن نظرتها هذه لم تلقَ جواباً ، وكانت البسمة الحازمة المطمئنة التي تعرفها جيداً ، لطيف كالعادة في عينيه الزرقاوين .
وقالت وهي تتأوه :

— وداعاً ..

فمد اليها يده ثانية ، في حين كانت موجة من الحنان تعبر وجهه مرتعشة :

— وداعاً اماه .

وانتظرت قليلاً وهي تحضن بيدها يده ؛ فاذا به يقول :

— لا تقلقي، ولا تغضبي

وكان في هذه الكلمات ، وفي التغضن العصبي في جبهته، الجواب الذي تنتظر؛ فغمغمت وهي تطأطىء رأسها :

— لِمَ تقول هذا ؟. ماذا تقصد ؟ ...

وخرجت مسرعة دون ان تنظر اليه ، لكيلا تفضح انفعالها دموع عينيها وارتعاش شفتيها . وفي الطريق ، كان يخيل اليها ان مفاصل يدها التي تنطوي على جواب ابنها تؤلمها ، وان ذراعها كله ثقيل كأن لطمة قوية نزلت على كتفها .

وألقت القصاصة الى نيقولا بسرعة وهي تدخل المنزل ؛ ونبض في اعماقها أمل جديد وهي تراه يفضها ، غير ان نيقولا قال :

— هذا طبيعي اسمعي ماذا كتب : «لن نهوب أيها الرفاق فنحن لا نستطيع ذلك ، ولا يستطيعه احد منا ، لاننا ان نفعل نفقد احترامنا في عين انفسنا . اهتموا بالفلاح الذي اوقف مؤخراً فهو يستحق عنايتكم ، وهو جدير بجهودكم انه يتعذب هنا كثيراً ، ويشتبك كل يوم في اكثر من شجار مع الادارة . لقد سجنوه اربعاً وعشرين ساعة في الزنزانة . انهم يعذبونه ، ولقد توسلناهم جميعاً من أجله . وآسوا امي وكونوا عطوفين عليها . واشرحوا لها فتفهم كل شيء . »

ورفعت رأسها وقالت بصوت راعش :

— ماذا يشرحون لي ؟ لقد فهمت .

واستدار نيقولا وسحب منديله ثم مخط بصوت مرتفع ودمدم :

— يجب ان اكون قد اصبت بالرشح .

وأمرّ يده على عينيه ، ليعيد نظارتيه الى مكانهما ، وليستأنف وهو ينقّل الخطى في الحجرة :

— ارأيت ؟ اننا لن ننجح بأية وسيلة ..

وقالت الأم منبسطة الأسارير ، في حين كان الغم القاتم يفعم صدرها :

— لا بأس دعوه يحاكم .

— لقد تلقيت رسالة من صديق لي في بطرسبورغ ..

— انه يستطيع ان يهرب من سيبيريا ايضاً .. أليس كذلك ؟ أهذا ممكن ؟

— طبعاً لقد كتب الي الرفيق يقول : «ستبدأ المحاكمة عما قريب ، والقرار معروف وهو النفي للجميع.» أرأيت؟ القرار يعرف في بطرسبورغ قبل المحاكمة.

وقالت الأم باستسلام :

— دع هذا يا نيقولا ، فعبثاً تحاول أن تسرّي عني وأن تشرح لي . ان بول لا يسيء التصرف ابداً . انه لا يعذب نفسه ولا يعذب الآخرين عبثاً . ثم انه يحبني . أجل انه يفكر بي كما ترى ، فيقول: اشرحوا لها وواسوها . أليس كذلك؟

وكان فؤادها يخفق بشدة ، والانفعال يجعلها تشعر بدوار ، وصاح نيقولا بقوة لم تتعودها منه :

— ابنك رجل مدهش ، وأنا أكنّ له كثيراً من الاحترام .

واقترحت : يجب أن نفكر بما سنفعله من اجل ريبين .

وكانت تود أن تباشر العمل فوراً ؛ أن تذهب الى ناحية ما ، ان تمشي حتى تتعب ولكن نيقولا رد عليها وهو يذرع الغرفة بخطاه :

— أجل .. يجب على ساندرين ان ..

— لن تلبث أن تحضر ، انها تأتي دائماً في الايام التي اقابل بول فيها .

وجلس نيقولا الى جانب الأم ، على الأريكة، مفكراً مطرقاً ، يقضم شفتيه ويداعب لحيته :

— الشيء الذي يؤسف ان شقيقتي ليست هنا .

— حبذا لو استطعنا ان نهيىء ذلك في الحال ، وفي الوقت الذي يكون فيه بول ما يزال هناك ؛ فإنه سيكون سعيداً .

وصمتا فترة ، ثم قالت الأم فجأة وبصوت منخفض بطيء :

ـ أنا لا افهم لماذا يرفض ؟
ونهض نيقولا على الفور، ولكن الجرس رنّ، فتبادلا النظرات وهمس نيقولا :
ـ هُمْ ، إنها ساندرين ..
وقالت الأم بصوت خفيض ايضاً :
ـ كيف نقول لها ؟
ـ أجل .. إنه لأمر صعب .
ـ اني لأرثي لها .
ورن الجرس ثانية أقل عنفاً من ذي قبل ، كما لو كان الطارق الذي يقف عند العتبة ، يتردد هو ايضاً . ومضت الأم ونيقولا معاً لاستقبال هذا الطارق، ولكن نيقولا تراجع الى الوراء عندما اقترب من الباب :
ـ من الأفضل ان تستقبليها أنتِ .
وسألت الفتاة بحزم عندما فتحت لها الأم :
ـ ألم يقبل ؟
ـ كلا .
وقالت ساندرين ببساطة :
ـ لقد كنت اعرف ذلك .
وشحب وجهها وراحت تفك ازرار معطفها ، ثم تعيد اثنين منها الى ما كانا عليه ، ثم تحاول ان تخلعه فلا توفق ، وأخيراً قالت :
ـ طقس مزعج . مطرٌ وريح ... وهو .. هل صحته جيدة ؟
ـ نعم .
وأردفت ساندرين بصوت خفيض وهي تتفحص يدها :
ـ مسرورٌ ويتمتع بصحة طيبة .
فردت الأم دون ان تنظر اليها :
ـ لقد كتب طالباً تدبير وسيلة لتسهيل فرار ريبين
وغمغمت الفتاة ببطء :

ـ نعم ؟ يبدو لي ان علينا أن نلجأ الى تلك الخطة ..
وقال نيقولا وقد ظهر في الباب :
ـ هذا هو رأيي ايضاً .. صباح الخير يا ساندرين.
ومدت له الفتاة يدها :
ـ ما هي العقبة التي تعترض تنفيذها ؟ ان الجميع يعترفون بأن هذه الخطة يجب أن تنجح .
ـ ومن سينفذها ؟ فالكل مشغولون .
وقالت الفتاة وهي تنهض بسرعة :
ـ دعوني أقوم بها .. فلديّ الوقت الكافي ..
ـ ليكن .. ولكن يجب ان تطلبي الى الآخرين ..
ـ حسناً . سأفعل ، وسأذهب اليهم فوراً .
وأخذت تبكل ازرار معطفها بحركات واثقة .
واقترحت الأم :
ـ يجب ان ترتاحي قليلا .
فابتسمت ابتسامة خفيفة واجابت وهي تخفف من صوتها :
ـ لا ترعجي نفسك ، لست متعبة .
وشدت يديها بصمت ، وانطلقت مقرورة قاسية الملامح .
واقتربت الأم ونيقولا من النافذة ، وتتبعاها ببصريهما وهي تجتاز الساحة وتتوارى وراء الحاجز ، وأخذ نيقولا يصفر ، ثم جلس الى الطاولة ، وبدأ يكتب ، أما الأم فقد همست بسهوم :
ـ سيشغلها هذا العمل .. وستجد فيه ما يعزيها .
وأجاب نيقولا :
ـ نعم هذا اكيد .
ثم استدار نحوها والبسمة تطيف في وجهه الطيب :
ـ هل فاتك ان تتجرعي هذا الكأس ؟ أما تأوهت ابداً في اعقاب الرجل

الحبيب ؟

فصاحت وهي تشير بيدها:

– يا لها من فكرة . أنا أتأوه ؟ ان الشيء الوحيد الذي كنت أخشاه هوأن ارغم على الزواج من هذا او ذاك .

– ألم يكن هناك من يحظى باعجابك ؟

ففكرت قليلا ثم أجابت :

– لا اذكر يا صديقي العزيز . مما لا شك فيه ان كان هناك واحد .. ولكنني لا اذكر ابداً ..

ورنت اليه ثم اكملت كلامها ببساطة وبحزن هادىء :

– لقد كان زوجي يضربني كثيراً ، وكل ما كان قبله قد امحّى تماماً من ذاكرتي .

وانكب من جديد على قرطاسه ، وخرجت هي لحظة ثم عادت ، فرنا اليها بحنان ، واستأنف الكلام هامساً ، وراح يداعب ذكرياته بمحبة :

– اسمعي .. لقد كان لي انا ايضاً كساندرين قصة حب . لقد كنت احب فتاة بل مخلوقة مدهشة رائعة ، وها قد مضى على لقائنا الاول عشرون عاماً ، واعترف اني ما زلت حتى الآن احبها ؛ واحبها دائماً ومن كل ذاتي ؛ احبها بعرفان وإلى الأبد .

وكانت الأم ترى عينيه ، وهي بجانبه ، تشتعلان بلهب حار وضاء ، وكان يسند رأسه الى يديه المستقرتين على متكأ الكرسي، ويرنو الى ناحية ما في البعيد. وكان جسده كله ، جسده الهزيل الرشيق ، القوي في الوقت نفسه ، يبدو كأنه يميل الى الامام ، كما يميل جذع النبتة نحو ضياء الشمس .

ونصحته الأم :

اذا كان الأمر كذلك فتزوج .

– لقد مر على زواجها خمس سنوات ..

– ولِمَ لم تتزوجها من قبل ؟

ففكر لحظة ثم اردف

– أرأيت ، لم يكن ليحالفنا الحظ . فعندما كنت في السجن كانت هي طليقة وعندما كنت انا طليقاً كانت هي في السجن او المنفي . تماماً كوضع ساندين . واخيراً ارسلوها الى سيبيريا لمدة عشر سنوات،وانه لنأي رهيب ، وقد احببت ان ألحق بها الى هناك ، ولكننا خجلنا انا وهي . وهناك التقت برجل آخر ، بصديق لي ، وهو فتى طيب جداً .. فلم يلبثا ان هربا معاً ، وهما الآن يعيشان في الخارج .. نعم ..

وتوقف ، ونزع نظارتيه فمسحهما ثم نظر الى زجاجهما في الضوء وعاد يفركهما .

واندفعت الام تقول وهي تهز رأسها متأثرة :

– آه .. يا صديقي المسكين .

لقد كانت تشفق عليه .. ولكن شيئاً ما فيه كان يطرح ، على شفتيه ، في الوقت نفسه ، بسمة حارة .. بسمه امومة . وغيّر من وضعه ، واخذ القلم بيده ثانية ، ثم تابع وهو يلوّح به على وقع كلماته :

– ان الحياة العائلية تضائل فعالية الرجل الثوري : تضائلها باستمرار : الاطفال ، وفقدان الموارد ، وضرورة العمل الدائب لكسب العيش ، في حين انه لا بد للثوري من ان ينمّي فعاليته بلا انقطاع ، وفي كل اتجاه . وهذايتطلب وقتاً . ومن واجبنا ان نكون دائماً في الطليعة ، لأننا نحن الكادحين الذين اختارتهم قوة التاريخ لتهديم العالم الهرم ، وبناء الحياة الجديدة ، فاذا ما ظللنا في المؤخرة ، واذا ما استسلمنا للنصَب ، او لإغراء مغنم صغير قريب ، كانذلك وبالاً ، بل كاد ان يكون خيانة . ليس هناك من نستطيع ان نسير معه ، بنفس الخطى ، دون ان يفسد علينا ايماننا ، ومن واجبنا الا ننسى ابداً ان مهمتنا ليست في تحقيق مغانم صغيرة ، ولكنها فقط في تحقيق نصر كامل .

وتجلّى الحزم في نبرته ، وشحب لونه ، وتألقت في عينيه قوة الشكيمة التي عرف بها .

ورنّ الجرس من جديد ، عنيفاً هذه المرة ، فقطع عليه كلامــه ؛ ودخلت لوميلا مضرجة الوجنتين من البرد ، ترتدي معطفاً خفيفاً لا يصلح للشتاء ، وقالت بصوت حانق ، وهي تخلع حذاءها الممزق :

— لقد حُدد موعد المحاكمة . انه سيكون خلال ثمانية ايام .

وصرخ نيقولا من داخل الحجرة :

— صحيح ؟

واندفعت الأم نحوها ، دون ان تدري ما اذا كان الفرح او الخــوف هو الذي يقلقها ؛ وتبعتها لوميلا وهي تكمل بصوت خفيض تمازجه السخرية :

— اجل ... وفي المحكمة يقولون بصراحة ان القرار مهيأ سلفاً . ولكن ماذا يعني ذلك ؟ هل تخشى الحكومة ان يعامل موظفوها اعداءها بلين ونعومة ؟ لا يبدو أن عملاءها أنذال ؛ رغم انها قد افسدتهم ، وربتهم على الفساد خلال زمن طويل ، وبذلت في سبيل ذلك كثيراً من الجهد والمران .

وجلست على المقعد وهي تفرك وجنتيها الهزيلتين ، ويشع الازدراء مــن عينيها المتجهمتين ، ويهدر صوتها بنقمة متنامية .

وقال لها نيقولا محاولاً ان يهدىء من ثورتها :

— إنهم لن يسمعوك .. فلا تضيعي جهدك عبثاً .

وكانت الام تصغي الى الفتاة بكل انتباهها ، ولكنها كانت تردد وراءهــا دون وعي ، وبصورة آلية ، نفس الكلمات :

— المحاكمة .. خلال ثمانية ايام .. المحاكمة . .

واحست فجأة بدنو حدث جديد القسوة ، وحشي الضراوة .

— ٢٣ —

وعاشت الأم نهارين طويلين ، في هــذا الضباب من القلق والوهن ، وتحت وطأة غم الانتظار الثقيل . وفي اليوم الثالث اقبلت ساندرين لتقول لنيقولا :

— كل شيء معدّ ، للساعة الواحدة اليوم . !

واجاب هذا بدهشة :

— أعد كل شيء ؟

— ولِمَ لا ؟ لم يكن عليّ إلا ان اجد ملجأ لريبين وثياباً ... اما الباقي فقد تكفل به غوبون . وليس على ريبين إلا ان يسير بضع مئات من الامتار فحسب ، وسيسير فيسوشيكوف امامه ، متنكراً بالطبع ، فيسلمه معطفــاً وقبعة ... ويدله على الطريق ... اما انا فسأنتظر اوبته ، فابدل ملابسي ثم اقوده ...

وقال نيقولا :

— لا بأس .. ولكن من هو غوبون هذا ؟

— إنك تعرفه . . فلقد كنت تقوم في منزله بالمحادثات مع صانعي الاقفال .

— آه . . اجل لقد تذكرت . إنه رجل عجوز .. طريف نوعاً ما . .

واجابت ساندرين وهي تنظر عبر النافذة :

— إنه جندي قديم ، ومهنته اليوم سقف السطوح ... وهو واسع الافق بعض الشيء ، ويكره كل عنف ، كرهاً لا ينفد .. إنه فيلسوف نوعاً ما ..

وكانت الام تصغي اليها بصمت ، وفي رأسها خاطرٌ غامض ينضج ببطء :

— يود غوبون ان يدبر فرار ابن اخيــه ايشانكو . ذلك الفتى الذي اثار اعجابك باناقته ونظافته المتصنعة بعض الشيء .. هل تتذكر ؟

وهز نيقولا رأسه بالايجاب .

وتابعت ساندرين :

— لقد اعدّ كل شيء بدقة ، ولكنني بدأت اشك في نجاح العملية ، فالسجناء يخرجون الى باحة السجن للنزهة في نفس الساعة ... وسيود الكثير منهم ان يفروا عندما يرون السلم .

وصمتت هنيهة ، مغمضة العينين ، فدنت منها الام :

— وبالطبع ، سيزاحم بعضهم بعضاً .

وكانوا ثلاثتهم امام النافذة ، وكانت الام تقف وراء نيقولا وساندرين ، وكان حديثهم الخاطف يثير فيها إحساساً شديد الغموض .

وقالت فجأة :
ـ سأذهب .
وسألتها ساندرين :
ـ ولماذا ؟
ونصحها نيقولا :
ـ لا تذهبي الى هناك يا صديقتي ؛ فقد يصيبك حادث ما . يجب ألا تذهبي.
فرنت اليها ، ورددت بصوت اكثر خفوتاً ... ولكنه يزخر بالاصرار :
ـ بلى . سأذهب .
وتبادلوا النظرات ، وهزت ساندرين كتفيها :
ـ هذا مفهوم ...
ثم استدارت نحو الام ، واحتضنتها بذراعها ، وقالت لها ببساطة وتصميم :
ـ ومع ذلك فإني احذرك .. عبثاً تأملين ..
وصاحت الام وهي تجذبها الى صدرها بيدٍ مضطربة :
ـ خذيني معك يا عزيزتي . فلن أضايقك . يجب ان ارى. فانا لا اصدق ان الفرار ممكن .
وقالت الفتاة لنيقولا :
ـ دعها تأتي معنا .
ورد نيقولا ، مطأطئاً رأسه :
ـ ذلك شأنكِ انتِ .
ـ ولكننا لن نستطيع البقاء معاً . ستسلكين انت طريق الحقول نحو الجنائن، فان سور السجن يُرى من هناك .. ولكن .. ماذا ستقولين إذا ما سئلت عما تفعلين في ذلك المكان ؟
واجابت الام بيقين وهي شديدة البهجة :
ـ لن أعدم جواباً .
وقالت ساندرين :

ـ لا تنسي ان حراس السجن يعرفونك ؛ وإذا ما رأوك هنـاك فأنهم ...
ـ لن يروني .
وفجأة اضطرم الرجاء الذي كان يستكنّ فيهـا طوال الوقت ، دون ان ترتاب فيه ، فملأها بالحيوية ، وفكرت وهي ترتدي ملابسها على عجل :
«ربما هو ايضاً ..»
وبعد ساعة كانت في الحقول وراء السجن؛ وكانت الريح تهب عاتية فتعصف بثيابها ، وتسفع الأرض التي يغطيها الجليد، وتتعتع السياج المزق، سياج الحديقة التي كانت تمر بقربها ، وتلطم بعنف جدار السجن القليل الارتفاع ، ثم تنطرح في باحته فتكنس الاصوات المتصاعدة منها ، وتبعثرها ، وترقى بها نحو العلاء . وكانت الغيوم تفر مسرعة ، تاركة وراءها فجوات صغيرة من زرقة السماء .
ووراء الأم كانت تنبسط الحدائق وأمامها المقبرة، وعلى يمينها يقوم السجن؛ على بعد نحوٍ من عشرين متراً . وكان هناك بالقرب من المقبرة جندي يجرجواداً من عنانه ، وآخر إلى جانبه ينفض سرجه ، ويصرخ ويصفر ويضحك، ولكن بالقرب من السجن احد غيرهما .
وتجاوزتها ببطء وهي تتجـه نحو سور المقبرة ، وتلقي نظرات مختلسة الى اليمين والى الوراء ، وأحست فجأة بساقيها يصطكان ، ويثقلان كأن الجليد قد سمّرها في الأرض ؛ وظهر عند زاوية السجن رجلٌ محدودب الظهر ، يحمل سلماً على كتفه ، ويسير بخطىً سريعة كما يفعل موقد المصابيح .
وألقت ، وعيناها ترفان من الرعب،ألقت نظرة خاطفة على الجنديين اللذين كانا يضربان الأرض بأقدامهما في حين كان الجواد يخبّ حولهما .ثم أبصرت الرجل حامل السلم ، يسند سلمه الى الجدار ثم يتسلقه بتؤدة، ويومىء بيده نحو الساحة، ثم ينحدر بسرعة ، ويختفي في منعطف السجن . وكان قلب الأم يخفق بشدة ، والثواني تمر ببطء ، والسلم لا يكاد يُرى على الجدار القائم ، الملطخ بالوحـــل ، وبالبقع التي انقشر عنها الجير ، فانكشف تحتها القرميد .. وفجأة ظهر فوق الجدار رأس اسود ، ثم تأرجح من الناحية الاخرى جسم وانزلق إلى أسفل ،

وبعد قليل ظهر رأس آخر يعتمر قبعة من وبر ، وقفزت كتلة سوداء إلى الأرض، واختفت بسرعة وراء منعطف الجدار . وانتصب ريبين ، وتطلع فيما حوله، وهز رأسه . وكانت الأم تغمغم وهي تركل الأرض بقدمها :

— هيا . انج بنفسك . انج بنفسك .

وملأ الطنين اذنيها ، وتناهت الى سمعها بعض صرخات ، وظهر فوق الجدار رأس ثالث ، وكانت هي تراقبه جامدة ، ويداها تتشنجان فوق صدرها، ووثب الرأس الاشقر الحليق الذقن ، في الفضاء ، كأنه يود أن ينفصل عن جسده ، ثم اختفى فجأة وراء الجدار .

وكانت الصيحات قد ازدادت ارتفاعاً وعتواً ؛ وكانت الريح تحملها في الفضاء ، وتحمل معها رجع الصفير الحاد . وسار ريبين بمحاذاة الجدار ، ثم تخطاه، وعبر فسحة حرة بين السجن وبيوت المدينة ؛ وكان يبدو للأم انه يمشي ببطء شديد ، وانه يشمخ برأسه عالياً وبلا جدوى لدرجة لا يمكن أن ينسى معها من يلتقيه ، وجهه ، فتغمغم :

— اسرع ، اسرع .

وطرطق بجفاف شيء ما في باحة السجن ، وسمع صوت ناحل كصوت كأس محطم ، وشد الجندي الجواد اليه ، وهو يثبت قدميه في الارض ، أما الآخر فقد صرخ ، بعد ما جعل من قبضته شيئاً كالبوق ، صرخ ببعض الكلمات باتجاه السجن ، ثم مال برأسه وراح يصغي .

وكانت الأم تتلفت الى كل جهة ، متشنجة الأعصاب ، فلا تصدق عينيها ان ما كانت تتخيله رهيباً معقداً ، تم بكل بساطة وسرعة ، وقد أذهلتها هذه السرعة وأفقدتها صفاءها .

ولم يعد ريبين يُرى في الشارع ، بل كانت العين تقع على رجل مديد القامة ، يمشي متدثراً بمعطفه الطويل ، وعلى صبية صغيرة تركض . وبرز حراس ثلاثة عند زاوية السجن ، وكانوا يسيرون متراصين ، وأيديهم اليمنى ممدودة الى الأمام . واندفع احد الجنديين للقائهم ، أما الآخر فقد ظل يدور حول الجواد ، ويبذل

جهده لامتطاء صهوة هذا الحيوان الذي كان يراوغ ويثب ، ويلوب حول نفسه . وكانت اصوات الصفارات تمزق الفضاء بلا انقطاع ثم تختنق ، وكانت نداءاتها القلقة التائهة توقظ في بيلاجي حس الخطر ، فتستبد بها رعشة ، وتسير بمحاذاة سور المقبرة ، وهي تتتبع الحراس بعينيها ، ولكن هؤلاء يلفون مع الجنود ، الزاوية الاخرى من السجن ، ثم يختفون ، ويجري في اثرهم نائب المدير الذي تعرفه جيداً ، ببذلته الرسمية المفككة الأزرار .

وكانت الريح تزوبع وتعصف كأنها فرحة ، وتحمل الى اذنيّ الأم اشلاء الصراخ المختلط ، ودوي الصفارات ، فيبهجها هذا الذعر ، وتغذّ من سيرها وهي تفكر :

— « إذن ... يمكن ان يكون هو ايضاً قد استطاع ... »

وفجأة التقت عند زاوية سور المقبرة إثنين من رجال البوليس فصاح بها احدهما وهو يلهث :

— قفي . ألم تري رجلاً ذا لحية ...؟

فأشارت بيدها الى الحدائق ، واجابت برباطة جأش :

— لقد هرب في هذا الاتجاه ... فماذا حدث ؟

— انفخ صفارتك يا ايغوروف .

وعادت الى المنزل يملأها اسفٌ مظلم ، ويفعم قلبها الغضب والمرارة ؛ وعندما بلغت المدينة قطعت الطريق عليها عربة ، فرفعت رأسها ، فاذا بها تبصر في داخلها شاباً اشقر الشاربين ، شاحب الوجه ، منهكاً ، ووقع بصره هو ايضاً عليها ، وكان يجلس جلسة جانبية بحيث بدا لها كتفه الايمن اعلى من الايسر ، وتلقاها نيقولا بفرح :

— والآن ... كيف جرت الأمور ؟

— اعتقد ان الخطة قد نجحت ...

واخذت تقص عليه عملية الفرار ، جاهدة في ان تتذكر التفاصيل كلها ؛ وكانت تتكلم كأنها تقص عليه قصة سمعتها من شخص آخر ، ولا تصدقها هي .

نيقولا وهو يفرك يديه :

– لقد حالفنا الحظ ، ولكن الله يعلم كم ساورني من خـــوف عليك . اصغي اليّ يا نيلوفنا ، فسأقدم اليك نصيحة صديق . « لا تخيفنك المحـــاكمة ابداً ، وصدقيني انه كلما اقترب موعدها ، اقترب اليوم الذي يطلق فيه سراح بول . ومن يدري ... فقد يهرب وهو في الطريق الى سيبيريا ؟ ... امـــا فيما يتعلق بالمحاكمة فستكون هكذا على التقريب ...

وراح يصف لها الجلسة ، وكانت هي تصغي ، وتدرك ان المخاوف تساوره ولكنه كان يود ان يمدها بالشجاعة .

وفاجأته بهذا السؤال :

– ربما كنت تعتقد اني سأقول شيئاً للقضاة ، واني سأتقدم اليهم بعريضة ؟

– ماذا تقولين ؟

– انا خائفة ، هذا صحيح ، ولكن مِمَّ اخاف ؟ لا ادري !

وصمتت ، وظلت نظراتها تائهة في الحجرة .

– يخيل اليّ احياناً انهم سيهينون بول ويسخرون منه... وانهم سيقولون له: « فلاح ... ابن فلاح ، فماذا حسبت نفسك ؟ » ... وبول عتيّ الكبرياء ، لذلك سيوقفهم عند حدهم أو يهزأ بهم اندريه ... واقول في نفسي : إن صبرهم سينفد بسرعة ، فهم جميعاً شديدو الفوران ، وسيصدرون عليها احكاماً قـد لا نراها بعدها ابداً .

وتابعت بصوت خفيض ، في حين كان نيقولا يحتفظ بصمته المتجهم ، ويمسد لحيته المدببة :

– انا لا استطيع ان انتزع هذه الافكار من رأسي . إن الأمر لرهيب عندما يجلسون للتدقيق والتمحيص؛ فليس العقاب هو الرهيب ، بل المحاكمة. ما ارهب المحاكمة ... لا ادري ماذا اقول ...

وسيطر عليها إحساس لم يك نيقولا يدرك كنهه ، واربكها هذا الاحساس وزاد من عجزها في التعبير عن هلعها .

– ٢٤ –

وكان هذا الهلع ، كالعفن ، تسد عليها رطوبته مجاري النفس ، ولا يفتـــأ يتنامى في داخلها ، وعندما حان يوم المحاكمة حملت معها الى المحكمة حملاً ثقيلاً قاتماً ، كان يقوس ظهرها ويحني رأسها .

وفي الشارع التقت بجيران من الضاحية تعرفهم ، فانحنت لهم بصمت رداً على تحياتهم ، وشقت طريقها بين الحشد الذي يرين عليه الغم ، وفي الاروقة ، وداخل القاعة اصطدمت بأقارب المتهمين ، وكانوا يتحدثون بأصوات خفيضة ، ويخيل اليها ان حديثهم الذي يترامى الى سمعها ، تافه لا جدوى فيه ، بل انها كانت لا تفهمه . وكان يستحوذ على الناس جميعاً إحساس واحد من الكآبة ، كآبة تنتقل عدواها منهم الى الأم ، فتضاعف من كمدها وغمها .

وقال لها سيزوف وهو يفسح لها مكاناً إلى جانبه على المقعد :

– اجلسي هنا .

فأطاعت وسوّت ثنايا ثوبها ، ثم رنت الى مـــا حولها ، وكان خليط من الخطوط الخضراء والقرمزية يتراقص امام عينيها ، وخيوط صفراء دقيقة تلمع في هاتين العينين .

وهمست امرأة كانت تجلس بجانبها :

– ان ابنك هو الذي جر ولدنا غريغوار الى الهلاك .

وأجاب سيزوف بلهجة مغمومة :

– اخرسي يا ناتالي .

ونظرت الأم الى المرأة فاذا هي والدة ساموالوف ، وكان والده على بعـــد قليل منها ، وهو رجل اصلع ، حلو التقاطيع ، ذو لحية صهباء ، متشعبة كالمروحة ، وعينين غائرتين في وجهه النافر العظم ، وكان يحدق أمامه ، ولحيته ترتعش .

ومن النوافذ العالية للقاعة ، كان ينهمر ضياء رتيب كدر ، وتنزلق نتف الثلج على الزجاج ؛ وبين النوافذ كانت لوحة كبيرة معلقة ، تمثل القيصر ، ويحيط بها إطار مذهب شديد الالق ، تندس حواشيه تحت طيات ستائر ثقيلة ليلكية ،

تتدلى من النوافذ ؛ وامام اللوحة كانت تقوم طاولة منطاة بقماش من الجـوخ الأخضر ، تكاد تستغرق عرض القاعة كله ؛ والى اليمين ، ووراء حاجز مشبك مقعدان من الخشب ، وصفان من الأرائك القرمزية اللون . وكان عدد من الحجاب ذوي الياقات الخضراء والازرار المذهبة على الصدر، والبطن ، يروحون ويجيئون دونما ضجيج .

وفي هذا الجواب المضطرب كانت تهيم بخفر ، دمدمة من الاصوات المكبوتة، وتفح رائحة غامضة كرائحة صيدلية .

هذه الألوان كلها ، وهذه الانعكاسات كلها ، وهذه الأصوات والروائح ، كانت جميعها تثقل على الأعين ، وتملأ القلب الخاوي بخوف مستكين يمازجه الاضطراب والوهن .

وفجأة أطلق أحدهم بضع كلمات بصوت مرتفع ، فارتعشت الأم ، ووقف الحضور جميعاً ، ووقفت هي ايضاً، ولكنها عندما فعلت تعلقت بذراع سيزوف.

وانفتح الى الزاوية الشمالية باب مرتفع ، وخرج منـه عجوز ضئيل ، ذو نظارتين ، يترنح في مشيته، وترتجف في وجهه الصغير الرمادي لحية بيضاء هزيلة، وتغور شفته العليا الحليق في فمه ، وكانت وجنتاه الناتئتان وذقنه تستند الى ياقة بذلته العالية ، فيبدو كأنما لا عنق له .

وكان يسنده من الوراء شاب ضخم ، ذو وجه خزفي احمر مستدير . ثم تقدم نحو المنصة ثلاثة رجال آخرين يرتدون زياً رسمياً ، موشىً بالذهب ، وتبعهم بعد ذلك ثلاثة من المدنيين .

وتشاغلوا طويلاً وراء المنصة ، ثم استقروا في أرائكهم ، وراح أحدهم، بعد ان جلسوا ـ وهو امرد الوجه ـ يتحدث الى العجوز الضئيل وهو يحرك بتثاقل وصمت شفتيه المنتفختين . وكان العجوز يصغي جامداً مشدود العضلات بشكل غريب ، وكانت الأم ترى وراء زجاج نظارتيه بقعتين صغيرتين لا لون لهما .

وفي أقصى المنصة ، كان يقف أمام مكتب صغير ، رجـل ضخم ، اصلع الرأس ، يقلب اوراقه ويسعل .

واهتز العجوز الى الامام ثم بدأ يتكلم ، ولفظ الكلمة الاولى بوضوح ولكن كلماته الاخرى كانت كأنها تتبخر على شفتيه الرقيقتين الرماديتين .

ــ انني أعلن ...أدخلوا ...

ووشوش سيزوف وهو يدفع الأم برفق ، وينهض :

ــ انظري .

ووراء الحاجز شُرع باب، ظهر منه جندي يتنكب سيفه المسلول، ويتبعه بول واندريه وثيومازين والاخوان غوسيف ، وبوكين ، وساموالوف ، وسوموف ، وخمسة شبان آخرين لم تكن الأم تعرف اسماءهم . وكان بول يبتسم بود ، كما كان اندريه يبتسم ابتسامة تكشف عن اسنانه ، ويومىء برأسه ، وكانت ابتساماتها وملامحهما وحركاتهما النشيطـة تضفي على الصمت المتوتر المصطنع ، كثيراً من البساطة والوضوح . وبهت الألق الشديـد ، ألق الذهب الذي يوشي الملابس الرسمية ، ومس قلب الام تيار من الثقة والبسالة ، ونفحة من القوة والحيـاة ؛ فأخرجها ذلك من تخدّرها .

وسرت خلفها ، على المقاعد ، حيث كان الحشد ما يزال ينتظر مرهقاً، سرت غمغمة هي الرد على تحايا المتهمين .

وسمعت سيزوف يهمس :

ــ انهم غير هيابين !

في حين كانت والدة ساموالوف الى يمينه تجهش بالبكاء .

وصاح صوت فيه قسوة :

ــ الصمت .

وقال العجوز الضئيل :

ــ إني اخطركم ...

وكان بول واندريه يجلسان جنباً الى جنب ، ولمس معهم على المقعد الامامي مازين وسـاموالوف والاخوان غوسيف . وكان بول قد حلق لحيته واطلق العنان لشاربيه فتهدلت أطرافها ، وبات رأسه المستدير شبيهاً برأس القط، وكان

لقسماته تعبيرٌ جديد ، ففي ثنيات فمه معنىً حادٌّ لاذع ، وفي عينيـه تجهم...
وكان يظلل شفة مازين العليا خطٌّ غامق اللون ، أما وجهه فكان ممتلئاً ، وكان شعر ساموالوف مضفوراً اكثر من ذي قبل . أمـا جان غوسيف فكان يحتفظ دائماً بنفس البسمة العريضة ، كعادته .

وكان سيزوف يغمغم وهو مطأطأ الرأس .

ـ آه ... ثيو ... ثيو ...

وكانت الأم تصغي الى الاسئلة الغامضة التي كان الرجل العجوز يطرحها على المتهمين دون ان ينظر اليهم ، وتصغي الى اجوبة ابنها الهادئة الموجزة ، ويخيّل اليها ان رئيس المحكمة ورفاقه جميعاً لا يمكن ان يكونوا اشراراً قساة . لقد كانت تتفرس بانتباه في وجوه القضاة ، محاولة ان تستشف فيهـا شيئاً وكانت تحس ان أملاً جديداً يتنامى في قلبها .

وكان الرجل ذو الوجه الخزفي يقرأ بتؤدة وبلهجة لا مبالية ، وكان صوتـه الذي لا طابع له يملأ القاعة بضجر يخدّر الجمع الجاثم على المقاعد بلا حراك ؛ وكان اربعة من المحامين يتحدثون مع المتهمين بصوت خفيض ، ولكنه حار ، وتند عنهم حركات عريضة سريعة تذكّرها بالطيور السوداء الكبيرة .

وكان الى جانب العجوز قاض ضخم بدين تغرق عيناه الصغيرتان في الشحم ، ويفيض جسمه من المقعد ؛ والى الجـانب الآخر كان يجلس رجل مقوس الظهر ، ذو شاربين أصهبين يشطران وجهه الشاحب ، وكان ، وقد بدا عليه الإنهاك ، يسند رأسه الى ظهر مقعده ، ويفكر واجفانه مطبقة نصف إطباقة .

وكان النائب العام يبدو ايضاً متعباً ضجراً ، ووراء القضاة يظهر عمدة المدينة وهو رجلٌ قوي ممتلىء يداعب وجنتيه بسهوم ، ثم ماريشال النبـلاء وهو ذو شعر اشيب ، ولحية طويلة ، ووجه قرمزي ، وعينين ناعمتين ؛ ثم نقيب المقاطعة ، وكان واضحاً ان كرشه يضايقه ، وانه كان يحاول ان يغطيه بمعطفه ولكن هذا المعطف لا ينفك ينحسر عنه .

وارتفع صوت بول يعلن بحزم :

ـ لا قضاة هنا ولا مجرمون . بل سجناء ومنتصرون ...

وران الصمت ، ولم يتناه الى سمع الأم ، لبضع دقائق ، الا خفق قلبها ، وصرير القلم وهو ينساب على الطرس عجلان ناعماً .

وبدا رئيس المحكمة كأنه هو أيضاً ينصت الى شيء ما ، وينتظر ، وتململ زملاؤه . واخيراً خرج عن صمته :

ـ نعـ ... م ... اعترف يا اندريه ناكودكا .

ووقف اندريه بتثاقل وهو يمسد شاربه ، وينظر الى رئيس المحكمة العجوز شزراً ، ثم قال بصوته الغرّيد المركز ، وهو يشقل كتفه :

ـ وماذا اقترفت لأعترف ؟ لست بقاتل ولا سارق ، ولكنني ببساطة ثائرٌ ضد نظامٍ يُكرِه الناس على ان يختلس بعضهم بعضاً ، وان يقتل بعضهم بعضاً .

وزجره العجوز بأجهاد ، ولكن بوضوح :

ـ اجب بأيجاز اكثر .

وشعرت الأم بتحرك وراءها على المقعد : فلقد كان الحضور يتحدثون همساً ، ويتململون كأنهم إنما يحاولون ان يتملصوا من خيوط العنكبوت التي نسجتهـا الكلمات الدكناء ، كلمات الرجل ذي الوجه الخزفي .

ووشوش سيزوف : أرأيت كيف يجيبون ؟

ـ اجب يا ثيو مازين ؟

ورد ثيو بوضوح وهو يثب واقفاً :

ـ لا اريد ان اجيب .

وكان الإنفعال يضرج وجهه ، وعيناه تبرقان ولأمر ما كان يخبىء يديه وراء ظهره .

وصعّد سيزوف آهة مخنوقة ، وجحظت عينا الأم من الدهشة .

ـ لقد رفضت توكيل محام ، ولن اتكلم ابداً . اني اقدر محكمتكم اللاشرعية . من أنتم؟ هل منحكم الشعب حق محاكمتنا؟ كلا... إنه لم يفعل، وانا لا اعترف بكم.

وجلس ، وتوارى وجهه المشتعل وراء كتف اندريه .

ومال القاضي الضخم برأسه نحو الرئيس، ووشوشه ، ورفع القاضي ذو الوجه الشاحب اجفانه وألقى على المتهمين نظرة مزوّزة، ومدّ يده فخطّ بقلمه الرصاصي، شيئاً على الورقة المبسوطة امامه، وهز نقيب المقاطعة رأسه، وحرك قدميه بحذر، وألقى بكرشه على ركبتيه ، ثم غطاه بيديه . واستدار العجوز الضئيل دون ان يحرك هامه ، نحو القاضي الأصهب اللون ، ثم ارتعشت شفتاه ... فحنى الآخر رأسه وراح يصغي إليه؛ وادار ماريشال النبلاء حديثاً مهموساً مع النائب العام، في حين كان العمدة يصغي اليها وهو يفرك وجنته. واخيراً هدر من جديد صوت الرئيس الخابي .

ووشوش سيزوف في اذن الأم دَهِشاً :

— أرأيت كيف اهانهم ؟ إنه ، في الحقيقة أفضل من الآخرين .

وكانت الأم تبتسم دون ان تفهم ما يقول ، وبدا لها ان ما حصل كله ليس الا مقدمة تافهة مملة لأمرٍ رهيب سيسحق النظارة عما قريب ، دفعةً واحدة ، بما يحمل من رعب شديد .

وجاءت اجوبة بول واندرية الهادئة فدوّت بكثير من الشجاعة والحزم ، كأنهما إنما يتفوهان بها في ذلك المنزل الصغير بالضاحية ... لا امام المحكمة .

ولكن جواب ثيو الفائر ألهبها، ونشر في القاعة جواً من الجرأة، واستنتجت الأم من تحركات الناس الذين يجلسون وراءها ، انها ليست الوحيدة التي تستشعر ذلك .

وسأل العجوز القميء النائب العام :

— وما هي مطالعتكم ؟

فنهض النائب العام ، وابدى مطالعته بسرعة ، سارداً بعض الارقام ، ولم يكن في صوته ما يخيف ، ولكن وخزة قاسية في قلب الأم بعثت في الوقت نفسه قلقها ، فأحست معها إحساساً غامضاً بشيءٍ عدائي ، بعداءٍ لا صراخ فيه ولا وعيد ، ولكنه يتنامى دون ان تراه عين او تلمسه يد . وكان هـذا العداء يرف حول القضاة أعشى ، ويبدو كأنه يلفهم بضبابة لا يمكن اختراقها ، ولا

يمكن ان يتسرب اليهم عبرها شيء من الخارج .

وكانت الأم ترنو إليهم ، فيبدون لعينيها كسر لا يمكن اكتناهه ، وعلى غير ما كانت تنتظر ، لم يُثِرهم تصرف بول وثيو، ولم يوجهوا اليها كلاماً جارحاً، بل لاحظت ان اسئلتهم جميعها لم يكن لها شيء من الأهمية في نظرهم ، وانهم انما كانوا يطرحونها عليها مرغمين ، ويصغون الى اجوبتهم بجهد . لقد كانوا يعرفون سلفاً كل شيء ، لذلك لم يكن هناك ما يثير اهتمامهم .

ومثل امامهم دركي ، وقال بصوت خفيض :

— لقد أجمع الناس على ان بول فلاسوف هو المحرض الرئيسي .

وسأله القاضي البدين بلا مبالاة :

— وناكودكا ؟

— وهو ايضاً ...

ووقف احد المحامين :

— هل استطيع ؟...

فسأل العجوز احدهم :

— هل من اعتراض لديك ؟

وكان يخيل للأم ان القضاة جميعاً يعانون انحرافاً في صحتهم ، وان اوضاعهم واصواتهم تنم عن إعياءٍ مرضي . وكانت تقرأ هذا الاعياء في وجوههم، وتقرأ معه الضجر القاتل . فأزياؤهم الرسمية والقاعة والجند ، والمحامون وتسمّرهم في مقاعدهم ، واستجواب المتهمين والاصغاء اليهم ... كل ذلك كان بلا شك ، ثقيلاً عليهم ، مثيراً لاشمئزازهم .

وجاء الآن دور الضابط الاصفر اللون الذي تعرفه ، لقد كان يتكلم جاد الملامح ، متساحب الكلمات ، يتكلم بصوت مرنان عن بول واندريه ، وكانت تقول في نفسها بعفوية ، وهي تصغي اليه :

— إنك لا تعرف شيئاً كثيراً ...

ولم يكن يداخلها اي خوف ، او اشفاق ، نحـو اولئك الذين كانت تراهم

وراء الحاجز . ان اشفاقها لم يك ينصب عليهم ، فلقد كانوا جميعاً يثيرون فيها الدهشة ، فحسب ، وحباً كان يشد قلبها بحرارة ؛ وكانت دهشتها تلك هادئة ، وحبها ذاك سعيداً صافياً .

لقد كانوا ، وقد بدت عليهم امائر الفتوة والبـأس ، ينزوون بالقرب من الجدار ، ويكادون لا يولون أي اهتمام لأقوال الشهود المملة الرتيبـة وحديثهم مع القضاة ، ولا للجدل القائم بين المحامين والنائب العام . وكانت تند عن احدهم — احياناً — بسمة ازدراء، ثم يلقي ببضع كلمات الى رفاقه الذين كانت وجوههم ايضاً تطفح بالبسمة الساخرة .

وكان بول واندريه يتحدثان همساً ، وبأستمرار تقريباً ، الى واحد من وكلاء الدفاع كانت الأم قد رأته في السهرة عند نيقولا ، وكان مازين وهو اكثر رفاقة انفعالاً واضطراباً يصيخ بسمعه الى حديثهم ؛ واحياناً كان ساموا لوف يتحدث الى جان غوسيف ؛ وكانت الأم ترى هذا الاخير ، في كل مرة ، يلكز زميله ، خفية، بمرفقه، ويكبت بجهد ضحكة مدوية، ثم يتضرج وجهه، وتنتفخ وجنتاه، ويخفض رأسه ليختبىء. وقهقه مرتين او ثلاثاً، ثم ظل بضع دقائق يتصنع محاولاً ان يكون اكثر جدية واتزاناً . لقد كانت تغلي في كل منهم فتوة، يبذل قصارى جهده ، ليحد من فورانها .

ولكز سيزوف الأم بمرفقه لكزة خفيفة ، فأستدارت نحوه فاذا هو منشرح الملامح ، بادي الاهتمام :

— انظري... الى «الأشقياء» كم هم مطمئنون ... إنهم يبدون كالأسياد... اليس كذلك ؟

وكان الشهود في القاعة يدلون بأفاداتهم بأصوات عجلى لا لون لها ، وكان القضاة يستجوبونهم بلا مبالاة، وعلى مضض، وكان القاضي الضخم يتثاءب فيغطي فمه بيده المنتفخة، أما الآخر ذو الشارب الأصهب، فقد كان يبدو اكثر شحوباً، وكان يرفع ذراعه احياناً فيضغط بأصبعه على صدغه بقوة، ويحدق في السقف تائه النظرات ، بعينين متمددتين لدرجة تثير الاشفاق .

وكان النائب العام يدوّن، من حين إلى آخر، بعض الكلمات بقلمه الرصاصي، ثم يستأنف الحديث مع ماريشال النبلاء الذي كان يقلّب ، فيما حوله ، عينيـه الواسعتين الحلوتين ، ويمسد لحيته الدكناء ، ويبتسم ، وهو يثني من جيده بشيء من التعاظم .

وكان العمدة يشبك ساقيه ، وينقر على ركبته دونما ضجيج ، ويراقب بانتباه حركة أصابعه ، وكان كرشه المندلق يستريح على ركبتيه ، وتسنده كلتا يـديه بحذر . اما نقيب المقاطعة فكان يحني رأسه ، ويبدو كأنه الوحيد الذي يصغي إلى طنين الاصوات الرتيب ، يشاركه في الاصغاء ، ذلك العجوز الضئيل المنفرز في القعده ، حيث يبدو نافراً ، جامداً كناعورة الهواء، في يوم لا ريح فيه.

واستمر الحال طويلاً على هذا المنوال ، ثم عاد فتور الضجر يخدّر النظارة من جديد .

وقال العجوز الضئيل :

— إني أعلن .

ثم نهض بعد أن خنق الكلمات التالية بين شفتيه الرقيقتين .

وماجت القاعة بالصخب والزفرات، والهتافات الصماء . والسعال، وضجيج الاقدام المتحركة ، وأقتيد المتهمون ، وهم يبتسمون ويومئون برؤوسهم إلى ذويهم واصدقائهم ، وخاطب جان غوسيف احدهم بصوت هادىء :

— تشجع يا ايغور .

وخرجت الأم وسيزوف إلى الأروقة ، فسألها العامل العجوز بالحاح :

— هل ترافقينني لتناول قدح من الشاي في المشرب ، فلدينا ساعة ونصف الساعة سنقضيها في الانتظار ؟

— كلا .

— حسناً .. وانا لن اذهب .. أرأيتِ إلى هؤلاء الفتيـان ؟ لكأنهم هم وجدهم الرجال الحقيقيون هنا ، أما الآخرون فليسوا بنظرهم شيئاً مطلقـاً . وثيو ..؟ هل لاحظت ذلك ؟

واقترب والد ساموالوف منها ، وقبعته في يده ، وابتسم ابتسامة فظة :
ولدي غريغوار ؟ لقد رفض توكيل محام ، وهو لا يريد أن يتكلم . إنه هو أول من اكتشف هذه الطريقة .. أليس كذلك ؟ أما ابنك ، يا بيلاجي ، فقد وافق على ضرورة وجود المحامين ، في حين قال ابني انه لا يريد واحداً منهم ، وقد حذا حذوه اربعة .

وكانت زوجته إلى جانبه ، ترف أجفانها بسرعة ، وتمسح أنفهـا بطرف منديلها . وتابع زوجها ، ولحيته في قبضته ، وعيناه تحدقان في الارض :
— عندما ينظر المرء إليهم ، إلى هؤلاء الفتيان .. «الملاعين» .. يظن بأنهم يسلكون هذا السلوك في سبيل لا شيء . وانهم يخاطرون بأنفسهم بلا جدوى ، ثم يتبين له فجأة انهم ربما كانوا على صواب . ان عددهم في المعمل يزداد باطراد ، ورغم انهم ، في كل لحظة ، يصطادون الكثير منهم فيه ، فإنهم يظلون كصغار السمك في النهر . وهذا ما يدفع إلى التساؤل من جديد : هل هناك مـن قوة وراءهم تدعمهم ؟
ورد سيزوف :
— يعسر علينا أن ندرك هذه الأشياء .
ووافق ساموالوف : نعم .. هذا أمر عسير .
ونشقت زوجته بصوت مسموع وقالت :
— يا للأشقياء .. إنهم جميعاً بالصحة الجيدة .
ثم أضافت ووجهها العريض الشاحب يطفح بالبسمة :
— لا تغضبي يا نيلوفنا ، لإلقائي منذ قليل ، التبعة على ابنك .. فـأي عفريت يستطيع أن يعرف ، حقيقة ، من منهم هو الأكثر إجراماً . لقد سمعت ما قاله الدرك والجواسيس عن ابننا غريغوار .. فله هو أيضاً .. هو الحيوان .. خطيئاته !
وكان واضحاً انها فخورة بابنها ، وربما كان ذلك دون تعمد منها ، ولكن الأم كانت تعرف هذا الشعور ، فأجابتها وهي تبتسم بطيبة :
— إن القلوب الفتية هي دائماً أكثر قرباً إلى الحقيقة .

وكان الحضور ينتشرون في الاروقة جماعات جماعات ، ويتحدثون بأصوات صماء ، يتحدثون بروية او انفعال ، ولم يلزو أحد منهم ، بل كنت تقرأ بوضوح ، وعلى وجوههم جميعاً ، الرغبة في التحدث والسؤال والإصغاء .
وفي الممر الضيق الذي طرش ما بين جداريه باللون الأبيض ، كانوا يعجّون كأن ريحاً عاتية قد سلطت عليهم ، فراحوا يبحثون عـن شيء راسخ ثابت يتمسكون به .
وكان الأخ الاكبر لبوكين ، وهو فتى ضخم حائل اللون ، يفرط في حركاته وإشاراته ، ويتلفت بعنف في كل اتجاه مؤكداً :
— ان نقيب المقاطعة لا دخل له في هذه القضية .
وينهره والده ، وهو عجوز ضئيل الجسم ، ويتطلع الى ما حوله بنظرات خائفة :
— إخرس يا قسطنطين .
— كلا .. وسأقول ما أعرف عنه . يقال إنه قتل في العام الماضي كاتبـه بسبب امرأته ، وهي تعيش الآن معه . فكيف تفسرون هذا ؟ وفوق ذلك فهو لص محترف ..
— أوه .. يا قسطنطين .. يا آلهي ..
وقال ساموالوف :
— هذا صحيح . هذا صحيح . إنه قاض غير مستقيم ..
واقترب بوكين الذي كان يسمع ذلك ، اقترب بسرعة وهو يجر الاخـرين معه ، وراح يصرخ ، ويكثر من الاشارات ، ودم الانفعال يضرج وجهه :
— من أجل سرقة .. او جريمة يوجد محلفون يحكمون . محلفون من النـاس العاديين ، والفلاحين والحرفين . أما اولئك الذين يعارضون الدولة ، فالدولة هي التي تحاكمهم ، إن هذا أمر لا يستقيم . إنك إذا أهنتني فصفعتك ، وكنت انت الذي ستحاكمني من أجل ذلك ، فإنني سأكون أنا المخطىء بلا شك .. ولكن البادىء .. من هو ؟ انه انت .
وفرق الجمع حـارس مسن أعقف الأنف ، تزين صدره الأوسمة ، وقـال

لبوكين وهو يتوعده باصبعه :
ـ هه .. انت الذي هناك .. لا ترفع صوتك فلست هنا في ملهى .
ـ اسمح لي أيها الفارس .. لقد فهمت .. اسمع . لو انني ضربتك ، وكنت انا القاضي الذي سيحاكمك فماذا تعتقد ..
فأجابه الحارس بقسوة :
ـ سترى .. سأطردك من هنا .
ـ إلى أين ؟ ولماذا ؟
ـ الى الشارع لتتعلم كيف تنهق .
فأجال بوكين بصره فيما حوله وقال بصوت خفيض :
ـ المهم بالنسبة لهم أن تسكت ..
فصاح به العجوز بشراسة :
ـ ألم تعرف ذلك حتى الآن ؟
ففتح بوكين ذراعيه ، واستأنف بصوت أشد خفوتاً :
ـ ثم .. لماذا لا يُسمح للناس بحضور المحاكمة ؛ بل يسمح بحضورها فقط لذوي المتهمين !؟ لو كانوا يحكمون بالعدل لتصرفوا علناً أمام الناس جميعاً .. اذ لن يكون ما يخيفهم ..
فردد ساموالوف ، ولكن بلهجة أقوى :
ـ هذا هو الصحيح . إن المحكمة لا ترضي الضمير !.
وكان بود الأم أن تقول له ما كانت قد سمعته من نيقولا عن لا شرعية المحاكمة ، ولكنها كانت قد أساءت فهم ما قال ، ونسيت بعضه ، فابتعدت عن الجميع لتحاول ان تتذكر ما نسيت ، وخلال ذلك لاحظت ان هناك فتىً وضاء الشارب يرنو اليها ، ويده اليمنى في جيب بنطاله ، مما جعله يبدو كأن كتفه الأيسر أدنى من الأيمن ؛ وقد بدا لها انها تعرفه ولكنه لم يلبث ان ادار لها ظهره ، ولم تلبث هي أيضاً أن نسيته في غمرة ذكرياتها .
وبعد قليل تناهى الى سمعها سؤال طُرح بصوت خافت :

ـ أتلك هي ؟
ورد أحدهم بصوت مرتفع وبجذل :
ـ نعم .
فتطلعت .. فاذا الرجل المزوّر المنكب ، يستدير نحوها استدارة جانبية ، ويتحدث الى جاره وهو فتى اسود اللحية ، يرتدي معطفاً قصيراً ، وينتعل حذاءً ضخماً .
وتحركت فيها من جديد ، وبقلق ، ذكرى لم تستطع ان تتميزها ؛ وتملكتها رغبة طاغية في ان تحدث الناس عن مثل ابنها الأعلى وان تستمع الى الاعتراضات التي يمكن ان يوجهوها اليه ، وان تستخلص من أقوالهم قرار المحكمة .
وراحت تتحدث .. بصوت خفيض وهي توجه كلامها بحذر الى سيزوف :
ـ أهكذا تكون المحاكمة ؟ انهم يريدون أن يعرفوا ماذا فعل كل واحد ، أما لماذا فعل ؟ فإن ذلك لا يعنيهم ابداً . ثم انهم جميعاً طاعنون في السن، والحكم على شبان يجب أن يكون هناك شبان ..
وقال سيزوف :
ـ أجل .. انه لمن العسير علينا جداً ان نفهم هذه القضية .. من العسير ..
ثم هز رأسه ساهماً .
وكان الحارس قد فتح باب القاعة وصاح :
ـ ذوو المتهمين فقط .. ابرزوا بطاقاتكم !
وارتفع صوت كئيب يقول ببطء :
ـ بطاقات ! .. كما لو كنا في سيرك !
.. واجتاح النـــاس سخط أصم، واستشعروا في نفوسهم جرأة مبهمة ، ولكنهم بدوا أقل ضيقاً ، فراحوا يضجون ويتجادلون مع الحجاب .

ـ ٢٥ ـ

وجلس سيروف على المقعد مغمغماً ، فسألته الأم :
ـ ما بالك ؟

ـ لا شيء . ان الناس بهائم ..

ورنّ جرس ، ثم أعلن صوت بلا مبالاة :

ـ تهيأت المحكمة

ونهض الجميع ، كالمرة الاولى ، ودخل القضاة بنفس الـــترتيب وجلسوا في مقاعدهم ، ثم أدخل المتهمون .

ووشوش سيزوف :

ـ الانتباه . سيبدأ النائب العام مرافعته .

ومدت الأم عنقها ، ومالت الى الأمام بكل جسدها ، ثم جمدت ، فاذا بها تسمع من جديد ما يثير الرعب .

وأطلق النائب العام زفرة ، وهو يقف ويدير رأسه نحو القضاة ، ويتكىء بمرفقه على طاولته .ثم راح يتكلم ملوحاً بيده اليمنى في الفضاء بحركات متقطعة.

ولم تسمع الأم عباراته الاولى فقد كان صوته خفيضاً مملاً ، غير متناسق النبرة ، فهو تارة بطيء وتارة اخرى سريع ، وكانت الكلمات تتمطى في سلسلة طويلة رتيبة، تتطاير فجأة وتنضغط ، وتهوّم كسرب من الذباب الأسود فوق قطعـة من السكر ، ولكن بيلاجي كانت لا تجد فيها ما يرعب او يتوعد ، بل كانت هذه الكلمات تتناثر باردة كالثلج ، كمداء كالرماد ، وتنفرط فتملأ جو القاعـــة بضجر قاحل ، كالرمل الدقيق الجاف .

وكانت هذه المرافعة التي شحت فيها العواطف وخصبت الكلمات، لا تصل، بلا شك ، إلى آذان جان ورفاقه الذين كانوا لا يتأذون بها مطلقاً ، والذين كانوا لا ينفكون يتهامسون كالسابق ، آمنين ، ويبتسمون تارة ابتسامــة عريضة ، وتارة أخرى يخبئون بسماتهم تحت ملامحهم الباسرة .

وغمغم سيزوف :

ـ انه يكذب .

ولم يكن باستطاعتها هي أن تقول اكـــثر من ذلك ، وكانت تصغي الى النائب العام فتفهم من كلامه انه يتهم الجميع دونما تمييز ، وعندما أتى على ذكر

بول ، راح يتكلم عن ثيو ، ويضعه في نفس الوضع القانوني ، ثم يضم اليهما بوكين باصرار وكان يبدو انه يحشر المتهمين جميعاً في جراب واحد ، ويسد عليهم بابه ، ثم يهصرهم هصراً ، غير ان المعنى الظاهري لكلامـــه لم يكن ليرضي الأم ، لا يحركها ولا يخيفها ، ومع ذلك فقد كانت تنتظر ذلك الشيء الرهيب ، فتبحث عنه تحت كلمات النائب العام ، وفي ملامح وجهه ، وعينيه ، وفي يده البيضاء التي كانت تلوّح ببطء في الفضاء . أجل .. لقد كان ذلك الشيء ماثلا هناك ، وكان رهيباً ، تحسه الأم ، ولكنها لا تتحسسه ، فهو عصي على التعريف ،يسجن قلبها من جديد في شبكة جافة خشنة .

وكانت تتطلع الى القضاة ، فترى بوضوح ان هذه المطالعة قد أضجرتهم ، وكانت وجوههم الصفراء الكالحة التي لا حياة فيها ، لا توحي اليها بشيء ،وكانت كلمات النائب العام تنتشر في الفضاء ضباباً لا تراه العين ، يتكاثف حول القضاة، ويلفهم بسحابة سميكة من اللامبالاة ، والعياء المستسلم.

وكان رئيس المحكمة جامداً كالمومياء لا يبدي حراكـاً ، وكانت البقع الرمادية الصغيرة تختفي بين الفينة والفينة ، وراء زجاج نظارتيه ، وتنصهر في رقعة وجهه ، وازاء هذا الجمود الجيفيّ ، وهذه اللامبالاة الباردة ، كانت الأم تتساءل بقلق :

ـ هل يحاكمون حقاً ؟

وكان هذا الشك يهصر قلبها ويطرد منه قليلاً قليلاً ، خوفها من ذلك الشيء الرهيب الذي كانت تتوقعه ولكن شعوراً حاداً بالمذلة كان يأخذ بخناقها .

وتوقفت مرافعة النائب العام بغتة ، ولكنه أضاف بضع دمدمات سريعة ، ثم انحنى للقضاة وجلس وهو يفرك يديه، فأومأ له ماريشال النبلاء برأسه مقلباً عينيه، ومد العمدة اليه يده ، أما النقيب فراح يتأمل كرشه ويبتسم .

إلا ان مرافعة النائب العام لم ترق ، على ما يظهر ، للقضاة الذين لم تبدر منهم بعدها أية حركة .

وقال العجوز الضئيل وهو يدني ورقة من وجهه :

– الكلام الآن لوكيل الدفاع عن فيدو سيف ، وماركوف وزاغاروف .

فوقف المحامي الذي كانت الأم قد رأته عند نيقولا ، وكانت عيناه الصغيرتان تبتسمان وضاءتين في وجهه العريض السمح ؛ وخيل للام ان تلك النقطتين المستكينتين تحت حاجبيه الاصهبين تنطلقان كالمقص لتقطعا شيئاً ما في الفضاء.

وأخذ يتكلم على مهل ، وبصوت جهوري واضح ، ولكن الأم كانت لا تستطيع ان تسمعه ، فوشوش سيزوف في اذنها :

– هل فهمتِ ما يقول ؟ هل فهمتِ ؟ إنه يقول إنهم معتوهون مختلو الشعور فهل صحيح ان تيودور كذلك ؟

ولم تجب ، وأرهقها شعورٌ أليم بخيبة الأمل ، وكان شعورها بالمهانة يتزايد فيسحق روحها . لقد أدركت الآن لِمَ كانت تنتظر المحاكمة ؟ لقد كانت تعتقد بأنها ستشهد نقاشاً قانونياً قاسياً بين ابنها وحقيقته ، والقضاة وحقيقتهم ،وكانت تتصور ان هؤلاء سيستجوبون بول طويلا وبدقة ، وانهم سيسألونه بتفصيل عن حياة قلبه كلها . وانهم سيتفحصون بعيون نفاذة أفكاره كلها ، وتصرفاته ، ومشاغله ، وانهم عندما يلمسون صواب نظرته سيجهرون بعدالة :

– هذا الرجل على حق .

ولكن شيئاً من هذا لم يحدث ؛ فلقد كان المتهمون ، كما يخيل اليها ، على بعد مئة فرسخ من القضاة. وكان هؤلاء لا يثيرون في المتهمين اي اهتمام ، وكان الجدل القائم لا يروق للام ، لذلك كانت لا تصغي اليه ، بل تفكر وهي تشعر بالمهانة :

– أهكذا يحاكمون الناس ؟

وغمغم سيزوف وهو يومىء برأسه مؤكداً :

– إنها تليق بهم !

وانتقل الكلام الى محامٍ آخر ، ضئيل الجسم ، منمنم الملامح ، باهت اللون، ساخر اللهجة ، ولكن القضاة قطعوا عليه كلامه . ووثب النائب العام ولفظ بصوت سريع مهتاج كلمة «محضر الضبط» ثم راح العجوز الضئيل يتكلم داعياً

اياه الى الهدوء ، في حين كان المحامي يصغي اليها ، وقد طأطأ رأسه احتراماً،ثم لم يلبث ان استأنف الكلام .

وقال سيزوف :

– اسلخهم جيداً .. اسلخهم جيداً .

وساد الهرج القاعة من جديد ، وانتظم الهياج العنيف الجمهور ، وكان المحامي يسوط جلد القضاة الهرم بكلماته اللاذعة ، فيبدون كأنهم يتجمعون على انفسهم بشدة وينتفخون ، وينتفشون ليردوا عنهم طعناته الشديدة الواخزة .

ويقف بول فيسود القاعة فجأة صمت غير منتظر ، وتميل الأم بكيانها كله إلى الأمام ، ويبدأ بول كلامه بهدوء :

– إني كحزبي ، لا اعترف بمحكمة إلا محكمة حزبي . لذلك لن اقول شيئاً دفاعاً عن نفسي ، ولكنني ، تحقيقاً لرغبة بعض رفاقي الذين رفضوا توكيل محام، سأحاول أن أشرح لكم ما استعصى عليكم فهمه . لقد وصف النائب العام تظاهرتنا في ظل علم الاشتراكية الديمقراطية بأنها ثورة على السلطة العليا ، وتحدث عنا كعصاة ثائرين ضد القيصر . ومن واجبي أن أُعلن ان الاوتوقراطية ليست بالنسبة لنا القيد الوحيد الذي يشد البلاد الى اغلالها ، بل إنها القيد الأول الذي نحسه أكثر من سواه ، والذي يجب علينا ان نحرر الشعب منه .

وكان السكون قد زاد عمقاً عند انطلاق هذا الصوت الحازم الذي بدا كأنه يباعد ما بين جدران القاعة ، كأن بول قد نأى كثيراً عن سامعيه .. ولكن هذا الصوت ، كان في الوقت نفسه جلياً واضحاً .

وتململ القضاة بتثاقل وقلق ، وهمس ماريشال النبلاء بضع كلمات في اذن القاضي ذي الوجه اللامبالي ، فحرك هذا رأسه ، واستدار الى العجوز الضئيل الذي كان يوشوشه من الناحية الاخرى القاضي ذو الملامح المتألمة ؛ ووجه العجوز وهو يترنح في مقعده ذات اليمين وذات اليسار ، بضع كلمات الى بول ، ولكن صوته ضاع في غمرة التيار العريض المتدفق الذي ينساب من فم بول :

– إننا اشتراكيون . وهذا يعني اننا اعداء الملكية الخاصة التي تفكك الناس

وتؤلب بعضهم على بعض ، وتخلق بينهم عداءً في المصالح لا نهاية له . اعـداء الملكية الخاصة التي تكذب حين تدّعي انهـا تغطي او تصفّي هذه الخصومة ، والتي تفسد الناس جميعاً بالكذب والرياء والحقد . ونحن نقول ان المجتمع الذي يعتبر الانسان اداة لإثرائه هو مجتمع لا إنساني ، مجتمع بغيض بالنسبة لنـا ، لا نستطيع ان نتقبل اخلاقيته المرائية الكاذبة . إن سفاهته الماجنة وقسوته بالنسبة للشخصية الانسانية تثيران كرهنا ، ونحن نريد أن نناضل ، وسنناضل ضد كل شكل من اشكال عبودية الانسان الجسدية والمعنوية ، في مجتمع كهـذا ؛ سنناضل ضد كل الأساليب التي يُسحق بها الانسان في سبيل الجشع . ونحن ، أعني العمال ، نحن الذي يصنع جهدنا كل شيء ، من الآلات الضخمة الجبارة الى دُمى الأطفال . نحن الذي حرمنا حق النضال في سبيل كرامتنا كبشر ، والذين يدّعي كل واحد ، حقاً له ممتازاً بأن يجعل منا أدوات للوصول الى غايته . نحن العمال ، نريد الآن أن يكون لنا من الحرية ، ما يمكننا مع الزمن ، ان نظفر بالسلطة كلها . إن شعاراتنا بسيطة : لتسقط الملكية الخاصة . أدوات الانتاج كلها ملك للشعب . السلطة كلها للشعب . العمل إلزامي للجميع !. وهكذا ترون أننا لسنا عصاة متمردين !

وقال الرئيس بصوت واضح قوي :

— ارجوك تكلم في الموضوع !

وكان قد استدار نحو بول وراح يحدق به ، وخيل للأم ان عينه الشزراء الكدراء كانت تلتمع ببريق شرير نهم ، وكان القضاة يرنون جميعاً إلى الفتى بعيون تبدو كأنها تتسمر على وجهه ، وتخترق جسده لتمتص منه الدم ، فتحيى به أجسادهم المهترئة الفانية . أما هو فكان يقف منتصباً بكل قامته ، حازمـاً ، صلباً ، ويمد نحوهم ذراعه ويقول بصوت واضح هادىء :

— نحن ثائرون ، وسنظل كذلك ما دام البعض يأمرون والآخرون يعملون . نحن نكافح ضد مجتمع أمرتم بأن تحموا مصالحه ، مجتمع نحـن خصومه الألداء

وخصومكم ؛ ولن يحل بيننا الوئام إلا حين ننتصر ، وسننتصر نحن ، نحن العمال. إن موكليكم هم دون ما يتصورونه من قوتهم بكثير ؛ وثرواتهم التي يكدسونها ويحمونها بتضحية الملايين من البشر التي يستعبدونها ، وهذه القوة التي تعطيهم السلطان علينا ، كل ذلك يثير فيما بينهم التنازع العدائي ، ويهدمهم مادياً ومعنوياً.

ان الملكية تتطلب جهداً عظيماً جداً لتحمي نفسها ، وأنتم في الحقيقة ، أنتم جميعاً أيها الأسياد ، يا أسيادنا ، عبيد أكثر منا . ان عقولكم هي المستعبدة ، أما نحن فلسنا عبيداً إلا بأجسادنا. انكم لا تستطيعون أن تتحرروا من نير الاغراض والتقاليد التي تقتلكم معنوياً ، أما نحن فلا شيء يمنعنا من أن نكون أحراراً في ذواتنا: والسموم التي تنفثونها فينا هي أقل خطراً من الدواء الشافي الذي تهرقونه في وجداننا دونما إرادة منكم ؛ وهذا الوجدان يكبر وينمو بلا انقطاع ، ويزداد دوماً تأججاً ، ويجر وراءه كل ما هو أفضل ، وأسلم معنوياً ، حتى ولو كان هذا الأفضل ، وذاك الأسلم من تراث طبقتكم .

انظروا .. انكم لا تجدون شخصاً واحداً يستطيع أن يناضل ايديولوجياً باسم سلطتكم ، فلقد استنفذتم حججكم كلها ، هذه الحجج القمينة بأن تحميكم من هجوم العدالة التاريخية . كما انكم لا تستطيعون أن تأتوا بجديد في نطاق الفكر ، اي انكم قد ابتليتم بالعقم فكرياً . أما أفكارنا ، أفكارنا نحن ، فإنها تنمو وتتأجج وتزداد إشراقاً ، وتكتسح جماهير الشعب ، وتنظمهم في نضالهم من اجل الحرية.

ان الشعور بالدور العظيم الذي يجب أن تلعبه الطبقة الكادحة ، هذا الشعور يوحّد عمال العالم كلهم ؛ ويجعل منهم روحاً واحدة . ومن المستحيل عليكم ان توقفوا عملية تجدد الحياة إلا بالقسوة والخداع ، ولكن الخداع واضح ، والقسوة تثير النقمة . والأيدي التي تخنقنا اليوم ستشد أيدينا عما قريب في عناق أخوي.

ان طاقتكم هي الطاقة الآلية لتضخم الذهب ، وهي تلم شتاتكم في جماعات قُدر لها أن يفترس بعضها بعضاً ، أما طاقتنا نحن ، فهي قوة الضمير الحيـة المتنامية أبداً ، النابتة من تضامن الكادحين جميعاً .

ان تصرفاتكم كلها اجرامية لأنكم لا تهدفون من ورائها الا الى استرقاق

الناس ، أما عملنا نحن ، فانه يحرر العالم من الاشباح والغيلان التي يخلقها دجلكم وحقدكم ، ونهمكم ،ليرهب بها الشعب. لقد انتزعتم الانسان من الحياة وسحقتموه، ومهمة الاشتراكية أن تجمع العالم الذي مزقتموه في كلٍ واحدٍ جبار . وسيتحقق ذلك .

وتوقف بول قليلاً ثم ردد بهدوء وبمزيد من القوة .

— سيتحقق ذلك .

وتهامس القضاة فيما بينهم ، وندت عنهم حركات غريبة ، دون أن يقتلعوا عيونهم الشرهة عن بول ، وأحست الأم كأنهم انما يدنسون بنظراتهم هذه جسد ابنها اللطيف الصلب، هذا الجسد الذي يحسدونه على ما ينعم به من عافية ، وقوة ، ونضارة .

وكان المتهمون يصغون بانتباه لكلمات رفيقهم وهم شاحبو الوجوه ، تتألق الفرحة في عيونهم ، وكانت الأم تلتهم هذه الكلمات التهاماً فتنحفر في ذاكرتها مقاطع طويلة منها .

وقاطع العجوز القميء بول مرات عدة،شارحاً له ما لا تدري ،وقدارتسمت على شفتيه في احدى المرات ابتسامة حزينة . وكان بول يصغي اليه بسكون ثم يستأنف بصوت صارم ولكنه هادىء ، يرغم القضاة على الاصغاء اليه ، ويخضع إرادتهم لإرادته .

وأخيراً أخذ العجوز يصرخ مشيراً بيده الى بول ، ولكن هذا اكتفى بالرد عليه بأن قال بصوت تمازجه سخرية خفيفة :

— سأنهي كلمتي . إني لا أقصدأناوجه اليكم أية إهانةشخصية بل بالعكس، أما وقد أرغمت علىحضور هذه المهزلة التيتسمونها «محاكمة» فإني اكاد استشعر بعض الشفقة عليكم . انكم رغم ذلك كله بشر ، وإنه لشديد علينا دائماً ان نرى اناساً ، وإن كانوا أعداءً لأهدافنا ، ينحدرون ، بشكل دنيء هكذا ، ليكونوا في خدمة الإرهاب ، ويفقدون الى مثل هذه الدرجة الإحساس بكرامتهم الإنسانية .

وجلس دون أن ينظر إلى القضاة ، وكانت الأم وهي تمسك انفاسها ، تركز بصرها عليهم وتترقب .

وشد اندريه بقوة على يد بول وهو مشرق الأسارير ، أما ساموالوف ومازين والآخرون جميعهم ، فقد اشرأبوا نحوه . وكان هو يبتسم ، وقد اربكته بعض الشيء حماسة رفاقه ، ثم ألقى نظرة على المقعد حيث كانت تجلس أمه ، فأومأ لها برأسه إيماءة كأنه يسألها :

— هل يعجبك هذا ؟

وردت عليه ، وقد غمرتها موجة من الحنان الملتهب ، بزفره عميقة من الفرح.

وغمغم سيزوف :

— لقد بدأت المحاكمة هذه المرة. فلقد حشرهم شر حشرة . أليس كذلك ؟

وهزت رأسها دون ان تجيب ، سعيدة لأن ابنها تكلم بكثير من الجرأة ، ولعلها كانت أكثر سعادة أيضاً لأنه أنهى كلامه .

وكان هناك سؤال يطرق دماغها :

— والآن ... ماذا سيحل بكم ؟

— ٢٦ —

ولم يكن ما قاله ابنها جديداً عليها ؛ فلقد كانت تعرف افكاره ، ولكنها كانت لأول مرة تحس ، هنا أمام المحكمة ، قوة إيمانه العجيبة الجارفة . وكان هدوء بول يصعقها ،وخطابه يتكثف فيصدرها ،في حزمة مشعة من يقين مضيء، كان يؤكد لها سداد خطاه وانتصاره . وخطر لها ان القضاة لن يلبثوا أن يناقشوه بضراوة ، ويجابهوه بحقيقتهم غاضبين ، ولكن هو ذا اندريه ينهض ، ويترنح ، ثم يلقي نظرة خاطفة الى تحت ، ويقول :

— أيها السادة وكلاء الدفاع .

ولكن القاضي اذالوجه المريض صاح به بصوت قوي غضوب :

— المحكمة هي التي أمامك لا وكلاء الدفاع .

وكانت الأم تقرأ في ملامح اندريه أنه يريد أن يمزح . لقد كان شاربه يرتعش ، وفي عينيه يلتمع دعابٌ خبيث خدّاع تعرفه جيداً ، وفرك رأسه بيده الطويلة ، ثم تنهد ، وقال وهو يهز رأسه :

– أليس ذلك ممكناً ؟ لقد كنت أعتقد أنكم لستم قضاة بل وكلاء دفاع فقط !

ورد عليه العجوز القميء بجفاف :

– ارجوك تكلم في صلب الموضوع .

– في صلب الموضوع ؟ حسناً . أنا اريد أن أفترض إذن أنكم قضاة حقاً ، ورجال مستقلو الرأي شرفاء ..

– ليست المحكمة بحاجة إلى تقديرك ..

– ليست بحاجة إلى تقديري ؟ همْ ... ومع ذلك سأتابع كلامي ... لنفترض انكم رجالٌ لا أصدقاء لهم ولا خصوم ، رجال احرار ... وانه قد مثل أمامكم فريقان : أحدهما يتظلم : « لقد سلبني وحطم سحنتي » ، والآخر يجيب : « ان لي مطلق الحق في أن أسلب واحطم الرؤوس ... لأنني أملك بندقية . »

وقاطعه العجوز وهو يرفع من صوته :

– هل لديك ما تقوله في الموضوع ؟

وكانت يده ترتعش ، فيبهج الأم ان تراه يغضب ، ولكن الطريقة التي تصرف بها اندريه لم ترق لها ؛ فهي لا ترتفع إلى مستوى دفاع بول ، وكانت بيلاجي تود إن تستمع إلى نقاش حاد مركّز .

ورنا البيوروسي الى العجوز بصمت ثم قال بوقار وهو يفرك رأسه :

– في الموضوع ؟ ولِمَ أتكلم فيه ؟ ان ما يتوجب عليكم معرفته قد قاله رفيقي ، أما الباقي فسيقوله لكم آخرون عندما يحين الوقت ..

فوثب العجوز الضئيل من مقعده وصاح :

– اني امنعك من الكلام . الكلام لفريغوار ساموالوف .

وتهالك اندريه على مقعده مطبق الشفتين غير مبال ، ووقف الى جانبه

ساموالوف والهواء يعبث بشعره الأجعد :

– لقد وصفنا النائب العام بأننا برابرة ، واعداء للثقافة ...

– عليك الا تتكلم إلا فيما يتعلق بالقضية .

– هذا ما افعله ؛ فليس هناك من شيء لا يتعلق بالشرفاء . ثم إني ارجوك ألا تقاطعني ، وأسألك ... أن تقول لي اذن ما هي ثقافتكم ؟

وقال العجوز وهو يفغر فمه :

– لسنا هنا أمام زميل لنا ... فادخل في صلب الموضوع .

وكان ظاهراً بوضوح ان موقف اندريه قد بدل من مزاج القضاة ، وبدا كأنه قد عفّى على شيء ما في نفوسهم ؛ فظهرت في وجوههم الغبراء بقع ، ولمعت في عيونهم شرارات باردة صفراء . وكان دفاع بول قد أثار حفيظتهم ، ولكن قوته غطت على غضبهم وفرضت احترامه عليهم ، ثم جاء البيوروسي يفرّج عنهم هذا الضيق ، ويظهر دونما جهد ما كان يخفيه .

وتهامسوا فيما بينهم وكانت ملامحهم تتقبض وتتغضن بشكل غريب ، وغدت حركاتهم كقضاة يشوبها الافراط والمبالغة .

– انكم تدربون الجواسيس ، وتجرون النساء والشباب الى الفجور ، وتحيلون الانسان الى سارق وسفاح ، وتسممونه بالكحول . المذابح الشاملة ، والدجل العالمي ، والفجور ، وجر الشعب كله الى الجبل ، هذه هي ثقافتكم ... ونحن ، أجل ، نحن ، أعداء لهذه الثقافة .

وصاح العجوز الضئيل ولحيته ترتعش :

– ارجوك ..

ولكن ساموالوف كان يصيح في الوقت نفسه ، محتقن الوجه مشتعل العينين :

– ولكننا نحب الثقافة الاخرى ونحترمها ، الثقافة التي تعملون على ان يتعفن في السجن خالقوها الذين تحيلونهم إلى مجانين ..

– اني اسحب منك الكلام ... لتيودور مازين .

ووثب مازين الصغير كجرذ خرج من حجره وقال بحدة :

ـ اني .. اقسم واعلم .. بأن الحكم عليّ جاهز .

واختنق صوته واصفرّ لونه ولم يعد يُرى في وجهه إلا عيناه ، ثم صاح وهو يبسط ذراعه :

ـ اني أعطيكم عهد شرف . ارسلوني انـّى شئتم ، فسأهرب ، وسأعـود ، وسأعمل ابداً من أجل القضية طوال حياتي ، أعطيكم عهد شرف ..

وسعل سيزوف بقوة ، وتململ ، وكان الجمهور كله ، وقد جرفته موجة من الهياج تتنامى ابداً ، كان هذا الجمهور يزمجر ، فتندّ عنه ضوضاء غريبة . وبكت امرأة ، وسعل أحد الناس ، ثم نشج . وكان رجال الدرك ينظرون الى المتهمين بدهشة بلهاء ، والى الجمهور بغضب . وكان القضاة يتمايلون تارة إلى اليمين وتارة اخرى الى الشمال ، وأخيراً صرخ العجوز بصوت نحيل :

ـ غوسيف جان ...

ـ لا اريد أن أتكلم .

ـ باسيل غوسيف .

ـ لن أتكلم .

ـ بوكين تيودور .

فنهض الفتى ذو الشعر الابنوسي متثاقلا وقال بتؤدة :

ـ يجب أن تخجلوا ، فأنا رجل غير مثقف ... ومع ذلك افهم ما هي العدالة .

وكان يرفع ذراعه فوق رأسه . ولم يكمل بل أطبق عينيه نصف إطباقة كأنه يعير انتباهه الى شيء يراه في البعيد .

وصرخ العجوز الضئيل وهو ينقلب على ظهر أريكته ، وقـال بدهشة يخالطها الغضب :

ـ ما هذا ؟

ـ حسناً إني ...

وترامى بوكين على المقعد متجهم الوجه ، فلقد كان في كلماته القاتمة شيء كبير عظيم ، وكان فيها في الوقت نفسه تقريع شجيّ ساذج . ولمس الحضور هذا كله ،

وحتى القضاة اصغوا اليه ، كأنهم يترقبون ان يرن في آذانهم صدى يحمل من الوضوح اكثر مما تحمل كلماته . وعلى مقاعد النظارة جمد القوم جميعهم ، فلا تعلو من صفوفهم نأمة ، سوى نشيج خفيف . وشقل النائب العام كتفيه ، وهو يبتسم بازدراء ، وسعل ماريشال النبلاء بقوة ، وارتفعت الهمهمة من جديد ، ودبت الحركة في القاعة شيئاً فشيئاً .

ومالت الأم على سيزوف تسأله :

ـ هل سيتكلم القضاة ؟

ـ كلا فلقد انتهى الأمر ولم يعد هناك إلا اعطاء القرار !

ـ ابداً لن يتكلموا ؟

ـ ابداً .

ولم تصدقه .. وكانت والدة ساموالوف تتململ على المقعد قلقة ، وتلكز بيلاجي بمنكبها ومرفقها وتسأل زوجها بصوت خفيض :

ـ والآن ماذا ؟ أمن الممكن ان ...

ـ أنت ترين ان ذلك ممكن ...

ـ ولكن ... ولدنا غريغوار .

ـ دعيني وشأني .

وكنت تحس ان كلاً من الحضور كان يعاني شيئـاً من الضياع والتحول والانسحاق ؛ وتقرأ الاضطراب في عيونهم الراعشة التي تبدو كأن نوراً شديداً قد بهرها . وكانوا وقد خفي عليهم الاحساس بذلك الشيء العظيم الذي انبثق فيهم فجأة ، كانوا ، يتعجلون فيغدقونه انطباعات حسية ، سهلة الادراك . وكان شقيق بوكين يقول بصوت خفيض ودونما عناء :

ـ أتسمحون فتقولون لي لمَ لا يأذنون لهم بالكلام في حين يستطيع النائب العام ان يقول ما يشاء ، وأن يتكلم طويلاً وبالقدر الذي يريد ؟

وكان بالقرب من المقعد حاجب ، فنهره وهو يلوّح بيده :

ـ على مهلك ... على مهلك .

واستلقى والد ساموالوف الى الوراء ، وغمغم وراء ظهر زوجته :

– لنفترض انهم مجرمون حقاً ، فليسمحوا لهم ان يشرحوا وجهة نظرهم ، ليسمحوا لهم ان يقولوا ضد ماذا ثاروا ؟ اريد ان افهم ..فأنا ايضاً يهمني ذلك..

وصاح به الحاجب وهو يهدده باصبعه :

– الصمت . الصمت .

وهز سيزوف رأسه وهو متجهم الأسارير .

ولم ترفع الأم بصرها عن القضاة ؛ وكانت ترى غضبهم يتنـامى ، ولا تتميز كلمة من تهامسهم المتآمر . وكان رجع أصواتهم الخادع البارد يلامس وجهها ، فترتعش له وجنتاها ، وتحس في فمها طعم التقزز . لقد كان يخيل اليها انهم جميعاً يتحدثون عن جسم ابنها وأجسام رفاقه ، عن اطراف هذه الفتوة وعضلاتها التي تفور بالدم الحار والقوة الحية النابضة ؛ وان هذه الأجساد تضرم فيهم الحسد الكريه ، حسد المتسولين ، وتثير فيهم الشره الشديد ، شره المنهك والمريض ؛ فتتلمظ شفاههم ، ويتحسرون على هذه العضلات القادرة على ان تعمل ، وتثري ، وتتمتع ؛ وتخلق . أما أجسادهم هم ... أجساد هؤلاء العجائز ، فإنها تجفو دورة الحياة الفاعلة وتنكرها ، وتفقد إمكانية التمتع بقوتها ، وامكانية السيطرة على الحياة والتهامها ، ومن أجل ذلك ، كانت تلك الفتوة تثير في القضاة العجائز ميلاً حقوداً الى الثأر ، كذلك الميل الذي تثيره في الوحش الجائع رؤية اللحم الطري ، دون ان تكون له القدرة على امتلاكه ، فيستشعر انه فاقد لتلك الحيوية التي تملأ الآخرين ، فيزمجر بألم ، ويعوي بيأس ، وهو يرى أود حياته يفلت هكذا من يديـه .

وكانت الأم كلما اعارت القضاة انتباهاً أكثر ، كلما اتخذت هذه الفكرة الغريبة الفجة شكلاً واضحاً في رأسها ، ويخيل اليها انهم لا يعملون على اخفاء ذلك الشره القلق ، ولا ذلك السعار الخوّار ، سعار الجياع الذين لا يتورعـون عن التهام كل شيء يجدونه امامهم ؛ وكان يرهبها ، كامرأة ، وكأم تحب ، رغم كل شيء ، جسد ابنها أكثر من ذاك الذي يسمونه روحاً .. كان يرهبها ان ترى

تلك العيون المنطفئة تتساحب على وجهه ، وتتلمس صدره ومنكبيه ويديـه ، وتحتك ببشرته الملتهبة ، كأنهم إنما ينشدون فيها إمكانية الدفء ، واذكاء الدم في عروقهم المتصلبة ، وفي عضلاتهم المتهرئة ، عضـلات رجال نصف اموات تبعث فيها بعض الحيوية وخزات الشهوة ، شهوتهم الى تلك الحياة الفتية التي تحتم عليهم ان يدينوها ، وأن يمتلكوها . وكانت الأم تشعر ان ابنها يحس هـذا التماس الكريه الخضل ، وأنه يتطلع اليها مرتجفاً .

وكان بول يركز عليها عينيه الهادئتين الودودتين ، المتعبتين بعض الشيء ، ويومىء لها برأسه من حين الى آخر ، ثم يبتسم ، وكانت ابتسامته تقول لها :

– سأكون طليقاً عما قريب .

فتدغدغ هذه الابتسامة قلبها .

وفجأة نهض القضاة جميعاً، وتتبعت الأم تحركهم بصورة غريزية ، وقال سيزوف:

– إنهم منصرفون .

– لوضع الحكم ؟

– نعم .

وتبدد بغتة ذلك التوتر الذي كانت تحسه ، وهدّ كيانها اعياء مرهق ، وراح حاجبها يرتعش ، وتلألأت على جبهتها حبات من العرق، وتفجر في قلبها احساس ثقيل بالقرف والمهانة، وسرعان ما تحول هذا الاحساس الى ازدراء شديد الوطأة للقضاة وقرارهم ، وشعرت بألم تحت جبهتها ، فأمرّت يدها عليها بقوة، ثم ادارت بصرها فيما حولها : لقد كان ذوو المتهمين يقتربون من الحاجـز ، وكان صخب الأحاديث يملأ القاعة ، وتقدمت هي ايضاً من بول ، وشدت على يده وانفجرت تبكي وقد امتلأت هوناً وبهجة ، وضاعت في خليط من الأحاسيس المتناقضة ؛ وحدثها بول حديثاً رقيقاً ، أما البيوروسي فقد كان يمزح ويضحك .

وكانت النساء جميعهن يبكين ، ولكن بكاءهن كان في الغالب بدافع العادة لا الأسى ، ولم يكن الألم هو الذي يذهلهن بضربة على الرأس بلهاء ، بضربـة وحشية مفاجئة ، بل الاحساس الحزين بفراق ابنائهن ؛ غير إن هذا الاحساس

نفسه كان يغرق ويذوب في انطباعات نهارها ذاك . وكان ذوو المتهمين يرنون الى ابنائهم وقد استولى عليهم شعورٌ قلق يختلط فيه اختلاطاً عجيباً ارتيابهم بالشباب ، واستعلاؤهم الذي تعودوه ، بضرب من الاحترام ؛ وكانوا يتساءلون بأسىً : كيف تراهم سيعيشون الانْ ؟ وكان هذا الخاطر الملحاح يصطدم بالفضول الذي يثيره هؤلاء الشبان الذين كانوا يتحدثون بجرأة ودونما خوف ، عن امكانية الوصول الى حياة اخرى ، الى حياة أفضل . وكانوا ، وهم اعجز من ان يعبروا عن هذه المشاعر ، يستنفدون قواهم في فيض من الكلام غير انهم كانوا يتحدثون عن اشياء بسيطة : عن الغسيل والثياب ، وضرورة الاحتفاظ بالصحة الجيدة .

وكان الابن البكر لبوكين يحث اخاه الأصغر بحركات قوية :

— إننا نريد العدالة ... لا أكثر ...

ويجيبه الأخ الأصغر :

— اعتن جيداً بالزرزور ....

— لا تقلق من هذه الناحية .

وكان سيزوف يمسك بيد اخيه ويقول ببطء :

— ها أنت ذا تذهب يا تيودور !

ومال ثيو عليه وأسر شيئاً في اذنه وهو يبتسم ابتسامة خبيثة ، وابتسم كذلك جندي الحراسة الذي يقف الى جانبها، ولكنه لم يلبث ان استرد سحنته القاسية وسعل .

وكالاخرين كانت الأم تتحدث مع بول ، وفي المواضيع نفسها : عن غسيله وصحته ، في حين كانت تزدحم في نفسها الأسئلة عن ساندرين وعنه ، وعنها هي نفسها ؛ وفي ظل هذه الأحاديث كان ينمو شعورها بحبها العظيم لابنها ، ورغبتها الملحة في ارضائه ، في ان تكون اكثر قرباً الى قلبه . وكان ترقبها « للشيء الرهيب » قد تلاشى دون ان يترك وراءه شيئاً الا رعشة مزعجة ، كانت تهزها كلما مر في خاطرها ذلك التفكير المتجهم الدفين ، التفكير بالقضاة . وكانت تحس

بأن فرحاً غامراً وضاءً يولد في نفسها ، فرحاً لا تعرف له كنهاً ، ولكنه ... يقلقها . ورأت ان البيوروسي كان يتحدث مع احد الناس ، فتوجهت اليه ، لأنها أدركت أنه أحوج من بول الى الكلمة العطوف ، وقالت له :

— هذه المحاكمة لم تعجبني !

فصاح وهو يبتسم بامتنان :

— ولِمَ أيتها الأم الصغيرة ؟ انه طاحون عتيق ... ولكنه يدور ...

وأجابت هي بتردد :

— إنها لا تبعث الرهبة ... ولم نفهم معها أين هي العدالة ؟

— أوه . أوه ... أهذا ما كنت تريدينه ؟ أتعتقدين أنهم هنا يبحثون عن الحقيقة ؟

فتأوهت ثم ابتسمت :

— لقد كنت أحسب أن المحاكمة ستكون شيئاً رهيباً :

وتعالى صوت :

— تهيأت المحكمة !

فأسرع الجميع الى مقاعدهم .

وأخفى الرئيس وجهه بورقة ، وهو يستند الى الطاولة ، ثم راح يقرأ بصوت هزيل مدندن .

وقال سيزوف وهو يصغي :

— إنه القرار .

وخيم الصمت ، ووقف الجميع وقد تسمرت أبصارهم على العجوز الذي كان ينتصب ضئيلاً جافاً كعصا تمسك بها يدٌ غير منظورة ؛ ووقف القضاة أيضاً ، وكان نقيب المقاطعة يحدق في السقف ، وعنقه مائل على كتفه ، وكان العمدة يشبك ذراعيه ، وماريشال النبلاء يمسد لحيته ، أما القاضي ذو الوجه المريض وزميله البدين ، والنائب العام فقد كانوا يحدقون بالمتهمين . ووراء القضاة ، وفوق رؤوسهم كان القيصر يرنو رافلاً ببزته الحمراء الرسمية، ووجهه الأبيض الأبله

الذي كانت تحبو فوقه احدى الحشرات .

وقال سيزوف وهو يصعّد زفرة عزاء :

— النفي ، لقد قضي الأمر أخيراً فشكراً لله . كنا نتوقع ان يُحكم عليهم بالاشغال الشاقة . ولكن ذلك لم يحصل .

وقالت بيلاجي بصوت منهك :

— لقد كنت أعرف ذلك .

— ومع هذا فقد أصبح ذلك أكيداً ... ومن كان يستطيع ان يعرف !

واستدار نحو المحكومين الذين كانوا يخرجونهم من القاعة، وقال بصوت مرتفع:

— الى اللقاء ياثيو . الى اللقاء جميعاً . وليكن الله في عونكم .

وأومأت الأم برأسها الى ابنها ورفاقه ، أومأت لهم وهي صامتة ، وكان بودها ان تنتحب ، ولكنها كانت تخجل من دموعها .

— ٢٧ —

... وأدهشها وهي تغادر المحكمة ان ترى الليل قد لف المدينة ، والمصابيح مضاءة والنجوم تتألق في السماء. وعلى مقربة من قصر العدل كان الناس يتجمهرون في العراء البارد جماعات صغيرة، والثلج يصر تحت أقدامهم، وأصوات فتية تتعالى فيقاطع بعضها بعضاً ودنا من سيزوف رجل يرتدي قبعة رمادية وسأله بصوت سريع :

— ماذا كان الحكم ؟

— النفي .

— لهم جميعاً ؟

— لهم جميعاً .

— شكراً .

وابتعد الرجل . ومال سيزوف على الأم ليقول لها :

— أرأيت ؟ إن الأمر يثير الاهتمام ...

وأحاط بها فجأة فريق من الشبان والشابات ، وبدأت الهتافات تنهمر ؛

وتجتذب أشخاصاً آخرين .

وتوقفت الأم وسيزوف . وكان المتجمهرون يودون معرفة الحكم ووقعه على المحكومين ، ومن منهم ألقى خطاباً وفي أي موضوع ، وكان يضج في هذه الأسئلة كلها نفس الفضول النهم، الفضول الصادق الحار الذي يثير الرغبة في اشباعه.

وقال أحدهم :

— أيها السادة ، هذه هي والدة بول فلاسوف .

وصمت الجميع تقريباً .

— اتسمحين لي بأن أشد يدك ؟

وشدت يدٌ قوية يمين الأم ، واستأنف الرجل كلامه وقد ملأه التأثر :

— سيكون ابنك بالنسبة لنا جميعاً مثلاً أعلى في الشجاعة ...

ودوت صرخة عالية :

— يعيش العامل الروسي !

وكانت الأصوات تتضاعف وتتنامى ، وتتفجر هنا وهناك ، والناس يتوافدون من كل صوب ، ويزدحمون حول سيزوف والأم ، وكانت صفارات البوليس تشق الفضاء ولكنها لا تنجح في كبت الصراخ ، وكان سيزوف العجوز يضحك ، أما الأم ، فكان هذا كله يبدو لها كحلم جميل ، فتبتسم ، وتشد على الأيدي ، وتنثر التحايا ، وتشرق لهاتها بدموع السعادة ، وترتجف ركبتاها من التعب ، ولكن قلبها الذي غمرته بهجة تلقفت كل شيء ، كان يعكس انطباعاتها كصفحة مشرقة لبحيرة صافية ، وعلى قرب شديد منها كان صوت متميز يتعالى بعصبية :

— أيها الرفاق . إن الغول الذي يفترس الشعب الروسي قد أشبع اليوم ، من جديد ، نهمه الجشع الطاغي ...

وقال سيزوف :

— هيا بنا نذهب أيتها الأم .

وفي اللحظة نفسها ظهرت ساندرين ، فتأبطت ذراع الأم وجرتها بسرعة الى

الرصيف الآخر :

ـ تعالي فقد يلجأ البوليس الى ضرب الناس وتوقيفهم .

ثم سألت :

ـ النفي ؟ الى سيبيريا ؟

ـ نعم . نعم .

ـ وكيف تكلم ؟ أنا أعرف ذلك من قبل .لقد كان أشدهم بساطة، وأصلبهم كذلك وأقساهم . إنه حساس ، رقيق ، ولكنه يخجل من اظهار عواطفه .

وكانت حرارة الكلمات التي تنطق بها همساً ،كلمات حبها، تهدىء من اضطراب الأم ، وتنعش قواها الخائرة .

وسألتها بصوت خافت وحنو وهي تشد يدها :

ـ متى ستذهبين للالتحاق به ؟

وأجابت الفتاة وهي تركز بصرها أمامها بثقة :

ـ عندما أجد من يحمل عني عبء عملي ؛ وعلى كل فأنا أيضاً سأحكم وسأنفى بلا شك مثله الى سيبيريا . وسأصرح انني أرغب في أن أنفى الى المكان الذي سيكون هو فيه ...

وتعالى من ورائها صوت سيزوف :

ـ بلغيه اذن تحياتي ... انني ادعى «سيزوف» وهو يعرفني .اني عم ثيومازين.

وتوقفت ساندرين واستدارت نحوه وهي تمد اليه يدها :

ـ أعرف تيو . واسمي ساندرين .

ـ واسم والدك ؟

فرنت اليه وأجابت :

ـ ليس لي اب .

ـ هل هو متوفي ؟

وردت بحرارة ، وفي صوتها شيء من العناد والاصرار ، بديا في ملامحهـا :

ـ كلا انه ما زال على قيد الحياة . انه من أصحاب الأملاك ، وهوالآن مدير

الناحية ... انه ينهب الفلاحين .

فقال سيزوف باعياء :

ـ هكذا ... اذن .

ثم اردف بعد صمت قليل ؛ وهو يتفحص الفتاة بطرف عينيه :

ـ حسناً ، وداعاً ايتها الأم . سأسلك الشارع الذي على يسارنا . الى اللقاء يا آنستي انك شديدة القسوة على والدك ، وما من شك في ان ذلك من شأنك انت ...

وصاحت ساندرين بانفعال :

ـ لو كان ابنك فتى سوء ، يلحق الأذى بالآخرين لدرجة تثير فيك الرعب ، أما كنت تقول مثل قولي ؟

فأجاب بعد لحظة من التردد :

ـ ... أقول .

ـ إذاً فستكون الحقيقة عندك اغلى من ابنك، وهي بالنسبة لي اغلى من والدي.

وابتسم سيزوف وهز رأسه ثم قال متأوهاً :

ـ انك بارعة الجواب ، لا يطول الصراع معك . انك تعرفين كيف تقهرين الشيوخ فأنت شديدة البأس. وداعاً ، وليحالفك الحظ ، ولتكن معاملتك للناس أكثر حلماً وتسامحاً . وأنت يا نيلوفنا سلاماً . إذا اجتمعت ببول فبلغيـه اني استمعت اليه جيداً . صحيح اني لم افهم كل ما قال ، وأنه قد أثار رعبي في بعض المقاطع ، ولكن ما قاله كان حقاً . قولي له ذلك .

ورفع قبعته واختفى متباطئاً في منعطف الشارع .

ولاحظت ساندرين وهي تشيعه بنظرة باسمة :

ـ يبدو أنه رجل طيب .

وأحست الأم ان في وجه الفتاة تعبيراً أفضل من المعتاد وأكثر رقة .

وعندما بلغتا المنزل جلستا على الأريكة متلاصقتين ، واستأنفت بيلاجـي الحديث عن خطة ساندرين ، في حـين كان كل شيء يستريح في الصمت . أما

ساندرين فكانت ترنو الى البعيد بعينيها الواسعتين الحالمتين ،وقد تسامق حاجباها الكثيفان ،وكان وجهها الشاحب يعكس كالمرآة مايطيف بنفسها من تأمل هادىء .

— وفيما بعد،عندما يصبح لكما اطفال — سألتحق بكما ايضاً لاعتني بهم ،ولن يكون العيش هناك أسوأ من هنا ، إذ سيجد بول عملاً لأن له يدين من ذهب ..

ولفتت ساندرين الأم بنظرة متفحصة :

— الا ترغبين في اللحاق به حالاً ؟

فزفرت بيلاجي :

— وماذا يستفيد مني ؟ إني سأسبب له الازعاج فقط إذا ما عزم على الهرب، ثم إنه قد لا يرضى ...

وهزت ساندرين رأسها :

— إنه لن يرضى .

وأضافت بيلاجي بشيء من الزهو :

— ثم إن لديّ هنا ما يجب ان اقوم به .

وردت ساندرين بسهوم :

— اجل ... وهذا حسن .

وارتعشت فجأة كأنها تتخفف من عبءٍ ثقيل ، ثم قالت ببساطة وبصوت خفيض :

— لن يمكث هناك طويلاً ، ولا ريب انه سيهرب .

— ولكن ماذا سيحل بك انت والطفل إذا كان لكما طفل ؟

— سنرى . يجب الا يدخلني في حسابه ، وعليّ انا الا ازعجه . صحيح انه سيؤلمني كثيراً ان انفصل عنه ، ولكن من المؤكد انني سأتغلب على هذا الألم . إني لن ازعجه ، لن ازعجه ابداً .

وشعرت الأم ان ساندرين جديرة بأن تتصرف وفق ما قالت ، فأخذتها الشفقة عليها وضمتها بين ذراعيها :

— يا عزيزتي ... سيكون ذلك شديداً عليك .

وابتسمت ساندرين برقة والتصقت بالأم بكل كيانها ...

وأقبل نيقولا منهكاً ، وقال على عجل وهو ينضو ثيابه :

— اسرعي يا ساندرين ، وارحلي ما دام لديك متسع من الوقت ، فهناك جاسوسان ما فتئا يلاحقانني منذ الصباح واني ، بصراحة ، أشم في هذا رائحة الاعتقال . إن حدسي يقول ذلك . يجب ان يكون هناك شرٌّ قد وقع في مكان ما . وبالمناسبة خذي ، هذه مرافعة بول ؛ لقد تقرر طبعها فاحمليها الى لوميلا ، وألحي عليها بانجاز ذلك باسرع ما يمكن . لقد أجاد بول كثيراً يا نيلوفنا، وأنتِ يا ساندرين ، حذار من الجواسيس ...

وكان وهو يتكلم يفرك ، بقوة ، يديه اللتين جدهما الصقيع ، ثم اقترب من الطاولة وأسرع في فتح ادراجها ، وأخرج أوراقاً مزّق بعضها ، ونحّى بعضها الآخر ، وهو مضطرب مغموم :

— لم يمضِ وقتٌ طويل على تنظيف هذه الأدراج ، ومع ذلك ، انظري هذه الرزمة الهائلة التي تكدست فيها . يا للشيطان. إنه من الأفضل بلا شك الا تنامي هنا يا نيلوفنا ، أليس كذلك ؟ إن مشاهدة تلك « المهزلة » شيء يبعث الضجر ، ولن يتورعوا عن اعتقالك أنت أيضاً ؛ ثم إنه يتوجب عليكِ كذلك ان تحملي خطاب بول لتوزعيه ....

— قل لي لماذا يعتقلونني ؟

فأجاب نيقولا بثقة وهو يلوح بيده أمام وجهها :

— إني أستروح ذلك ، وعلى كل ، باستطاعتك ان تساعدي لوميلا ... أليس كذلك ؟ إذهبي إذن قبل ان تقعي في شدق الذئب .

وأجابت وقد أسعدتها فكرة الاسهام في طبع خطاب بول :

— إذا كانَ الأمر كذلك فإني سأذهب .

ثم أضافت ، ولكن بصوت خافت :

— الآن لم أعد أخشى شيئاً ، فشكراً لك يا رب .

وصاح نيقولا دون ان يلتفت إليها :

— رائع ... ولكن آه ... قولي لي أين هي ثيابي وحقيبتي ؟ لقدقبضت على كل شيء ، بيديك النهمتين ، فأصبحت لا أستطيع ، على الاطـــلاق التصرف بملكي تصرفاً حراً .

وكانت ساندرين تلقي ، وهي صامتة ، الأوراق الممزقة في المدفأة ، وعندما احترقت هذه الأوراق حرصت على ان تخلط رمادها برماد الفحم .

وقال نيقولا وهو يبسط لها يده :

— هيا يا ساندرين ارحلي . الى اللقاء ، ولا تنسي ان ترسلي لي كتبــاً إذا ظهر منها ما يثير الاهتمام . الى اللقاء أيتها الرفيقة العزيزة ؛ كوني حذرة .

وسألته ساندرين :

— هل تعتقد ان بقاءك هناك سيطول ؟

— الشيطان وحده هو الذي يعلم ؛ ولكن مكثي سيطول بلا شك ، فهناك أشياء كثيرة تؤخذ عليّ . اذهبا معاً يا نيلوفنا لانه من الصعب تتبع شخصين ،الا توافقانني على ذلك ؟

— سأذهب ؛ وها أنذا ارتدي ثيابي .

وكانت تراقب نيقولا بانتباه ، ولكنها لم تلحظ في ملامحــه شيئاً إلا ذلك الاهتمام الذي كان يحجب ما في وجهه من طيبة ورقة معتادة ، ولم تر فيه ، هــو الذي كان أعز لديها من الاخرين ، لم تر أية امارة من امارات العصبية الزائدة ، أو علامة من علامات الاضطراب . لقد كان يولي الجميع نفس الأنتباه ، وكان ودوداً متزناً مع الجميع ، ورغم هدوئه ووحدته فقد ظل بالنسبة لاصدقائــه ، كسابق عهدهم به ؛ رجلا يعيش حياة داخلية خفية، حياة يبدو معها كأنه يسبق الاخرين . ولكنها كانت تدرك أنه أقرب إليها ، وأشد انسجاماً ، لذلك أحبته حباً حذراً يبدو غير واثق من نفسه . أما الان فهي تشعر انها تشفق عليه اشفاقاً يفوق الحد ، ولكنها تسيطر على هذا الإحساس ، لإنها تعلم انها إذا ما جهرت به وأعلنته ، فإن نيقولا سيفقد سعة صدره وسيعاني القلق ، وينقلب الى رجـــل مضحك بعض الشيء كعادته ؛ وهي لا تحب ان تراه كذلك .

وعادت الى الغرفة ، وكان هو يشد يد ساندرين :

— رائع . أنا واثق من ان ذلك سيكون خيراً لك وله ؛ فقليلٌ من السعادة الشخصية لا يضر شيئاً . هل أنت على استعداد يا نيلوفنا ؟ .

ودنا منها باسماً ، وعدّل من وضع نظارتيه :

— حسناً الى اللقاء . بعد ثلاثة أو أربعة أو ستة أشهر . لنقل ستة أشهر . فإنها شيء كثيرٌ في الحياة . رجائي ان تُعني بنفسك . أليس كذلك ؟ تعالي نتعانق .

ولف بذراعيه عنق بيلاجي ، وحدق في عينيها ضاحكاً وقال :

— سيقال اني وقعت في غرامك ، فأنا اعانقك دائماً .

وقبّلت جبينه ووجنتيه دون ان تتكلم ، وكانت يداها ترتعشان فتركتهما تهويان كيلا يلاحظ ارتجافها .

— كوني حذرة ؛ واوفدي اليّ ، صباح الغد ، غلاماً لمقابلتي هنا ... عنــد ليوميلا صبي شاطر ... الى اللقاء أيتها الرفيقتان ، ولتسر الأمور على ما يرام .

وعندما أصبحت ساندرين في الشارع قالت :

— إذا أضطر لأن يذهب الى لقاء الموت ، فسيلاقيه بنفس البساطة مسرعــا بعض الشيء ، مثله الان . وعندما يأتيه الموت ، سيسوي نظارتيه ويقــول له : « رائع » ثم يموت .

وغمغمت الأم :

— إني احبه أشد الحب .

— إنه يدهشني ، اما اني احبه فلا . ولكني اقدره أشد التقدير . إنه جاف بعض الشيء رغم انه طيب وودود احياناً ، ولكنــه ليس بشرياً كفاية ... يبدو ان الارصاد يتتبعوننا فلنفترق. لا تذهبي الى لوميلا إذا رأيت ان هناك من يراقبك.

وقالت الأم :

— اعرف .

ولكن ساندرين أصرت :

– لا تذهبي اليهـــا ، ومن الأفضل ان تأتي الى منزلي ، وبانتظار ذلك ، استودعك الله .

واستدارت بسرعة ، وعادت على اعقابها .

– ٢٨ –

وبعد بضع دقائق كانت بيلاجي تصطلي قرب المدفأة في حجـــرة ليوميلا الصغيرة ، وكانت هذه ، وقد ارتدت ثوباً اسود يلفه مشدّ جلدي ، تروح وتجيء ببطء في الغرفة التي تملأها بخفيف ثوبها ونبرات صوتها الامر . وكانت النـــار في الموقد تزفر وتصفر وهي تعبئ هواءَ الحجرة ، وصوت لوميلا الرتيب يلعلع :

– إن الناس بهائم ، اكثر بكثير مما هم أشرار .. فهم لا يرون ما هو قريب منهم حقير ، وكل ما له قيمة في نظرهم ناءٍ بعيد . إنهم سيفيدون جميعاً بكل تأكيد ، وسيسعدون إذا ما تبدلت الحيـــاة ، وغدت اكثر يسراً وغدوا هم اوسع عقلاً ، ولكن يجب علينا ، لبلوغ ذلك ان نتخلى عن الطمأنينة موقتاً ...

وانتصبت فجأة امام الأم ، وقالت بصوت اشد خفوتاً كأنها تعتذر :

– إني لا أرى إلا القليل من الناس ، لذلك إذا مرّ أحدهم لمقابلتي انغمست في الثرثرة ... أليس هذا مضحكا ؟

وأجابت الأم :

– لماذا ؟

وكانت تحاول ان تكتشف المكان الذي تطبع فيه ليوميلا المنشورات فلا ترى حولها شيئاً غريباً . ففي الغرفة التي تطل نوافذها الثلاث على الشارع ، توجد اريكة ، ومكتبة ، وطاولة ، وبعض الكراسي ، وسريرٌ بالقرب من الجدار ؛ وفي إحدى الزوايا مغسلة ، وفي الأخرى مدفأة . أما الجدران فكانت تغطيها الصور . وكان كل شيء يبدو جديداً ، قوياً ، نظيفاً ، يخلع عليه الشبح الرهباني لربة المنزل ظلاً بارداً ، ويستشعر المرء كأن هناك شيئاً خبيئاً خفياً ، ولكنه لا يدري أين هو ... وتطلعت الأم الى الأبواب ؛ لقد ولجت الغرفة من احدهـــا

الذي يطل على رواق صغير ، أما الآخـــر وهو مرتفع ضيق فقد كان بالقرب من المدفأة .

وشعرت ان ليوميلا تراقبها ، فقالت بارتباك :

– لقد جئت بمهمة ...

– اعرف ذلك ، فليس هناك من يأتي اليّ لامر آخر ..

ولمست الأم في صوتها نبرة غريبة ، ورنت اليها فإذا البسمة على حفاف شفتيها الرقيقتين ، وإذا عيناها الخابيتان تلتمعان وراء نظارتيها . وحولت بيلاجي بصرها عنها ومدت اليها يدها بخطاب بول :

– تفضلي . إنهم يرجونك ان تطبعيه بأسرع ما يمكن .

وراحت تحدثها عن تدابير نيقولا الاحتياطية خشية اعتقاله .

ودست ليوميلا الورقة في زنارها بصمت ، وجلست على احد المقاعد ، فانعكس لهب النار الأحمر على زجاج نظارتيها ، واختالت في وجهها الخالي من كل تعبير بسمة لاهبة ، وبعد ان استمعت الى حديث الأم قالت بصوت خفيض مصمم :

– سأطلق عليهم النار عندما يجيئون اليّ ، فمن حقي ان ادافع عن نفسي ضد العنف ، ويجب عليّ ان افعل إذا كنت ادعو الاخرين الى نضاله .

واختفت انعكاسات اللهب على وجهها ، وارتسم في ملامحها شيء من القسوة وظل الكبرياء .

وحدثت الأم نفسها بود :

– « إن حياتك ليست مضحكة . »

وأخذت ليوميلا تقرأ خطاب بول ، تقرأه في بادىء الأمر مكرهةً ، ثم لم تلبث ان زاد انكبابها على الورق ، وكانت تطرح بعنف الأوراق التي انهت قراءتها ، حتى إذا انتهت من قراءة الخطاب ، وثبت من مقعدها واقتربت من الأم قائلة :

– إنه رائع .

وأطرقت برأسها قليلاً ثم أردفت :

– لم أشأ ان احدثك عن ابنك ، فأنا لم أره أبداً ، ثم إني لا أحب الأحاديث

الحزينة ؛ وأعلم ماذا يعني ان يرى المرء احد ذويه يسير الى المنفى ؛ ولكنني أود ان أسألك : هل من الخير ان لك ولدٌ مثله ؟

وأجابت الأم :

ـ أجـل .

ـ ولكنه شيء رهيب .. أليس كذلك ؟

وابتسمت الأم برقة :

ـ كلا .. ليس في ذلك ما يُرهب حتى الآن !

وسوّت ليوميلا بيدها السمراء شعرها الأملس ثم استدارت نحو النافـذة ، ورفّ فوق وجنتيها ظلٌ خفيف ، لعله ظلٌ لبسمة مكبوتة

ـ سأباشر العمـل بسرعة . أما أنت فستطجعـين . لقد كان نهارك شاقاً ، وأنت تعبة . نامي هنا على السرير ، فأنا لن انام ، وربما ايقظتك اثناء الليل لتساعديني ، وقبل ان تغفي ، اطفئي المصباح .

وألقمت النار قطعتين من الحطب ، ثم نهضت ، وخرجت من الباب الضيق بالقرب من المدفأة ، وأغلقته وراءها بعناية ، وتتبعتها بيلاجي بعينيها ، ثم اخذت تنضو عنها ثيابها وهي تفكر بضيفتها :

ـ انها تقاسي حزناً ما ..

وكان التعب يعصف برأسها كالدوار ، ولكنها مع ذلك كانت تشعر ان نفسها هادئة أشد الهدوء ، وأن كل شيء يتألق في عينيها بضياء ناعم مدغدغ ، ضياء رتيب ساكن ؛ يملأ قلبها . لقد كانت تعرف من قبل هذه الطمأنينة التي تجيء دائماً في أعقاب الانفعالات الكبرى ، والتي كانت من قبل ، ترعبها بعض الشيء ، أما الآن فهي توسّع آفاق نفسها ، وتوثقها باحساس قوي كبير . وأطفأت المصباح ورقدت في السرير البارد ، وتجمعت تحت الغطاء ، ثم لم تلبث ان غرقت في سبات عميق .

وعندما فتحت عينيها كان انعكاس النور يملأ الغرفة بضياء أبيض جليدي ، ضياء يوم من أيام الشتاء . وكانت لوميلا تستلقي على الأريكة ، وفي يدها كتاب

وكانت ترنوا الى النائمة وعلى شفتيها بسمة لم تتعودها منها .

وصاحت بيلاجي مرتبكة :

ـ أوه يا إلهي ... هل مرّ علي وقت طويل وأنا نائمة ؟

وردت ليوميلا :

ـ طاب صباحك . لقد بلغت الساعة العاشرة ، فانهضي وهيا بنا لتناول الشاي .

ـ لماذا لم توقظيني قبل الآن ؟

ـ أردت ان أفعل ، ولكن بسمتك كانت حلوة جداً وانت نائمة !

ونهضت بحركة ناعمة انتظمت كيانها كله ، واقتربت من السرير ، وانحنت فوق وجه الأم ، فقرأت هذه في عينيها الخابيتين شيئاً فيه الفة ، وقرب ، ووضوح .

ـ لقد ندمت لايقاظي إياك ؛ اذ لعلك كنت تغرقين في حلم جميل ؟

ـ لم أحلم في حياتي ابداً ...

ـ حسناً ، هذا لا يهم ... ولكن بسمتك اعجبتني ، فهي وادعة جـداً ، وطيبة جداً ... وعظيمة جداً ...

وراحت ليوميلا تضحك وكانت ضحكتها صماء [illegible] .

ـ لقد بدأت أفكر بك . فهل حياتك شاقة ؟

وارتعش حاجبا الأم ، وصمتت تفكر .

وسارعت ليوميلا الى القول :

ـ حتماً ... انها شاقة .

وقالت الأم بتردد :

ـ لا ادري ... ويخيل الي في بعض الاحيان انها كذلك . ان هناك كثيراً من الاشياء وكلها جاد ومدهش ، وهي تتعاقب مسرعة ... مسرعة جداً .

وتصاعدت موجة القلق التي تعرفها جيداً ، تصاعدت الى قلبها فملأته بالصور والافكار ، ثم جلست في سريرها ، وسارعت تجسد افكارها تلك .

ـ هذا يروح وهذا يجيء . والنتيجة هي دائماً ذاتها . ان في الحياة لو تعلمين ، كثيراً من الاشياء المؤلمة ، فالناس يتعـذبون ، ويُضربون ، يُضربون بقسوة

وتُحرِّم عليهم كثير من المباهج؛ وهذا لعمري أمر شديد القسوة بالنسبة اليهم .

ورفعت ليوميلا رأسها بتأثر ، ولفتت الأم بنظرة عميقة :

— انك لا تتكلمين عن نفسك .

ورنت اليها الأم ، ثم نهضت ، واخذت ترتدي ثيابها !

— وكيف يمكننا ان نعزل انفسنا عن الناس عندما نحب واحداً ، ويكون الآخر عزيزاً علينا ، وعندما نخاف من اجلهم جميعاً ، ونشفق عليهم ...ان ذلك كله يصطرع في القلب ... فكيف نبقى في معزل ؟

وظلت ساهمة لحظة،وهي نصف عارية فيوسط الحجرة،وخيل اليها انهالمتعد تلك التي اغتمت كثيراً ، واكتأبت كثيراً من أجل ابنها ، وعاشت على امل الاحتفاظ به سالماً معافى . ان بيلاجي هذه لم تعد موجودة . لقد انفصلت، ونأت بعيداً الى مكان لا يعرفه أحد ، ولعل نار الانفعالات قد التهمتها ، ولعل نفسها قد انطلقت متخففة من أثقالها ، مطهرة، ولعل قوة جديدة راحت تبرىء قلبها من جديد . وكانت تصغي لذاتها وتشتهي ان تكتشف ما يدور في نفسها وتساورها الخشية في ان توقظ من جديد همومها العتيقة .

وسألتها ليوميلا بود وهي تدنو منها :

— بمَ تفكرين !

— لا أدري .

وصمتت كلتاهما وتبادلتا النظرات وابتسمتا ثم خرجت ليوميلا وهي تقول:

— ماذا حدث لابريق الشاي ؟

وسرّحت الأم بصرها من النافذة ، وكان يلف الدنيا في الخارج نهار بارد شديد البرودة ، وكان جو قلبها صافياً كذلك ، ولكنه حار . وكانت تشتهي ان تتحدث عن كل شيء ، ان تتحدث طويلا وبغبطة غامرة ، يحدوها شعور غامض من عرفان الجميل نحو كائن مجهول .. ان تتحدث من اجل ما يتساقط في نفسها فيضيئها ، من ألق ارجواني كذاك الذي يسبق شفق الغروب..

وتملكتها رغبة في ان تصلي ، رغبة لم تشعر بها منذ زمن بعيد ، وتذكرت

وجهاً فتياً ، وتعالى في خاطرها صوت مرنان : « إنها والدة بول ساموالوف » ، وتألقت في ذاكرتها عينا ساندرين حانيتين مغتبطتين ، وانتصب شبح ريبين الاسود ، وابتسم وجه بول البرونزي الحازم،وغمز نيقولا بعينيه مرتبك الملامح. وراحت هذه الصور كلها تتراقص فجأة ، وتحركها نسمة عميقة خفيفة فتختلط وتتمازج في سحابة شفافة غنية الألوان تغمر خواطرها كلها بحس الدعة والاطمئنان .

وقالت ليوميلا وهي تعود الى الغرفة :

— لقد كان نيقولا على حق ... فلقد اعتقلوه . لقد أرسلت الصبي كما قلت فوجد رجال البوليس عنده ، وكان أحدهم يختبىء وراء الرتاج ، والجواسيس يطوفون حول البيت ، وكان الصبي يعرفهم ...

وقالت الأم وهي تهز رأسها :

— آه . يا للمسكين .

وزفرت ، ولكن من غير حزن ، وهذا ما أدهشها بعض الشيء .

وقالت ليوميلا وقد بدا في ملامحها التجهم والهدوء :

— لقد عقد في المدة الأخيرة كثيراً من الاجتماعات عند عمال المدينة ، ومع ذلك كان لديه متسع من الوقت لكي يتوارى ، ولقد نصحه الرفاق بذلك فلم يصغ اليهم . اعتقد انه في مثل هذه الحالات ينبغي ان يُكره المرء إكراهاً لا أن يُنصح ...

وظهر على العتبة فتى مورد الوجنات ، اسود الشعر ، ذو عينين زرقاوين حلوتين ، وأنف أقنى ؛ وسأل بصوت جهور :

— هل آتي بالشاي !

— اذا أردت يا سيرج ... انه ربيبي .

وكانت الأم تلاحظ ان تغيراً قد طرأ على ليوميلا هذا الصباح ، فهي أكثر بساطة وأقل نأياً ، وفي حركاتها الرشيقة ، حركات جسمها المتناسق كثير من الجمال والقوة ، وهذا ما كان يلطف قليلاً من قسوة وجهها الشاحب . وكانت

الهالات الزرقاء حول عينيها قد توسعت أثناء الليل فنم ذلك عن الجهد المتواصل الذي تبذل ، وكانت نفسها متوترة ، كحبل مشدود الى النهاية .

وحمل الصبي ابريق الشاي .

— هذه هي يا سيرج ، بيلاجي نيلوفنا ، والدة ذلك العامـــل الذي حكم عليه البارحة .

وانحنى الصبي دون ان ينبس بكلمة ، وشدّ يد الأم ثم خرج ، وعاد يحمل بضع قطع صغيرة من الخبز ، ثم جلس الى المائدة . وأقنعت ليوميلا بيلاجي ، وهي تصب الشاي ، بألا تعود قبل ان يُعرف ما اذا كان رجال البوليس مازالوا ينتظرون عند نيقولا .

— لعلهم بالتأكيد يريدون ان يستجوبوك انت ...

وأجابت الأم :

— ليستجوبوني ، وليوقفوني فلن يزيد ذلك من شقائي ، ولكن ينبغي أولاً توزيع خطاب بول في كل مكان .

— لقد صُفّ اليوم ، وسيكون لنا غداً نسخ كافية للمدينة والضاحية . هل تعرفين ناتاشا ؟

— كيف لا أعرفها ؟

— احملي اليها من هذه النسخ ...

وكان الصبي يقرأ في احدى الجرائد، ويبدو عليه كأنه لا يسمع شيئاً، ولكن عينيه كانتا احياناً تستقران على وجه الأم ، فيسرها ان يلتقي بصرها بنظرته الحادة ، ويدفعها ذلك الى الابتسام .

وعادت ليوميلا الى الحديث عن نيقولا دون ان يظهر عليها التأثر لاعتقاله ، وبدت لهجتها طبيعية تماماً في نظر الأم . وكان الوقت يمر سريعاً أكثر منه في الايام الأخرى، وعندما انتهوا من طعام الفطور ، كان النهار قد انتصف أو كاد.

وُطرق الباب بعنف ، فنهض الصبي وألقى نظرة متسائلة على سيدة المنزل وهو يقطب حاجبيه .

— افتح يا سيرج . من تراه يكون ؟

وبحركة هادئة دست يدها في جيب تنورتها وقالت للأم :

— اذا كانوا من رجال الدرك فاجلسي هنـــا في هذه الزاوية ، وأنت يا سيرج ...

فقاطعها الصبي بصوت خفيض :

— اعرف ..

ثم توارى .

وابتسمت الأم ، فهذه الاستعدادات لم تعد تحركها ، لأنها لم تعـــد تحدس بأي شقاء جديد .

وكان القادم هو الطبيب الصغير الذي سارع الى القول :

— اولاً : لقد اعتقل نيقولا . آه . آه . أأنت هنا يا نيلوفنا؟ألم تكوني هناك عندما اعتقل !

— لقد أرسلني الى هنا .

— ُهمْ ... لا أعتقد أن هذا سينفعك ... وثانياً : لقد استخرج عددٌ من الشبان ، هذه الليلة ، خمسماية نسخة من الخطاب . ولقد رأيتها ، وأعتقد أن لا بأس بها فهي واضحة مقروءة . إنهم يريدون ان يوزعوها في المدينة هذا المساء ، أما أنا فأعارض ذلك لأني أفضل توزيع الأوراق المطبوعة في المدينة .. أما هذه المخطوطة فينبغي ان ترسل الى ناحية أخرى .

وصاحت الأم بحرارة :

— حسناً أعطوني اياها لأحملها الى ناتاشا !

لقد كانت تعاني رغبة فظيعة في أن تنشر خطاب بول بأسرع ما يمكن، وان تغرق الأرض بكلمات ابنها ، وكانت ترنو الى الطبيب بعينين يقظتين ، ينهـــلّ منهما التوسل .

وقال الطبيب بتردد :

— آه يا للشيطان . انا لا أدري ما إذا كان من المناسب ان نكِلَ اليك هذا

الأمر الآن !

وأخرج ساعته ثم تابع :.

ـ الساعة الآن الحادية عشرة والدقيقة الثالثة والأربعون ، وسيصل القطار في الثانية وخمس دقائق ، وستكونين هناك في الخامسة والربع ؛ أي في المساء ولن يكون الوقت متأخراً على كل حال ... ثم ان القضية ليست هنا ...

ورددت ليوميلا متغضنة الجبين :

ـ كلا ... القضية ليست هنا ...

وسألت الأم وهي تدنو منها :

ـ إذن ؟.. الأمر يتوقف فقط على حسن انجاز العمل .

وركزت ليوميلا بصرها عليها ، وقالت وهي تمسح جبينها :

ـ إن في ذلك خطراً عليك ...

وأجابت الأم بإصرار لاهب :

ـ ولماذا ؟

وردد الطبيب بصوت عجلان ، ولكنه متفاوت النبرة :

ـ السبب هو هذا : لقد تركتِ المنزل قبل اعتقال نيقولا بساعة من الزمن. ويحتمل أنكِ كنت في المعمل حيث يعرفونك كعمةٍ للمدرّسة . وبعد وصولك ظهرت منشورات ممنوعة . إن هذا كله سيكون كالأنشوطة التي تضيق حول عنقك .

وأكدت الأم بحرارة :

ـ إنهم لن ينتبهوا لي ، وإذا أوقفوني عند العودة ، فليسألوني أين كنت ؟

وتوقفت لحظة ثم أردفت :

ـ وسأعرف كيف أجيبهم، وسأنطلق من هناك تواً الى الضاحية حيث يقيم احد معارفي ويدعى سيزوف . وسأقول بأني قد توجهت بعد صدور الحكم على الفور الى منزله ، وبأني كنت حزينة ، وكان هو كذلك،فلقد حكم على ابن اخيه مع بول . وسيقول هو نفس القول . أرأيتا ؟...

ولمست الأم انهما يميلان الى الرضوخ لرغبتها ، فراحت تبذل جهدها لاقناعهما نهائياً ؛ وكانت تتكلم بالحاح متزايد الى أن رضخوا في النهاية .

ـ لا حيلة في اليد فاذهبي ..

وكانت ليوميلا صامتة ، تروح وتجيء في الغرفة وهي مطرقة . وكان وجهه هو متجهماً وخداه غائرين ، وعضلات عنقه تبدو مشدودة ، كأن رأسه قد ثقل فجأة ، وتدلى على صدره بصورة لا إرادية .

وتأملته الأم وقالت له باسمة :

ـ إنكم ترفقون بي كثيراً ولكنكم لا ترفقون بأنفسكم !

وأجاب :

ـ ليس هذا صحيحاً ، فكلانا بالآخر رفيق ، ويجب ان نكون كذلك . إننا نلوم أولئك الذين يبعثرون قواهم على غير طائل ، أجل يا سيدتي ... ولنعد الى موضوعنا الآن . سنسلمك نسخ الخطاب في المحطة .

وراح يشرح لها ما يجب عليها ان تفعله ، ثم نظر اليها مواجهة وقال :

ـ حسناً . أتمنى لك حظاً طيباً .

ومضى ... وقد بدا عليه انه لم يكن مع ذلك راضياً ؛ وما ان اغلق الباب وراءه حتى دنت ليوميلا من الأم ، وعلى شفتيها بسمة صامتة :

ـ انني أفهمك ...

وتأبطت ذراعها ، ثم سارت من جديد بضع خطوات في الحجرة :

ـ وأنا أيضاً لي ولدٌ بلغ الثالثة عشرة من عمره ؛ وهو يعيش مع والده . إن زوجي وكيل نيابة ، والصبي معه ، واني غالباً ما أتساءل : ماذا سيكون مصيره ؟

وارتعش صوتها ؛ واستأنفت بصوت ساهم خفيض :

ـ إن من يشرف على تربيته عدوٌ واعٍ لأولئك الذين أعتبرهم أفضل من حملت الأرض ؛ وقد يصبح ابني ، عندما يكبر ، عدواً لي ايضاً ؛ فأنا لا أستطيع ان آخذه ، لأنني أعيش تحت اسم مستعار، ولقد مضى عليّ ثماني سنوات

لم آره خلالها ؛ ثماني سنوات ... إنه لأمد طويل .

وتوقفت بالقرب من النافذة ، ورنت الى السماء الباهتة المقفرة :

— لو كان معي لكنتُ اقوى ، ولما كان في قلبي هذا الجرح الذي يعذبني ابداً. وحتى لو كان في عداد الأموات فإن عذابي سيكون أخف وطأة ...

وقالت لها الأم بصوت شديد الخفوت ، وقد هصرت الشفقة قلبها :

— يا صغيرتي المسكينة .

وأردفت ليوميلا باسمة :

— إنك سعيدة . وانه لرائع ان تمشي أمٌّ وابنها جنباً لجنب ، وهذا امر نادر .

وصاحت بيلاجي وقد أدهشها هتافها :

— أجل . . انه لجميل .

وأردفت وهي تخفض من صوتها كأنها تبوح بسر :

— انكم جميعاً ، انتِ ونيقولا وكل أولئك الذين يعملون من أجل الحقيقة تسيرون أيضاً جنباً الى جنب ؛ لقد أصبح الناس ، دفعة واحدة ، اقرباء اعزاء ، واني لأفهمهم جميعاً . صحيح اني لا أفهم ما يقولون ... ولكني أفهم الباقي كله ... افهمه ...

وقالت ليوميلا :

— نعم . . انه كذلك .

وألقت الأم يدها على كتفها ، وضغطت بلين ثم تابعت بصوت كأنه الغمغمة وكأنها انما تصغي الى افكارها هي نفسها :

— ان الابناء يتقدمون في الدنيا ؛ هذا ما أدركه ، انهم يتقدمون في الدنيا ، في الأرض كلها ، وفي كل مكان ، نحو هدف واحد . ان أنقى القلوب ، إن العقول الشريفة تزحف بإصرار ضد كل ما هو سيء ، وتسحق الدجل بخطواتها الصامدة ، والشبان ، الشبان الأصحاء ، يوجهون قواهم التي لا تقهر ، في سبيل غاية واحدة هي تحقيق العدالة . انهم يسيرون نحو الانتصار ، الانتصار على العذاب

الناس ، ويمتشقون السلاح ليقضوا على شقاء الكون ؛ ويناضلون ليقهروا الخسة وسينتصرون !

لقد قال لي احدهم : « اننا سنشعل شمساً جديدة » ؛ وسيشعلون تلك الشمس . « وسنجمع القلوب الحطيمة كلها في قلب واحد » ، وسيجمعون تلك القلوب الحطيمة كلها ... في واحد .

وعادتْ الى ذاكرتها كلمات من صلوات منسية ، فأذكت ايمانها الجديد الذي كان ينبعث في صدرها كالشرر :

— ان ابناءنا الذين يسيرون في سبل العدالة والعقل يحملون حبهم الى الأشياء كلها ، ويرتقون الضياء على كل شيء ، ضياء نار لا يمكن ان تخبو ، نار تنبع من اعماق النفس . ومن هذا الحب الملتهب ، حب ابنائنا للعالم كله ، تولد حياة جديدة . فمن ذا يستطيع ان يطفىء هذا الحب؟ من ؟ وهل هناك قوة مهما سمت تستطيع ان تقهره ؟ ان الارض هي التي انبتته ، والحياة كلها تريد له ان ينتصر الحياة كلها !

وابتعدت عن ليوميلا وقد ارهقها الانفعال ، وجلست لاهثة ، فجلست ليوميلا ايضاً بهدوء وحذر كأنها تخشى ان تحطم شيئاً ما ، ولكنها لم تلبث ان نهضت تتنقل في الحجرة بخطى رشيقة ؛ وهي تركز في البعيد نظرة عميقة من عينيها اللتين خبا فيهما الألق ، وبدت كأنها اشمخ قامة ، واشد استقامة ، واكثر نحولاً . وكان وجهها الهزيل الصارم منقبض الاسارير ، وكانت تضغط شفتيها بعصبية . وهدّأ الصمت المسيطر ، اعصاب الأم بسرعة ، فسألت وهي ترقب ملامح المرأة الشابة ، وسألت بصوت خفيض جبان النبرة :

— لعلني قلت شيئاً ما كان يجب ان اقوله ..؟

فاستدارت ليوميلا بعنف ، ونظرت اليها كالمذعورة ، وسارعت الى القول وهي تمد يدها كأنها تود ان توقف شيئاً ما :

— كلا ... إن ما قلته صحيح ، ولكن ... دعينا من الخوض فيه ، ولنظل كما قلت منذ قليل ...

ثم اردفت وهي اكثر هدوءاً :
– ينبغي لك ان تذهبي باكراً ... فالمكان بعيد ...
– نعم يجب ذلك . آه . لو تعلمين كم انا مسرورة ؟ فسأحمل كلمات ابني ، كلمات دمي ... إنها عزيزة عليّ كروحي .

وكانت تبتسم ، غير انه لم يكن لبسمتها سوى انعكاس باهت على وجه ليوميلا ، وكانت تشعر ان تحفظ السيدة الشابة يضفي على غبطتها شيئاً من البرود ، فعصفت بها فجأة رغبة ملحة ، رغبة في ان تصب من وهجها في تلك الروح القاسية ، وان تشعلها بلهيبها لتهزها هي ايضاً ، تلك الغبطة التي تفعم جوانحها .

واخذت يد لوميلا ، وضغطتها بشدة :

– لكم هو جميل يا عزيزتي ان نعرف ان في الحياة نوراً يهدي الناس جميعاً ، وانه سيأتي اليوم الذي يبصرون فيه هذا النور ، ويعانقونه بكل جوارحهم .

ارتعش وجهها الكبير الطيب ، وتألقت عيناها ، ورفت اجفانها ، كأنها إنما تهب لألق احداقها اجنحة . وبعثت فيها النشوة افكاراً عظيمة ، افكار كانت تولد متنامية الحيوية ، وتزدهر متزايدة الضياء ابداً ، في قلبها الخريفي الذي تنيره القوة الخلاّقة لشمس ربيعية .

– لكأن إلهاً جديداً قد وُلد ، فالواحد للكل ، والكل للواحد . هكذا افهمكم .. انتم الآخرين . إنكم جميعاً ، في الواقع ، رفاق ، وذوو قربى ، وابناء لأم واحدة هي الحقيقة .

وغمرتها من جديد موجة من الانفعال ، فتوقفت قليلاً لتتنفس ، ثم قالت وهي تفتح ذراعيها كأنها تعانق شيئاً ما :

– وعندما اهمس في نفسي هذه الكلمة « رفاق » اسمع في قلبي غمغمة :
« إنهم يتقدمون » !

... ونجحت خطتها ... فاذا وجه ليوميلا يشتعل بلهب غريب ، واذا شفتاها ترتعشان ، واذا بدموع ثقيلة متألقة تنهمر من عينيها .

واحتضنتها الأم بين ذراعيها ، وضحكت بصمت ، وقلبها مفعم بالزهو ،

زهو انتصارها .

وعندما افترقتا ، حدقت ليوميلا في عينيها وقالت بصوت خفيض :
– هل تعرفين كم يُسعد المرء ان يكون معك ؟

— ٢٩ —

... وفي الشارع عصف بها الهواء الجاف البارد ، وشد حنجرتها ، ونقّر انفها ، وحبس انفاسها في صدرها لحظة ، فتوقفت وتطلعت حولها ، فاذا في زاوية الشارع وعلى مسافة غير بعيدة منها ، حوذي يعتمر قبعة من وبر ؛ وعلى مسافة أبعد ، رجل يسير محني الظهر ، يغرق رأسه بين منكبيه ، وامامه جنديٌ يعدو بوثبات سريعة وهو يفرك اذنيه .

وقالت في نفسها :
– لا شك انهم اطلقوا هذا الجندي الصغير في سباق !

ومضت في طريقها وهي تصغي بنشوة الى الصرير الفتيّ الجهور تحت قدميها ، صرير الثلج .

ووصلت الى المحطة مبكرة ، ولم يكن قطارها قد اعُد بعد ، إلا ان صالة الانتظار في الدرجة الثالثة ، هذه الصالة القذرة التي سوّدها الدخان ، كانت تعج بالخلق ، فلقد ألجأ البرد إليها عمال الخط ، وعدداً من الحوذيين ، وسيئي الكسوة الذين لا مأوى لهم ، فجاؤوا يلتمسون فيها بعض الدفء . وكان فيها ايضاً عددٌ من المسافرين ، وبعض الفلاحين ، وتاجرٌ ضخم يلتف برداء من الفرو وكاهن تصحبه صبية مجدورة الوجه ، وخمسة من الجنود أو ستة ، وبعض البرجوازيين الصغار الذين يبدو عليهم الانهاك .

وكانوا جميعاً يدخنون ويثرثرون ويشربون الشاي والفودكا ، بالقرب من المقصف كان احدهم يطلق ضحكة داوية ؛ وكانت سحب الدخان تهيم فوق الرؤوس ؛ والباب يصر عندما يُفتح ؛ ويهتز زجاجه ، ويحدث صوتاً عندما يُصفق ، وكانت رائحة التبغ والسمك المملح تزكم الانوف بشدة .

واتخذت الام مكاناً لها بالقرب من الباب ، مكاناً وجيهاً ، وراحت تنتظر .
وكان كلما دخل داخل تهب معه نفحة من الهواء البارد ينشرح لها صدرها، فتتنفس ملء رئتيها . وكان الناس يتوافدون ، وفي ايديهم رزم ، وعليهم ثيـــاب ثقيلة فيعلقون بالباب ، وهم يلجونه ، فيشتمون ، ويقذفون بحاجياتهم الى الارض او يلقون بها على احد المقاعد ، وينفضون نتف الثلج عن ياقات معاطفهم واكمامهم ، ويمسحونه عن لحاهم وشواربهم ، ويدمدمون ...
ودخل شاب كان يحمل حقيبة صفراء ، فألقى على ما حوله نظرة سريعة ، ثم اتجه مباشرة نحو الام وسألها بصوت خافت :

— الى موسكو ؟

— نعم لزيارة تانيا .

— حسناً .

ووضع الحقيبة بجانبها على المقعد ، وسحب سيجارة من جيبه ، وأشعلها وهو يرفع قبعته قليلاً ثم خرج من باب آخر دون أن ينبس بكلمة .
وداعبت الام بيدها جلد الحقيبة البارد ، ثم اسندت اليها مرفقهـا وراحت تتفحص وجوه الناس مسرورة ؛ وبعد لحظة نهضت لتجلس على مقعد آخر قريب من المخرج الذي يفضي الى الرصيف . وحملت دون عناء الحقيبة التي لم تكن كبيرة، وراحت ، شامخة الرأس ، تحدق في وجوه اولئك الذين يمرون امامها .
واصطدم بها شاب يرتدي معطفاً قصيراً عالي القبة ، ثم ابتعد عنها دون ان يتفوه بكلمة ؛ في حين كانت اصبعه تلامس قبعته . وخيل اليها انها قـــد رأته من قبل ، فاستدارت نحوه ، وكانت عين الرجل الصافية تتركز عليهـا من وراء قبعته العالية ؛ واخترقتها هذه النظرة اليقظة ، فارتعشت يدها التي كانت تمسك بالحقيبة ؛ واحست بحملها يغدو ثقيلا فجأة .
وهمست في نفسها: « لقد رأيته من قبل في مكان ما ! » وكانت تقاوم احساساً كريهاً معتكراً يملأ صدرها ، ولم تشأ ان تحدد ، بكلمات اخرى ، ذلك الشعور الذي كان يهصر قلبها بهدوء ، ولكن بصلف ؛ غير ان هذا الاحســـاس كان يتنامى ، ويتصاعد ليملأ حنجرتها ، ثم فمها ، بمرارة جافية .

وعصفت بها رغبة لا تقاوم في ان تستدير وتلقي الى الوراء نظرة اخرى ، فاذا بالرجل ما يزال مكانه ، يستند تارة الى احدى رجليه ، وطوراً الى الثانية باحتراس وحذر ، وكانت يده اليمنى تندس بين ازرار معطفه ، في حين تستقر اليسرى في جيبه ، فيبدو كتفه الايمن ، وهو في هذا الوضع ، أعلى من الأيسر .
واقتربت متمهلة من المقعد، وجلست بحذر وبطء كأنها تخشى ان تجتث شيئاً ما في داخلها ، واستحضرت لها الذكرى التي ايقظها حدسها الرهيف بالشقـاء ، استحضرت لها هذا الرجل على صورتين : الاولى في الحقول بعد هرب ريبين ، وعلى مقربة من السجن ، والثانية في المحكمة . فلقد رأته فيها الى جانب رجـــل البوليس الذي كذبت عليه وضللته حين دلته على الطريق الذي سلكه ريبين .
وظلت تسائل نفسها لحظة :

— ترى ... هل وقعت في الشرك ؟

وفكرت مرتعشة :

— ربما كنت لم اقع حتى الآن !

ثم اردفت بعد ذلك :

— لقد وقعت !

وتطلعت حواليها فلم تر شيئاً ، وكانت خواطرها تتدفق واحدة بعد الاخرى كالشرر ، ثم تنطفىء في رأسها .

— هل اترك الحقيبة ؟ وامضي في سبيلي ؟

ولكن شرارة اخرى التمعت اكثر تألقاً :

— وكلمات ابني اطرحها في ايدٍ كهذه ؟

وضمت الحقيبة الى صدرها :

— هل انجو بها واهرب ؟

وكانت هذه الافكار تبدو غريبة لها كأنها إنما ادخلت الى رأسهـــا عنوة ؛ وتلذعها ثم تخترق حروقها تلك ، دماغها ، وتحطم قلبها وتفسخه كخيوط محمّرة، وتذلها وتنئيها عن نفسها ، عن بول ، عن كل ما كان من قبل متحداً بقلبها. وكانت

تشعر ان قوة بغيضة تطبق عليها فتصهرها وتسحق منكبيها وصدرها، وتنيخها لتفرقها في رعب مميت ، وكانت عروق صدغيها تنبض ، والحرارة تتصاعد الى جذور شعرها .

ويجهد سريع صلب ، استطاعت ان تخنق كل هذه الومضات الخبيثة الواهنة المسكينة ، وان تسيطر على نفسها :

— عارٌ عليك يا نفسي .

وشعرت بالعزاء يتسرب الى جوانحها فجأة ، فقوت من عزمها وتصميمها :

— لا تكوني عاراً على ابنك ... لا احد يخاف ..

والتقت عيناها بنظرة حزينة رعديدة، وتراءت لها صورة ريبين في لمحة خاطفة، وبدا لها كأن هذه اللحظات القليلة من الحيرة قد عادت فثبتت كل شيء فيها، وراح قلبها ينبض بهدوء اكثر من ذي قبل .

وتساءلت وهي تراقب الجاسوس :

— ماذا سيحدث الآن ؟

وكان هذا قد اومأ الى احد الحراس ثم راح يوشوشه ، وهو يشير اليها بعينه، فرنا اليه الحارس ثم تراجع الى الوراء ، ودنا حارس اخر ، واصاخ بسمعه وقطب حاجبيه ، وكان عجوزاً وقور الشكل ، أشهب اللحيـة والشعر ، وأومأ الى الجاسوس برأسه ثم تقدم نحو المقعد الذي كانت تجلس عليه الأم ، في حين كان الجاسوس يتوارى .

وسار العجوز متمهلا وعيناه الخانقتان تتفرسان بدقة في وجه الام، فانكفأت هذه الى الطرف الآخر من المقعد :

— المهم ألا يضربوني .

ووقف بالقرب منها شامتاً ثم سألها بصوت خافت قاس :

— الى مَ تنظرين ؟

— لا شيء .

— حسناً ايتها اللصة ... لقد بلغت من العمر عتياً وما زلت تمارسين هذه المهنة ؟

ولطمتها هذه الكلمات كصفعتين أليمتين على وجهها ، صفعتين شريرتين داويتين ، خيل اليها كأنهما مزقتا وجنتيها ، واقتلعتا عينيها .

وصاحت بكل قوتها :

— أنا ؟ أنا لصة ؟ إنك تكذب .

واخذ كل شيء يدور في دوامة سخطها، واسكرت الإهانة المرة قلبها، فشدت غطاء الحقيبة الذي لم يلبث ان انفتح ، وصرخت وهي تثب :

— انظر ... انظروا جميعاً .

وانتزعت رزمة من المناشير ، ولوحت بها فوق رأسها ؛ وسمعت من خلال الطنين في اذنيها ، هتاف الناس الذين كانوا يتراكضون من كل صوب .

— ماذا حدث ؟

— هو ذا مفتش سري ...

— ما هذا ؟

— يُقال إنها سرقت ...

— إن مظهرها يوحي الاحترام ... اذا كان لا يوحي البؤس !

وعادت الأم تعلن بصوت داوٍ ، وقد هدأ من روعها بعض الشيء منظر الجمهور المحتشد الذي اكتظ حولها .

— لست لصة . لقد حُكم البارحة على بعض السجناء السياسيين ، وكان ابني احدهم وقد القى فلاسوف خطاباً ؛ هوذا ... إني احمله الى النـاس ليقرأوه ، وليتمعنوا في الحقيقة ...

واختطف احدهم بعض الأوراق من يدها بحذر ، ولوحت هي بالاخرى في الهواء ثم القت بها الى الجمهور .

وتعالى صوت مذعور :

— انهم لن يقدموا لك التهاني من اجل هذا ...

وكانت الأم تلاحظ أنهم يتخطفون الأوراق ، ويخبئونهـا في معاطفهم وجيوبهم ، واحست من جديد انها اشد ثباتاً على ساقيها ؛ فراحت تتحدث ،

وهي اكثر هدوءاً ، وقوة ، وتوتراً ، واشد احساساً بالزهو الذي كان يتنامى في داخلها ، وبالفرحة العارمة التي كانت تلهب جوانحها، تتحدث وهي تنتزع من الحقيبة رزم الاوراق ، فتقذفها ذات اليمين وذات الشمال ، وتلقي بها الى ايد رشيقة نهمة .

— اتدرون لماذا حُكم على ابني ، وعلى كل اولئك الذين كانوا معه ؟ سأقول لكم السبب ، وستصدقون قلب أم وشعرها الأشيب : بالأمس حُكم على قوم لأنهم كانوا يحملون الحقيقة اليكم ؛ اليكم جميعاً . وبالأمس عرفت ان هذه الحقيقة لا يستطيع احد ان ينكرها ... لا يستطيع احد .

وكان الحشد الذي سيطر عليه الصمت يتزايد شيئاً فشيئاً ويتكاثف ويحيط بالأم بحلقة حية :

— الفقر والجوع والمرض ... هذا ما يربحه الناس من عملهم . كل شيء يقف ضدنا ، ويوماً بعد يوم نغرق في العمل طوال حياتنا ، نغرق في الوحل والخديعة في حين يتخم الآخرون ؛ ويتمتعون على حساب شقائنا ، ويستبقوننا كالكلاب في قبضة القيد والجهالة ، لأننا لا نعرف شيئاً ؛ ويستبقوننا في قبضة الرعب لأننا نرهب كل شيء ، ان حياتنا هي الليل... وانه لليل حالك الظلمة .

وتعالت بعض الأصوات :

— هذا هو الواقع .

— سدوا شدقها .

وابصرت الأم الجاسوس وراء الحشد، يصحبه دركيان، فأسرعت في توزيع الرزم الاخيرة ، ولكن عندما غاصت يدها في الحقيبة ، التقت بيد اخرى فيها :

— خذوا .. خذوا ...

وصاح الدركيان :

— تفرقوا ...

واندفعا يبعدان الناس الذين كانوا يرضخون لدفعها مرغمين ، ولكنهم كانوا يحشرونها ويضايقونها بكتلتهم ، وربما كان ذلك عن غير قصد منهم .

وكانت تلك المرأة ذات الشعر الاشهب والنظرة الصريحة والوجه الناضج بالطيبة، كانت تستهوي الناس استهواء طاغياً ، فاذا بهم، وهم الذين عزلتهم الحياة وباعدت فيما بينهم ، ينصهرون الآن في كل واحد ، ويبعث فيهم الحرارة لهب كلامها ، هذا الكلام الذي ربما كان الكثيرون منهم قد سمعوه منذ امد طويل ، ولكن قلوبهم التي أذلتها مظالم الحياة تحس نحوه الآن بظمأ حار مسعور . ولف الصمت اولئك الذين كانوا اقرب اليها من الآخرين ، ولكنها كانت ترى عيونهم اليقظة النهمة ، وتشعر بلهاثهم الفاتر يلفح وجهها .

— اغربي ايتها العجوز .

— انهم يوشكون ان يقبضوا عليك .

— إنها غير هيّابة !

وصاح الدركيان اللذان كانا يقتربان :

— تفرقوا ...

وكان الناس يتموجون متدافعين ، ويتعلق بعضهم بالبعض الآخر ؛ ويخيل للأم انهم على أتم الاستعداد لفهمها وتصديقها ، وكانت تود ان تقول لهم ، على عجل ، كل ما كانت تعرف ، ان تبوح لهم بكل تلك الخواطر التي تحس زخمها ، والتي تتصاعد من اعماق قلبها دونما عناد ، وتتجمع على شفتيها كأغنية ، ولكنها كانت تتحقق بأنكسار، ان الصوت ينقصها ، فصوتها مبحوح، يرتعش ويتمزق.

ان كلمات ابني هي الكلمات الطاهرة ، كلمات فتى انبتته الطبقة الكادحة . انها صوت النفس التي لا يشوبها الفساد، فأعرفوا الرجال النزهاء من جرأتهم !..

ورمقها عيون فتية بحماس ورعب .

وتلقت ضربة في صدرها ، فترنحت ، وهوت على المقعد ؛ وكانت ايدي الدركيين تلوح فوق الرؤوس ، فتلكم اعناق الناس ومناكبهم ، وتنحيهم جانباً وتقتلع قبعاتهم وتلقي بها بعيداً .

وترنح كل شيء امام الأم، وغرق في الظلمات، ولكنها استطاعت ان تسيطر على نفسها ، وان تصرخ بما تبقى لها من صوت :

ـ ليجمع الشعب قواه في قوة وحيدة !

واهوى احد الدركيين بيده الكبيرة الحمراء على عنقها وهزها :

ـ اخرسي .

وارتطم عنقها بالجدار ، ولفّ قلبها ، للحظة ، دخان من الرعب لاذع ، لم يلبث ان بددته حرارة لهبها الداخلي .

وقال لها الدركي :

ـ امشي .

ـ لا تخشوا شيئاً ، فليس هناك شقاء اشد وطأ من ذلك الذي تتنفسونـــه طوال حياتكم ...

وأمسك الدركي بذراعها وشدها بضراوة :

ـ اخرسي ... قلت لها اخرسي .

وامسك بذراعها الثاني دركي آخر ، وسحباها معاً بخطى سريعة .

ـ من يقرض كل يوم قلوبكم ، ويجفف صدوركم .

واندفع الجاسوس امامها ، ولوح في وجهها بقبضته المهددة نابحاً :

ـ ألن تخرسي ايتها العاهرة ؟

واتسعت عينا بيلاجي ، وتطــاير منها الشرر ، وارتجف فكها ، وصاحت وهي تثبت قدميها فوق البلاط الاملس :

ـ انكم لا تستطيعون قتل روح بعثت من جديد .

ـ ايتها الكلبة .

وصفعها الجاسوس على وجهها ، ولعلع صوت شرير :

ـ حسناً فعلت بهذه الجيفة الشمطاء !

وطمس عيني الأم ، للحظه قصيرة ، سائل اسود اللون احمره ، وملأ فمهـــا الطعم المالح ، طعم الدم .

ـ [illegible] حريمها حتى [illegible] الواضحة الصخابة :

ـ لا تضربوها .

ـ ايها الفتيان .

ـ سافل .

ـ اهجموا عليه .

ـ العقل لا يُغرق بالدم !

وكانوا يدفعونها من عنقها وظهرها ، ويضربونها على كتفيها ورأسها فيترنح كل شيء امام عينيها ويدور في دوامة قاتمة من الصراخ واصوات الصفارات ، والعويل ؛ واخترق اذنيها احساس بشيء فيه كثافة ، وصمم ، فملأ حنجرتها ، وسد انفاسها .

ومادت الأرض تحت قدميها ، وانشقت ، وتقوست ركبتاها ، واختلج جسدها تحت وطأة الألم ، ثم تثاقل ، وترنح ، خائر القوى ، ولكن عينيها كانتا تلتمعان ابداً وترنوان الى عيون اخرى تشتعل بنـــار باسلة عنيفة كانت تعرفها جيداً ، نار غالية على قلبها .

ودفعوها من الباب ، فأنتزعت احدى يديها من وثاقها وتمسكت بشيء ناتىء :

ـ انكم لن تخنقوا الحقيقة في اعماق بحار من الدم ...

وسقطت على يدها ضربة .

ـ يا لكم من مجانين. انكم لن تراكموا الا الحقد ، وسينصب هذا الحقد عليكم.

وامسكها دركي من عنقها ، واخذ يضغط ، فحشرجت :

ـ يا للأشقياء ...

ورد عليها احدهم بشهقة .